خولة حمدي

نار بلا شرار

حجر الشمس

III

مكتبة كيان

KAYAN PUBLISHING

رواية

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

نار بلا شرار

حمدي، خولة.
نار بلا شرار : رواية /خولة حمدي

تصحيح لغوي : حسام مصطفى إبراهيم.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2026.
448 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-328-8
ا- القصص العربية.
أ- العنوان : 813
رقم الإيداع : 34469 / 2025
الطبعة الأولى : يناير 2026.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

مكتبة
t.me/soramnqraa

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: **0235918808**
هاتف محمول: **+201000405450 – +201001872290**
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.

خولة حمدي

نار بلا شرار

رواية

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1)

اليوم الأوّل بعد الستّين

مكتبة

لم يتوقّف المطر.

استمرّت روان تُحدّق في الجوّ العاصف من خلال نافذة مقصورتها وقلبها ينتفض في صدرها. حين استيقظت منذ ساعات، ألفت نفسها وحيدة في غرفة ضيّقة شبيهة بتلك التي شغلتها حين احتجزها مايك راسل على متن «الأسطورة» الغارقة.

أدركت منذ اللحظات الأولى أنّها خُدعت، وأنّها مستمرة في الابتعاد عن «آرا» في كلّ لحظة تحت سماء غاضبة وفي خضم عاصفة هوجاء. لا تعرف شيئًا عمّا حلّ بالآخرين.. آدم الذي مضى ليتفاوض، وأوران الذي لبث برفقتها لحراسة الأسرى، والحرّاس الذين رافقوهم في مركب ثانٍ. لا تعرف إن كانوا داخل بعض الزنازين العائمة مثلها، أم أنّهم خُلِّفوا في عرض المحيط. لا تعرف ما الذي يريده خاطفوها منها هذه المرّة، وخاصّة إلى أين تمضي بتلك السّرعة المجنونة!

يتغيّر المشهد في الخارج، يتبدّد الضّباب تدريجيّا وتصبح الظلّة سرابًا يتراءى لعينيها ولا تبصره حقيقة، إلا أنّ المطر الغزير لا يزال يصل البحر بالسّماء مثل حبال شفيفة يزاحم بعضُها بعضًا بلا هوادة. يتأرجح اليخت من تحتها ويهتزّ، ثمّ يميل بخطورة على جانبيه. بالأمس سقطت عن سريرها في أثناء النّوم، تسقط الأشياء غير الثابتة من حولها وتتراقص داخل فضاء الغرفة، وهي تجد صعوبة في اعتياد حركة البحر العشوائيّة.

t.me/soramnqraa

لكنّ أحدًا لم يأت لرؤيتها.

لم تكن معصوبة العينين أو مقيّدة الكفّين، إلا أنّ بابها موصد، حاولت مرّات أن تتغلّب على القفل فغلبها، حتّى النافذة الصّغيرة منيعة وعصيّة على محاولات الاقتحام. يعرف سجّانوها أنّها مهيضة الجناح لا قدرة لها على الإتيان بمعجزات التّسخير، لذلك لم يُسحب منها حجرها، ذلك الحجر الذي يتدلّى من سلسلة معدنيّة أهداها إيّاها قرينها منذ أيّام في حفل زفافهما!

تبدو تلك اللّيلة الهانئة بعيدة وغائمة مثل حلم جميل، تتلاشى من ذاكرتها اللّحظات المتوتّرة لخلافهما العابر وتحتفظ بالدّفء الذي رافق جلسة الأرجوحة والألق الذي تفجّر في السّماء مع انفجار النّجوم وآدم يسحب خيطه الحليبيّ، والكلمات العذبة التي جرت على لسانه داخل الكهف. يحتضن فؤادها نتف السّعادة التي حظيت بها رغم سطوة مشاهد الدّمار والقتل التي تخلّلتها.

والآن، لا تعرف إن كانت سترى أيًّا من تلك الوجوه الحبيبة ثانية أم لا! تختنق العبَرات في حلقها ويسيل أنفها ويستمرّ قلبها الصّغير في انتفاضه.. ما الذي تفعله «مهافيا دياما» بأمثالها من أهل «آرا» الغرباء عنها؟

عاد أوران مختلفًا. لم يعد أوران الذي عرفته طيلة حياتها، نظرته إليها مختلفة، حركاته فيها ارتباك ساذج وتخبّط مثير للشفقة، لم يعد «المُسخِّر الأرعن» كما يُطلق عليه آدم، صار هادئًا ووديعًا أكثر ممّا يجب لمسخِّر. وقد أدركت أنّ تغيّره بسبب الغريبة المترجمة، ابنة مايك راسل. تحزر ذلك من النّظرات الصّامتة التي كانا يتبادلانها على متن القارب الذي نقل جمعهم إلى عرض المحيط.

ما الذي فعلوه بأوران؟ وهل سيفعلون بها شيئًا مماثلًا؟ هل تصبح شخصًا آخر إذا مكثَت يومًا، أسبوعًا، أو شهرًا بعيدًا عن موطنها؟ يملؤها الخاطر فزعًا، فيستبدّ بها الهلع.. يجب أن تعود! يجب أن تعود!

وقفت بخطوات مترنّحة، تُحبط محاولات توازنها حركةُ السّفينة غير الثابتة. بجمع يدها أخذت تخبط الباب بعنف، بعد أن استنفدت محاولات كسر مخرج الغرفة، لكنّ عواء العاصفة بالخارج حجب نداءها الصّاخب، أم لعلّ خاطفيها تعمّدوا التّجاهل. قرقر بطنها المشدود من الجوع، إنّهم يتجاهلون هذا أيضًا، حاجات جسدها الطبيعيّة، أم تراهم يستخدمون الصوم القسريّ لكسر إرادتها!

استمرّت تُكيل الضّربات للباب الخشب دقائق، قبل أن تتناهى إليها حركة على الجانب الآخر. توقّف صراخها وأصاخت السّمع، ثمّ ما لبث الباب أن فتح لتجد قبالتها الشّابة الصّهباء. تراجعت خطوة داخل الغرفة، فعبرت مانويلا الفتحة قبل أن تسمع القفل يوصد عليهما معًا من الخارج. حدّقت في ضيفة مقصورتها بتردّد وشكّ، فرسمت مانويلا ابتسامة صغيرة وهي تقول بمرارة:

- هل تمانعين في بعض الرّفقة؟

وقفت روان وسط الغرفة الصّغيرة بتململ، تجاهد لتثبّت قدميها على الأرضيّة المائلة، فيما اتّجهت مانويلا مباشرة نحو السّرير لتجلس على طرفه. لاحظت روان أنّها تحمل بين يديها شيئًا ما؛ طعامًا ربّما، لكنّه لم يكن طعامًا مألوفًا لديها. قالت مانويلا وهي تدفع الصّندوق المغلق تجاهها:

- أنت جائعة؟ لم يطعموك أليس كذلك؟ جرّبي قطعة من البسكويت.

لا تعرف روان ما البسكويت، ورغم جوعها لم تمتدّ يدها إلى الصّندوق الغريب المغلّف بألوان زاهية. مضت لحظات من السّكون قبل أن تنطق مانويلا ثانية:

- أنا في جانبك.. لا تقلقي!

علت ملامح روان أمارات عجب وعدم استيعاب، عن أيّ جانب تتحدّث؟ كيف تكون هي والأسيرة على جانب واحد؟ ليس هناك من سبب واحد يجعلهما تقفان على الجانب ذاته، فقد انتمت كلّ منهما إلى شقّ معادٍ منذ اللحظة الأولى للقائهما على «الأسطورة»، لكنّ الصّهباء تهذي.. أم لعلّها تلك الكلمات ذاتها التي تسلّلت إلى لبّ أوران فسحرته!

- أنا سجينة مثلك على هذه السّفينة.. لكنّني أحظى بامتيازات خاصّة. يمكنني على الأقلّ أن أختار الزّنزانة التي أرغب في البقاء بها، أو أن أتنقل بين زنزانة وأخرى! والوصول إلى الطعام متاح لي أيضًا...

كانت في لهجتها سخرية لاذعة، لكنّها مؤثّرة بطريقة ما. بالنّظر إلى الباب الموصد عليهما، تعتبر كلتاهما سجينة الغرفة ذاتها، لكنّها لا تأمن الخديعة.. اكتفت روان بالنظرات الصّامتة والسّحنة السّاكنة ولم تبد أيّ تفاعل مع تصريحات مانويلا المثيرة للريبة. إلا أنّ الصّهباء عادت لتهمس بحزم:

- يجب أن نجد وسيلة للعودة!

- العودة؟

أومأت مانويلا بحرارة حين نطقت روان أخيرًا.

- أنت تريدين العودة؟ إلى «آرا»؟

أومأت مانويلا ثانية ثمّ ضحكت للتعابير الغريبة التي ظهرت على قسمات روان.

- إنّها الحقيقة، أقسم لك!

فكّرت روان بأنّ الشابة الصّهباء ليست مضطرة للكذب عليها، وأيّ فائدة ترجو من خداعها الآن؟ لقد أُسرت وانتهى الأمر. ربّما تحاول كسب

ثقتها واستمالتها فتمتنع عن المقاومة، لكنّها ستفيد منها بدورها إذا عرفت كيف تصل إلى ما تحتاج إليه من معطيات منها. قالت بحذر:

- هل هناك طريقة للعودة؟

***

فتح آدم عينيه بصعوبة، فشعر على الفور بالرّطوبة التي التصقت بجلده، ما زال يرتدي ثوب زفافه المصبوغ بالأحمر المصنوع بأيدي سيّدات الجزيرة الموشّى برسوم الـ«آم» التقليدية، والذي غدا مجعّدًا مثل خرقة بالية. استند إلى مرفقيه بعناء ليغادر سريره، فسرت موجة ألم في جسده كلّه.

عاد ليستلقي وهو يزفر في إعياء. أسبل جفنيه، فتسلّلت إليه نقرات الماء على سطح الكوخ وفوق أديم الأرض.. إنّها تمطر، يهدهد صوتها الرّتيب حواسّه ويغريه بالنّعاس، قبل أن تسحبه موجة غفلة جديدة، دوّت صافرات الإنذار في رأسه، ثمّ استعاد وعيُه تفاصيل اليوم الماضي.

تذكّر! لقد حطّم سفن مايك راسل الثلاث الرّاسية على حدود الظلّة، صنع إعصارًا مدمّرًا بنفسه، استدعى خيوط المُسخِّرين كلّها وسحبها دفعة واحدة.. كما يجدر بالمخلّص خليفة الـ«نافيا»!

وروان.. اختفت!

شعر بقبضة قاسية تعتصر صدره. يعاني جسده التأثير العكسيّ لفعل التّسخير، تتضاءل الطاقة داخله إلى أدنى مستوياتها، وكيف لا تفعل وقد فعل ما فعل! ربّما استسلم لنوم طويل منذ الأمس. إنّ آخر ما يذكره هو وقوفه وسط المحيط على ظهر الأوركا، محاطًا بزمرة المُسخِّرين الشبّان المحرّرين. لا شكّ أنّ مروان قد أعاده إلى اليابسة، وهو يرقد بلا حراك منذ ذلك الحين. لعلّ جدّته مارتا قد أولته عنايتها وتولّت مهمّة علاج جروحه الظاهرة وتلك التي يخلّفها اندفاع طاقة الـ«مادرا» عبر جسده.

سيبرأ جسده ويستعيد طاقته خلال ساعات أو أيّام على الأكثر، لكنّ الألم في صدره سيستمرّ حتّى يجدها. تحامل على نفسه متجاهلًا أوجاعه ليقف حتّى انتصب جذعه، لم يكن قد خطا بعد حين ظهر مروان عند المدخل، ثنى قامته الفارعة ثمّ استقام برشاقة ليواجهه، خرج صوت آدم مبحوحًا:

- روان؟

فحرّك مروان رأسه يمنة ويسرة في وجوم. لا خبر عن المعالجة بعد.

- إنّهم في انتظارك..

لم يستفسر آدم عمّن ينتظره، ربّما يكون الحكماء الذين يترقّبون يقظته لمعاينة وضع الجزيرة وسكّانها وترتيب الحياة اليوميّة للـ«آم» في موسم الأمطار الذي باغتهم وهم له غير مستعدّين، وربّما المُسخِّرون الشبّان الذين فقدوا معلّميهم خلال المعركة الأخيرة وأضحوا بلا قيادة حكيمة تنظّم صفوفهم.. وربّما الشعب بأسره، تتعلّق آمالهم بالمخلّص الذي دحر الدّخلاء، يتبرّكون بلمسته ويتشرّفون بمرآه، ربّما يحتاج إليه كلّ هؤلاء وغيرهم!

لكنّه يحتاج إليها هي!

تجاهل الحشود التي تجمّعت تحت المطر تتحيّن موعد ظهوره، لم يرفع بصره إليهم ولم يكلّف نفسه عناء إلقاء التحيّة والرّدّ على الهتافات، بل جرّ قدميه المتعبتين متدرّجًا في اتّجاه المنحدر، فيما تنقر قطرات الماء على رأسه وكتفيه لتغرق ثوبه المبتلّ أساسًا. هرول مروان خلفه رافعًا مظلّة صنعت من عرائش النّخيل لتقيه المطر.

- إلى أين؟

دمدم بصوت شبه مسموع:

- يجب أن أجدها!

- أنت لم تأكل شيئًا.
- لستُ جائعًا.

زمجر بطنه بصوت مكتوم احتجاجًا على كذبته، لكنّ خطواته الكئيبة لم تتوقّف. يسحب جسده بجهد، والطريق ممتدّ وبعيد حتّى الشاطئ، تغوص قدماه الحافيتان في برك الماء والوحل، غير أنّه يستمرّ مدفوعًا بعزيمة لا يدرك مأتاها. مشى مروان خلفه في صمت دون أن يجرؤ على المقاطعة، واكتفى بحمايته من المطر وهو يسير إلى جواره مثل ظلّه.

كان آدم مكدودًا، ولم يرغب في الحديث، فكلّ تركيزه منصبّ على خطوة قدميه التالية، إلا أنّه أشفق على الصبيّ الذي أصبح مرافقه الدّائم منذ موقعة «الأسطورة». ربّما يشعر الولد بالمسؤوليّة تجاهه، وربّما لا يزال يحتلّ مكانة القدوة والمعلّم في فؤاده، خاصّة بعد أن رحل المعلّمون كلّهم.

اعتصر الألم صدره لذكرى نوح -معلّمه- فتهدّجت أنفاسه وهو يسعى على الطريق الطينيّة الزّلقة خطوة وراء خطوة، لكنّ الجهد والمشقّة آتيا أكلهما أخيرًا، حين بلغ موضعه المعتاد على الشاطئ. توقّف وهو يلهث حيث سبق وكان له برفقة نوح جلسات ولقاءات، وحين استقرّت أنفاسه أرسل الصفير الذي علّمه إيّاه باتّجاه البحر.

تاهت النغمة وسط ضجيج الطّبيعة الباكية، وظنّ لوهلة أنّ الحوت لن يستجيب. مرّت دقائق طويلة، ثمّ تراءت زعنفة لولا فوق سطح الماء العكر فتهلّلت أسارير آدم. قال لمرافقه:

- لا تتبعني!

ثمّ غاصت قدماه في الماء ليستقبل الأوركا الوديعة. امتطى ظهرها بصعوبة، وأناخت لولا جسدها الضخم لتيسّر له المهمّة كأنّها شعرت بما يعانيه. حين استقرّ فوقها، استدار نحو مروان فيما تبلّل الأمطار وجهه وسائر جسده:

- سوف أجدها!

ثمّ استعدّ للغطس.

***

زحف نايت على الرّمال الفضيّة بمشقّة، ينهمر الماء فوق رأسه وجسده وتتقطّع أنفاسه فيما يجاهد لينتشل جسده من فخّ الماء المحكم. أمضى يومًا وليلة يتخبّط وسط الموج، يتشبّث بلوح معدنيّ انفصل عن جسد السّفينة «سارا» الغارقة. رأى رجاله من حوله يطلقون صرخات الاستغاثة، يقاومون العاصفة ثمّ تبتلعهم الأمواج وتخنق صيحاتهم، وعانى الجوع والإرهاق حتّى كاد يدركه اليأس. فغر فاه من حين إلى آخر لينهل من ماء المطر العذب ويُسكت عطشه، واستمرّ يجدّف بذراعيه بلا وجهة.

ثمّ لاحت له اليابسة من بعيد.

أيقن ألا مهرب له إلا اللّجوء إلى «آرا»، وهو غير مرحّب به، محاط بعيون عدائيّة ونوايا تبيّت الشرّ، إلا أنّه لا يملك الخيار. لا وجود لأرض أخرى لأميال وأميال لا حصر لها ولا عدّ في وسط المحيط الضبابيّ مترامي الأطراف، والعاصفة لن ترحمه.

زحف بلا توقّف حتّى ظلّلته أشجار الغابة ذات الأغصان المتشابكة والأوراق الكثيفة فاستسلم للنّعاس بضع ساعات، قبل أن يوقظه الجوع. لم يتحرّك إلا قليلًا، امتدّت أصابعه ليقبض على الأوراق الدّاكنة المتدلّية من الجذع الذي استند إليه وأخذ يلوكها بنهم. تلك الأوراق التي أجبر السكّان على استهلاكها في الأيّام الماضية فيما يستحوذ هو ورجاله على مخزونهم من الحبوب والسّمك المجفّف، سيضطرّ إلى العيش عليها بعض الوقت. ازدرد العجين الحامض دون أن يرفّ له جفن، ثم أتبعه بقبضة ورق أخرى، فأخرى. يحتاج إلى أن يزوّد عضلاته بالطاقة ليصمد وينجو.

أبقته تجربته العسكريّة الخشنة هادئًا وثابت الجنان، يمكنه التّعامل مع أسوأ من هذا، حدّث نفسه. لقد خاض حروبًا حقيقيّة وعاد سالمًا، وسيفعل هذه المرّة أيضًا.

بعد برهة لا يدري مداها، كان جاهزًا للاعتماد على ساقيه. وقف بجهد ثمّ أرسل بصره نحو الشّاطئ يستطلع لعلّه يبصر ناجين آخرين اهتدوا مثله إلى اليابسة أو قذفت بهم الأمواج. بعد دقائق من التفرّس، أخذ يميّز جسدًا ساكنًا بلا حراك، أدرك رجلًا ثمّ آخر.

سيسحبهما واحدًا إثر الآخر إلى وسط الغابة قبل أن يُحاول إسعافهما. سيُمضي ساعات يضغط على الصدور براحتيه ويدفع الماء خارج مجرى الهواء، فلا ينقذ أحدًا. ستتقرّح كفّاه وتتصلّب عضلاته دون أن يعيد أيًّا منهما إلى الحياة. بعد ذلك، سيتعلّم أن يوفّر جهده ويُحسن اختيار المستفيدين من محاولاته: أولئك الذين لم يحصلوا على عقار الحماية من مناخ الجزيرة لا فائدة من إنقاذهم. هل يعيدهم إلى الحياة لتفتك الـ«مادرا» بهم خلال ساعات؟ ربّما يكون الموت الفوريّ والهادئ أفضل لهم.

سيحفر القبور المتجاورة ويدفنهم في صمت، ثمّ يقف عاجزًا لا تتحرّك شفتاه بصلاة أو دعاء. ثمّ، حين يحلّ المساء الكئيب، سيبكي وحيدًا.

(2)

اليوم الثاني بعد الستّين

تصلّب أوران في مكانه وتأهّبت عضلاته حين دار المفتاح في قفل الباب، تعلّقت عيناه بالمدخل في تحفّز وتوتّر، ثمّ لانت ملامحه حين أسفرت الفرجة عن جسد مانويلا الضئيل وخصلاتها الحمراء المشعثة، إلا أنّه لم يُسقط دفاعاته بعد. على عكس جارته المعالجة، كان معصماه مقيّدين خلف ظهره بسلك معدنيّ قاسٍ يسحج جلده كلّما حاول التملّص، كما أنّ مساحة تحرّكه محدودة داخل الزنزانة، بسبب السلسلة التي تربطه إلى ماسورة معدنيّة في الزّاوية البعيدة. لذلك لم ينهض لاستقبال الزّائرة واكتفى بتفحّصها بنظرات صامتة.

اقتربت مانويلا حتّى صارت على بُعد خطوتين من مجلسه على السّرير، تأمّلت سحنته بنظرة حانية، ثمّ همست:

- هل أنت بخير؟

أوقف أوران الحركة اللا إراديّة التي أوشكت أن تصدر عنه، أراد تلقائيًا أن يطمئنها إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام من ناحيته، إلا أنّ الوضع الذي انتهيا إليه ليس على ما يرام أبدًا. قد لا يكون مصابًا أو يعاني ألمًا جسديًّا ذا بال، غير أنّه مقيّد ومحبوس في سفينة تابعة لوالدها تأخذه بعيدًا عن موطنه.. مرّة أخرى!

لا يُفترض به أن يشعر بالارتياح أو أن يلين جانبه، إلا أنّه يفعل، ويكره عقله الواعي أنّ لا وعيه يرسل إشارات سلام غير مرغوب فيها. لذلك

أحجم عن الحركة أو الكلام وراقبها في سكون، ريثما يصل إلى نوع من التّناغم بين شقّيه المتنازعين.

جلست مانويلا على طرف السّرير وطأطأت رأسها خجلة. قالت دون أن تنظر إليه:

- أعلم.. ليس هذا ما وعدتك به، حين كنّا في طريقنا نحو الجزيرة.

تقلّصت ملامحه في ضيق، أراد أن يخبرها أشياء كثيرة وهي تودّعه على سرير المرض في غرفة معالجة الجزيرة، وحين كان يصحبها إلى سفينة والدها لمبادلة الأسرى، كم أنّه قد رغب أن يتكلّم في تلك المواقف لكنّ لسانه لم يسعفه بعبارة واحدة.. لكنّه الآن، وهو يملك كلّ الوقت، يلوذ بالصّمت الذي كان رفيقه خلال الأيّام التي أمضاها في شقّة صاحبتها الباحثة. مرّة أخرى، يتركها تتحدّث، ويصوم عن الكلمات بإباء وترفّع.

- لم أرد أن أغادر.. لم أرغب في ترك الجزيرة. لقد أحببت «آرا».. وأهلها.

جاءت الكلمة الأخيرة بصوت خافت ذي نبرة اعتراف منكسرة. لم يميّز من تقصد بـ«أهلها»؟ المعالجة التي أعادت إليها الحياة ربّما؟ يشكّ أنّها قد التقت كثيرين في فترة نقاهتها بالمشفى، أو أنّ من التقتهم قد يظهرون أيّ نوع من الودّ تجاه ابنة القاتل الذي أعمل في القرية حرقًا وفي النّفوس ذبحًا. لا يعتقد للحظة واحدة أنّها ستكون محلّ ترحاب من السّكان الذين يعتبرون والدها عدوّهم الأوّل.

فمن تقصد بأهلها، إن لم تكن.. تعنيه هو؟

انكمش غريزيًّا وقد خشي أن تصل إليها أصوات الطبول الصّاخبة التي تقرع صدره، أو أن تشي بانفعاله حمرة الدّماء التي اندفعت نحو وجهه، لكنّها لم ترفع رأسها بعد. استمرّت تحدّق في أناملها التي تتعانق بتوتّر في حجرها وهي تقول:

- أنا آسفة.. إن كان الاعتذار يعني شيئًا.

أشاح ببصره نحو النافذة الدّائريّة التي تشفّ عن المشهد العاصف بالخارج. عن نفسه، لا يحتاج منها إلى اعتذار، فهو يدرك أكثر نقاء سريرتها. يغفر لها بلا تردّد، لكنّه يشكّ في تسامح قومه. أدرك في تلك اللّحظة أنّه قد غفل في خضم تدافع المشاعر أن يستفسر عمّا حلّ بآدم وروان ورفاقهم على مراكب الصّيد. سحب نفسًا بطيئًا ثمّ زفره بهدوء، يحتاج إلى أن يتمالك نفسه ويسيطر على أعصابه التي يعبث بها حضورها إلى جواره.

لا يتعلّق الأمر به وبها وحدهما، بل تضمّ المعادلة أطرافًا كثرًا.

كان الصّمت قد طال بضع دقائق حين عادت تستأنف حديثها أحاديّ الجانب:

- سأجد طريقة ما.. للعودة!

استحوذت كلماتها على انتباهه فالتقت عيناه بعينيها في تحفّز.

- أنا أعمل على ذلك.. ثق بي، سوف ترجع السّفينة أدراجها.

بقي وعدها معلّقًا في الهواء بعد أن غادرت الغرفة.

سمع المفتاح يدور في القفل مرّة أخرى بعد أن أغلق الباب خلف قامتها الهزيلة. حدّق في الفراغ طويلًا بعد رحيلها، حيث جلست وحيث تلفّظت بكلماتها التي لم تحصل على ردّ أبدًا، ثمّ ابتسم لنفسه.

***

حين غادرت غرفة أوران لمحت الدّكتور كريس وهو يغلق باب مقصورة والدها، تجاهلت مانويلا نظراته العابسة واستدارت لتمضي في سبيلها، إلا أنّه تبعها حتّى مقصورتها وكلاهما يتشبّث بالجدران الجانبيّة بحثًا عن التّوازن، وحين همّت بإغلاق الباب أمسك الدّفة بقوّة ثمّ دلف إلى الدّاخل إثرها.

التفتت لتواجهه في استياء، لا تحبّ الطّريقة التي يتدخّل بها في شؤونها، وإن كانت ممتنّة حقّا لمساهمته في إقناع والدها في وقت سابق ببقائها في الجزيرة للعلاج، إلا أنّه منذ وقعا في أسر السكّان لا يتوقّف عن إلقاء اللائمة عليها.

- هل يعرف والدك أنّك تمضين وقتك مع السّجناء؟ بالأمس المعالجة، واليوم المُسخِّر!

لوت مانويلا شفتيها في امتعاض، هؤلاء الرّجال يأتمرون بأمرها ويعاملونها معاملة السيّدة التي يصغون إلى تعليماتها دون تفكير، فقد ثبت أنّها تمثّل والدها وتتخذ القرارات باسمه حين يتطلّب الأمر، لذلك لا يسائلها أحدهم.. خاصّة ومايك طريح الفراش. ما عدا كريس، فإنّه يعتبر نفسه شخصًا مستقلًا، لا يدين بالولاء لأحد ويجد متعة في التشكيك في القرارات كلّها. أرادت أن تلقي سبّة في وجهه، أن تذكّره بالاكتفاء بأداء واجبه الطبيّ، وأنّ ما تفعله أو لا تفعله ليس من شأنه، إلا أنّه سبقها بقوله:

- لم تسأليني كيف هو اليوم؟

هزّت كتفيها ثمّ قالت ببرود:

- أعرف كيف هو.. لقد مررتُ بالأعراض ذاتها، ألا تذكر؟

منذ ركوبهم اليخت لم يتوقّف والدها عن التقيّؤ، سحنته شاحبة والبثور تعلو بشرته، والآن ارتفعت حرارته وانتابه الهذيان. يلازمه كريس معظم الوقت، لكنّه لا يملك شيئًا من أجله، تمامًا كما عجز أمام حالتها. تشكّ أنّه يعاني ردّ فعل تحسّسي متأخّر.. تمامًا كما حدث معها. أردفت بغضب:

- ألا يجدر بك مساعدتي على إقناعه بالعودة أدراجنا إلى الجزيرة؟ أنت تعرف مثلي أنّ شفاءه بيد المعالجة، لكنّك تُكابر.. مثله!

قال كريس بعناد:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إذا مضينا بوتيرة كافية فسنصل في الوقت المناسب إلى الحضارة.. وهناك سيحصل على علاج حقيقيّ!

حرّكت ذراعيها في الهواء في انفعال.

- أنت لا تفهم.. لن يملك وقتًا كافيًا، سيعجز الطبّ الحديث عن عمل أيّ شيء من أجله، وحينها سيكون قد فات الأوان للعودة إلى الجزيرة!

عدّت على أصابعها:

- لقد فصلت أيّام خمسة بين ظهور الأعراض الأولى عليّ وتدهور حالتي نحو الموت البطيء.. لو أنّ والدي لم يقتنع بأخذي إلى المعالجة، لكنتُ الآن في عداد الأموات!

- ابدئي العمل إذًا على إقناع المعالجة الشابّة بمساعدته!

هزّت رأسها بقوّة:

- ليستا متماثلتين! إنّها مجرّد شابّة عديمة الخبرة، وهي بعيدة عن موطنها حيث الـ«مادرا» التي تستمدّ منها هبتها.. ثمّ سنحتاج إلى الأحواض السّاخنة والأعشاب والدّفتر.. وكلّ ما استخدمته السيّدة مارتا من أجلي!

- الدّفتر؟

- إنّه دفتر وصفات طبيّة ما.

قال في تهكّم:

- وهل تحتاج معالجة الجزيرة إلى أن تقرأ في دفترها لتعرف طريقة العلاج؟

تجاهلت مانويلا سخريته وعادت تقول في إلحاح:

- إذا لم نصل إلى الجزيرة خلال ثلاثة أيّام فسيكون الوقت قد مضى!

- سنصل قبل ذلك إلى الحضارة.

قاطعته بحدّة:

- هل يعرف الربّان أين يمضي في هذه العاصفة؟ أشكّ بأنّنا قد نصل إلى أيّ مكان في القريب!

مال اليخت بقدر خطر في تلك اللّحظة مؤكّدًا مخاوفها، فترنّح كلاهما في مكانه ثمّ ارتفع صرير معدن عنيف من الطبقة العلوية. تبادلا نظرة متجهّمة، ثمّ اعتذرت مانويلا:

- سأذهب لتفقّد الوضع.

استدارت نحو كريس وقالت بلهجة جادّة:

- إذا لم يفق والدي من غيبوبته قبل المساء، سأستلم زمام الأمور. سيكون على الرّبان أن يمتثل لإرادتي، وسأفعل ما أراه مناسبًا.. لإنقاذ والدي.

بادلها الدّكتور كريس نظرة صامتة ولم يعقّب.

***

ستة.. ذلك عدد الرّجال الذين تمكّن من إنقاذهم من الغرق.

من بين أربع وعشرين رجلًا تلقّوا اللّقاح، نفق تسعة خلال المواجهات مع السّكان المحلّيين، نجا مايك راسل بنفسه، فيما غرق سبعة آخرون خلال العاصفة.

يحسب نايت أنّه كان محظوظًا. كم كان عدد النّاجين من حادثة التيتانيك؟ ليس واثقًا، لكنّه يقدّر أنّ النّسبة قليلة مقارنة بمن نجا من رجاله. لم تكن مياه «آرا» متجمّدة على الأقلّ، ولم يمت أحد بردًا. حتّى العاصفة التي لم تتوقّف منذ أيّام كانت بلاءً في ظاهرها ونعمة في باطنها، أولم تكن مزاريب السّماء المتدفقّة باستمرار مصدر مياه الشّرب للرّجال العالقين في عرض البحر لأيّام؟

دأب على مراقبة الشّاطئ منذ استعاد عافيته، يتنقّل بطوله وعرضه ويذرع مساحات شاسعة بعد أن صنع مظلة عريضة من عرائش النّخل. لم يكن ضليعًا بفنون الملاحة ولا خبيرًا بحركة المدّ والجزر، لكنّ الأمواج كانت تدفع القوارب والأطواف والأجساد نحو ذلك الجزء من الجزيرة غالبًا. لو أنّ أحدًا من رجاله كان لينجو، فمن المرجّح أن يتمكّن من العثور عليه في وقت قياسيّ.

ترك خمسة آخرين يموتون. وصلت أجسادهم ساكنة ومنتفخة إلى الشاطئ، يكاد يجزم أنّ تأثير الـ«مادرا» قد قضى عليهم قبل وصولهم إلى اليابسة. تظهر الأعراض مبكّرًا، ما إن يقتحم الغرباء نطاق الظلة، لذلك فإنّ الأيّام التي قضوها تائهين وسط البحر أتت على مناعتهم.

يتنفّس بارتياح كلّما شرعت الأنفاس تتردّد في صدر أحدهم بعد أن يسحب شهيق الحياة الأوّل، فالنّجاة على الجزيرة وحيدًا لم تكن خياره المفضّل. لقد قاوم كآبة اللّيلة الأولى بعد أنّ حدّق طويلا في الأمواج المتلاطمة التي تحاصره من جهة والأشجار الكثيفة التي تخفي الخطر المترصّد من الجهة الأخرى. للبقاء طعم الأمان والدّفء في وجود الرّفقة.

لكنّه يستمر متسائلًا: *ماذا بعد ذلك*؟

ماذا بعد أن ينقذ الرّجال ويطعمهم ويضمّهم إلى مخبئه داخل الغابة؟ يظلّ يتلفّت في توتّر متوقّعًا هجومًا مباغتًا من طرف المُسخَّرين الغاضبين القادمين من عمق الأدغال. هل انتهت الحرب القائمة بفرار مايك راسل؟ أم أنّ السكّان سيثأرون من اختطاف المعالجة والمسخّر ويقتصّون من المتخلّفين؟

إن كان يريد النّجاة، فعليه أن يعلن الاستسلام ويرفع راية السّلام.

فليكن واقعيًا، لا سفينة في الأفق ستنقله إلى موطنه، ولا يعلم كم من الوقت سيطول مكوثه على الجزيرة. وقبل أن تتوقّف الأمطار لن يتمكّن

من عمل شيء على الإطلاق. بين ساعة وأخرى، ييمّم وجهه شطر الأجمات الكثيفة، يرفع ذراعيه عاليًا ويهتف:

- هاي! إن كنتم تُراقبون، فنحن لا نريد سوءًا.. نريد فقط العيش!

إلا أنّ هتافاته لم تلق إجابة قطّ.

(3)

اليوم الثالث بعد السّتين

سحب آدم قدميه حتّى الشّاطئ، ثمّ تسلّل بهدوء نحو هيكل الحوّامة الرّابضة منذ شهرين مثل كومة الخردة. أثقل الماء ثيابه وخطواته وأرهقه طول الغطس والهيمان بلا وجهة على ظهر الحوت. لم تعترض لولا ولم تتذمّر رغم تعنّته وتطلّبه، استمرّت تستجيب لهمساته ولمزاته وتأخذه حيث يريد تحت السّماء العاصفة. لم يعد إلى الشاطئ إلا بعد أن تسلّل إليه اليأس: لقد ابتعد اليخت لا محالة، وهو لا يملك اللّحاق به بأيّ وسيلة، لا يعرف في أيّ اتّجاه عليه أن يمضي، ولا أيّ السّبل يجب أن يسلك.

حين عاد إلى اليابسة أخيرًا منهكًا وخائر القوى، هداه التّفكير إلى مسار آخر. ربّما لن يعثر على اليخت، لكنّه قد يتمكّن من الاتّصال به على الأقل!

لم تكن خطّة متماسكة وموثوقة، بل مجرّد قشّة هشّة يتشبّث بها حتّى لا ينشطر فؤاده حزنًا. لا يضمن أن يُجيب مايك راسل الاتّصال، ولا أن يُجدي الحديث إليه أو يسفر عن تطوّر ما، وهل يملك ما يساومه به وقد حصّل الرّجل كلّ الغنائم التي أراد؟ إلّا أنّه يعلّق أمله الآن بانتشال جهاز الإرسال من قعر المحيط، تمامًا كما فعل للحوّامة.

سيستيقظ غدًا وبجعبته خطّة ما تبقيه متّزنًا وتقيه شرّ الخبل.

يجب أن يفعل.

لا وقت للانهيار. ليس الآن.

يوقن أنّه بحماقته قد دمّر السّفن التّجاريّة، وسيلته الوحيدة للاتّصال بالعالم الخارجيّ أو التنقّل إليه، وسيضطرّ إلى البحث عن بقاياها علّه يجد فيها آلات صالحة. لو أنّ الغضب لم يستحوذ على عقله، لو أنّه فكّر مليّا قبل أن يستدعي الإعصار المدمّر، لو أنّه سيطر على أعصابه وليس على الخيوط وحدها، لو، لو، لو... كلّما انفرد بنفسه ألهبت جنباته حمّى النّدم.

لا يريد أن يفكّر بالأرواح التي أزهقت، فمايك ورجاله بادئون بالعدوان، وكلّ من قضى نحبه منهم استحقّ مصيره. إنّها الحرب، يسقط النّاس في الميدان لأنّهم أصغوا للأوامر الخطأ، ولأنّهم وقفوا مع الجانب الخطأ. يسقطون أيضًا لأنّهم اختاروا الجانب الصّواب، لكنّهم وقفوا في مرمى سلاح الأعداء، يسقطون لأنّهم دافعوا عن أرضهم وأهلهم. يموت النّاس في غفلة مثل ماتياس، ومن أجل كلمة حقّ مثل كوتانا تافي، وهم يحمون الضعفاء مثل معلّمه نوح.. أمّا هؤلاء المرتزقة الأشقياء فلا عزاء ولا بواكي لهم!

كان أوّل عهده بالقتل.

لم يسبق له أن حمل سلاحًا مثل عمّار، أو خدم في جيش مثل مايك، لم يملك زمام هبته إلا منذ وقت قريب، وقد تجلّت في أبهى حللها في عرض البحر: ساطعة، باهرة.. وقاتلة! سيتعلّم الآخرون أن يخشوه الآن، فهبته لم تعد صوريّة أو عديمة الفائدة. سيخشى نفسه أيضًا، وسيذكر مشهد الغرقى وهم يطلقون صرخاتهم الأخيرة قبل أن تبتلعهم العاصفة، وسيتريّث كثيرًا قبل أن يسحب خيوطه في المناسبة المقبلة.

سمع خطوات مروان تقترب.

كان يغمض عينيه، يستلقي على مقعد الطيار داخل هيكل المروحيّة منزوعة السّقف، فلا تحميه من المطر إلا قليلًا، يتساقط الماء من حوله وفوق الهيكل المعدنيّ محدثًا رنينًا متتابعًا، إلا أنّه ميّز خطوات مروان الذي كان

في خفّة القطّ. تلك واحدة من مهارات المُسخِّر التي بات يحوزها، وتزداد حواسّه دقّة وحدّة بمرور الوقت.

حين صار في مستواه، رفع مروان صوته ليقول:

- الـ«كوتانا» يريدك.. إنّهم مجتمعون.

لم يفتح آدم عينيه ولم يُبد اهتمامًا. سيترك لهم أن يجتمعوا ما شاؤوا، على أن يتركوه في حاله ولا يطلبوا منه شيئًا في الوقت الحاليّ. كيف يسعه أن يكون مخلّصًا يحمي شعبه وهو زوج عاجز عن العثور على زوجته؟

- الغرباء.. عدد منهم يختبئ داخل الغابة.

انتفض في هبّة مفاجئة وسأل بصوت مبحوح:

- هل لديهم روان؟

هزّ مروان رأسه نافيًا، فعادت عضلات آدم ترتخي خيبة. كأنّ ظهورها على الجزيرة أمر ممكن أو محتمل! أنّى لها أن تكون أسيرة الغرقى الذين لا يكادون يملكون أمر نجاتهم، وهو يعلم يقينًا أنّ مايك قد اختطفها ورحل بها بعيدًا!

- يجب أن نتّخذ قرارًا بشأنهم.. هل نسمح لهم بالبقاء؟ أم...

- دعوهم وشأنهم!

قاطعه آدم بحدّة، وكأنّه يعني: *دعوني وشأني!*

لقد اكتفى من القتل.

واكتفى من المجلس، ومن ثقل كلّ قرار يُطالب بالدّم.

عاد ليغمض عينيه وينعزل عن العالم، انتظر مروان برهة قبل أن يشرع في الانسحاب عائدًا نحو المعتزل بكلمات المخلّص الحكيمة.

***

توقّف عمّار أمام بيوت القرية الحديثة التي بناها السّكان قرب الموقع القديم، يتفقّد أحوال العائلات التي يتسرّب الماء من أسقفها. يستمرّ المطر يقطر ويضغط على البنية الهشّة للعرائش التي بُنيت على عجل بعد الحريق، لا يتوقّع لها أن تصمد طويلًا إذا لم تتوقّف التّساقطات خلال أمد قصير. تنجرف التّربة تحت أرجلهم وتقوّض الأسس المتداعية وقريبًا لن يجد السّكان موضعًا يلجؤون إليه!

لم يكن تكدّسهم داخل مباني المدرسة والمخزن ودار العبادة خيارًا مثاليًا أيضًا، لقد تعاملوا مع ذلك الوضع بسبب تسلّط الدّخلاء، لكنّ المساحات لم تكن كافية أو مريحة. وحتّى تلك البناءات المشيّدة بالحجارة قد لا تصمد لوقت طويل إذا لم يتوقّف المطر في القريب. لمح الصّدوع التي انتشرت في جدران حجرات المدرسة وبات يخشى أن تنهار فوق رؤوسهم ليُدفنوا داخلها أحياء. لا شيء يضاهي متانة أكواخ المعتزل العتيقة ذات الأسقف المخروطيّة، لكنّها لن تؤوي العشائر كافّة.

قال توماس في أثناء اجتماع الأمس إنّهم سيضطرّون إلى دخول الكهف.

يتهامس النّاس بقصّة قديمة من الماضي، عن الطّوفان العظيم الذي أجبر الـ«آم» على الاحتماء بالكهف منذ أربعين عامًا. لا يُحبّ عمّار الفكرة، فقد شهد على الرّجال الذين عملوا على تحميل الـ«مادرا» آثارًا مرضيّة متفاوتة الشدّة، لكنّهم بخير الآن. لا تقول الحكاية كثيرًا عن تأثير المادّة المتوهّجة على الذين دخلوا الكهف في ذلك الزّمن القديم، ولا يذكر معظم الرّجال الذين كانوا مجرّد أطفال في ذلك الوقت تبعات التوغّل في النّطاق المحظور، لكنّهم يعرفون جميعًا وبقدر لا يقبل النّقاش أنّ الكهف خطر.

المعالجات بوسعهنّ إبقاء الجميع في وضع مستقرّ، إنّهنّ يملكن عكس أثر الـ«مادرا» بفضل هبتهنّ، وإن لم يتبقّ منهنّ إلا اثنتان، سيكون أمامهما عمل كثير.. لكنّ مزيدًا منهنّ قد يظهر في تلك الظروف الاستثنائيّة. ألم

يحفّز دخول الكهف خلايا ماهر؟ ظهرت هِبته قبل الأوان بفضل قربه من الـ«مصدر»، وقد تظهر معالجات شابّات أيضًا، بعضهنّ يتدرّبن منذ بعض الوقت. الـ«آم» بحاجة إلى مزيد منهنّ لسدّ فراغ غياب روان.

لا يريد أن يفكّر في اختفائها، لكنّ الأفكار تأخذه إليها قسرًا.

لقد فَقَد المُسخِّرين المتمرّسين كلّهم أيضًا، ولم يبق إلا الشّباب صغار السنّ، ليس هناك من أحد يعرف الـ«مادرا» عن قرب وبوسعه أن يستشيره بهذا الأمر.. باستثناء المعالجة العجوز.

قادته خطواته نحو المشفى حيث يتوقّع أن يجدها.

منذ تولّيها مهمّة الـ«ماغداخا» الرّسميّة قبل ما يزيد على أسبوعين، لم تعد مارتا تفارق مبنى المشفى ليلًا أو نهارًا. وقف عمّار عند المدخل، أنزل المظلّة العريضة عن رأسه وأخذ ينفض قطرات الماء عن ثوبه بلا طائل، فقد كان مبتلًا حتّى العظم بعد جولته الطويلة عبر القرية، لا يكاد أحدهم يجد ثوبًا جافًا هذه الأيام، وحتّى الحطب لا يشتعل، وأين يحصل على الخشب الجاف لنار الموقد؟

ظهرت مارتا عند عتبة الغرفة الدّاخليّة التي يتسرّب الماء من سقفها وتغطي أرضيّتها أوعية خشبيّة قاربت على الامتلاء تتلقى السّيل المتدفّق عبر الثقوب. أشارت إلى المقعد الخشبيّ الواطئ تدعوه إلى الجلوس، لا سجّاد ولا حشيّات متاحة، فقد أثقلها الماء كلّها وما عاد أحد يجد موقعًا يخلو من الرّطوبة.

- كيف حال أرابيلا؟

سألتْ بلهجة ودود، فهزّ رأسه بحركة يائسة.

فَقَد كثير من الـ«آم» أفراد عائلاتهم، سقط عشرات القتلى منذ ليلة زفاف المُخلِّص، ومصاب الجميع جلل، يُنافس فقْدُ كلّ واحد منهم فجيعةَ الآخر، فكيف يكون غياب ابنته أهمّ من وجع شعب بأسره؟ يكابد الحزن

والجزع ويتحرّك بثبات لينهض بمهامّ الـ«كوتانا» التي عُهدت إليه، يشدّ على ذراع آشور الذي فَقَد والده الـ«كوتانا» سليل الـ«نافيا»، ويهتمّ بشأن الأيتام الذين سقط آباؤهم وباتوا يتوقون إلى من يعوّض الحضور الأبويّ في حياتهم، ويعيد الثقة إلى المُسخِّرين الشبّان الذين رحل عنهم قادتهم ومعلّموهم.. كان عليه أن يترك آلامه جانبًا ويدبّ على الأرض بلا حماس، يحافظ على وقار مظهره فيما ينزف فؤاده.

لا تغادر زوجته الكوخ منذ أيّام، تعلن فجيعتها بلا مواربة، كأنّ الأمّهات أولى بالألم. يسأله النّاس كيف تبلي أرابيلا، كأنّ الرّجال منيعون أمام الحزن!

وحده آدم يعبِّر عن ألمه بلا خجل، ويضرب بمسؤوليّاته ورأي العامّة فيه وانتقاد الحكماء عرض الحائط! لعلّه يحسده على وفائه لمشاعره وتجاسره على تجاهل الآخرين وما يفكّرون به بشأنه، إلا أنّه لا يملك أن يحذو حذوه. لا يمكن للجميع أن ينهار، يجب على أحدهم أن يظلّ متماسكًا. ولئن اختارت أرابيلا وآدم سبيل الجزع، فقد كان عليه أن يرتدي قناع الحكمة.

- هل رأيتَ آدم؟

هزّ رأسه ثانية. لا يعرف أحد غيره على الجزيرة برابط الدّم الذي يجمعها بالمُخلِّص، وهو يقدِّر قلقها على الولد الذي فَقَد السّيطرة منذ أيّام واستدعى إعصارًا بلا قرار.

- أنا قلقة بشأنه.

أومأ عمّار في صمت، هناك كثير ليقلق بشأنه وليس أمر آدم أخطر ما يشغله. فيما يتناجيان، تحرّكت الفتيات المتدرّبات عبر الغرف، يحملن الأواني الملآنة ماءً لدلقها بالخارج قبل أن يُعدنها مكانها، فتعود القطرات للنّقر على الأسطح الخشبيّة.

- أنا هنا لأستشيرك.. هل نأخذ الجميع إلى داخل الكهف؟

زمّت مارتا شفتيها في وجوم، ثمّ رفعت بصرها نحو الظلة التي تظهر من خلال فرجة الباب. إنّها تذكر، رغم تباعد الزّمن، تذكر ما حدث للذين دخلوا الكهف في ذلك الوقت، لكنّ ذكرياتها تختلف عمّا يعلق في الذّاكرة الجمعيّة للـ«آم». إنّهم يتصرّفون وكأنّ الـ«مصدر» لم يؤذ أحدًا منهم، لكنّها تُدرك أنّ ذكرياتهم تخادعهم وتراوغهم. إنّ دخول الكهف ممنوع على الأفراد العاديّين لسبب وجيه، ولا تودّ أن ترى أحدًا يدخله مرّة أخرى، ولو لوقت قصير.

- سيتوقّف المطر قريبًا، أشعر بهذا.
- قد يتوقّف ليوم أو يومين.. لكنّ موسم الأمطار قد جاء، وستأتي عواصف أخرى! البيوت المتداعية لم تعد تتحمّل، تسلّلت الرّطوبة إلى كلّ شيء...

أومأت مارتا متفهّمة، ثمّ عادت لتقول:

- فلننتظر.. ثلاثة أيّام.
- ماذا لو لم يتوقّف المطر بعد ثلاثة أيام؟
- سنجد حلًا.
- ندخل الكهف إذًا؟

زمّت مارتا شفتيها وهمهمت في تسليم. لا تحبّ أن تفكّر بذلك، لا يجدر بالـ«آم» تحدّي الـ«مادرا» والاقتراب من مصدرها، سيعود عليهم ذلك بالوبال. وهي لن تقدر على إبقائهم جميعًا آمنين، سيموت كثيرون بالدّاخل، لكنّ السّيول قد تجرفهم أيضًا إذا بقوا في الخارج. تلك العاصفة المستمرّة قد تصبح طوفانًا.. وإذا جاء الطوفان فلن يترك أحدًا.

قد يموتون داخل الكهف، لكنّهم سيموتون في ثياب جافّة.

(4)

اليوم الرّابع بعد السّتين

أخذ آدم نفسًا عميقًا، واستعدّ للغوص مرّة أخرى.

لقد احتاج في السّابق إلى عون البحّارة لتمشيط مساحة البحر التي تحيط بالجزيرة، وقوّة المُسخِّر المخضرم لسحب المروحيّة حتّى الشاطئ، لكنّه هذه المرّة يعتمد على قدراته وحدها.

بفضل لولا أصبح التنقّل فوق الماء مثل السّير على اليابسة بالنسبة إليه، أمّا الغوص فهو يكتشف باستمرار الهبات الاستثنائية التي تمنحها إياه جيناته الهجينة. منذ شهرين، لم يكن الاقتراب من الماء واردًا على الإطلاق، بسبب العقد الدّفينة ونوبات الهلع المتكرّرة، لكنّه اضطرّ إلى مواجهة وحش الماء في مناسبات عدّة قبل الآن، واختبر قدرته على حبس أنفاسه دقائق طويلة، وقد صار يثق في سيطرته على الوضع.

همز لولا بركبتيه فتحرّكت بانسيابيّة لتنزلق نحو الأسفل. بعد عشرات الأمتار أخذ هيكل السّفينة يظهر أمام عينيه، تغطي طبقات العتمة أعماق المحيط العصيّة على اقتحام شعاع الشّمس، إلا أنّ حجر الشّمس الذي يتدلّى من عنقه يبدّد شيئًا من الحلكة ويهدي خطاه في الظلمات. يترك آدم زعنفة الحوت ويتحرّك بمفرده داخل الفجوات التي كانت سابقًا غُرفًا ومقصورات مأهولة، فالمنافذ ضيّقة ليعبر الحوت خلالها، يطفو تارة ويتمسّك بالنتوءات والجدران تارة أخرى وهو ينساب بسلاسة تحت الماء.

لم تكن المراكب الغارقة مألوفة بالنسبة إليه، لذلك فقد احتاج أن يكرّر الغطس مرّات عدّة ليتعرّف على معالمها ويميّز المقدّمة من المؤخّرة ويحدّد موقع غرفة التحكّم. تتقلّص رئتاه ويشتدّ الضغط عليهما مع تكرار عمليّات الغوص وكتم الأنفاس. قد يكون ذا هبة وراثيّة، إنّما يعوزه التّدريب، وقد أخذت آثار الإرهاق تظهر عليه بعد أن أمضى ساعات الصّباح ينافس الأسماك في فضائها الطّبيعي.

كانت هياكل السّفن الثلاث متقاربة من ناحية الموقع، إلا أنّها انشطرت وانهارت إلى أشلاء فما عاد من اليسير قراءة خارطتها وتحديد الاتّجاهات داخلها. بعض الألواح تساقط فيما انبعج المعدن في مواضع كثيرة. وهو يتأمّل في انبهار صنيع يديه، لا يسعه إلا أن يلاحظ التعقيد الإضافيّ الذي تسبّبت فيه عمليّات القطع الجنونيّة، في حين أنّ الشّروخ في قاعدتها كانت كفيلة تمامًا بإغراق السّفن دون تفكيكها.

تسلّل خارج الهيكل وأشار إلى لولا لتتولّى نقله إلى السّطح، لا يزال التغيّر المفاجئ في مستوى الضّغط يؤلم أذنيه رغم حركة الحوت الرشيقة. شهق بقوّة ثمّ سحب أنفاسًا قصيرة متقطّعة واستلقى على ظهر الأوركا وقد خارت قواه. لبث ممدّدًا دقائق مغمض العينين، يتلقّى قطرات المطر على وجهه في استسلام ولا يتحرّك إلا صدره المتعطّش للهواء فيما تُبقي لولا خطمها خارج الماء على سبيل المحاباة، ثمّ همس بلطف إلى الحوت وهو يرفع جذعه:

- مرّة أخرى!

أطلقت الأوركا نداءً قصيرًا شعر آدم بنوع من الاحتجاج في نبرته، فربّت ظهرها معتذرًا وهمس ثانية:

- ستكون الأخيرة لليوم.. أعدك!

ثمّ همزها ليستأنف رحلة غطس جديدة.

بدأت معالم السّفينة «سارا» تنجلي في رأسه بعد أن تجوّل داخل حطامها مرّات عدّة. تتشابه السّفن التّجاريّة الثلاث من ناحية الهيكل الخارجيّ والنّمط العامّ، ولم يكن يهدف إلى الوصول إلى واحدة منها على وجه التّخصيص، فأيّ منها سيفي بالغرض. تحتوي غرفة القيادة في كلّ سفينة على جهاز إرسال، وهو يريد الوصول إلى أيّ منها. ربّما يكون الحلّ الأمثل انتشال الأجهزة كلّها، ليُضاعف فرصه، إذا كان عطب قد أصاب أحدها فقد يعمل الآخر. إلا أنّ استنزاف أعصابه بعد عمليّات البحث المضنية يدعوه إلى الاكتفاء بإنجاز محدود.

سيعود في الغد إذا تطلّب الأمر، وبعد غد. إن لم ينجح جهاز في الاتّصال فسيسعى نحو الآخر. ربّما يفكّر في وضع الخطط طويلة المدى، يضمن أن يُبقي نفسه مشغولًا وذهنه منكبًا على مهمّة محدّدة، يفعل شيئًا للوصول إلى روان، فلا يجلس مكتوف اليدين عاجزًا. ستكون لديه مجالات حركة كافية واحتمالات نجاح محدودة لكنّها تُبقي جذوة الأمل مشتعلة، وسيعمل على إنجازٍ ما كلّ يوم.

انساب جسده عبر ممرّات «سارا» وأصابعه تتحسّس محيطه، تبعد الألواح التي تسدّ الطريق أو يستند إليها ليستمدّ دفعة نحو الأمام، حتّى وجد نفسه داخل الغرفة المنشودة. تيقّظت حواسّه وهو ينقل بصره بين آلات الملاحة البحريّة ويقلّب الأجهزة في عصبيّة.

ثمّ قبض على الجهاز المطلوب.

شقّ الطّريق نحو السّطح وهو يشدّ كفّيه على جهاز الإرسال قريبًا من صدره، وحين انشقّت عنه صفحة الماء، رفعه عاليًا في الهواء ليتأمّله تحت الإضاءة الطبيعية، ثمّ أطلق صيحة فرح جذلة.

***

ارتفع عواء الرّيح تلك اللّيلة أكثر من أيّ ليلة سابقة، سمعت مانويلا صرير المعدن واحتكاكه بحدّة متزايدة، ثمّ كاد قلبها ينخلع حين أضاء وميض البرق الفضاء خارج نافذتها قبل أن يدوّي الرّعد بصوت يرجّ الأفئدة. كانت العاصفة تضرب بأقصى طاقتها، معلنة أنّها لا تنوي التوقّف في القريب.

تسلّلت من مقصورتها وقد جافاها النّعاس ورأت أن تزور والدها. نجح كريس في السّيطرة على الحمّى ممّا جعل ذهن مايك أكثر صفاءً من الأمس، وهو ينام الآن بعمق وراحة. فكّرت أنّها قد تكون مخطئة بشأن تشخصيه، ربّما لا يُعاني التحسّس تجاه العقار في نهاية الأمر كما ظنّت. في حالتها، كان الوضع يزداد سوءًا في كلّ لحظة. ربّما تكون مجرّد وعكة عابرة أو فيروسًا خاملا لم يستطع جسده مقاومته، كما تنبّأ كريس.

شعرت بالذّنب حين راودها خاطر.. لو أنّه لم يتحسّن، لو أنّ أعراضها الرّهيبة ظهرت عليه، لملكت العذر المناسب للعودة أدراجها نحو الجزيرة! أمّا وقد استعاد وعيه وحضوره، فهي لا تملك إلا أن تحاول إقناعه، لكنّه لا يلين!

وضعت كفّها على جبينه تتفقّد حرارته، ثمّ سوّت الغطاء فوق جسده قبل أن تجلس على المقعد المجاور لسريره. شعرت ببرودة الهواء الذي يتسلّل عبر الشّقوق فارتجفت، أحضرت بطانية لفّت جسدها بها ثمّ عادت إلى مجلسها وهي لا تتوقّف عن الارتعاش. ربّما لا تعزى رعشتها إلى البرد وحده، فإن للخوف منها نصيبًا غير يسير!

سرحت نظراتها عبر النافذة، لا تميّز شيئًا كثيرًا بالخارج باستثناء الظلام الحالك للمحيط الذي تكتنفه العاصفة. تسمع الطرقات القاسية للمطر والصّرير المستمرّ للرّياح التي لم تهدأ ساعة واحدة منذ انطلاق الرّحلة. لقد سافرت كثيرًا وركبت السّفن وعبرت المحيط الهنديّ مرّات، لكنّها لم

تشهد عاصفة مماثلة قطّ. كلّ العواصف تنقطع بعد يوم أو اثنين، وأغلبها لا يتواصل أكثر من ساعات معدودة.

إنّها تعرف أخطر بحار العالم، حيث تلتقي تيّارات باردة بأخرى حارّة وتستسلم السّفن لرياح الجنوب الهادرة! استنادًا إلى تجربتها، تكاد تجزم أنّ أكثر المناطق وعورة حيث يلتقي المحيطان الهنديّ والأطلسيّ وراء الرّأس جنوب الإفريقيّ، أو ممرّ «دريك» جنوب القارّة الأمريكيّة.. لكنّ معاييرها مهدّدة بالانهيار في حضرة تلك العاصفة الفريدة التي لا تُنذر بصحو قريب!

في وقت ما، غلبها النّعاس فغفت.

استيقظت فجأة وهي تعاني ألمًا ممضًّا في رأسها. كانت مُكوَّمة على نفسها فوق الأرض والدّوار يلفّ حواسّها. مرّت بضع ثوانٍ قبل أن تستوعب ما حدث.. لقد تدحرج جسدها عن المقعد، ليرتطم رأسها بجدار الغرفة في لطمة عنيفة. حاولت أن تستعيد توازنها، لكنّ كلّ شيء استمرّ في الاهتزاز من حولها مثل مراجيح الأطفال. تمالكت نفسها وتمسّكت بالسّرير لتنهض على قدمين غير ثابتتين وتحسّست جرح رأسها الذي أخذ ينزف، لكنّ انتباهها تحوّل إلى والدها حين لاحظت اختفاءه من فوق السّرير! تحرّكت بصعوبة مناورة بين الأشياء المبعثرة، فيما يميل اليخت على جانبه في زاوية حادّة. كان السّرير ثابتًا لحسن الحظّ، والصّوان كذلك. غالبًا ما تكون قطع الأثاث الرّئيسيّة مثبّتة في الأرضية وملتصقة بالجدران، وحدها المقاعد والأدوات الشخصيّة تتراقص وتنزلق.

انحنت إلى جوار مايك الذي سقط أرضًا وانزلق إلى الرّكن الذي يفصل السّرير عن الخزانة، ربتت برفق وجنتيه تحاول إيقاظه، فيما تصلها صرخات فزع تخترق أزيز العاصفة. شيء ما يحدث. هتفت وهي تزيد ضرباتها قوّة:

- أبي، أفِق.. أرجوك!

انفرجت أهداب مايك راسل، لكنّه بدا مشوّشًا وغير متّزن. اقتحم كريس الغرفة فجأة وهو يصرخ بعنف:

- يجب أن نخرج من هنا!

- ما الأمر؟

نقل كريس نظراته بين الشابة ووالدها ثمّ عاد يقول:

- تسرّب الماء إلى الطابق السّفليّ!

هناك بروتوكول خاصّ للحالات المماثلة، يعرف البحّارة والميكانيكيّون ما عليهم عمله في حالات التّسرّب، وكريس الذي كان مجرّد طبيب ربّما لا يقيّم الوضع بالقدر الصّحيح، لكنّ مانويلا تفوقه خبرة في السّفر عبر البحر، ولا تستسلم للفزع بسهولة. هتفت على عجل:

- هل يمكنك الاهتمام بأبي؟ سأذهب لأتفقّد الوضع..

أومأ كريس بعصبيّة، ثمّ ترنّح كلاهما عبر الغرفة ليتبادلا المواقع. توقّف كريس وقد لاحظ آثار الدّماء على كفّها.

- أنت مصابة؟

- لا شيء مهمّ!

- لكن...

شقّت طريقها نحو الممرّ متجاهلة اعتراضه، تتبّعت الضوضاء حتّى الطابق السّفليّ، حيث كان الرّجال يستخدّمون المضخّات الصّاخبة لطرد الماء، وقفت على السّلم قبل أن تلامس قدماها الأرضيّة وقد شعرت بالبلل يصل إليها. ارتفع الماء مقدار قدمين في قعر اليخت، وتحرّك البحّارة والعمّال بصعوبة يخوضون في الماء حتّى الرّكب، يحضرون الخرق لسدّ موقع التّسريب ويدقّونها في الجدار بالمسامير بعد أن عجزت المادّة اللاصقة عن تثبيتها، فيما تجاهد المضخّات اليدويّة والكهربائيّة معًا دون أن تحدث أثرًا جليًّا.

رفعت صوتها لتهتف عبر الضجيج الذي يصمّ الآذان:

- كيف الوضع؟

اقترب أحد البحّارة ليصرخ بدوره:

- الماء لا يتوقّف! نحتاج إلى تثبيت اليخت لترقيع الجدار!

أومأت في تفهّم وهتفت:

- سأنظر في ذلك.

عادت أدراجها إلى الطّابق العلويّ، تحرّكت بقدر ما تسمح به قدماها المرتجفتان والتّراقص المستمرّ للسّفينة، اقتحمت غرفة القيادة، وقبل أن تنطق بكلمة عن تثبيت المركب هاجم أذنيها صوت صافرات الإنذار التي تتعالى من أجهزة تومض بإشارات حمراء، اقتربت في جزع من الربّان الذي بادرها بنبرة مذعورة:

- الأجهزة لا تستجيب! لقد فقدنا السيطرة!

أخذت مانويلا نفسًا مرتعشًا وحاولت ألا تترك أعصابها تُفلت، الرّجال من حولها يهلعون وأيديهم ترتجف، لذلك عليها أن تفكّر عنهم جميعًا وتحافظ على سكينتها.

عليها.. أن.. تبقى.. هادئة.

لكنّها ترتعد وتتصبّب عرقًا باردًا، الجرح في رأسها ما زال ينزف والصّداع يشقّ رأسها نصفين، ووالدها فاقد الوعي أو مشوّش في أحسن الأحوال. الأمر منوط بها وعليها أن تتخذ قرارًا ما بشأن مصيرهم جميعًا قبل أن يغرق المركب! لا تحبّ أن تتسرّع في الجزم، ولا يُرضيها أن تتخلّى عن اليخت بتلك السّهولة، لكنّها تحتاج إلى دفعة من الثقة والحزم لتفعل الشيء الصّحيح قبل فوات الأوان.

وجدت نفسها تهرول نحو الغرف، ألقت الأوامر بصوت صارم:

- افتح الأبواب!

نفَّذ الحارس الأمر دون تفكير كثير، لم يكن في ظرف يسمح بالنّقاش والتّفاوض، إن كان المركب على وشك الغرق فسيكون عليهم إجلاء الرّكاب جميعهم، بما في ذلك الأسرى.

اقتحمت مانويلا غرفة أوران على عجل.

- نحن نغرق! يجب أن نغادر المركب!

لم يأت أوران للقائها عند الباب، لكنّه أومأ موافقًا وقد أدرك سلفًا أنّ أمرًا ما يحدث. اختفت مانويلا للحظات ثمّ عادت وبيدها مفاتيح قيوده، انحنت لتفكّ السّلسلة وما إن سقطت الأصفاد المعدنيّة حتّى تحسّس أوران معصميه الدّاميين في ارتياح بعد أن أضنته محاولات الخلاص بلا فائدة. تبعها ليتحرّك كلاهما نحو الغرفة التالية دون كلمة، بعد أن حرّرت مانويلا المعالجة أيضًا عادت إلى غرفة والدها حيث كان كريس ما زال يراقبه.

- هل هو بخير؟

أومأ الطّبيب بهدوء ثمّ تفرّس في الوجوه التي أطلت من ورائها.

- إذًا..؟

كان عليها أن تعترف:

- لقد فقدنا السّيطرة.. إنّها مسألة وقت، قبل أن يغرق اليخت...

أخذ شهيقًا عميقًا ثمّ تمتم:

- علينا أن نواجه العاصفة إذًا.

تبادلوا نظرات صامتة، مهما بدت العاصفة شنيعة وهم داخل المركب، فإنّ ما ينتظرهم من دونه ليس أفضل. تسارعت الحركة في السّفينة بعد أن ألقت مانويلا أوامرها، وزّع الطّاقم المعاطف المضادّة للمطر على الجميع، بما في ذلك الأسيرين، ثمّ بدأ إنزال قوارب النّجاة المطاطيّة إلى سطح الماء

غير المستقرّ. نفخت الرّيح في وجوههم وطيّرت جوانب المعاطف التي أحكموا إغلاقها، وتسلّلت إليهم الرّطوبة من كلّ اتّجاه.

حين وقف الجميع في العراء، أيقنوا أنّ حياتهم لن تكون مضمونة بعد الآن. كانوا يتخلّون عن الحماية التي يوفّرها هيكل اليخت والرّفاهية التي سافروا في كنفها حتّى اللّحظة. سيكون مصيرهم دون محرّكات ودون أجهزة ملاحة رهن المقامرة على وصول النّجدة أو توقّف العاصفة أو بلوغ اليابسة!

تحت سياط الأمطار القاسية، تدافع المسافرون والبحّارة لاتّخاذ مواقعهم داخل قوارب النّجاة. توزّعوا على قاربين اثنين، ركبت مانويلا برفقة والدها وطبيبه وأسيريه، مع اثنين من البحّارة بالإضافة إلى الرّبان، فيما تجمّع باقي أفراد الطاقم في القارب الثاني، وُزِّعت المؤونة المتبقّية من طعام معلّب وقناني ماء على الركّاب، في حين أحضر الربّان أدوات الملاحة اليدويّة واحتفظ كريس بحقيبته الطبيّة. كان ذلك كلّ ما يسعهم حمله دون إثقال القوارب بحمل زائد. لكنّ مايك كان حريصًا على اصطحاب كيس جلديّ مليء بحجارة الشّمس التي لن تعني رحلته كلّها شيئًا دونها.

وخلال دقائق، كانت القوارب تنجرف مع حركة الموج المضطربة مبتعدة عن موقع اليخت. تأمّلوا بعيون زائغة وسحنات واجمة المركب وهو ينقلب على جانبه مثقلًا بالماء الذي ملأ باطنه، قبل أن يأخذ مسارًا منحدرًا ليبتلعه المحيط.

ربط البحّارة القاربين معًا ليمنعوا أحدهما من الانجراف بعيدًا عن صاحبه، وأشاحوا بوجوههم عن اليخت الذي مضى إلى مصيره المحتوم، واستسلموا لقدرهم المجهول.

***

رغم قسوة الظروف المحيطة، كان على المرتزقة التّعامل مع العاصفة وتأمين أسباب الحياة، حالما ينتصب الواحد منهم على قدميه ويسترجع توازنه يتعيّن عليه أن يفكّر بوسيلة للمشاركة في النّجاة الجماعيّة.

مثل أيّ ناجين من كارثة طبيعيّة، منبوذين على أرض غريبة، يتعلّمون كيف يكون شظف العيش في محيط يفتقر إلى أدنى سبل الرّاحة ويعتمدون على غرائزهم وحدها للحفاظ على حياتهم يومًا بعد يوم.

مثّل محيط الغابة فضاءً مثاليًا للممارسة تقاليد أسلاف البشر الأوائل الذين عاشوا لعصور على الصّيد وجمع الثّمار البريّة. تحلّق الرّجال حول نايت لإحصاء حصيلة اليوم: سبع سمكات وحفنات من التّوت البريّ وأشكال أخرى من الثمار مختلفة الأحجام والألوان، تشبه أنواعًا تؤكل في موطنه لكنّه لا يعرف لها اسمًا، بالإضافة إلى أرنب متوسّط الحجم.

كان عليهم تأسيس نظام حياة يمكنهم من العيش داخل الغابة، رغم استمرار الأمطار. كرّر وصيّته مرارًا: عليهم البقاء قريبًا من الشّاطئ، لا يريد أيّ احتكاك بالسّكان المحليّين أو اعتداء على مساحاتهم الخاصّة. لقد كانوا كرماء كفاية بالسّماح لهم بالبقاء حتّى ذلك الوقت. ربّما يرجع افتقارهم إلى ردّ الفعل الصّارم إلى الظروف الطبيعيّة شديدة البأس، لعلّ نزوعهم إلى الرّحمة يخفّف عنهم شيئًا ممّا يعانونه بدورهم.

يتحرّك النّاجون السّبعة ضمن حدود معروفة لديهم، حيث صنعوا ملجأ من الأغصان الكثيفة ربطوها بقوّة في شكل سقف متين يقيهم شيئًا من الزّمهرير، وأعدّوا جحرًا آمنًا يحافظون على جفافه ما أمكنهم. يخرجون مرّتين في اليوم للحصول على قوتهم من البحر والبرّ، إلا أنّهم غير قادرين على إشعال نار تدفئهم أو تمكّنهم من طهو صيدهم. لم يجد الرّجال صعوبة في التّأقلم، فهم في الغالب مرتزقة متمرّسون، جرّبوا أسوأ الظروف وأحلكها، وكلّ واحد منهم يحمل على كاهله سجلًا حافلًا بالمغامرات،

أصبحت محلّ تندّرهم ومصدر تسليتهم حين يجتمعون مساءً تحت العريشة استعدادًا للنّوم.

خلال الأيّام الماضية، طرد المدّ خارج الماء أشلاء من السّفن المحطّمة، سحبوا ما رأوه مفيدًا منها إلى ملجئهم، مثل الصّناديق الخشبيّة والأوتاد المعدنيّة التي أسهمت في دعم هيكل العريشة، كما غلّفوا الأغصان بطبقة من البلاستيك التي تجعلها عازلة للماء. ربّما كانوا أفضل حالًا -بفضل مخلّفات العالم المتحضّر- من السّكان المحليّين أنفسهم.

تلقّى كلّ من الرّجال سمكته بامتنان. انتحى هاورد ذو ذيل الحصان الرّماديّ وستيفن الملقّب بالعصا -لفرط نحوله- جانبًا، كلاهما صامت وكتوم، لم يسمع لهما نايت تذمّرًا طيلة الأيّام الماضية، لا يدري إن كانا يُحسنان التّأقلم أم أنّهما منعزلان بطبعهما، لكنّهما يتلازمان معظم الوقت، وهو يفضّل أن يتنقّل الرّجال اثنين اثنين احترازًا. انشغل ساندي بصلاة الشّكر التي يحافظ عليها كلّ مساء، وهو كهل أصلع فيه شيء من الامتلاء، يبقيه إيمانه ثابت الجنان. من حسن حظّهم أنّ ساندي كان بينهم -بغضّ النظر عن اسمه الذي يثير حوله التّلامز- فقد كان له الفضل في اختيار موقع الملجأ وتمييز الأرضيّة القويّة عن تلك الزّلقة، بالنظر إلى تجربة قديمة في مجال البناء.

توقّف راجو ذو الأصل الهنديّ متأمّلًا فيما أخرج براندن مديته وبحركات رشيقة واحترافيّة تمكّن من ذبح الأرنب وسلخه خلال دقائق. رفع السّقيطة عاليًا بنظرة زهوّ ثمّ قال:

- سأعلّقه ليجفّ، خلال أيّام سيكون لدينا بعض اللحم المقدّد!

ضحك الرّجال من حوله ثم شرعوا يقضمون السّمك النّيء في صمت.

استعادوا أيضًا بعض الأدوات التي تساعدهم على الحياة اليوميّة، مثل أدوات الطعام والسّكاكين وقطعًا من النّسيج -التي يصعب جعلها تجفّ، لكنّها معلّقة منذ أيّام- بالإضافة إلى الأسلحة. تمكّن براندن اليوم من معالجة بندقيّته وتشغيلها ممّا مكّنه أخيرًا من صيد الأرنب.

سمع نايت الطّلقة من بعيد، وقد أزمع أن يعنّف براندن لتجاهله التّعليمات، لكنّه أحجم حين رأى فرحة الرّجال بالأرنب الذي اصطاده، ولأنّ براندن أثبت مهارته حين اكتفى بطلقة واحدة لم تتكرّر أصابت هدفها بدقّة. لم يكن من اليسير أن يُبقي هؤلاء الرّجال تحت السّيطرة في وضع مأزوم كذلك الذي يعيشونه، إنّهم يحتاجون إلى مساحة من الحريّة حتّى لا يصل بهم الأمر إلى الانفجار والتمرّد على سلطته الهشّة، وقد كانت تلك الخروقات متنفّسهم.

تقنيًا، لم تعد لديه سلطة عمليّة عليهم، فقد تهدّم نظام الهيكلة التّراتبية بعد أن غرقت السّفن وأفلت مشغّلهم، إنّهم مجرّد ناجين، رجال طلقاء في البريّة يحاولون النّجاة. ربّما تمنحه مزيّة إنقاذهم من الغرق بعض الفضل، فيصغون إليه بلا تذمّر، لكنّهم قد يقرّرون غير ذلك في أيّ وقت. تلفّت فجأة وسأل:

- أين نيلسون؟

بقيت سمكة واحدة في السّبَت لم يأت صاحبها لاستلامها، وبدا أنّ نيلسون قد تخلّف عن موعد العشاء. قال براندن وهو يشير إلى الأجمة القائمة في اتّجاه ما:

- كان هناك منذ حين، رافقني للصّيد.. أخشى أن يكون قد ابتعد قليلًا.

- هل ضلَّ طريقه؟

- لا، لا يمكن لنيلسون أن يضلّ، لكنّه متعنّت نوعًا ما.. لن يرجع قبل أن يقبض على الأرنب الذي يطارده!

ضحك براندن ساخرًا ومفتخرًا بصيده الثمين، فجاراه الآخرون بهزّات من رؤوسهم.

رغم استعداده لتحمّل الكثير، لم يستسغ نايت قطّ السّمك النّيّئ. اكتفى معظم الوقت بالثمار وورق الشّجر، لكنّ جسده بحاجة إلى البروتين إن لم يرغب في المعاناة من ضمور العضلات على المدى البعيد. فيما انهمك رفاقه يملؤون بطونهم طردًا لشبح الجوع، راح نايت يقطّع سمكته إلى شرائح رفيعة ويرصفها فوق طبق من أوراق الأشجار المغسولة بعناية، ثمّ تناول حبّات التوت وبعض الثّمار الحامضة الأخرى وأخذ يعصرها فوق شرائح السّمك، قبل أن يفركها بعناية على طريقة إيطاليّة تعلّمها في وقت ما من خدمته العسكريّة.

أطلّ براندن بنظرة فضوليّة وسأل باهتمام:

- ماذا تصنع؟

- كارباشيو!

هزّ براندن كتفيه ثمّ عاد لينهش سمكته النّيئة متظاهرًا بالاستمتاع.

قال نايت بحذر:

- أشعر بمغص منذ أيّام. ربّما أكثرت من التّوت.. وأخشى أنّ اللحم النّيّئ سيصيبنا بالتسمّم!

نخر براندن وهو يواصل المضغ ببطء:

- هل تعني أنّ شيئًا أسوأ ممّا نحن فيه قد يحدث؟

بدا من المستحيل تخيّل وضع أسوأ. لقد كان هذا السيناريو الأسوأ على الإطلاق: أن تهلك سفنهم ويتخلّى عنهم ربّ عملهم، ويغرق معظم الرّجال فيما يموت آخرون في أثناء مواجهتهم للسكّان المحلّيين الذين

يركبون العظايات العملاقة، ولا تنقطع الأمطار لأكثر من أسبوع وهم في الخلاء! من الصّعب تخيّل مصير أكثر قتامة ممّا هم فيه.

حين فرغوا من وجبة المساء، تمدّد كلّ منهم على فراش من الأوراق الرّطبة وحاولوا الخلود إلى النّوم. في غياب أيّ خطط بعيدة المدى، ينصبّ اهتمام كلّ واحد فيهم على العيش يومًا آخر، مثل رجل الكهف الذي ينحصر نهاره في مجابهة قوى الطّبيعة.

لم يغمض نايت عينيه على الفور، استمرّ أمر نيلسون يشغل باله. قال براندن متفكّهًا:

- ربّما يكون ضلّ طريقه في نهاية الأمر!

لم يكن من الحكمة الذّهاب للبحث عنه في ظلمة الليل، وهو قد يرجع في أيّ لحظة. حين يطلع النّهار وتغدو الرؤية أوضح سيجدونه.. عسى ألا يكون قد أصابه مكروه.

لا يحبّ نايت رطوبة الأرض التي تنخر عظامه رغم طبقة الأوراق التي تفصل بينه وبين الرّمال المبتّلة. لطالما كان حسَّاسًا تجاه الرّطوبة، سريعًا ما يعاني التهابات المفاصل، لكنّ أيّ ملجأ متاح يُعدّ ترفًا في وضعهم ذاك. تلك الظهيرة، انغمس في جمع سعف النّخل الجافّ المتساقط على الأرض أو المتدلّي من أشجار النّخيل متواضعة الطول، يفكّر في صنع أرجوحة شبكيّة مثل تلك التي رآها على الشاطئ منذ أيّام لينام معلّقًا بعيدًا عن الأرض. لا يعرف إن كان السّعف مادّة مناسبة للنّسيج، لكنّه متين غالبًا ومستخدم في صناعات يدويّة كثيرة. لعلّ سكّان الجزيرة يعتمدون خيارات أفضل، لكنّه لا يجد بدائل مناسبة في الوقت الحاليّ. سيكون أيّ شيء أفضل من افتراش الأرض بالنّسبة إليه. لعلّ الآخرين يتقبّلون الوضع بشكل أفضل منه، فهم لا يتذمّرون.

تقلّب في موضعه تنخزه الهواجس وذؤابات الورق الحادّة. إن كان يريد أن يعيش، وأن يضمن لهؤلاء الرّجال العيش، سيتعيّن عليه أن يعقد صفقة مع السّكان المحلّيين. لقد نوى أن يترقّب توقّف المطر، لكنّ العاصفة ربّما تمنحه فرصة ينبغي عليه اغتنامها. دون أن يلتفت، سأل نايت:

- ساندي، برأيك.. كيف يُبلي السّكان المحلّيون في هذه العاصفة؟

لم يتكلّم ساندي على الفور، تفكّر برهة قبل أن يقول:

- حسب ما لاحظته منذ أيّام، حين كنّا في مركز القرية.. وحسب خبرتي المتواضعة وتقدير غير دقيق.. إنّهم عالقون في مصيدة! إن لم يجدوا لهم موقعًا مرتفعًا فستجرفهم السّيول لا محالة.

أطلق براندن ضحكة مقتضبة لا تخلو من شماتة.

لم يعقّب نايت. إن صحّت تقديرات ساندي، فإنّ شعب الجزيرة يعاني لا شكّ، وبمقدوره ورجاله المساعدة، بطريقة ما. إن قدّم لهم خدمة جليلة، فقد ينجح في طيّ صفحة الماضي وبدء فصل جديد. لا يعرف ما يخبّئه لهم الغد، لكنّه يتوقّع بنظرة تشاؤميّة أنّ إقامتهم على الجزيرة ستطول، أطول ممّا أراد أو تخيّل أيّ منهم.

تناهت إليه خطوات مرتبكة وأنفاس مضطربة تقترب، فرفع رأسه بانتباه، ما لبثت هامة نيلسون أن ظهرت خلال الأجمة وهو ينهج ويرتجف، هتف براندن ساخرًا:

- مرحبًا يا صاح، لقد وجدت الطريق أخيرًا!

استمرّ نيلسون يلهث ويهمهم وصوته مختنق بكلمات غير مفهومة وهو يشير بيديه، اقترب نايت ليسقيه شربة ماء من قربته ثمّ قال مهدّئًا:

- على رسلك يا رجل، هل أنت بخير؟

ازدرد نيلسون الماء وسحب نفسًا طويلًا، ثمّ همس ملهوفًا:

- أظنّني.. أظنني قتلتُ رجلًا!

(5)

اليوم الخامس بعد السّتين

لم يكن من اليسير تجفيف جهاز الإرسال الذي انتشله آدم من السّفينة الغارقة في حين لم تتوقّف الأمطار على الإطلاق. كان الموضع الوحيد الذي نجا من الرّطوبة هو داخل الكهف، لذلك تسلّل إليه وحيدًا ليُبقي الجهاز جافًا، ثمّ استدعى خيطه الحليبيّ الذي يحاكي الضّوء، بدفقات معتدلة -حتّى لا يتسبّب في انهيارات جديدة- ليدّفئ الدّارة الكهربائية ويطرد البلل، ويجلس القرفصاء أمامه، يعدّ الثّواني ويستعجل جفافه.

سرّه أن يتحسّن تحكّمه في قدراته مع الوقت، يؤدّي تغيير طفيف في قوّة سحب الخيط أو تسليط الطاقة أو مقدار تركيزها إلى تجلٍّ مختلف، وهو يحتاج إلى أن يكون دقيقًا وحريصًا لتجنّب كارثة أخرى. إذا سجن نفسه داخل الكهف ثانية، فلن يجد روان إلى جواره لمساعدته على سرعة التّعافي.

بعث الخاطر ألمًا حادًا في صدره. سيجد وسيلة لاستعادتها، يمنّي نفسه بأنّه يفعل الصّواب، يشغل وقته بالأمر الصّحيح. فيما ينسى الآخرون أمرها، ينهمكون في مسائل الحياة اليوميّة ويفكّرون بشؤون المأكل والمسكن وتأثير العاصفة التي لا تتوقّف، لا يجد في فؤاده ذرة رغبة في الحياة، إذا لم تكن روان إلى جواره.

قد يكون في نظرهم رومانسيًا ميؤوسًا منه، لكنّه يرفض أن يستسلم للعجز. هذا ما يفعله. لن يكون مُخلّصًا لأحد، فقد قبِل المهمّة من أجلها. لن يتحمّل مسؤوليّة قوم رضي بالانتماء إليهم فقط إكرامًا لها! وما الذي

يُبقيه على الجزيرة ويحجزه في تلك البقعة من الأرض إن لم يكن معها؟ أيّ معنى لكلّ ما أقدم عليه خلال الشّهر المنصرم إن كان سيفقدها في نهاية الأمر؟

إنّ اللّحظة التي يعلن فيها استسلامه وتوقّفه عن المحاولة ستكون أوان فكّ ارتباطه بـ«آرا» وسكّانها لا محالة. وما الذي سيبقيه مع هؤلاء القوم بعد الآن، إن لم يكن أمله في عودتها؟ سيكون عليه الانطلاق نحو آفاق بعيدة، فربّما تلتقي سبلهما في أرض أخرى وزمن آخر.

لكنّها ربّما تعود أيضًا، في وقت ما، بعد أن تفرغ من التّعامل مع مايك.

ما إن تستعيد حرّيتها ستجد سبيلها إلى الجزيرة، بطريقة ما.

فالهجناء يعرفون الطّريق، أليس كذلك؟

تتأرجح الأفكار في رأسه مثل ضربات البندول المطّردة، فيتقلّب مزاجه إلى أعلى وأسفل. إن كان يرجو لقاءها قريبًا، أو ذات يوم.. فخياره الوحيد أن يُلازم «آرا». أصابه الإحباط وهو يصل إلى ذلك الاستنتاج المرير. لا يملك شيئًا غير الانتظار.. والأمل.

لكنّه لم يفرغ من عمل «ما باستطاعته» بعد.

حين يجفّ جهاز الإرسال والاستقبال -ويتوقّف المطر- سيُرابط عند حدود الظلة وسيحاول التقاط إشارة ما. ليس واثقًا أنّ إشارتها قد تكون قريبة بعد فيتمكّن من التّواصل مع اليخت، أم أنّه سيضطرّ إلى الابتعاد أكثر عن الجزيرة ليحصل على تغطية أفضل؟

لا يفكّر في هذا بعد.

سيمضي خطوة خطوة، ويكتفي بما يسعه تغييره.

احتضنت كفّه «حجر الشّمس» بحجم حبّة عنب، قلادة روان. فقدها في أثناء مطاردة الرّجال المسلّحين لهم في مدخل الكهف، وقد بقيت هناك، مجرّد حجر بين الأحجار لا تشدّ الانتباه، حتّى عثر عليها بالأمس. فكّر

مرّات في اقتفاء أثرها عبر الطّرقات التي قطعها تلك الليلة، لكنّه تحرّك كثيرًا منذ افتراقه وروان عند «ملجأ العشاق»، في الغابة وبين التّلال وداخل الكهف.. وقد كان من حسن طالعه أن بدأ البحث داخل الكهف ذاته.

لقد تحسّر كثيرًا على فقدانه هديّتها، القلادة التي لم تفارق عنقها قبل ذلك قطّ، وقد سرّى عنه أن يعثر عليها بعد ذلك، ليحتفظ بشيء منها، ليس أنّه قد ينسى أو يغفل وليس أنّه بحاجة إلى أثر ماديّ يذكّره بها، إلا أنّ العثور على القلادة يزيد من يقينه الدّاخليّ بالعثور على روان نفسها قريبًا.

شعر بالحركة على مقربة، خطوات صغيرة متردّدة تلتقطها أذناه حادّتا السّمع. منذ استيقاظ هبته وشروعه في التحكّم بالخيوط، أصبحت حواسه أكثر رهافة، تلتقط كلّ نأمة وتبصر التّفاصيل الدّقيقة على مسافة، لذلك ميّز حضور ريحان قبل أن تظهر من وراء الجدار.

- يمكنك الظهور.. تعالي إلى هنا.

برز رأس الصّغيرة في خجل، وجاءت لتقف إزاءه منكّسة الرأس. سألها بلهجة حانية:

- ما الذي جاء بك إلى الكهف؟ أنت تعلمين أنّ هذه المساحة ممنوعة على الصّغار.

رفعت عينيها وقالت بقوّة:

- ماهر اكتشف موهبته مبكّرًا لأنّه كان داخل الكهف.. من يدري، ربّما أكون معالجة، لن أعرف ذلك إن لم أجرّب!

تتغيّر الثوابت وتنهار القواعد في زمن الأزمات، حتّى الصّغيرة ريحان لم تعد تعتبر الكهف خارج الحدود المتاحة. شعر بألم ينبض في صدره، إنّها تشير إلى حاجة الـ«آم» إلى مزيد من المعالجات، في غياب روان يصبح العبء شديدًا على مارتا وقمر، حتّى إنّ ريحان تشعر بمسؤولية ما تجاه قومها. ربّما عليها أن تكون معالجة، ألم تُفضِ إليه بحلمها ذاك في لقائهما الأوّل؟

- ما هذا بيدك؟

- جهاز اتّصال..

كانت نظراتها الفضوليّة تحدّق بالآلة بين يديه. لقد سألها في وقت سابق عن وسائل الاتّصال في عالمها، وربّما إذا سمحت الفرصة سيعلّمها كيف تتواصل مع السّفن العابرة. إنّها هجينة أخرى، وقد يكون مصيرها الرّحيل ذات يوم لتحقيق مخطّط والدها.

- هل يعلم والداك أنّك هنا؟

هزّت كتفيها.. بدت تلك علامة نفي.

- ستقلق والدتك عليك.

- أنا محبوسة منذ بدأت العاصفة، أشعر بالاختناق.

- لأنّ وجودك في الخارج بمفردك خطر عليك.

- لستُ خائفة.

لا يعرف الأهوال التي مرّت بها خلال الأيّام التي سيطر فيها رجال مايك على الجزيرة، لا شكّ أنّها تغيّرت، لم تعد الفتاة المرحة ذاتها التي عرفها إبّان وصوله -متفائلة، منطلقة ودائمة الابتسام- تحمل على كاهلها طاقة حزن رهيبة يكاد يستشعرها عن بعد. هذا ما تفعله الحروب بالأطفال، تسلبهم البراءة والنّقاء وتفتح عيونهم في وقت مبكّر على بشاعة العالم.

- هل تعتقد أنّ روان ستعود؟

التقط غصّة الدّمع في صوتها النّديّ، وعيناها تلتصقان بالأرض موارية انكسارها.

- هيا.. انظري إليّ!

ارتفعت عيناها وظهرت شفتاها المرتجفتان منذرتين ببكاء قريب. قال آدم بثقة:

- ستعود.. أعدك.

أومأت برأسها بقوّة تؤيّده. ربّما تفتقد روان كما يفعل، وربّما أكثر. ربّما أخطأ التّقدير حين اعتقد أنّ الآخرين ينسون أمرها وينهمكون في هموم الحياة. ربّما يشغلون أنفسهم وحسب حتّى لا يستسلموا للألم الممّض، هل حسب أنّه سيكون أشدّ حزنًا من والديها وشقيقيها وهو الذي دخل حياتها منذ شهرين وحسب؟ جاهد ليحبس عبرته وهو يهمس بصوت أقرب إلى الحزم:

- والآن، اخرجي من هنا قبل أن يصيبك مكروه.
- لا تقلق، لا أشعر بالألم. ربّما لا أكون معالجة حقًا.

ابتسم برفق وقال:

- ما زال الوقت مبكّرًا.. لا تستيقظ الهبة قبل سنّ السّادسة عشرة. أمامك ستّ سنوات إضافية لتعرفي الحقيقة.

ذلك ما قاله معلّمه نوح، وينشأ الـ«آم» يردّدونه. وربّما يتلفّظ بهراء لا قيمة له، فالهجناء مختلفون. لقد شعر بالحجر في سنّ الثامنة، كان جسده مختلفًا لأنّه تعرّض للشّمس على خلافهم جميعًا، لذلك لا يتبع النّمط الطبيعيّ للتجاوب مع الـ«مادرا».. أمّا ريحان، فلا يدري. لا أحد يعرف سرّ جينات الهجناء حقّ اليقين.

هزّت كتفيها، ومسحت عينيها الدّامعتين بكمّها المبلّل، ثمّ قالت فجأة:

- عيناك.. ظننت لونهما أسود!
- هما كذلك.
- تبدوان عسليّتين الآن..
- ربّما هي إضاءة الـ«مادرا» تخادع بصرك. أظنّ أنّ هذه إشارة الرّحيل أيتها الصغيرة.

بعد أن انسحبت ريحان، انتابته رغبة بكاء أخذت تتصاعد في حلقه، أخذ أنفاسًا قصيرة وسريعة مقاومًا ضغط الألم على صدره. كم يتمنّى أن يكون وعده لريحان صادقًا.

حين تتوقّف العاصفة، ستعود روان.

عليه أن يؤمن بذلك.

***

شهقت مانويلا وهي تفيق من غفوتها على إحساس شنيع بالبلل.

لم يتوقّف انهمار المطر فوقهم طيلة الليلة الماضية، إلا أنّ إحساسها بالماء كان يأتي من الأسفل هذه المرّة. بعد ساعات من التشبّث المستميت بالحبال للحفاظ على ثباتهم داخل القارب المطاطي، استقرّ القارب تدريجيًا وخفتت حدّة الرّياح، فاستسلم الركّاب للنّوم واحدًا إثر الآخر.

حين فتحت مانويلا عينيها، كان القارب يمتلئ ماءً ويكاد يفيض، تعوم عبوات الطّعام والماء الصالح للشراب وتطفو، وبدا من المرجّح أنّهم قد فقدوا عددًا منها بالفعل بسبب التأرجح المستمرّ.

انتفض كريس وتشبّث بحقيبته الطبيّة التي كادت تفلت لتسقط عن جانب القارب وهتف يوقظ الآخرين:

- نحن نغرق! هيّا.. أفرغوا القارب من الماء!

استعاد الرّكاب وعيهم واحدًا إثر الآخر وانبروا يغرفون الماء بأكفهم ويفرغونها في المحيط، مضت دقائق من العمل الجماعيّ المحموم حتّى انخفض مستوى الماء داخل القارب بقدر معقول، لكنّ تساقط المطر المستمرّ جعل من المستحيل الخلاص النهائي من كلّ الماء حولهم. رفعت مانويلا صوتها لتتكلّم بالإنجليزية أولًا ثمّ ترجمت إلى العربية حتّى يبلغ مرادها الجميع:

- يجب أن ننقسم إلى مجموعات.. يجب ألا ننام معًا في الوقت ذاته.. بعضنا يبقى متيقظا حتّى لا نغرق!

جرى التّقسيم بسرعة: مانويلا وروان وأوران في المناوبة الأولى، ثمّ كريس والقبطان في المناوبة الثانية، ثمّ البحّارة الآخرون في مناوبة ثالثة. جاء بعد ذلك دور إحصاء الخسائر. فقد بعضهم عددًا لا بأس به من عبوات الطّعام، فاضطروا إلى إعادة توزيع المؤونة. كانوا يملكون ما يكفيهم جميعًا لأسبوع أو يزيد، أمّا الآن فقد بات مخزونهم محدودًا وقد ينفد خلال أيّام قليلة. ربّما لا يعدّون أمر ماء الشّرب حرجًا بعد، فيمكنهم إعادة تعبئة القوارير بماء المطر.. ما دام يستمر في النزول.

اطمأنّ مايك إلى سلامة كيس «حجارة الشّمس» الذي يبقيه قريبًا من جسده وتقبض عليه أصابعه حتّى في أثناء نومه، فهدأت أنفاسه بعد دقائق وبدا أنّه قد استغرق في النّوم من جديد. لم يتعافَ بعد تعافيًا كامل، وربّما يتسبّب التّعرّض للماء في انتكاسه، لذلك يثقله الطبيب بالبطانيات الحراريّة التي لم يحصل الآخرون على مثيل لها. أغمض كريس عينيه بدوره وحاول أن يعاود النّوم، مرّت لحظات من الهدوء لم يكن يُسمع خلالها سوى زخّات الودق التي تنقر على الأسطح وفوق رؤوسهم.

تململت مانويلا في مكانها، لم يكن البلل مريحًا وقد أخذ البرد يتسلّل إلى عظامها، إلا أنّ رفيقيها من سكّان «آرا» لم يُبديا شيئًا من الضّيق، تحرّكت عيناها لتتفرّس في ملامحهما السّاكنة، من بين جميع الرّكاب بديا الأكثر هدوءًا وسيطرة، رغم كونهما الأسوأ وضعًا، بالنظر إلى اختطافهما واقتيادهما بعيدًا عن موطنهما.

الآن وهي تمعن التفكير، تستحضر حين زارت مقصورتيهما منذ أيّام، كم فاجأها مدى ثباتهما واعتدادهما. حسبت أنّهما بحاجة إلى المواساة والطمأنة، لكنّ أحدهما لم يهتمّ بمبادرتها أو يتجاوب مع محاولات تقرّبها.

نقلت بصرها بينهما وحاولت أن تخمّن: هل يفكّران بأمر ما الآن؟ لقد صاروا جميعًا بلا حماية في وسط العاصفة، في الوقت الذي استولى فيه الفزع على أفئدة البحّارة أصحاب الخبرة، كانا يعرفان ما يفعلانه، تقريبًا. أم لعلّ ذاك ما تبدو عليه الملامح الطّبيعيّة لمواطنيهما؟ ربّما تجري منهما اللا مبالاة مجرى الدّم.

تابعت التّحديق لبعض الوقت منتبهة لكلّ حركة ونظرة، هل يضعان خطّة سرّيّة للهرب والتّخلّي عن جمعهم؟ هل يتبادلان رموزًا وإشارات صامتة دون أن ينتبه أحد؟ دائمًا ما شعرت بأنّ أوران يتصرّف بطريقة مختلفة حين تكون المعالجة في الجوار، كأنّ لها سطوة ما عليه، من منطلق منزلة اجتماعيّة أعلى أو وصاية من نوع ما.

رغم وعيها بأنّ روان زوجة آدم الآن -عرفت بنبأ زفافهما حين كانت في ضيافة المعالجة العجوز- فإنّها تشعر بنوع من الغيرة الصبيانيّة تجاهها. أينما حلّت، تحصل المعالجة الشابّة على الانتباه بلا اجتهاد أو عناء، رغم أنّ نصيبها من الجمال متواضع- من وجهة نظر مانويلا المعتدّة بحُسنها- لقد أشعرها حضورها بالقلق منذ لقائهما الأوّل على متن «الأسطورة»، كأنّها في حاجة إلى عمل شيء ما لتُثبت نفسها أمامها، أو لتنفي إحساسها بالتّهديد! وأيّ تهديد قد تمثّله تلك الصبيّة التي لا تكاد تبلغ العشرين، والتي لم تغادر جزيرتها الصّغيرة يومًا؟

لعلّها تهذي، تشعر بالحمّى تتسلّل إليها، ترتجف أطرافها ويغزو البرد مسامّها، لذلك تركّز على أشياء بلا أهمّية. إنّهم في عرض المحيط يبحرون بلا وجهة وقد يموت جميعهم إن لم تتوقّف العاصفة وإن لم يجدهم أحدهم قبل أن تنفد المؤن، لكنّها تجد نفسها تنفعل لأسباب واهية. ربّما عليها أن تطلب خافض حرارة من كريس، لكنّها لا تفعل، إذ لا تعلم كم يبلغ مخزونه من الدّواء، وكم سيطول هيمانهم في البحر الواسع. ربّما يجدر بهم

الاحتفاظ بمواردهم أطول وقت ممكن. ربّما تكون مجرّد نزلة برد، لكنّ الرّطوبة التي تكتنفها تشعرها بأنّ الوضع أسوأ ممّا هو عليه في الحقيقة. عادت تتململ، في حين ظلّ رفيقا المناوبة ثابتين مثل تمثالي شمع.

تحرّكت روان أخيرًا، أطلقت زفرة وعدّلت وضعيّة جلوسها، فأطلقت مانويلا ضحكة مفاجئة. استدارت الأعين تجاهها، حتّى كريس فتح عينيه وتطلّع إليها. ربّما يعدّونها مجنونة الآن، تنتابها رغبة ملحّة في الضّحك.. من نفسها، ومن الوضع الذي يحاصرها، يحاصرهم جميعًا.

- أليس هذا مثيرًا للسّخرية؟

نطقت كلماتها بصوت عالٍ، باللغة العربيّة، تابع كريس المشهد بعينين نصف مغمضتين، في حين جفل أوران لملاحظتها الغريبة. اقتربت منها روان باهتمام، وقد تيقّظت بداخلها غريزة المعالجة، لمست وجنتي مانويلا المتورّدتين ثمّ قالت:

- أنت مريضة!

أومأت مانويلا بهدوء ثمّ عادت تقول وقد تحوّل مزاجها إلى رغبة جامحة في البكاء:

- أظنّنا سنموت!

التفت إليها أوران بنظرة جزعة، ثمّ سأل روان بالآراميّة:

- هل هي بحال سيّئة؟

استدارت مانويلا نحوه بعبوس وهتفت:

- صرت تتكلّم الآن؟ حسبت القطة قد أكلت لسانك!

كانت وجنتاها ملتهبتين رغم انهمار الماء من فوقها، وقد زاد الانفعال من اشتعالها. تحرّك كريس واستقام في جلسته ثمّ شدّ حقيبة الإسعافات الأوّلية وهو يهمهم في استياء:

- لا ينقصنا مرضى إضافيّون هنا.. هاك، خذي الدّواء وتعافي بسرعة!

ألقى إليها شريط الحبوب الخافضة للحرارة فالتقطتها بحركة خرقاء، ابتلعت واحدًا مع جرعة ماء ثمّ أغمضت عينيها. سمعت صوت كريس يقول:

- ربّما يجدر بك الحصول على بعض الرّاحة.. سآخذ مناوبتك.

أومأت مانويلا برأسها ثمّ أسندت رأسها على جانب القارب المطاطي وحاولت أن تستغرق في النّعاس، يتصارع بداخلها الحرج والضّيق وبقايا الانفعال العابر. أسبلت أهدابها دقيقة واحدة، ثمّ رفعتها بهدوء واسترقت النّظر في اتّجاه أوران، لاحظت النظرات القلقة التي يلقيها تجاهها بين فينة وأخرى، لم يعد ثابتًا كحجر، بل راح يتململ في مكانه ويداه لا تهدآن، كأنّما يريد أن يفعل شيئًا لكنّه لا يعرف ماذا.

- هاتِي الحجر!

رفعت حاجبيها في دهشة، كان يحادثها، وإلا فمن غيرها يمكنه أن يترجم كلماته؟ نظرت إليه في استغراب، فقال بهدوء:

- لن يحاول أحدنا الهرب.. أعدك.

أومأت، تدرك أنّه مهما كان خارقًا للطبيعة فهو رجل في نهاية الأمر، يمشي على قدمين، ولا يطير في السّماء، سيحتاج إلى القارب للنّجاة مثلهم جميعًا. أم لعلّه يطير؟ لا تعرف كثيرًا عن هِبات المُسخَّرين، لكنّها اختارت أن تمنحه ثقتها. استدارت نحو والدها الذي ينام محتضنًا الكيس وقالت مخاطبة الطّبيب الذي يلازمه:

- كريس، نحتاج إلى حجر!

عقد كريس حاجبيه في ضيق، هل تطلب منه أن يسرق حجرًا من والدها؟ لكنّه استجاب لسبب يجهله، رفع البطانية قليلًا عن مريضه وسحب الكيس برفق دون أن يرفع كفّي مايك عنه حتّى صارت الفتحة

في اتّجاهه، فأماله أكثر حتّى تدحرج حجر في كفّه. تأمّل قطعة الـ«مادرا» الصّلبة التي تألقت بوميض باهر للعيون، ثمّ دفعها باتّجاه أوران.

تلقّى المُسخَّر الحجر ثمّ التفت نحو روان وقال بلهجة رجاء باللّغة الآراميّة:

- هل يمكنك عمل شيء من أجلها؟

حدّقت فيه روان برهة، كأنّها تتردّد، ثمّ دفعت زفرة عن صدرها وهي تتلقّى الحجر. إنّها تملك حجرًا يتدلّى من سلسلة معدنيّة تخفيه في طيّات ثيابها، لكنّ أحدًا لم ينتبه بعد إلى ذلك، ومن الأفضل أن تبقي الأمر على ما هو عليه، فربّما تحتاج إليه في وقت ما.

حجبت الحجر بكفّيها ثمّ سحبت نفسًا طويلًا كأنّها تسحب منه طاقة ما، بعد ذلك اقتربت من مانويلا ومرّرت كفّيها على رأسها وكتفيها فتألّق وميض أبيض ساحر على أطراف أناملها.

تذكّرت مانويلا عناية السّيدة مارتا بها على الجزيرة، وانتبهت إلى التحوّل الفوريّ في طاقتها وعافيتها، ابتسمت في امتنان ثمّ استرقت نظرة إلى أوران الذي يتظاهر بالانشغال، قالت بعد لحظات:

- هل يمكنكِ الاهتمام بوالدي؟

عبست ملامح روان وانكمشت على الفور، ربّما لا تعتبر مانويلا عدوّة لها، لكنّ مايك راسل لم يكن الشخص الذي قد تهتمّ بحياته من موته. تراجعت مانويلا وقد أدركت أنّها بالغت في أطماعها. راقبت أوران وهو يستعيد الحجر، سحب معطف المطر إلى الأمام ليصنع مساحة جافّة قرب صدره حيث آوى الحجر. انحبست أنفاسها وهو يركّز انتباهه على القطعة المتوهّجة في حجره، ثمّ تفجّرت شموس صغيرة في الهواء! تضاعف وميض الحجر لتحيط به هالة منيرة.. ودافئة. قال أوران:

- اقتربوا!

همز الرّكاب بعضهم بعضًا فانتبه النّائمون ومال كلّ واحد منهم إلى الأمام يلتمس شيئًا من الدّفء الذي يصدره الحجر. رفع كريس معطفه ليفرده فوق رؤوسهم مثل مظلّة تقيهم المطر وساعد مايك على التموضع قرب مصدر الحرارة، حذت مانويلا حذوه وقد شعرت بتحسّن وكذلك فعل أحد البحّارة، كان عليهم رفع أكفّهم طوال الوقت لإبقاء المعاطف المانعة للمطر فوق رؤوسهم والثّبات في أماكنهم حتّى لا تسقط قطرات الماء فوق الحجر. ربّما لن يجفّف «حجر الشّمس» بللهم، لكنّ قدرة المُسخِّر ستبقيهم دافئين بعض الوقت، وهم مستعدّون لتحمّل العناء في سبيل ذلك.

زمجر مايك في امتعاض حين اكتشف تعدّي الآخرين على مساحته الخاصّة واستعارتهم للحجر دون إذن منه، فتمتم كريس بكلمات اعتذار في أذنه تصحبها تبريرات مقنعة، فانتهى اعتراضه عند ذلك الحدّ. إن كان للحجر فائدة عاجلة في محنتهم تلك فهو لا يمانع مشاركته.. مؤقّتًا.

ربّتت مانويلا بلطف ذراع والدها وسألت إن كان يشعر بتحسّن، ثمّ عادت إلى زاويتها. لم يذكر أحدهم صنيع المعالجة ودوره في تعافيها السّريع، وهي فضّلت ألا تنشأ مشادّة بين والدها وأسيريه في ذلك الظّرف الدّقيق. استمرّت ترمق أوران بنظرات جانبيّة قصيرة جعلت تطيلها تدريجيًّا، بدا وجهه مشرقًا ببريق خاصّ وقد ألقى الحجر المتوهّج هالة من نور على ملامحه الصّارمة فصارت أشدّ وسامة. أرادت أن تعتذر عن فظاظتها منذ حين، لكنّ التقارب الجسديّ بين أفراد المجموعة، ويقظة والدها جعلاها تشعر بحرج مضاعف. تجلس روان بينها وبين أوران، ويحاذيها القبطان وإلى جانبه كريس ووالدها، وتنغلق الدّائرة باثنين من البحّارة إلى جوار أوران.

انسحبت الدّماء عن وجهها حين التقت عيناها بعينيه وقد ضبطها تتأمّله، لكنّها لم تتراجع مثل المذنبة، بل ثبّتت نظرتها في جرأة. في تلك

اللّحظة كانت تشعر بمزيج من المشاعر المضطربة، امتنان لاهتمامه بشأنها وطلبه تدخّل المعالجة، وخجل من عجزها عن تنفيذ أيّ من الوعود التي ألقتها أمامه في مناسبات مختلفة، وسرور لأنّه أثبت كونه رجلًا يعتمد عليه في أوقات الشدّة، وافتتان بحضوره المهيمن أمام ثلّة من الرّجال الأقوياء الذين أذّلتهم الأزمة.

لقد تزوّج آدم! كانت تحسب نفسها أكثر شجاعة منه، لكنّه عرف ما يريده حين استدعى الطرف الإقدام على أمر جنونيّ في نظر الجميع.

قرّرت في تلك اللّحظة أنّها لن تتخلّى عن أوران بعد الآن.

حسنًا.. إذا قَبِلها.

***

حسب نايت أنّ نيلسون يتخيّل.

حين جاءهم بالأمس شاحبًا كالأموات يرتجف فرقًا لقتله واحدًا من السّكان المحليّين، رافقه هو وساندي وبراندن إلى الموضع الذي ادّعى أنّ الرّجل قد سقط فيه. خلال ساعة كاملة سيفتّش أربعتهم المحيط بدقّة دون أن يعثروا على جثّة أو أثر للدّماء. إلا أنّ نيلسون أقسم مرّات ومرّات بأنّه رأى الرّجل يسقط بعد أن استقرّت المدية الحادّة في صدره.

لم يكن يقصد أن يقتل -شرح ثانية بلسان مرتبك- إنّما كان يصطاد، شعر بالحركة بين الشّجيرات وهو يسعى وراء أرنب أبيض ناصع، لم يرد أن يعود خالي الوفاض بعد ساعات من المطاردة ولم يتوقّع أن يتوغّل أحد من السّكان إلى عمق الغابة في ذلك الوقت من اللّيل، كان واثقًا بأنّه سيوقع بالأرنب لا غير، لذلك سدّد عشوائيًا وقد أنهكه التّعب والحيوان الصغير يتفلّت منه باستمرار.. إلا أنّه سمع الشهقة المكتومة للرّجل الذي أصيب في مقتل، قبل أن تتهاوى جثته العظيمة على الأرض.

حين عبر الأجمة وانكشف المشهد أمامه صدمه ما رأى. لقد قتل رجلًا، رجلًا شاحبًا ذا ضفائر شقراء بلاتينيّة. لقد قتل كثيرين في الأيّام الماضية دون أن يرفّ له جفن، إلا أنّ نجاتهم هذه الأيّام تعتمد على بقائهم مختبئين وعدم تصادمهم مع أهل الجزيرة، لذلك أصيب بالهلع. تسبّب الخوف في تشوّشه، فتاه في طريقه إلى المخيّم حتّى وجد طريقه أخيرًا.

قال براندن وهو يهزّ كتفيه:

- ربّما كنتَ تتخيّل. لقد كنّا نتناول نباتات وفواكه بريّة غير مألوفة، هذا يمكنه أن يعبث بعقلك.

رفع نيلسون صوته يقسم مرّة أخرى:

- أقسم لك، لقد رأيته بعيني رأسي! ولم آكل شيئًا منذ الصّباح، أنا لا أتخيّل!

زوى نايت ما بين حاجبيه وهو يجيل بصره مرّة أخيرة في المكان:

- ربّما لم يمت.. قد يكون وقف وغادر على قدميه.

اشتدّ هلع نيلسون، إن كان القتل أمرًا سيّئًا فإنّ نجاة القتيل أسوأ. سيرجع إلى القرية ويخبر رفاقه عمّا حدث، وسيأتون للانتقام لا محالة. إنّ كلّ ما فكّر فيه هو أن يحفر حفرة عميقة داخل الغابة ويخفي الجثة حيث لا يمكن العثور عليها، كان عليه أن يفعل ذلك على الفور لولا أنّ الذعر استبدّ به.

رجع الرّجال إلى المخيّم بعد ذلك واجمين، ونام نيلسون نومًا مضطربًا متقلّبًا تتخلّله الكوابيس، سيأتي السّكّان المحلّيون من أجله. همس لنايت في الصّباح معتذرًا:

- أنا آسف يا رجل، سأعرّض حياتكم جميعًا للخطر.

ربّت نايت كتفه مهوّنًا، وإن لم يكن يشعر بالطمأنينة إلا أنّه لم يشأ أن يزيد من توتّر المرتزق. جميعهم قلقون ومتململون. قال بنبرة أبويّة متعاطفة:

- ربّما يجدر بك البقاء في المخيّم اليوم.

أومأ نيلسون موافقًا، كان الإرهاق يغمره بعد ليلة سيّئة للغاية.

- سأعود إلى النّوم إذًا.

فيما انطلق الرّجال لجمع الفواكه والصّيد مثل كل يوم، استلقى نيلسون في فراش الورق وحاول عبثًا أن يحصل على بعض الرّاحة. أوصاهم نايت بالحذر والبقاء في فرق يحمي بعضها ظهر بعض، إن كانوا سيواجهون أهل الجزيرة فيجب ألا يبقى أحدهم منفردًا.

باستثناء نيلسون، الذي بقي وحيدًا في المخيّم.

مرّت الفترة الصّباحيّة دون حوادث تذكر، وقد حافظوا على يقظتهم طيلة الوقت، بعد ساعات كانوا قد نسوا أو كادوا أمر القتيل المحتمل وأخذوا يتندّرون فيما بينهم بأنّ نيلسون يرى أوهامًا. منذ أنقذه نايت من الغرق ظهرت عليه أمارات الاضطراب بشكل متكرّر، إنّه يتوهّم وحسب.

إلا أنّ نايت لم يستطع أن يركن إلى ذلك التّفسير السّهل. وهم في طريقهم إلى موقع المخيّم، لم يستطع أن يطرد هاجسًا قاتمًا بارتكابه خطأً فادحًا. لم يكن يجدر بهم ترك نيلسون بمفرده. إلا أنّه شعر بالارتياح حين ألفاه نائمًا في سريره مثلما تركه صباحًا، لم يكن هناك من داعٍ للقلق المبالغ به. أشار إلى الرّجال بالبقاء هادئين ليحصل نيلسون على مزيد من الرّاحة. اهتمّ بتوزيع حصص الطعام ثمّ اقترب من سرير نيلسون الذي يولّيه ظهره، حرّكه بلطف أولًا فلم يستجب فاضطر إلى النداء عليه بصوت عالٍ ثم عاد ليحرّكه بشدّة أكبر فانقلب على ظهره.

شهق نايت وهو يتراجع إلى الخلف مبغوتًا ويطالع بنظرات زائغة وجه نيلسون الشاحب وقد تجمّدت في عينيه علامات الرّعب الأخيرة قبل أن تفارقه الرّوح.

(6)

اليوم السّادس بعد السّتين

ليلة أخرى مضت ولم يغمض لأرابيلا جفن.

غفت قبيل الفجر متّكئة على العمود الخشبيّ وهي تحتضن كفّ صغيرتها ريحان التي لم تتوقّف عن الارتجاف. لم يتعوّد الـ«آم» ذلك النّوع من البرد الشّديد الذي يزحف على الجلد وتتشرّبه المسام حتّى يسكن العظام، لكنّ المطر الذي جاء قبل الأوان وطاب له المقام يذيقهم الويلات منذ أيّام.

خرجت بالأمس للمرّة الأولى منذ أسبوع لتعثر على بعض الجذور وتجمع الثمار وأوراق الشجر، بعد أن خلا الكوخ من أيّ شيء صالح للأكل. ثم غسلتها في مجرى النّهر، حاولت وهي تتنقّل بالمظلّة فوق رأسها أن تُبقي ثيابها جافّة، غاصت قدماها حتّى منتصف ساقها في برك الماء الموحلة ورفعت ثوبها برفق لتُجنّبه الطين والبلل، إلا أنّها في نهاية المشوار كانت مبتلّة رغم ذلك!

كان ثوبها الوحيد المتبقّي. ليتها غزلت لنفسها عباءة إضافيّة بعد الحريق، لكنّها انشغلت بأثواب العروسين ولم تفكّر في نفسها، ستضطرّ إلى تحمّل الأدران والرّطوبة حتّى يجفّ الثوب بمعجزة ما.

في طريقها، توقّفت أمام عرائش الغابة التي أنشأها السّكان بعد حريق القرية، غدت الأعمدة الخشبيّة أثرًا بعد عين، وقد سحبتها السّيول المتدفّقة وقوّضت أُسسها فانهارت فوق رؤوس أصحابها. وضعت يدها على صدرها وهي تتفقّد الأبنية الخالية الآن، لا شكّ أنّ سكّانها قد غادروها

إلى مأوى جديد، تساءلت وهي تسير بذهن شارد أين ذهبوا.. إلى بناء المدرسة؟ أم إلى دار العبادة؟ كلّ بناء يتصدّع يزيد من الأعداد المحشورة داخل المباني العامّة. لهج لسانها بالثناء والحمد لأنّ كوخ عائلتها لا يزال صامدًا.

حين وصلت إلى الكوخ حيث تركت ريحان وشدّدت عليها ألا تغادر المأوى في غيابها، وجدت المكان خاليًا من الصبيّة، والأرضيّة مشبعة بالماء وقد تجمّع المطر في الزّوايا. شهقت في فزع وانبرت تحاول تجفيف الأرضيّة ما أمكنها، وهي تغالب دموع القهر.

لم يكن بيتها مُحصّنًا في وجه العاصفة، وإن كان ابنها مروان قد أضاف أعمدة أخرى في الأيّام الماضية، يقطّع الخشب بضربات حاسمة صار يتقنها بفضل هبته الفريدة، ويحمل الألواح على كتفيه ثمّ يثبّتها في الأرض الطينيّة لتسند السّقف الذي يكاد يتهاوى فوق رؤوسهم. لكنّ مروان لا يبيت في الكوخ كلّ ليلة، وبالأمس لم يأت.

تبلّلت البُسط التي تفترشها فوق سعف النخل المنضّد على الأرضيّة بعد أن تسرّب الماء من مكان ما، أخرجت المفارش وعصرتها في الخارج تحت المطر المنهمر، تنفض قطرات فتتلقّى غيرها، ثمّ علّقتها إلى أوتاد في الجدران لعلّها تجفّ. بعد ذلك غرفت بأدوات الطّبخ الماء المتجمّع في الزّوايا، فهالها أنّ الماء استمرّ يتسرّب إلى الدّاخل رغم سعيها، وأدركت أنّ الحاجيات القليلة ستطفو قريبًا إن لم تفعل شيئًا.

حبست العَبرة وعضّت شفتها السّفلى وهي تنحني خارج الكوخ، تُهيل الطّين اللزج أسفل الجدران الخشبيّة لتمنع المطر من اقتحام بيتها. عادت ريحان إلى خاطرها فيما تعمل يداها بلا توقّف، أين اختفت الفتاة؟ هل شعرت بالبلل فاحتمت في مكان ما؟ تسلّل الجزع إلى صدرها وبيّتت النّية أن تتقصّى أمرها حين تفرغ من مهمّتها العاجلة.

يقضي زوجها يومه ينظر في شؤون الآخرين، تحتّم عليه مكانته كحكيم مبجّل أن يتصدّى للأزمات ويفكّ الكربات، جاهلًا أنّ أركان بيته تتصدّع. لا يسعها أن تلومه فهو يعالج الحزن والقلق بطريقته الخاصّة، ولطالما كان السّعي في حاجات النّاس وسيلته المثلى. اختلط عرقها بالماء الذي أصبح يسيل داخل ثوبها ويجعل طبقات ملابسها الرطبة يلتصق بعضها ببعض ويتعلق بجلدها، تتوق إلى حمّام دافئ وثياب نظيفة، وتشتاق إلى روان. لو أنّ روان كانت هناك لعرفت كيف تحافظ على الكوخ جافًا.

اختنقت بعبرتها عند ذلك الخاطر. روان مهجة الرّوح ورفيقة الفؤاد، صبيّتها الكبرى وأوّل أفراحها، ليتها تعود ويتوقّف المطر!

حين فرغت من معالجة الجدران بالطّين، كانت مقلتاها قد جفّتا وغسل المطر المنهمر وجنتيها، ولولا الاحمرار في مآقيها لذهب كلّ دليل على بكائها. زفرت داخل الكوخ المتماسك والجافّ تقريبًا وقرّرت أنّ عليها تحضير وجبة اليوم.

بعد ساعات، ظهرت ريحان مبتلّة حتّى النّخاع، فلم تسألها أرابيلا عن غيابها. جفّفتها بالألحفة التي لم تجفّ بعد وأطعمتها اليخنة التي تعوّدت كلتاهما طعمها الماسخ، ثمّ افترشتا الألحفة ذاتها لتمنع عنهما خشونة السّعف ولزوجة الطين. في الخارج استمرّ ماء السّماء يتهاطل بلا هوادة، فاحتضنت أرابيلا الطّفلة وغنّت لها تهويدة لتنام.

لكن ريحان كانت تستيقظ كثيرًا خلال اللّيل، وتهمس في كلّ مرّة:

- أشعر بالبرد.

فتضمّها أمّها أكثر، وتتقاسمان الرّطوبة وحرارة الأجساد.

المطر رحمة؛ دائمًا ما كان رحمة ونعمة، يسقي الزّرع ويروي العطش، وبفضله تستمرّ الحياة على الجزيرة، لكنّه يستحيل عذابًا في تلك الأيّام القاسية. الحريق والسّلاح كانا عدوّين ظاهرين يعرفون كيف يتعاملون

معهما، يتقبّلون الخسائر وينهضون على أقدامهم صامدين، لكنّ الماء والبرد عدوّان من نوع آخر؛ غادران ومخادعان، تستهين بهما فيفتكان بك من حيث لا تدري!

***

تقدّم نايت عبر الغابة بحذر، يخطو بحذائه العسكريّ فوق الحشائش الرّطبة ويتوغّل إلى المناطق التي سبق وحذّر رجاله من الاقتراب منها، سمع براندن يغمغم في أذنه:

- لا أشعر أنّها فكرة سديدة!

ألقى عليه نظرة عابرة من فوق كتفه ولم يعلّق، استمرّ جمعهم يسير في سكون مصغين إلى كلّ حركة تتخلّل الأشجار، فيما ينهمر الماء فوق المظلات المصنوعة من عرائش النّخل التي يغطون بها رؤوسهم. لم يبدُ أنّ أحدًا من السّكان المحليين قد يأتي للقائهم على أطراف الغابة، وكأنّهم يتجاهلونهم. ربّما يضمرون النّفور، إلا أنّهم لا يواجهونهم بعد أن حصلوا على ثأرهم لصاحبهم المقتول.

حين تجلّت الصّخور الجيريّة المرتفعة أمامهم أصبحوا مكشوفين تمامًا، لا تخفيهم أغصان الشّجر المتشابكة عن العيون، ومع ذلك فقد تابعوا التقدّم بثبات نحو المباني العامّة التي سبق وكانت لهم السّيطرة عليها منذ أيّام. أشار نايت إلى الرّجال من ورائه بالتوقّف ورفع صوته بالنّداء:

- هل من أحد؟ نريد التحدّث إليكم!

لبرهة، لم يصدر أيّ صوت ينمّ عن حضور بشريّ في الجوار، أم لعلّ تساقط المطر الغزير طمس الأصوات كلّها. بعد لحظات ظهرت عيون متلصّصة حذرة من وراء سور المدرسة المنخفض، ثمّ ظهرت ظلال عند مدخل دار العبادة. مرّت لحظات توتّر قبل أن يشقّ صوت عمّار الهادر العاصفة:

- لقد تركناكم وشأنكم! ما الذي تريدونه الآن؟
- نريد المساعدة، إذا سمحتم لنا.
- المساعدة؟ ولماذا نقبل المساعدة من أعدائنا؟ لقد نجا قومي من العواصف والجوع ووحشيّة الغرباء من قبل، وسيفعلون هذه المرّة أيضًا. لسنا بحاجة إليكم!

تصلّب فكّ نايت وهو يقول بإصرار:

- ربّما لستم بحاجة إلينا.. لكنّنا قد نجعل الظروف أقلّ قسوة.

مال عمّار إلى الوراء في أنفة وثبات وقال بلهجة اعتزاز:

- سنتجاوز العاصفة بوسائلنا الخاصّة، فاحتفظوا بنواياكم الحسنة!

لانت نبرة نايت وهو يتنازل أخيرًا أمام شموخ محدّثه:

- نريد تعايشًا سلميًا.. قد نضطرّ إلى البقاء هنا.. لبعض الوقت. لا نملك وسيلة للعودة إلى الدّيار.. لذلك، أرجو أن تسمحوا لنا.. بالبقاء!

سمع عمّار كلمات احتجاج من الحكماء المتوارين بالدّاخل، على اقتراب الغرباء من القرية، رغم أنّ أحدًا منهم لم يفقه كلمة ممّا قال نايت. تجاهل عمّار الضّوضاء من ورائه وتقدّم تحت المطر حتّى صار على مسافة أمتار قليلة من مجموعة الدّخلاء، أحصاهم بهدوء.. ستّة رجال، ستّة ناجين من العاصفة الأسطوريّة التي صنعها آدم في عرض المحيط. كانوا سبعة بالأمس -وفقًا لتقارير الحرّاس- لكنّهم فقدوا واحدًا.

منذ يومين مات واحد من الشباب، ثقبت مدية حادّة صدره فيما يصطاد برفقة أولاد آخرين، ورغم أنّهم أحضروه على جناح السّرعة إلى المعالجة، فإنّها لم تنجح في إعادة الرّوح إلى وعائها بعد أن فارقته. قال عمّار بلهجة حازمة:

- ماذا عمّا حدث في الغابة منذ يومين؟

- كانت مجرّد حادثة غير مقصودة.. وقد حصلتم على القصاص. نريد للقتل أن يتوقّف! لذلك نعرض هدنة.

تساقط المطر بينهما ودوّى هزيم الرّعد من بعيد فارتجفت الأفئدة. سأل عمّار ثانية:

- إذًا.. كيف يمكنكم مساعدتنا؟

- الأمطار، إنّها لا تتوقّف.. والمباني كلّها مهدّدة!

أشار إلى أسوار الحجارة الواطئة التي أنشأها رجال القرية بمساعدة من المُسخّرين الشّبان لحماية التربة من الانجراف حول أسس المباني الصّامدة، أمّا العرائش المؤقتة على جوانب الغابة، فقد أهملها قاطنوها بعد أن أثبتت عدم قدرتها على حمايتهم. اللّيلة السّابقة كانت الأسوأ على الإطلاق منذ بداية العاصفة، يبيت نصف السّكان داخل المباني العامّة ويرتجف النصف الآخر داخل الأكواخ المتداعية التي تقطر ماءً.

- لدينا رجال ذوو خبرة هنا، ونمتلك وسائل من عالمنا.. أدوات وبقايا من حطام السّفن.. أجزاء معدنيّة وبلاستيكيّة عازلة، ونعرف كيف يمكن أن نحمي المباني ونؤمّنها ضدّ المطر.. إذا سمحتم لنا، فنحن نعرض خدماتنا!

لبث عمّار هادئًا يطالع سحنات الرّجال المظلمة تحت مظلاتهم العريضة متشكّكًا.

- وما الذي تطلبونه مقابل هذا؟

- لا شيء! لا شيء أكثر من كرم تقبّلنا على الجزيرة!

- سيحتاج المجلس إلى نقاش المقترح.

- بالتّأكيد.

تردّد عمّار قبل أن يولّيهم ظهره:

- ابقوا هنا.

أومأ نايت بهدوء، فيما تراجع عمّار وهو يخوض في برك الماء والوحل بقدمين حافيتين على عجل. تململ ساندي في مكانه فيما استمرّ براندن يرمق العيون المتطفّلة التي تطلّ عليهم من المباني المجاورة، غمغم متذمرًا:

- لا أعلم لماذا نفعل هذا.. نحن قادرون على حماية أنفسنا، وهم لا يملكون شيئًا ضدّنا..

كانوا قد ناقشوا الأمر مطوّلًا قبل أن يُقدموا على تلك الخطوة الجسور، شرح نايت باستفاضة وجهة نظره. لم تكن مسألة تعايشٍ سلميّ وحسب، بل تكفيرٍ عمّا بدر منهم من وحشيّة في وقت سابق، وتمهيدٍ لمرحلة استقرار على الجزيرة. إذا أثبتوا نواياهم الحسنة خلال فترة الأزمة، ستتغيّر نظرة السكّان إليهم وستذوي العداوة بينهم بسرعة أكبر.

لم يكن الرّجال على رأي واحد، ما زال بعضهم يكنّ احتقارًا لهؤلاء القوم البدائيّين ويترفّع عن مخالطتهم أو اعتبارهم مجتمعًا حقيقيًا يُعامل بنديّة، وما زال اكتشاف جثّة نيلسون الذي خُنق في فراشه حتّى الموت يثير في نفوسهم الغثيان. بالأمس، حفروا له قبرًا ليحاذي الجثث التي دفنها نايت في وقت سابق، وتلا ساندي صلاة ما فيما وقف الآخرون جامدين يرتجف الغضب المكتوم في صدورهم.

لقد أرادوا الانتقام على الفور، اقترح براندن أن يختطفوا واحدًا من السكان ويشبعوه ضربًا وركلًا. لقد اقترف نيلسون خطأً، لكنّها كانت حادثة، وهؤلاء الهمج قتلوا الرّجل في أثناء نومه بلا رحمة. لكنّ صوت نايت العاقل والمنطقيّ كانت له الغلبة، فأصغوا مجبرين. واحدة بواحدة، قُتل واحد من الـ«آم» أولًا، والآن ذهب نيلسون، يبدو ذلك عادلًا، لذا يجدر بهم حقن الدّماء حتّى لا يتناقص عددهم أكثر. إنّهم ستّة الآن بعد أن كانوا عشرات في السّابق، وأمامهم مئاتٌ من سكّان الجزيرة قادرون

على سحقهم دهسًا بالأقدام. وها هم يقفون تحت المطر وسط السّاحة مكشوفين في انتظار أن يتّخذ المجلس قرارًا بشأنهم.

جاء عمّار ثانية بعد دقائق قليلة، خطا مسرعًا باتّجاههم كما انصرف، دون انتظار قال بنبرة متعجّلة:

- ما الذي يمكنكم عمله؟

أرسل نايت زفرة ارتياح قصيرة ثمّ قال مشيرًا إلى الرّجل البدين الأصلع من ورائه:

- ساندي لديه بعض المقترحات..

انفصل ساندي عن المجموعة واقترب خطوتين، قال في حرج:

- كنت في الجيش لسنوات، وعملت بضع مرّات مع فرق الإغاثة في مناطق أصابتها السّيول.. لذلك أعرف بعض الحيل المفيدة...

تململ في مكانه يداري حرجه من العيون المسلّطة عليه:

- لقد درستُ موقع القرية ونحن وقوف هنا.. تلك التلال التي تحيط بها من الجانب، ربّما تحميها من الرّياح، لكنّ الماء الذي يتجمّع على القمم ينزل من المنحدرات مباشرة نحونا وهو السّبب الرئيسي في تقويض الأساسات. ربّما يكون الشاطئ بعيدًا لكنّ المباني ليست في مأمن من السّيول.. الحجارة من هذا الجانب توقف ربّما انجراف التّربة إلى الأمام، لكنّ الخطر الحقيقيّ قادم من الخلف.. التربة ذاتها مشبعة بالماء وتحتاج إلى التخلّص من المخزون الزّائد.. باختصار هناك عمل كثير!

عبست ملامح عمّار ولم يتكلّم. لم يكن يملك خبرة كبيرة في أعمال البناء، وقد فقد الـ«آم» أعدادًا من الحرفيّين والخبراء في أنواع كثيرة من المهارات، لذلك يشعر الآخرون بالعجز. حتّى المُسخِّرون أصحاب الهبات، لا يعرفون كيف يسخّرونها لإنقاذ الموقف، باستثناء الأعمال الصغيرة مثل إيقاد الموقد والتّدفئة وقطع الحطب ورفع الحجارة. إنّهم يمتلكون القوّة

والقدرات الخارقة لكنّهم يفتقرون إلى الخبرة والقيادة الحكيمة، لذلك تعمّ الفوضى والوضع مهدّد بالتّفاقم. هزّ الحكيم رأسه وقال يحثّه:

- إذًا.. هل تعرف ما يجب عمله؟

أومأ ساندي بحماس ثمّ أخذ يشرح مخطّطه:

- يمكننا إنشاء قنوات سطحيّة لتصريف المياه، مثل الأخاديد، لتحويل الجداول التي تنزل من التلال وإبطاء تدفّقها.. لدينا بعض الأدوات المعدنيّة التي يمكن استخدامها في الحفر. لن نحفر كثيرًا.. مجرّد خنادق ضحلة عمقها نصف متر على الأكثر على طول المنحدر باتّباع منحنى الأرض الطبيعي وليس بشكل مستقيم للأسفل.. ثمّ نبطّن القنوات بأوراق النخيل أو قشور جوز الهند أو الحجارة لمنع التآكل، ونضع جذوع الأشجار أو الأخشاب الطافية داخل الخنادق كحواجز صغيرة لإبطاء الماء.. سيحمي هذا بنايات القرية من الفيضان..

ثمّ أشار إلى الأسوار الحجرية التي كانت تتداعى في بعض المواقع:

- الحجارة هنا ليست صلبة كفاية، بل معظمها مساميّ ويمتصّ الماء دون أن يصدّه، هذه السّدود لن تصمد طويلًا.. يجب أن نصنع حصائر مصنوعة من المعدن الرّقيق والمتشابك.. أو ننسجها من سعف النّخل، نلفّ بها الحجارة لتثبيتها.. سدّ الفجوات بأوراق الشّجر والتربة والموادّ العضويّة سيساعد كذلك على احتجاز الرّواسب. سنضعها كلّ بضعة أمتار، خصوصًا في المناطق الأكثر انحدارًا.. ثمّ يمكننا استخدم ألواح السفينة المعدنيّة لبناء مصاطب على شكل درجات وتثبيتها بالأوتاد أو الفروع المشحوذة، سيمنع هذا التّربة من الانجراف.

توقّف عن الشّرح ليزدرد لعابه في توتّر، ثمّ أضاف:

- سنحتاج إلى جمع مياه الأمطار أيضًا، ليس فقط لاستغلالها في الشرب والنظافة، بل لتقليل كميّة المياه السطحيّة التي ليس من السّهل تحويلها نحو

البحر. يمكن استخدام أجزاء معدنية أو بلاستيكية من الحطام كأسطح لجمع مياه المطر ثمّ توجيه المياه إلى براميل أو صناديق خشبية أو أجزاء مانعة للتّسرّب من السفينة لتخزينها.. سنستعمل أعواد البامبو المجوف أو أجزاء من بدن السفينة لصنع مجارٍ لتوجيه المياه من الأسقف إلى أوعية التخزين.

حين سكت أخيرًا، ساد السّكون برهة في انتظار قرار الحكيم.

هزّ عمّار رأسه في اهتمام، ثمّ هتف بلا تردّد:

- أظنّ أنّ أمامنا عملا كثيرًا لإنجازه.. أليس كذلك؟

أشار إلى الرّجال الذين أخذوا يظهرون من داخل البناء ليقتربوا أكثر، ثمّ عاد إلى ساندي وقال:

- ربّما سيتعيّن شرح المخطّط من جديد، وسأترجم التعليمات.. سنقسّم الرّجال إلى ثلاث مجموعات، أليس كذلك؟

تدخّل نايت ليقول مقترحًا:

- أظنّنا نحتاج إلى مترجم إضافي، لتسهيل التّواصل.

أومأ عمّار موافقًا، ثمّ رفع صوته:

- فليرسل أحد لاستدعاء المعلّمة تاليا، وأيّ معلّم يتحدّث الإنجليزية!

انتشر السكّان في السّاحة، تلاشى حذرهم من الغرباء تدريجيًّا، هؤلاء السّتة لم يأتوا مدجّجين بالسّلاح ولا يبدو عليهم العدوانيّة مثل الآخرين، ربّما لا يكونون مسالمين تمامًا، فذكرى أعمالهم التخريبيّة ثابتة في الأذهان، لكنّهم أقلّ خطرًا وحضورهم لا يستوجب الخشية. عددهم القليل وافتقارهم إلى السّلاح يجعلهم مجرّد رجال آخرين رماهم المدّ على الشاطئ.

ظهر المُسخِّرون الشبّان يقودهم مروان، وقفوا بصدور منتفخة إزاء الغرباء يرمقونهم بنظرات عدائيّة، خاطب عمّار ابنه بلهجة حازمة:

- ليس هذا أوان تصفية الحسابات القديمة.. إنّهم هنا للمساعدة! ستذهب برفقتهم إلى مكبّ نفايات «مهافيا دياما»، وستحضر القطع التي يشيرون بها في صمت وتعاون. تذكّر.. هذا لا يتعلّق بك ولا بأختك، ولا بثأرك الخاصّ.. إنّه يتعلّق بمصير الـ«آم» جميعهم!

زمّ مروان شفتيه في استياء، لكنّه أطاع أمر والده دون نقاش.

خلال دقائق، كان المترجمان قد التحقا بالسّاحة، تاليا وزميلها المعلّم جبريل، رافق كلّ منهما إحدى مجموعات العمل، فيما انضمّ عمّار إلى الثالثة. تحت قطرات المطر المنهمرة بغزارة، تحرّكت الفرق نحو أهدافها بجدّ.

فكّر عمّار أنّهم قد لا يضطرّون إلى دخول الكهف في نهاية الأمر.

***

فتحت روان عينيها ببطء، تمكّنت من النّوم وهي تشعر بشيء من الدّفء، في نهاية المطاف، خلد جميعهم إلى النّوم، باستثناء أوران الذي أبقى الحجر مشتعلًا طوال الوقت. لم يعد الرّجال يرفعون معاطفهم فوق الرّؤوس، فقد استسلم كلّ واحد منهم للإرهاق وخفض ذراعيه في إعياء. كانت مانويلا تميل فوقها وتضع رأسها على كتفها، نحّتها برفق جانبًا، ثمّ تمطّت وحرّكت ساقيها اللّتين تخدّرتا تحتها.

- أنت تحتاج إلى بعض الرّاحة، يجب أن يستلم الآخرون المناوبة التّالية.

كان ذلك هو الاتّفاق، أن ينام بعضهم ويسهر بعضهم الآخر، لكنّهم فقدوا إحساسهم بالزّمن ولم يعد أحدّهم يقدّر السّاعات أو يهتمّ للمناوبات بعد أن دعاهم المُسخِّر الشابّ إلى التّدفئة حول شعلة «حجر الشّمس».

هزّ أوران رأسه وقال في عناد:

- أستطيع المواصلة.. نحن بحاجة إلى مصدر الحرارة.

تمنّت لو أنّ هبتها تأتي بشيء يفيد في ذلك الموقف لتخفّف عنه الحمل، ليس أنّ العلاج ليس هبة كافية، لكنّ مسخّرًا واحدًا لن يقدر على الاستمرار بلا نهاية.

نقلت بصرها بين الوجوه النّائمة، ثمّ توقّفت عند مايك راسل. ذلك الظالم المتجبّر القويّ بالأمس، أضحى اليوم مريضًا وضعيفًا لا يكاد ينصب عوده. لقد نسيت في خضم العاصفة أمر الانتقام، منذ غرق اليخت وهي تشترك في المصاب مع خاطفيها.. والآن، في تلك اللّحظة بالذات، فيما يستسلم جميعهم لسبات عميق، بيدها أن تؤذيهم كما آذوها. ربّما لا تودّ أن تضرّ مانويلا ولا المعالج الذي يشاركها المهنة، وليست بينها وبين القبطان أو البحّارة عداوة، إلا أنّها لن تغفر لمايك ما فعله بقومها أبدًا. لو أنّها تتحرّك الآن، تندفع نحوه وتدفع به في الماء فسوف يغرق سريعًا وينتهي أمره.

دقّت الطبول في صدرها إثارة، يمكنها أن تفعل ذلك، إلا أنّها قد تحتاج إلى مساعدة من أوران. من الجيّد أنّ الحجر بحوزته، إذا حاول مايك المقاومة أو دافع عنه الآخرون فإنّ قوّة أوران ستساندها. أعادت نظرها تجاهه، مرّرت لسانها على شفتيها المتشقّقتين وفكّرت في الكلمات التي ستنطق بها. إذا طلبت أيّ شيء من أوران فهي تعرف أنّه لن يرفض، وإن كان في تلك الآونة يبدو ليّنًا أكثر ممّا يجدر بمسخّر وهو يُبقي أعداءهما دافئين باستخدام قدراته الخاصّة.

تعلم أنّه يفعل ذلك من أجل مانويلا. ألم يكن هو من طلب منها علاجها؟ تلك الصّهباء الشابة تملك سلطة ما عليه.. أو ربّما هي العاطفة ما يربطهما. الأرجح أنّ المُسخّر يفتقر إلى الحسم الآن، وهي تخشى إن شاورته في الأمر أن يثبّطها. سحبت نفسًا مرتعشًا، وهل تحسب نفسها أشدّ حسمًا منه؟ إنّها متردّدة، ترتجف منها الأطراف وترفّ الجفون.

تساءلت، لو كان آدم هناك، ما الذي كان ليفعله؟

إنّ قتل مايك راسل غيلة في البحر لن يشفي غليل قومها، تتمنّى لو أنها تملك جرّه من شعره حتى «آرا» ليُحاسب في محاكمة علنيّة. لا شيء أقلّ من ذلك سيروي عطشها لتحقيق العدالة.

قبل أن تحسم أمرها، تحوّل انتباهها إلى نقطة بعيدة وراء رأسه، لمحت مصدر إضاءة يتراقص بخفوت في الأفق، تخفيه خيوط المطر التي تتساقط بلا توقّف.

- هناك ضوء ما!

استدار أوران لينظر في الاتّجاه الذي أشارت إليه، المُسخِّر حادّ البصر ويمكنه أن يميّز الأبعاد أفضل ممّا تفعله المعالجة. ضيّق أوران عينيه ثمّ تمتم:

- سفينة!

تبادلا نظرة صامتة، السّفينة تعني النّجاة. تلاشت الأفكار الانتقاميّة من رأس روان على الفور وتحوّل تركيزها نحو المعطيات الجديدة. لن يكونوا تائهين في عرض البحر تحت رحمة العاصفة بعد الآن، لكنّهم لا يعرفون أيّ وجهة ستتّخذ السّفينة وإلى أيّ أرض ستحملهم. يفكّر كلاهما بوسيلة للفرار من الأسر والفكاك من سلطة مايك راسل وجماعته، لكنّ أوان التحرّك لم يأت بعد. بعد تشاور صامت دام بضع لحظات، مالت روان على مانويلا وهتفت توقظها:

- هناك سفينة!

انتصبت مانويلا على الفور وقد أذكى النّداء حواسها، حدّقت حيث أشارت روان ثمّ ما لبثت أن راحت تصرخ لتوقظ الجميع:

- هناك سفينة! استيقظوا جميعًا!

هبّ القبطان نحو حقيبة معدّاته وأخرج جهاز الإرسال والاستقبال، أخذ يعبث بأزراره محاولا العثور على إشارة قريبة تحت سيل المطر المنهمر ووطأة النّظرات المترقّبة، إلا أنّ العاصفة شوّشت الإرسال ومنعته من تحقيق أيّ نتيجة، لم يستمرّ تردّده إلا لحظات قبل أن يعيد الجهاز إلى الحقيبة ليحميه من البلل ويتناول شعلة النّجدة، رفعها فوق رأسه وأطلق النّار على الفور فصدر عن الشعلة صوت حادّ مصحوب بضوء اخترق ضوضاء العاصفة، ثمّ تناول الصّافرة وأخذ ينفخ بها بإصرار وحماس.

مرّت دقائق من الترقّب المحموم، انطفأت الشعلة وعمّ الظلام من جديد، باستثناء الضّوء البعيد الذي استمرّ ثابتًا، لا يملكون إلا شعلة نجدة واحدة، ولم يبد أنّ المركب الماثل في الأفق قد انتبه إليها وسط الفوضى العارمة، تسلّلت علامات الوجوم إلى الملامح الشّاحبة واستبدّ بها اليأس ثانية. تفصلهم مسافة أميال عن السّفينة الأخرى.

تحرّك أوران فجأة وقال آمرًا:

- فلنجدّف!

لم يفهم معظمهم النّداء، لكنّهم حذوا حذوه، استلم الرّجال المجاديف وتحرّكوا بهمّة، رغم اليقين الصّامت بأنّ أيّ قوة لن تكون كافية لدفعهم بالسّرعة المناسبة. كان بوسعه أن يطلق صاعقة في السّماء ليلفت انتباه البحّارة، لكنّها ستكون أقرب إلى برق طبيعيّ منها إلى إشارة استغاثة. في الظلام استمرّ القارب المطاطيّ يتحرّك بوتيرة ثابتة ساحبًا خلفه القارب الثاني المرتبط به بحبل مشدود. لم يعرف أحدهم أنّ قوّة ساعد أوران وحدها هي ما كان يبقيهم في المسار الصّحيح ويدفعهم نحو الهدف، مقلّصًا المسافة تدريجيًا بينهم وبين النّجاة.

نفخ القبطان في صافرته مرارًا حين صار المركب واضحًا للعيان، رغم حدّة العاصفة يأمل أن ينتبهوا إلى وجودهم. توقّف أوران عن التّجديف ورفع حجر الشّمس المتلألئ مثل منارة في العتمة. بعد لحظات، تحرّكت الأضواء الخافقة في البعيد وأصدرت إشارات متتابعة.

همس كريس في ارتياح:

- لقد رأونا! لقد نجونا.. حمدًا لله!

تهادى المركب العريض متقدّمًا يشقّ الموج، ومضت أعين المسافرين المترقّبين لعمليّة الإنقاذ يداعبها الأمل.

(7)

اليوم السّابع بعد السّتّين

كانت الغرفة التي تجمّع فيها ركّاب «النمر الأبيض» المغاثون ضيّقة، بالكاد تكفي ليجلس كلّ واحد منهم على الأرضيّة العارية ضامًّا ساقيه إلى جسده، ويجفّف نفسه بأكياس الخيش الخشنة التي جاد بها عليهم منقذوهم. لم يخاطبهم أحد بعد ساعات من سحب قواربهم المطاطية وشدّها إلى جسد الهيكل الخشبيّ للسّفينة غريبة الشّكل. بدا البحّارة صامتين بشكل مقلق، لم تظهر على ملامحهم أمارات شفقة أو ترحاب، ولم يردّ أيّ منهم على تساؤلات الربّان بشأن وجهتهم ومسارهم.

كان الوقت ليلًا والسّماء مظلمة، ولم يكن أحدهم ليمانع الحصول على مأوى يحميهم من العاصفة التي استمرّت تزمجر بالخارج كأنّما لا تنوي التوقّف أبدًا، حتّى لو كان مأواهم عفنًا وباردًا ويفتقر إلى أدنى سبل الرّاحة. قادهم اثنان من البحّارة الأجلاف إلى تلك الغرفة ثمّ انصرفا دون مزيد من المعطيات، فاستند الرّجال المرهقون والمبتلّون حتّى العظام إلى الجدران واستسلموا لسِنَة من النّوم.

حين فُتح الباب، استدارت الأعين المتيقّظة نحو القادمين، مجموعة من الأفراد ذوي البشرة الدّاكنة. وقف رجل يرتدي أسمالًا منتنة، أسمر البشرة غليظ الشفتين أكرت الشعر يسدّ بطوله المدخل، وكفّاه عند خصره، قال بإنجليزية متكسّرة:

– إذًا.. ماذا لدينا هنا؟

بسرعة، انكمش مايك على نفسه وضمّ إلى صدره كيس «حجارة الشّمس» الذي لا يزال يحتفظ به، رغم شحوبه وضعفه الظاهر يستمرّ يتشبّث بغنيمه كما يتعلّق برمق الحياة.

خطا الرّجل فارع الطّول تجاهه مباشرة وقد جذبت انتباهه الحركة، فيما وجّه رفاقه فوّهات أسلحتهم نحو المجموعة للحفاظ على الهدوء، انحنى بهدوء وشدّ الكيس بقبضة صارمة. حاول مايك المقاومة لكنّ الرّجل كان أقوى وأشدّ بأسًا، فاستلّ الغنيمة من المستثمر الذي ابيضّت مفاصله المستميتة.

- ما هذا؟

طالع في دهشة قطع الحجارة غريبة الشكل التي تتوهّج داخل الكيس مثل مصابيح صغيرة. حافظ مايك على ثباته وهو يقول بابتسامة مداهنة:

- إنّها.. نوع من الحجارة المضيئة، لا غير.

رمقه الرّجل بنظرة تقييم سابرة، ثمّ رمى الكيس نحو أحد أتباعه. ترجّى مايك:

- نحن نشكر لكم إنقاذنا.. سندفع لكم، إذا رددت الكيس.

تحرّك الرّجل عبر الغرفة يتبعه رجلان مسلّحان يحرصان على ألا يبدي أحدهم أيّ ممانعة، يقيّمون الأمتعة التي بحوزة كلّ مسافر ويستحوذون على الثّمين منها. اضطرّا إلى توجيه بضع ضربات بأعقاب البنادق نحو الأصداغ والضّلوع قبل أن تتوقّف المقاومة تمامًا.

- يمكنك الاحتفاظ بواحد إذا أردت.. لو بدا لك مثيرًا للاهتمام.

استمرّ مايك يُحاول، فيما سحب الرّجل صندوق كريس للإسعافات الأوليّة، ألقى عليه نظرة متفحّصة وتشمّم علب العقاقير بحذر، ثم رماه إليه ثانية، في حين احتفظ بحقيبة القبطان التي أرضاه ما بداخلها من معدّات ذات فائدة.

قبضت روان بحرص على قلادة المعدن التي صنعها آدم من أجلها من تحت معطف المطر، فيما لم يبرح أوران موقعه، لكنّ أصابعه المرنة تحرّكت بخفّة ليواري الحجر الذي لا يزال بحوزته حيث يتعذّر على الرّجل الغريب الوصول إليه. لم يبد في نيّته أن يفتّش كلًّا منهم تفتيشًا ذاتيًا، واكتفى بالمتاع الظاهر. أنهى جولته عبر الغرفة ثمّ تراجع نحو الباب ليعاين الغنائم المصادَرة: بوصلة وأساور فضيّة وعددًا من الخواتم الذهبيّة، بالإضافة إلى معدّات القبطان. قال بلهجة متملّقة عسيرة الفهم: مكتبة سُر مَن قرأ

- العاصفة لم تتوقّف منذ أيّام، وعلينا أن نكسب رزقنا.. مجرّد رسوم نقل بسيطة، ليكون كلّ منا مسرورًا...

تمتمت مانويلا بأنفاس متقطّعة:

- قراصنة!

أكبر مخاوف اليخوت والسّفن التي تعبر مضيق باب المندب وخليج عدن هم القراصنة الصّوماليون، لذلك ترافق والدها مجموعة من المرتزقة المسلّحين على الدّوام، إلا أنّ وتيرة الاعتداءات في تراجع في الأعوام الأخيرة مقارنة بسنوات القرصنة الذّهبية. لم تعتقد مانويلا أنّهم قد يواجهون خطرهم بتلك السّرعة، فهي لا تعتقد أنّهم قد اقتربوا من شبه الجزيرة العربيّة. قد تكون سفينة القراصنة فقدت مسارها هي الأخرى وانجرفت مئات الأميال في المياه المفتوحة. في الظروف العاديّة، لم تكن لتخشى أمرهم، كان رجال والدها ليرصدوا حضورهم من مسافة كافية فيبتعدوا عن طريقهم أو يرهبوهم بالسّلاح فيولّون الأدبار.. إلا أنّ العاصفة وغرق اليخت جعلاهم يتّجهون إليهم صاغرين.

لم يردّ أيّ من الحاضرين على اتّهام مانويلا، ربّما لم تصل همساتها إلى الرّجال الغلاظ الذين فرضوا عليهم إتاوة قاسية، وربّما ابتلع رفاقها

الكلمة مثل مغص مربك ألمّ بهم فجأة بعد أن أدرك كلّ واحد منهم الحقيقة بنفسه على حدة.

لم تكن السّفينة تشبه سُفن القراصنة المألوفة، يعتمد نظامهم على إرسال قوارب خشبيّة مزوّدة بمحرّكات للتحرّش بالسّفن العابرة وتظلّ السّفينة الأمّ -وهي غالبًا مركب صيد أكبر حجمًا- محتجبة في البعيد. ربّما تكون تلك هي السّفينة الأمّ، لكنّها في الغالب مركب شحن قديم استولوا عليه خلال بعض العمليّات النّاجحة في الماضي السّحيق.

- انتظر!

تكلّم أوران فجأة بالعربيّة، فاستدار الرّجل مشدوهًا ليحدّق بملامح أوران. قارن في صمت بين بياض أوران الشّاحب في ملابس مدنيّة عصريّة -كان قد حصل عليها في أثناء إقامته بشقة الباحثة- والصّورة التقليديّة التي يحملها في ذهنه عن العرق العربيّ، ثمّ خاطبه بطلاقة أكبر، مقارنة بإنجليزيته السيّئة:

- أنت عربيّ؟

انحنت مانويلا لتهمس بين أسنانها:

- لا تكن غبيًا.. إنّهم رجال خطرون!

تجاهل أوران تحذيرها، استند إلى الجدار ليستقيم واقفًا وقال بلهجة حازمة وهو يشير إلى روان التي تجلس إلى جواره:

- نحن مختطفان.

- آه.. هذا مثير للاهتمام!

كان ذلك عملهم في العادة -الاختطاف والسّلب- لكنّ أحدهم ينافسهم في مجالهم، وفي منطقتهم، بدا ذلك مثيرًا للاهتمام بالفعل. عاد الرّجل ليقف في منتصف الحجرة مطالعًا في استمتاع الوجوه السّقيمة التي أرهقها الجوع والتّعب والرّعب، قبل أن يقول متمهلًا:

- أظنّ أنّ لدينا حكاية مشوّقة هنا.

انتبه إلى البلادة التي اكتنفت ملامح الرّجال كلّهم تقريبًا، وهم لا يستوعبون كلمة ممّا يُقال، باستثناء الشابتين والرّجل الشاحب فإنّ خطابه باللغة العربيّة لم يصل إلى أفهام الآخرين، عرف ذلك من خلال التشنّج في ملامح بعضهم والارتباك الذي تلبّس أخرى، وقد وجد التطوّر مسليًا.

- إن أخبرتني شيئًا مفيدًا عن الحجارة التي يحتويها الكيس، ربّما أساعدك!

رمش أوران في تردّد، لم يكن الحديث يسير بالطّريقة التي توقّعها. ألقى نظرة متشاورة على روان، فحدجته بعينين ناهرتين وكذلك فعلت مانويلا، لكنّه لم يستطع التّراجع. حاول أن يلبس رداء المفاوض:

- إذا أخذتنا إلى موطننا، فسيكون بوسعك الحصول على مزيد من الحجارة.

أطلقت مانويلا ضحكة مغتصبة، ها هو أوران يكرّر خطأ البروفيسور أشرف. ألم يُغرِ والدَها بوميض الحجر ليأخذه إلى «آرا»؟ تستمرّ المادّة المتوهّجة في أسر القلوب الطّامعة وإسالة لعاب المغامرين الباحثين عن الكنوز الضّائعة.

كان القرصان الكهل يسأل باهتمام:

- هل هناك مزيد؟ في موطنك؟

أومأ أوران متلهفًا:

- نعم، إنّها توجد على جزيرة قريبة.. هؤلاء الغرباء اختطفونا، وسرقوا حجارتنا.. لكنّ قومي سيكافئونك إذا ساعدتنا على العودة.

قيّم القرصان الفرص لثوانٍ قصيرة ثمّ قال مشيرًا إلى أوران وروان:

- أنتما، تعاليا معي.

ساعد المُسخَّر المعالجة على الوقوف وغادرا الغرفة برفقة القراصنة، قبل أن يتجاوز أوران عتبة الحجرة، استدار ليلقي نظرة شبه معتذرة على مانويلا التي علا ملامحها وجوم شديد. همست روان وهما يمشيان بعد الممرّ المظلم:

- كيف عرفت أنّهم يتكلّمون العربيّة؟

هزّ أوران كتفيه وقال ببساطة:

- لم أعرف.. لكن كان عليَّ أن أجرّب.

كانت تلك اللّغة الوحيدة التي يتقنها ضمن لغات العالم الخارجيّ، كان عليه أن يراهن ويجازف، لم يكن الوضع ليتغيّر إلى الأسوأ على كلّ حال، إنّهم ينتقلون من أسر إلى أسر آخر، أمّا إذا كان الآسر الجديد حليفًا ممكنًا فتلك فرصة لا تعوّض. همس لها:

- إنّهم مثلنا، لديهم لغة خاصّة بهم، لكنّهم يتكلّمون العربيّة أيضًا.

عبست روان، لم تحبّ أن تجد بينها وبين هؤلاء القوم أيّ قواسم مشتركة.

- وما الذي سنفعله الآن؟ أنت لا تنوي أخذهم إلى «آرا»؟

همس في انفعال:

- وهل كان يُفترض بنا أن نواصل الرّحلة إلى «مهافيا دياما» برفقتهم؟ كان عليَّ أن أعقد صفقة قبل أن يفعل مايك راسل. أعرف.. هؤلاء الرّجال ليسوا أخيارًا، بل يحرّكهم الطّمع. إذا أغراهم الغرباء فسوف يأخذونهم إلى حيث يريدون، ونحن معهم. لذا، كان يجب أن أستغلّ الموقف وأعكس الموجة لصالحنا.

- لكن...

- سنجد حلا لكلّ شيء في أوانه، لكنّنا نحتاج أكثر من أيّ شيء آخر إلى أن نكون في طريق العودة.

عبرا الممرّ برفقة الرّجال السّمر، مرّت لحظات من السّكون قبل أن يفتح القرصان بابًا يؤدّي إلى حجرة صغيرة أخرى ويدعوهما إلى الدّخول. لم تحو الحجرة أيّ أثاث مثل سابقتها، لكنّ بعض الألحفة السّميكة كانت ملقاة على الأرضيّة. تلك السّفينة لم تكن مهيّأة للمعيشة مثل يخت مايك، لا شيء يدلّ على استخدام سابق لها لرحلات طويلة.

حين أصبحت المجموعة داخل الغرفة الجديدة، عقد القرصان ذراعيه أمام صدره وقال:

- والآن، حدّثني عن الحجارة. هل هي نوع من الحجارة الكريمة؟ مثل الألماس؟

لا يعرف أوران الحجارة الكريمة أو الألماس، لكنّ الأطفال يلتقطون حجارة ملساء ملوّنة على الشاطئ، والبحّارة يخرجون حجارة بيضاء ناصعة مثالية الاستدارة من بطون المحّار، لعلّ العالم الخارجيّ يحوي أنواعًا أخرى من الحجارة الثمينة التي يحبّ النّاس لمعانها ويتوقون إلى امتلاكها، لكنّ أيًا منها لا يماثل «حجر الشمس» من ناحية القداسة والقيمة في نظر الـ«آم». كانت مرافقة القرصان الشابة تمسك بحجر بين كفيها، تقلّبه باهتمام على جميع الاتّجاهات، تنسدل على كتفي الفتاة مئات الضفائر السّوداء الخشنة التي لم ير أوران مثيلًا لها من قبل.

- لو كنتُ مكانك لوضعت الحجر جانبًا!

غمغم أوران بلهجة محذّرة، رفعت القرصانة رأسها متجهّمة فيما نكزته روان خلسة، حين نظر إليها ألفاها تعبس بشدّة فارتجّ عليه الأمر. جاءه صوت القرصان يسأل من جديد:

- ما الذي تعنيه؟

سارعت روان تقول:

- يقصد أنّ اللّمعان الطبيعيّ يذهب مع اللّمس! المادّة تتحوّل إلى غبار يعلق بالبشرة.

زمّ القرصان شفتيه، ولم تتنازل رفيقته عن قطعة الحجر التي استمرّت تقلبّها في تحدّ سافر للتّحذيرات، وتتأمّل الذرّات الفضيّة التي علقت بأصابعها، فيما ظهر على أوران التّوتّر.

- إذًا.. هل تنقّبون عنها تحت الأرض؟ داخل الكهوف؟

أومأ أوران ببطء هذه المرّة متسائلًا إلى أي مدى عليه أن يُفضي إلى القرصان حتّى يكسب ثقته، فيما يسترق نظرات جانبيّة إلى روان التي لم تبد راضية عن أدائه.

- في أيّ اتجاه تقع الجزيرة؟ هل نواصل الإبحار جنوبًا؟

تذكّر أوران رحلته برفقة مانويلا منذ أسابيع:

- هناك سفن، يمكنك التقاط إشارة منها.

- سفن؟

- إنّها تابعة لهم..

أشار بإبهامه فوق كتفه، فرفع القرصان حاجبيه في استيعاب. تدخّلت روان لتقول بثبات:

- أنت على المسار الصّحيح، تابع الإبحار وسوف نصل.

استدار نحوها الرّجلان بنظرات مستفسرة، لكنّها حافظت على قناع الثقة. أطلق القرصان ضحكة قصيرة ثمّ قال:

- على أيّ حال، لن نميز الاتّجاهات بوضوح قبل أن تتوقّف العاصفة. لن نذهب إلى أيّ مكان في الوقت الحاليّ.. حين يستقرّ الطقس سنتحدّث عن هذا.

حين تركهما القرصان أخيرًا وحيدين، همست روان في استياء:

- إنّهم ليسوا أصدقاءنا! إذا كانوا سيسرقون الـ«مادرا»، فإنّها ستؤذيهم. من الأفضل أن يجرّبوا أثرها الآن فيُحجموا عن التّمادي.

دائمًا ما كانت المعالجة بعيدة النظر، لكنّه لا يفهم كلّ شيء. سألها مستغربًا:

- ما الذي عنيته منذ حين.. عن المسار الصّحيح؟

هزّت كتفيها في استسلام.

- هذا ما قاله آدم. لم يكن عليه أن يفعل شيئًا حتّى يصل إلى «آرا».. لقد كانت الجزيرة تسحبه في اتّجاهها.

حملق في وجهها بلا فهم، فكرّرت على مسامعه نظريّة والدها:

- الهجناء يجدون الطّريق.

- الهجناء؟

- الذين تختلط دماؤهم بين الـ«آم» والـ«أيتورا».. أنا هجينة، وكذلك آدم.

لا يعرف كثيرون تلك الحقيقة بشأن المُخلِّص، لكنّ أوران أهل للثقة.

- لن يكون علينا أخذهم إلى «آرا»، حين تهدأ العاصفة سنسرق أحد القوارب المطاطية ونرحل.. سيأخذنا إلى الدّيار.

المعالجة تمتلك خطّة. بسيطة جدًا وساذجة نوعًا ما، لكنّ أوران لم يعلّق، تمنّى في سرّه أن يكون الأمر بتلك البساطة.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

غفا آدم داخل الكهف.

فعل ذلك في السّابق، حين انتهى به الأمر محتجزًا داخل الأنفاق برفقة روان ومتدرّباتها، لكنّ إحساسًا غريبًا انتابه وهو يستعيد وعيه بالعالم. «الشعور بالهواء». كان عهده بتلك الممارسة بعيدًا، تعود المرّات الأخيرة إلى ما قبل اجتياح مرتزقة مايك راسل الجزيرة. مرّت أسابيع طويلة، لم يملك منذ ذلك الحين لحظة من الهدوء والسّلام ليختلي بنفسه بين التّلال، لكن فيما يستفيق من استغراقه الشبيه بالنّوم اعترته ذكرى قريبه لمناجاة رقيقة، كأنّما كان يحادث والدته مثل تلك الأيام.

سمع صوتها يتردّد في أذنيه مرّة أخرى، خافتًا أولًا ثمّ بوضوح متزايد كلّما أمعن التأمّل في همساتها: «ستكون بخير!»

هبّت نسمة باردة دغدغت بشرته برفق، تلفّت ببطء ليحدّد مصدرها. هل كانت قادمة من الخارج حيث العاصفة؟ أم من أعماق الكهف حيث الـ«مصدر»؟ شعر بالهواء يتخلّله ويحرّك كوامن روحه مثل نغمة عذبة، ليملأه إحساس غريب بالخفّة، عاد ليغمض عينيه مستقبلًا الانتعاش المفاجئ الذي يكتنفه، ربّما إذا ترك لروحه العنان فسيحلّق في ملكوت ساحر كما فعل من قبل.

انتظمت أنفاسه واستقرّت نبضاته، ونسي لوهلة أين يكون وما هو بصدده، كان بحاجة إلى تلك الاستراحة القصيرة من اللّهاث خلف أفكاره المظلمة ومخاوفه القاتمة. لدقائق أو ربّما ساعات، غاب عنه طيف روان ونسي أمر عجزه وضياعه، وحين فتح عينيه أخيرًا كان هادئًا ومسترخيًا.

وقف من متّكئه وهو يمسك جهاز الإرسال الجافّ بين يديه، لا يدري إن كان هذا سينجح، لكنّه مستسلم لقدره وممتلئ بالسّكينة. هناك أمر غريب بخصوص تلك اللّيلة التي قضاها في الكهف، لا يُدرك كنهه بعد،

لكنّه كان بحاجة إلى تلك الخلوة العميقة، وهو يشعر بأثرها واضحًا في وجدانه.

توقّف عند الفجوة التي علّقت على جدارها ألواح الـ«نافيا» وفتحت عينيه على تاريخ «آرا» في وقت سابق، وضع جهاز الإرسال في ركن بعيد عن الأعين وخبّأه بحرص، لم يحن وقته بعد، حين يتوقّف المطر سيكون بوسعه أن يجرّب الاتّصال بالسّفن، أمّا الآن فربّما يجدر به أن يفعل شيئًا ما.

«ستكون بخير»، رنّت الكلمات في أذنيه مرّة أخرى بصوت والدته العميق القادم من الحلم. شعر بالاطمئنان لذلك الوعد البعيد، أراد بكلّ جوارحه أن يصدّق الهمسات ويترك مخاوفه جانبًا. خطا باتّجاه المخرج يسحب قدميه الحافيتين في خطوات رزينة، لا يبطئه التّعب والخواء بل يحدوه تسليم وإذعان. توقّف حين لاحت له قامة منتصبة عند التّجويف الحجريّ، تتهيّب التوغّل في مجال لا يسمح لها بولوجه. عمّار.

تهلّلت أسارير الحكيم حين أبصر آدم يتقدّم باتّجاهه، وظهر البِشر على ملامحه المختفية جزئيًا تحت المظلة العريضة التي تحمي رأسه من المطر المستمرّ هطوله غزيرًا في الخارج.

- ها أنت ذا! كنت أتساءل إن كنت ستخرج قريبًا!

توقّف آدم لبرهة، ورفع رأسه باتّجاه الظلة الدّاكنة بعينين غائمتين.

- ما تفعله بنفسك لا يجوز، لا معنى لعزلتك القسريّة واستسلامك للحزن! إنّها ابنتي أيضًا، وأنا لا أفقد الأمل في عودتها على الإطلاق.. لكنّنا لن ندع الأمور تخرج عن السّيطرة، الحياة يجب أن تستمرّ على «آرا»، ونحن مسؤولان عن مصير هذا الشّعب.. أنا وأنت، هل نسيت؟

اقترب آدم إلى حافّة المدخل خارجًا من الظلال فغمرت الإضاءة الطبيعية قسماته تدريجيًا. توقّف عمّار عن الحديث فجأة وحدّق مفغور الفاه في وجه المخلّص الذي يكتنفه توهّج الـ«مادرا» الكاسية للجدران. رمش بعصبيّة مرّة ثمّ اثنتين قبل أن يتمتم مشدوهًا:

- ما الذي حلّ بك؟

سحب آدم عينيه عن الظلة القريبة وحدّق في عمّار مستفسرًا. كرّر الحكيم مرتبكًا:

- ما الذي أصابك؟

لم يحر آدم جوابًا، ووقف يرقب مخاطبه بنظرات بليدة، *ما الذي يمكن أن يكون قد أصابه؟ باستثناء الرّاحة التي يشعر بها تتخلّله والسّكينة التي تغمر كيانه؟*

سحبه عمّار من كفّه بغلظة فعبر كلاهما نحو المسار الترابيّ المكشوف، حيث تتجمّع برك الماء الضحلة على امتداد الطريق، انحنى عمّار نحو مستنقع صافٍ قليل العمق، وأشار إلى الأرض آمرًا:

- انظر!

قوّس آدم ظهره ووجّه بصره نحو الأرض، على صفحة الماء العكرة حيث ينقط المطر بشكل متقطّع فظهر انعكاسه أمام عينيه. لوهلة قصيرة لم يدر ما يرغب عمّار في شدّ انتباهه إليه، ثمّ اقترب الحكيم ليلتصق كتفاهما، فحجبت مظلته العريضة السّماء والمطر وتقلّصت النقاط التي تشوّه المرآة الطبيعيّة، فسكنت الصّورة واتّضحت.

كان آدم يطالع صورته التي يعرفها، مضت أيّام طويلة منذ ألقى على شكله نظرة مدقّقة أو اهتمّ بتشذيب لحيته وتسريح شعره وتنظيفه، يبدو في حال مزرية من الإهمال والتخلّي، لكنّ ذلك لم يكن أهمّ ما في الأمر. لقد بدت صورته مثل نسخة باهتة من شكله المألوف الذي يعرفه، كأنّها صورة

عتيقة من ألبوم قديم، أو نسخة معدّلة بفلتر كلاسيكيّ. رفع كفّه أخيرًا أمام عينيه وحدّق إلى بشرته الشّاحبة الغريبة عنه، تساءل في حيرة إن كانت عيناه تخدعانه، لكنّ الدّهشة في مقلتي عمّار كانت تثبت العكس.

- ما الذي حدث لي؟

أطلق عمّار ضحكة قصيرة مقتضبة.

- لقد أمضيتُ ربع قرن على الجزيرة، لكنّ بشرتي لم تفقد سمارها الطبيعيّ على الإطلاق، ولا درجة واحدة من الشّحوب! لكنّك تكاد تبدو واحدًا من الـ«آم»!

كان عمّار يبالغ، لم يكن شاحبًا إلى تلك الدّرجة، لكنّ عينيه السّوداوين تحوّلتا إلى لون عسليّ باهت، واصطبغت خصلاته بصفرة بلاتينية كأنّها تعرّض لأشعة الشّمس الحارقة أيّامًا متّصلة، وحتّى ذلك التأثير اللامع الذي يظهر على الأجانب الذين يأتون للاستجمام في موطنه، لا يعتقد أنّه ممكن الحدوث للشّعر الأسود الحالك الذي يملكه. كانت أشبه بصبغة كيميائية شديدة الأثر، لكنّها -للغرابة- تبدو طبيعيّة ومتوائمة مع شكله العامّ، كأنّها جزء طبيعيّ من شكله بقدر لا يبدو دخيلًا أو مصطنعًا.

هزّ عمّار رأسه وهو يهمهم:

- هذا جدير بالمُخلِّص! لا إثبات فوق هذا مطلقًا!

تجاهل آدم تعبيراته المبالغة وأخذ يفرك ذراعيه ووجهه بماء المطر المنهمر فوق رأسه، يحاول أن يتخلّص من طبقة وهميّة من الـ«مادرا» يتوقّع أنّها قد كست جلده في أثناء نومه. ثمّ توقّف للحظة وقد أدرك عدم جدوى ما يفعله، وراح يتأمّل قطرات المطر التي تستقرّ فوق كفّه.

- إنّه المطر!

- المطر؟

- لقد أمضيت شهرين على الجزيرة، لم يحدث شيء من هذا في الأيام الأولى.. ولم يتغيّر شكلي حتّى بعد أيّام أمضيتها في أعماق الكهف.. لكنّني تعرّضت للمطر الغزير أيّامًا، ثمّ أمضيت ليلة واحدة داخل الكهف، والآن.. هذا!

تأمّل عمّار كلماته في اهتمام.

- هل يمكن أن يتفاعل الماء مع الـ«مادرا» ليُحدث تأثيرًا مثل هذا؟ ليس هذا من صنيع المطر وحده، فأنت ترى أنّني لم أتغيّر على الإطلاق!

هزّ آدم رأسه ببطء.

استمرّت لحظات الصّمت برهة إضافية قبل أن يعاود عمّار الكلام:

- لقد أنفقنا وقتًا كافيًا هنا.. هلمّ بنا، أنت لا تريد أن تفوّت التطّورات التي تحدث في القرية الآن، يجب أن تكون حاضرًا أكثر من أيّ وقت مضى.

سحب آدم من ذراعه ثانية يستعجله، ثمّ أضاف وهو يسبقه:

- يمكن أن يمنحك شكلك الجديد عذرًا مقنعًا.. خلوة المخلّص الاستثنائية والخلاص القريب.. هذه هي الرّوح التي نحتاج إليها!

***

منذ الأمس تتقدّم الأشغال في تأمين مساكن القرية وطرقاتها على وتيرة طيّبة، تحمَّل المُسخَّرون الشبّان معظم المشقة بنقل الصّفائح والأدوات المعدنيّة الثقيلة من مكبّ النفايات بين التّلال فيما يعلّمهم نايت ورجاله طريقة التّعامل معها تثبيتًا وتطويعًا. يتحرّك ساندي ببطء ليُشرف على الأعمال مثل مدير مشروع مقاولات سمين، يختار القطع الأنسب لكلّ جزء من الدّعامات ويوجّه الرّجال من حوله -المحليّين منهم والدّخلاء- فيطيعون في تسليم. تتهاوى اعتبارات السّلطة والمكانة احترامًا للخبرة والمهارة. كان الرّجل المناسب لإدارة الأزمة، لذلك يُصغي إليه الجميع دون نقاش.

خفتت مقاومة المُسخّرين بعد ساعات العمل الأولى، حين أثبتت طرق الغرباء جدواها. واحدًا إثر الآخر، حصلت مباني القرية على تصفيح منيع يحميها من تسرّب الماء عبر الأسقف والشقوق. بعد ما يزيد على الأسبوع، نام جزء من السكّان تلك الليلة في بيئة أقرب إلى الجفاف، حيث لا يقطر الماء فوق رؤوسهم طوال الليل.

تأمّل نايت رجاله وهم جلوس تحت ظلّ العريشة التي شيّدوها في أغوار الغابة، تخلّص بعضهم من الأحذية العسكريّة الثقيلة وصار يمشي حافيًا مثل السّكان المحليّين، في حين يعلّقها آخرون على الأغصان لتكتسب بعض الجفاف ليعود وينتعلها صباحًا من أجل ساعات العمل. باستثناء تحرّكهم خلال النّهار للمساعدة على إنجاز أشغال البناء، لم يتغيّر شيء كثير في نسق حياتهم. لا يزال عليهم الصّيد من أجل قوتهم والاحتفاظ بمسافة كافية من السّكان المحليّين بعد ساعات العمل. لم يكن الاتّفاق المبرم أكثر من مجرّد معاهدة سلام تحافظ على التعايش السّلميّ بين الجانبين، وما الخدمات التي يقدّمونها لأهل الجزيرة إلا نظير السّماح لهم بالحضور على أرضهم، ووضع الخلافات السّابقة وراء ظهورهم.

فوق رأسه، لا يزال أرنب براندن معلّقًا في محاولة لتجفيفه، فيما تملأ رائحته العفنة الهواء من حولهم. قطّع نايت شرائح السّمك ببطء وأناة ثمّ رصفها بهدوء على ورقة الشجر العريضة وسكب العصارة الحامضة فوقها ثمّ وضعها جانبًا ينتظر أن تصبح جاهزة للأكل. في هذه الأثناء، سحب سعف النّخيل الذي جمعه من قبل وأخذ يجدل الأوراق النّحيلة الباهتة في ضفائر متينة، لا تزال أمامه ليالٍ طويلة من العمل قبل أن يظفر بليلة نوم هانئة. يتخيّل في رأسه نمط النّسيج، لكنّه لم يصنع شيئًا من هذا النّوع قبلًا، إلا أنّ الحاجة دومًا ما كانت أمّ الاختراع، وهو في حاجة إلى سرير جافّ وبعيد عن الأرض، لذلك سيفعل ما يتطلّبه الأمر.

التهم رجاله سمكاتهم الصّغيرة في صمت وقد ظهر على ملامحهم الإرهاق الشديد، كانت تلك الأيّام أكثر استنزافًا لطاقتهم من سابقاتها بعد تطوّعهم للنّهوض بأشغال التّرميم، ولم يكن جميعهم في رضا تامّ عن التّدبير المعتمد.

- كان عليهم توفير الطّعام على الأقلّ!

برطم براندن في تذمّر، فأمّن هاورد ذو ذيل الحصان الرّماديّ على قوله:

- حتّى في الحظائر القذرة يوفّرون المسكن والوجبات. نحن نساعدهم دون مقابل، ولا نحظى حتّى بسقف متين يخصّنا!

همّ نايت بالحديث، إلا أنّ حركة ثقيلة خلال الأشجار جعلته يجفل. تسمّر مكانه وأشار إلى الرّجال بالسّكون بحركة من يده، أصغى برهة قبل أن يضع نسيج السّعف أرضًا ويغادر موقعه متسللًا. لا يفترض بأحد من السّكان أن يقترب من مخيّمهم، ليس بعد قتل نيلسون، وليس بعد إبرام الصّلح. لم يبصر أيّ حيوانات ضارية على أرض الجزيرة منذ وطِئَها -باستثناء العظايات الضخمة التي قادها آدم خارج أعماق الكهف- لكنّ الحذر واجب. ماذا لو توغّلت واحدة من العظايات تجاههم وهم لا يشعرون؟

تحرّك بخفّة وسط الأشجار محاذرًا أن يُحدث صوتًا يُنبئ عن وجوده، شعر بالحركة ثانية غير بعيد عنه، لكنّها تنسحب في الاتّجاه المعاكس في موجات ضئيلة لا تكاد تترك أثرًا. بالنظر إلى خفوت الصّوت ودقّته قدّر أنّه لم يكن وحشًا مفترسًا، ولا أرنبًا بريًا أيضًا، بدا أقرب إلى تسلّل بشريّ. هيّئ إليه أنّه يلمح هيئة تطفو في الهواء، تنزلق بين الشجيرات برشاقة غزالة بريّة يتهدّل الشعر الأشقر الذهبيّ وراءها. كانت مجرّد ومضة عابرة لا تكاد العين تميّزها، فتتأرجح في وعيه بين الواقع والخيالات.

بعد لحظات، كانت الحركة قد تلاشت تمامًا وعادت أصوات الغابة الطبيعيّة تغمر حواسّه تتخلّلها نقرات الماء الذي يواصل الهطول. كان يهمّ بالعودة أدراجه صفر اليدين، حين انتبه إلى الوعاء الخشبيّ الذي وُضع على الأرض. كاد يخطئه بسبب ورقة الشّجر العريضة التي تحجبه، كان وعاءً مستديرًا منحوتًا بدقّة، حين رفع الورقة تبدّت بداخله كتلة مائعة تلمع في الظلمة عاكسة بريق الـ«مادرا». انتابه الشك، هل هو فخ ما؟ تردّد، يوازن بين الفضول والحذر. أخيرًا، انحنى ببطء وغمس إصبعه داخل السائل الدّاكن، ثمّ تذوّقه. فاجأه الطعم الحلو الدّسم للعسل الصّافي.

أعاد الغطاء مكانه بعناية واحتضن الوعاء بين يديه ليعود أدراجه نحو المخيّم بالحمل الثمين وابتسامة عريضة تملأ وجهه، وضعه بحركة مسرحيّة فخور على الأرض حيث تحلّق المرتزقة، فانحنى الرّجال في فضول لمعاينته.

هتف ساندي في بهجة:

- عسل! أين وجدت هذا؟

أشار بإبهامه خلف ظهره.

- وراء الأشجار.

- هل تعتقد أنّ أحدهم قد أحضره إلينا؟

ضرب براندن قبضته في ذراعه وهتف ساخرًا:

- ربّما تمشي أوعية العسل على قدمين في هذه الجزيرة.

اغترف هاورد غرفة بيده وأخذ يلعق بشراهة وهو يقول:

- أظنّ أنّهم يشعرون بالامتنان على الأقلّ!

ضحك الآخرون وتدافعوا للحصول على حصّة من الشّراب اللذيذ.

تلفّت نايت من جديد يحدّق في أعماق الغابة المظلمة، لم يكن واثقًا ممّا رأى، بالنظر إلى الهيئة وحدها لم يكن من اليسير أن يميّز رجلًا كان أم امرأة، فحتّى الشبّان يحتفظون بخصلات شعر طويلة يطلقونها على ظهورهم، لكنّ النّساء أكثر حشمة وخجلًا ويبقين شعرهنّ تحت غطاء رأس معظم الوقت.

لعق حصّته من العسل، ثمّ استأنف عمليّة التظفير بجدّ وقد حصل على دفعة إضافيّة من الطاقة.

(8)

اليوم الثامن بعد الستين

توقّف نايت عن العمل حين اقتربت المعلّمة الشابّة من موضعه. اسمها تاليا. عرفها في وقت سابق، حين أجبرها مايك راسل على الاضطلاع بمسؤوليّة التّرجمة، والآن تساعد على تيسير التّواصل بين الجانبين. أحيانًا ما يحتدّ رجال الـ«آم» لمّا يُغلق عليهم فهم إشارات ساندي وتعليماته، توشك الأعصاب على الإفلات من هذا الطرف أو ذاك، لأنّ أحدهم لا يفقه حرفًا ممّا يقوله الآخر، فتهرول السيّدة الصغيرة لتقف بينهما، تشرح بهدوء وجهات النظر فيُصغي إليها الجميع.

- لقد فرغ الرّجال من نصب الأعمدة، إن كان هذا كلّ شيء فربّما يمكنهم الانصراف الآن؟ يحتاجون إليهم في القرية.

أومأ بهدوء فأعلنت المعلّمة انتهاء الدّوام للرّجال لينطلقوا في مهامّ مختلفة، فيما انهمك نايت في محادثة جانبيّة مع ساندي. بعد دقائق، انتبه إلى بقائها على مقربة وعيناها تطرفان في تردّد ملحوظ، حين أولاها انتباهه تجرّأت على المبادرة:

- إذا كان أحد رجالك متفرّغًا.. أحتاج إلى المساعدة في مكان آخر.

أومأ نايت برفق:

- ما الأمر؟ ربّما يمكنني المساعدة.
- اتبعني إذًا.

مشى وراءها عبر الطرقات، يتبعها على مسافة ثلاث خطوات، فيما استمرّت عيناه تتأملانها في اهتمام، منذ ظهور الهيئة الهائمة بين الأشجار بالأمس، ضبط نفسه متلبّسًا أكثر من مرّة وهو يعاين القامات والهامات التي تتحرّك من حوله، يبحث بين ثناياها عن وثبة الغزال الشّارد التي يهيّئ إليه أنّه رآها. لا يعرف إن كان زائر اللّيل شابًا أم فتاة، لكن يهيّأ إليه أنّ الضفيرة الشقراء الطويلة المتراقصة على ظهره/ ظهرها.. مألوفة.

توقّف عند تلك الملاحظة، السّيدات في الجزيرة يجمعن شعورهنّ فوق رؤوسهنّ في لفّات سميكة بارزة من تحت غطاء الرأس، فيما ترسل الصّبايا ضفائر طويلة على ظهورهنّ وتتسلّل خصلاتها من الأسفل حين يتحرّكن. لا تبدو المعلّمة في سنّ الصّبا، إنّها تتجاوز الثلاثين لا ريب، تبدو مثل سيّدة ناضجة.. لكنّ ضفيرتها تحيّره.

قادته نحو مبنى المدرسة، لم تدلف إلى الغرف الأساسيّة التي تؤوي معظمها نساءً وأطفالًا تداعت أسقف بيوتهم المرتجلة، بل انصرفت إلى مساحة ضيّقة خلف البناء فسار وراءها، بين الجدار والسّور الذي يضمّ الفناء ويحدّد مساحة لهو الصّغار وجد طرقة قليلة الارتفاع، ربّما خصّصت في وقت سابق لغرض آخر يجهله، لكنّها الآن تمتلئ كتبًا. ليست كتبًا من تلك التي يعرفها في الدّيار، بل لفافات من ورق الأرز المجفّف.

- ضطررت إلى إخراجها من الغرفة لأنّ الأطفال يعبثون بها.. وليس هناك موضع مناسب لتخزينها الآن.. بالنّظر إلى المطر الذي لا يتوقّف.

كانت قد ألقت طبقة من سعف النّخيل فوقها على سبيل الحماية، إلا أنّ قطرات الماء تتسرّب إلى الدّاخل رغم ذلك.

أومأ نايت باهتمام، قبل أن تتوقّف نظراته على مُجلّد من الصّنف الذي يعرفه؛ كتاب من العالم المتحضّر. التقط رواية الجيب في فضول وقرأ

العنوان: العجوز والبحر! واحدة من الروايات الكلاسيكيّة التي قرأها منذ عقود. استدار نحو المعلّمة وسأل:

- هل تقرئين هذا؟

أومأت تاليا وقد تضرّجت وجنتاها حرجًا.

تساءل نايت في وقت سابق عن سرّ تعلّمها الإنجليزية، لو أنّ الحكيم عمّار قد أراد أن ينشر المعرفة ويلقّن اللّغة للسّكان المحليّين لكان كثيرون يتكلّمونها، إلا أنّه لمح المفاجأة في عيون الحكماء الآخرين حين نطق عمّار بالإنجليزية في ذلك التجمّع داخل دار العبادة إبّان لقائهم الأوّل، إذًا فقد احتفظ الحكيم بمعرفته سرًّا، ممّا يعني أنّ تاليا قد تعلّمت بطرق أخرى، بل إنّها تمكّنت من إتقان اللغة متفوّقة على أقرانها ومواطنيها باجتهاد شخصيّ بحت. لعلّ لهجتها متصلبة تفتقر إلى الممارسة لكنها تؤدي الغرض تمامًا.

تجرّأ على تقليب اللفائف التي تحتفظ بها داخل الخزانة، أوراقها تحوي آلاف الكلمات الانجليزية التي جمعتها عبر السّنوات وحفظتها بحرص مستغلة كل اللقاءات المتاحة بالغرباء. قالت بتردّد:

- حصلتُ عليه كهديّة.. من أحد الغرباء.

هزّ نايت رأسه مشجّعًا، فواصلت:

- إنها قصة رائعة، لم أفهم كل شيء لكنني قرأتها عشرات المرات، وكلما تعلمت أكثر فهمت أعمق.. لكنني لا أستوعب كل كلمة بعد.

قال نايت بانبهار واضح:

- أنت تُبلين بلاء حَسَنًا.

لم يعرف أحدًا مجدًا في التّعلم مثلها قط. كيف يمكن لشخص أن يتقن لغة من خلال التقاط كلمات متفرقة من المسافرين العابرين على مدار عشرين عامًا! ذلك الاجتهاد من طرفها مذهل ومثير للإعجاب حقًا. بين جميع المعلمين الذين قابلهم كانت الأكثر إتقانًا.

خفض عينيه أخيرًا وعاد إلى المهمّة التي استدعته من أجلها، وأخذ يضع خطّة لإقفال المساحة وعزلها عن الماء. عاد أدراجه إلى مكبّ الخردة واختار قطعًا معدنيّة مناسبة ثمّ عمل لساعتين إضافيّتين لتثبيت مظلّة فوق سقف الطّرقة وحاجز جانبيّ يسمح باستخراج اللّفافات وقت الحاجة.

وقفت تاليا طيلة الوقت خلفه رافعة مظلة من السّعف فوق رأسه تقيه المطر، تراقب العمل وتبدي الملاحظات، ثمّ انحنت طويلًا معبّرة عن امتنانها قبل أن يفترقا عند بوّابة المدرسة لتمضي في سبيلها.

حين تجاوز البوّابة، وجد نفسه وجهًا لوجه مع الحكيم عمّار. هذا فرد آخر يمكن التّواصل معه. عدد الذين يفهمون الإنجليزية قليل، وعدد أولئك الذين يتكلّمونها أقلّ. لذلك يحتاجون إلى حضور المعلّمة تاليا كثيرًا في ساحات العمل، أمّا الحكيم فلديه مسؤوليات أخرى تشغله ولا ينتظر منه أحد أن يتفرّغ للتّرجمة.

أحنى نايت رأسه تحيّة، فاقترب عمّار ليقف إزاءه بنظرة صارمة.

- لقد فقدت شقيقها خلال المواجهة.

شعر نايت بطعنة خفيّة تصيب صدره بضربة حادّة، عرف أنّ الحكيم يتحدّث عن المعلّمة. تساءل في جزع إن كان ذلك في أثناء إطلاق النّار العشوائيّ، حين فقد مايك السّيطرة واستبدّت به النّزعة الوحشيّة؟ لقد سقط العشرات في السّاحة في ذلك الوقت، وبعد ذلك مباشرة أجبرت المعلّمة على البقاء للتّرجمة. أيّ ألم قد تكون عاشته في تلك اللّحظات؟ أن ترى أحباءها يسقطون ويموتون أمام عينيها، ثمّ تضطرّ إلى التّعاون مع العدو الذي ينهش لحومهم؟

- ما من بيت لدى الـ«آم» إلا وفقد أحد أفراد عائلته خلال الأسابيع الماضية. لقد قُتل كثيرون.. لكنّهم لم يحظوا بعد بالتّكريم المناسب. لا يمكننا الحداد بعد، ليس قبل أن يتوقّف المطر.. وهذا يعني أنّ الثأر مؤجّل

في نفوس كلّ هؤلاء الذين يضطرون إلى مخاطبتكم نهارًا، والامتناع عن نحركم ليلا.

ارتجف نايت خفية، أوليس هذا ما دفعه إلى عرض خدماته؟ أن يسبق بإحلال السّلام فيتجاوز الآخرون عمّا سلف؟ ازدرد لعابه بتوتّر ثمّ تجاسر على السّؤال:

- ظننتُ.. أنّ المجلس قد عفا عنّا.

- المجلس؟ ربّما. لكنّ المجالس تحكم من المقاعد العالية وتُرسل الكلمات الجوفاء، أمّا الثأر فينساب عبر الطرقات وينام داخل البيوت. رجالك لن يكونوا في مأمن أبدًا. حين تنتفي الحاجة إليكم.. أي بعد الفراغ من أشغال البناء.. سيودّ العشرات أن ينتقموا! والمجلس ليس حاضرًا في كلّ مكان، لضمان عدم المخالفة. وحتّى لو ألحق العقاب بواحد، فسيبرز آخرون! إنّ ما فعلتموه على هذه الأرض لا يُغتفر، ولا تعتقد للحظة واحدة أنّ مجرّد النّدم والتّعاون سيضع حدّا لسيل الدّماء بيننا وبينكم!

تجمّد نايت في موقعه للحظات، ثمّ راوده خاطر. لماذا يُخبره الحكيم بكلّ هذا؟ ما الذي يُفيده من تحذيره؟ إلا إن كان يملك مخرجًا ما وقد جاء يساوم؟ جاءه صوت عمّار من جديد:

- إذًا، ما خطّتك؟

- البقاء حيّا!

تراءت ابتسامة جانبيّة على شفتي عمّار.

- جميل.. أعرف ما يدور في رأسك الآن، بناء مركب خشبيّ-أو سرقة واحد- والإبحار إلى الدّيار في أقرب وقت، أليس كذلك؟

هزّ نايت كتفيه وقال بلا مبالاة:

- تبدو لي خطّة جيّدة.. ربّما أعتمدها.

قاطعه عمّار بلهجة جافّة:

- جواب خاطئ! نحن في موسم الأمطار الآن، أنت تعتقد أنّ العاصفة ستتوقّف خلال أيّام قليلة، وقد تفعل، لكنّ غيرها سيأتي بعد ذلك.. وسيستمرّ الوضع على هذه الحال.. لن تتوقّف العواصف تمامًا إلا بعد أربعة أشهر على الأقلّ. لو كنتُ مكانك لما جازفت بالإبحار حتّى نهاية الموسم!

علت ملامح نايت علامات الوجوم، لو كان يملك سفينة تجاريّة ضخمة مثل «سارا» أو يختًا سريعًا مثل «النّمر الأبيض» لكانت المجازفة ممكنة، إلا أنّ قاربًا خشبيًا هشًا لن يصمد طويلًا في وجه العواصف والأعاصير. قال عمّار ممثلًا الأسف:

- أنتم عالقون هنا شهورًا.. للأسف!

أرسل نايت زفرة طويلة، هذا خبر ثقيل عليه أن يزفّه لرجاله.

- هل أنت متزوّج يا نايت؟

- عفوًا؟

فاجأه التّغيير المفاجئ للحديث، لكنّه أجاب:

- لا، لستُ متزوّجًا.

- إذًا، لا أحد يفتقدك في الدّيار؟

رفع حاجبيه في دهشة متزايدة. ما الذي يعنيه بالنّسبة للحكيم، سواء افتقده أحدهم أم لم يفعل؟ هزّ كتفيه وهو يقول في استسلام:

- مات والداي منذ سنوات.. ليس لي إلا شقيقة واحدة، وقد تمضي الشهور الطويلة دون أن نتواصل.. وربّما نلتقي مرّة كلّ عام.. في الأعياد.

- جميل!

أخذ عمّار نفسًا ثمّ قال بلهجة وديّة:

- أنت تروق لي يا نايت.. وإعجابي بك يدفعني إلى مصارحتك. لا أودّ أن أراك تُذبح في أثناء نومك.

رمش نايت في عصبيّة، واستحضر جثة نيلسون المختنق في سريره، ثمّ صورة الشبح الهائم بين الأشجار، تمثّله بوضوح كمسخٍّ شابّ، جامح وغاضب، يتسلّل ليلًا ليراقب مخيّم الدّخلاء في أعماق الغابة، يتحيّن الفرصة المناسبة ليفتك بهم واحدًا بعد الآخر، وستأتي فرصة في ليلة ما مع بقائهم عالقين على الجزيرة، قد يستيقظون كلّ فترة ليجدوا أنّهم قد فقدوا واحدًا منهم في أثناء الليل. حتّى يُقضى عليهم جميعًا. تمتم في قلق:

- هل هناك ما يمكن عمله؟

احتدّت النظرة في عيني عمّار وهو يقول ببطء:

- هذا.. يعتمد على رغبتك في الإصغاء. لديّ مقترح كفيل بحلّ الأزمة وإنهاء الصّراع بين الفريقين.. بداية، عليكم الاندماج في المجتمع المضيّف، دائمًا ما كانت الأقليّات المنغلقة مصدر قلق في العالم المتحضّر، لذلك فإنّ تعلّم شيء بسيط من اللّغة المحليّة للتّواصل اليوميّ والاطلاع على العادات والأعراف التي لا ينبغي خرقها ستمثّل خطوة جادّة في سبيل التعايش المشترك...

أومأ نايت متفهّمًا:

- وماذا أيضًا؟

تعلّقت نظراته بشفتي الحكيم الحازمتين إذ أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يُعلن:

- دائمًا ما تنتهي الصّراعات بين الأمم المتناحرة بإرساء السّلم المدنيّ، وأفضل سبل إحلال الوئام بعد الخصام.. هي المصاهرة!

احتاج نايت إلى بضع ثوانٍ ليستوعب طبيعة المقترح: هل يعرض عليه الزّواج من إحدى بنات الجزيرة؟ تجلّت الصّدمة في ملامحه، لكنّه أطلق ضحكة مغتصبة قبل أن يقول:

- إنّها مجرّد أربعة أشهر، لا يحتاج الأمر إلى هذا المستوى من التّعقيد!

- لو كنتُ مكانك لما وثقت في هذا. قد تكون أربعة أشهر لبعضهم، وأسبوعًا واحدًا لبعضهم الآخر.. وربّما سنوات طويلة لآخرين.

زوى نايت ما بين حاجبيه في ريبة. *هل هذا تهديد آخر؟*

- إذا أردت رأيي، فليكن تركيزك على الغد.. كلّ يوم يأتي بحزمة من الفرص والمخاطر، والشاطر من يُحسن اختيار معاركه!

استمرّت نظرات نايت المستعرة نابضة بالحيرة، ثمّ أضاءت عيناه بفهم متأخّر:

- إذًا، تأخذون رهينة منّا؟

ضحك عمّار برفق ولم ينفِ الاتّهام، قال بهدوء:

- إذا شئت تأويل الأمر بهذه الطريقة.. فليكن!

وجمت ملامح نايت وأطرق برهة في صمت، ثمّ تمتم في استسلام:

- سأتشاور مع الرّجال.. إذا وجدتُ منهم قبولًا فربّما نقدِّم مرشّحًا.. للـ«مصاهرة»!

- أنا آسف لكنّ الأمر سيتمّ على طريقتنا.

- ماذا تعني؟

- نحن من يختار المرشّح المناسب.

لوى نايت شفتيه ثمّ قال في ضيق:

- نحن مجبرون على التّعاون إذًا؟

- ليس إلى درجة الإجبار.. نحن حريصون على رضا الطّرفين، لكنّنا نملك سلطة المفاضلة بين المرشّحين.

تنفّس نايت بعمق، فليكن، لا يدري كيف سيتقبّل رجاله هذه الشّروط، لكنّ واحدًا منهم سيكون مضطرًا إلى التّضحية من أجل الآخرين -أو على الأقلّ يجارون الحكماء لبعض الوقت حتّى تتوافر بدائل أخرى- لكن بدا أنّ هذا لم يكن كلّ ما في جعبة الحكيم:

- هناك شرط تقنيّ يخصّ المرشّح، ليس ممّا يتعذّر تجاوزه.. لكنّه يتطلّب التزامًا ذاتيًا واستعدادًا نفسيًا...

ازدرد نايت لعابه وترقّب الأسوأ.

- أهل الجزيرة مؤمنون ومحافظون، ولا يقبلون من ليس على دينهم. لذلك سيكون على المرشّح تغيير دينه قبل إتمام المراسم، هل تعتقد أنّ هذا سيمثّل عائقًا؟

***

وقف آدم تحت المطر، رفع رأسه نحو الرّجال الذين يتحرّكون مثل خليّة نحل عبر ساحات القرية، ألقى عليه بعضهم نظرات مبهورة وانحنى آخرون عميقًا، لكنّ الهمسات انتشرت واستمرّت وقتًا طويلًا منذ ظهوره بعد غياب أيّام. أنجز عمّار مهمّته على أفضل ما يكون، ينسج فصلًا جديدًا في أسطورة «المُخلِّص» الغريب الذي راح جسده يتّخذ ألوان الـ«آم» خلال خلوته المقدّسة.

تتضافر التّفاصيل معًا لتكتمل صورة البُشرى، الغرباء الذين يعرفون كيف يتعاملون مع المعدن، الغرقى الذين ألقت بهم العاصفة على شواطئهم ليمنحوهم سرّ النّجاة، والرّؤيا -المزعومة على لسان عمّار- باقتراب نهاية الأزمة، لكنّها حقيقيّة جدًا في فؤاد آدم، وعد هامس يتردّد في وجدانه..

«ستكون بخير!»

لم يتلقّ التوبيخ المتوقّع من الـ«كوتانا» الذين أرسلوا يطلبونه سابقًا أكثر من مرّة ليخذلهم دون ذرّة ندم، بل كان كلّ ما حظي به دفقات من الامتنان الصّميم لنعمة وجوده بينهم. لم يحرّك أيّ من ذلك شيئًا في داخله، اعتراه حجاب لا مبالاة سميك جعله في معزل عن الانفعالات العميقة، لا خزي يغمره ولا خجل من سابق تهرّبه من مسؤوليّاته، ملأه يقين بأنّ كلّ ما يحيق به جزء من قدر مسطّر، وأنّ الخوف والتململ لن يغيّرا من مصيره شيئًا، لذلك أولى به أن يتقبّله بطمأنينة وسكينة.

لم يعرف قبل تلك النّزعة الصّوفية المستسلمة. كان رجلًا قلقًا بطبعه، يتوق إلى عمل شيء ما بيديه دائمًا، وقد أوقعته رغبته الملحّة في التخطيط والتصرّف في عواقب وخيمة كلّ مرّة، ألم يتصادم مع والده مرارًا وهو يضع أمنهما محلّ تهديد كلّما أقدم على خطوة جريئة ما؟ تبدو تلك الذكريات بعيدة جدًا، مضى أكثر من ستّين يومًا على حادثة الغرق وتحطّم المروحيّة، وقد تعلّم دروسًا كثيرة في هذه الأثناء.. آخرها أنّ التّسليم والرّضا هما سلاح العاجز الأخير.

يصعب عليه أن يصدّق أنّه يتحوّل. لكنّه يفعل، ظاهرًا وباطنًا.

هل تلك هي مراحل الصّدمة التي يتحدّث عنها علماء النّفس؟ الإنكار والغضب، ثمّ المساومة والاكتئاب.. لينتهي بالتقبّل. هل مرّ بالمراحل ذاتها فعلًا؟ بهذا التّرتيب؟ ليس واثقًا، ولا يهتمّ بتلك المعطيات النظريّة التي ربّما قد تصف ما يمرّ به، لكنّها لن تغيّر في صلب الموضوع شيئًا. إنّ ما يشعر به الآن حقيقيّ، تلك السّكينة الجديرة بالمُخلِّص! ربّما كان عليه أن يمرّ بصدمة شاقّة تقصم الظهر لينبلج وجهه الجديد مثل الفجر، كأنّما يقوم من الرّماد، ينفض الغبار ويغتسل تحت المطر، رجلًا آخر.

فكّر أنّ صوت والدته لم يكن حقيقيًا. ربّما تؤمن روان بالرّؤى وتبني عليها آمالا كبيرة، تصدّق أنّ قصّتهما محبوكة في القدر وأنّ اجتماعهما محتوم،

لكنّه وإن لم يملك تفسيرًا واضحًا بعد لتجربة «الشعور بالهواء»، فهو يعتقد بارتباطها بمشاعره الدّفينة وحدها، تمامًا كما تعكس الأحلام الرّغبات. لطالما كانت والدته مصدر دعم معنويّ خلال نشأته، يستمدّ كلّ منهما قوّته من الآخر في ظلّ حضور والده المتقطّع. لذلك يأتيه صوتها هامسًا، يبثّ في فؤاده الطمأنينة.

حين تعود روان –وسوف تفعل– ستودّ أن تراه قويّا صامدًا، لا منعزلًا مكتئبًا.

استقبل الانحناءات العريضة بهزّات خفيفة من رأسه، ثمّ استدار ليقطع المسافة حتّى دار العبادة. يضع معظم الرّجال والنّساء مظلات مسطّحة تحمي رؤوسهم من المطر، يصنعونها من سعف النّخيل أو أعواد القصب حسب المتاح، لكنّه مشى عاري الرّأس، يستعرض خصلاته الشقراء حديثة التحوّل في فخر واعتداد. إنّهم يحتاجون إلى رؤيتها واضحة جليّة ليصدّقوا ويؤمنوا، وهو لم يكن يمانع أن يمنحهم ذلك العرض، فربّما يكفّر ولو قليلًا عن سابق ذنبه.

جاء مروان لاستقباله وقد بدا عليه الحماس الشديد، لعلّه قد افتقد التحرّك على أثره في الأيام الماضية ويحنّ إلى الأوقات التي كان يتبعه خلالها مثل ظلٍّ ثانٍ. تذكّر آدم في حسرة حاجة المُسخِّرين الشّبان إلى قيادة وإرشاد بعد أن فقدوا معلّميهم خلال المعركة الضارية. لا يعتبر نفسه بعد جديرًا بأن يكون معلّمًا لأحد، فلا تزال أمامه رحلة طويلة من التّدريب والاكتشاف ليحيط بأبعاد الـ«مادرا» كلّها وما تخبّئه له من مفاجآت، لكنّه في تلك اللّحظات قد يكون خيارهم الأفضل. لقد رأوه جميعًا يسحب الخيوط كلّها على حدود الظلة! معلّم واحد قادر على تمثيل أصحاب الخيوط الأربعة.. أليس هذا ما كان عليه؟

- والدي يريدك!

أعلن مروان، فتوقّف مسير آدم فجأة. تبع الشابّ دون نقاش، لاحظ في دهشة أنّ خطواتها تمضي باتّجاه المشفى. يذكر أوقاتًا بعيدة كانت تأتي فيها روان لتعلن بنبرة متحكّمة أنّ «والدها يريده»، وقد كانت تلك اللقاءات تحمل دومًا قدرًا من المفاجآت والأخبار الصّادمة. ريحان كانت تأتي من أجله في أوقات أخرى، والآن هو دور مروان. لكنّ الاجتماعات المهمّة كانت غالبًا ما تُعقد في منزل الحكيم الخاصّ، ولاحقًا في كوخ المعتزل. ربّما لم يعد المشي تحت المطر لمسافات طويلة مريحًا، فلزم الحكماء دار العبادة في الأيّام الأخيرة.. أمّا وقد طلبه عمّار إلى المشفى، فإنّه حديث خاصّ لا يرغب في السّماح للآذان المتلصصّة أن تلتقط خيوطه.

ألفى عمّار جالسًا في الغرفة الخارجيّة، تقابله المعالجة مارتا. تهلّل وجه جدّته حين لمحته مقبلًا، ربّما لم يتحدّث إليها منذ أمد، تعود آخر محادثاتهما الخاصّة إلى أسابيع بعيدة. وقفت مارتا لتتنحّى جانبًا وتركت له موضع الصّدارة، فأومأ آدم شاكرًا واتّخذ موقعه دون تواضع مزيّف. تعوّد أن يؤثره الآخرون ويبجّلوه، وصار يتقبّل الأمر ببساطة كجزء لا يتجزّأ من هويّته كمُخلِّص للـ«آم».

لاحظ بنظرة عابرة الدّعامات المعدنيّة التي أضيفت إلى أُسس المبنى، وطبقات القصدير التي تمنع المطر من التسلّل إلى الدّاخل. إنّها تبدو دخيلة وقبيحة تمامًا، لكنّها ضرورة لا يملكون ترف رفضها. لطالما ترفّع سكّان الجزيرة عن استخدام مخلّفات العالم الخارجيّ، لكنّهم يتقبّلونها الآن، لعلّها تنقذ حياتهم.

– هل رأيت ما فعله رجال مايك راسل؟ إنّهم شباب صالحون!

رفع آدم حاجبيه أمام ملاحظة عمّار غير المتوقّعة. *صالحون*؟ ربّما يكون هذا آخر ما قد يتّصف به مرتزقة مايك: الصّلاح! ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي آدم، فسارع عمّار يقول:

- إنّ لديهم مهمّة هنا. لقد نجوا من الغرق لأنّ الاختيار قد وقع عليهم لإنقاذ الـ«آم» من طوفان جديد! وهذا يجعلهم «مختارين» بطريقة ما.. تمامًا كما كنت أنت المُخلِّص المنتظر...

ضيّق آدم عينيه وهو يرمق عمّار بنظرة سابرة، كان من الواضح أنّه يُبيّت أمرًا. ومتى عدِم الحكيم الأفكار والخطط؟ دومًا ما كانت في جعبته بضع استراتيجيات ملتوية.

- ما الذي تنويه بخصوصهم؟

سحب عمّار نفسًا عميقًا ثمّ استعدّ للشرح:

- هل تذكر ما أخبرتك به منذ زمن.. عن تباطؤ التّدفّق في الـ«مصدر»؟ وخطة النّزوح الكبير نحو العالم الخارجيّ؟

هزّ آدم رأسه ببطء، فاستأنف الحكيم:

- حسنًا.. ربّما نبدأ تنفيذ الخطّة قبل الأوان، ونشرع في تهجين الأجيال القادمة منذ الآن!

اتّسعت عينا آدم دهشة، ثمّ تحوّلت دهشته إلى غضب مستعر.

- هل جننت؟ هل تريد تزويج بنات الـ«آم» من هؤلاء الوحوش المتعطشين للدّماء؟

أمسك عمّار بكفّه ومنعه من الوقوف والمغادرة، حاول تهدئته قائلًا:

- لنكن عادلين.. هؤلاء الرّجال كانوا تحت سلطة قائدهم ينفّذون ما يؤمرون به، مثل أيّ جيش نظاميّ يتبع خططًا لا ناقة له فيها ولا جمل.. ثمّ نحن لا نعرفهم واحدًا واحدًا.. ربّما من بينهم من لم يبرح السّفينة قط، ربّما بعضهم يقوم بأعمال الصّيانة وحسب!

كان عمّار يُدرك أنّه يراوغ، وأنّ افتراضه سيتهاوى مع أوّل تثبّت وتحقّق. ربّما لم يكن آدم حاضرًا معظم الوقت في المواجهات المباشرة، لكنّ كلًا من الرجال السّتة شُوهد بالتأكيد في وقت سابق ممتشقًا سلاحه في

عمليّات ترهيبيّة مختلفة، يكاد يكون واثقًا من هذا. فما الذي قد يدفع مايك راسل إلى تقديم العقار الثمين الذي يمكّن من تحمّل مناخ الجزيرة لرجال لا ينوي أخذهم نحوها؟ كلّ واحد منهم تمكّن من النّجاة من الغرق، لكنّه فوق ذلك منيع أمام تأثير الـ«مادرا» على أنظمته الحيويّة، وهذا سرّ بقائهم على قيد الحياة.

– حسنًا.. لنفترض أنّ هؤلاء الرّجال أنفسهم قد أطلقوا النّار بالفعل وقتلوا نساء وأطفالًا بلا ذنب، لكنّهم بعد ذلك مرّوا بامتحان عسير.. هاجمتهم العظايات العملاقة وفرّوا على أعقابهم، ثمّ غرقت سفنهم ووجدوا أنفسهم محاصرين بالماء من فوقهم ومن تحت أرجلهم.. فماذا فعلوا؟ عرضوا خدماتهم على السّكان المحلّيين! ألا يمكن اعتبار معروفهم نحو الـ«آم» وسيلة للتّكفير عن ذنوبهم السّابقة؟

رفع كفيه مبسوطتين جنبًا إلى جنب مثل كفّتي ميزان.

– هذه بتلك.. إنقاذ روح مقابل كلّ روح سُفِكت! أنت لا تعرف الطوفان. إذا فتك مرّة أخرى وجرف السّيل كلّ شيء، كنّا لنفقد العشرات! ثمّ، حين يُعلنون إسلامهم ستكون كلّ ذنوبهم السّابقة قد غُفرت.. أليس الإسلام يجبّ ما قبله، والتّوبة تمحو ما سلف؟

وقف آدم بحركة حادّة.

-أنت مجنون! هوسك بخطّة النزوح يُفقدك عقلك! هل تصدّق إعلانًا شكليًا على ألسنتهم التي تحترف الكذب؟ وهل تعني توبتهم الظاهريّة شيئًا لقضاء حاجاتهم والحصول على مبتغاهم منّا؟ ثمّ هل يوافقك الـ«كوتانا» على هذا العبث؟

رسم عمّار ابتسامة متملّقة وهو يشير إليه كي يعاود الجلوس:

– من أجل هذا طلبتك، أيها المُخلِّص المبجّل.. الـ«كوتانا» سيتسمعون إلى مشورتك. الأخذ بيد الـ«آم» نحو الـ«مهافيا دياما» جزء من مهمّتك.

- لا تعتمد عليَّ في هذا!

تملّص من قبضة عمّار الذي حاول إيقافه بكلّ جهده واندفع نحو المخرج. استدار قبل أن يتجاوز العتبة وقال بلهجة مُرّة:

- روان لم تكن لتوافق على هذا!

***

غفت روان على الأرض، فراودها ما يشبه الحلم. كان آدم يناديها من بعيد، تغمر السّحب البيضاء النّاصعة صورته وتحجب طبقات الضباب صوته، لكنّه استمرّ في النّداء طيلة الحلم. كان صوته يتقطّع ويتهدّج ويميل إلى البكاء، ويظلّ اسمها على لسانه يتكرّر في مناجاة تقطّع نياط القلوب. حين فتحت عينيها، كانتا نديّتين.

رفعت رأسها لتلفي أوران جالسًا بهدوء صنم مستندًا إلى الجدار الخشبيّ، كانت عيناه مغمضتين، لكنّ حركتها جعلته ينتبه. تعرف كيف يكون المُسخَّرون يقظين غريزيًا. تبادلا نظرة صامتة، ثمّ استوت روان جالسة وهي تنفض ثوبها. من الجيّد أنّها تشعر بالجفاف الآن، تخفّفت من معطف المطر وأبقت على ردائها الأحمر المنقوش، رداء الزّفاف. شعرت بنظرات أوران تتبع حركتها.

كانت ترتدي ثوبًا منقوعًا في الصّبغة الحمراء، وهو ما ترتديه العرائس عادة. ربّما يكون مغبرًا ومتّسخًا ومجعّدًا، لكنّه ثوب عروس مميّز لا يمكن لمن تضعه إلا أن تكون قد مرّت بالطقوس في وقت ما، فيما يلبس أوران ثياب الغرباء، قميصًا ضيقًا وبنطالًا خشنًا حصل عليهما في أثناء رحلته إلى «مهافيا دياما»، ولم تسنح الفرصة للخلاص منهما.

خمّنت أنّه يعرف، لا شكّ. كان غائبًا عن الجزيرة حين عُقد قرانها على آدم. اعتقدت في داخلها منذ ذلك الوقت أنّها تدين له بتوضيح ما. ليس أنهما كانا مخطوبين أو أنّها قد أهدته ربطة شعرها في أيّ وقت مضى، لكنّ

ارتباطهما كان افتراضًا ضمنيًا وتوقعًا شعبيًا.. المعالجة والمُسخِّر! لكنّها وجدت لنفسها مُسخِّرًا آخر، بل مُخلِّصًا أيضًا. لم يستهجن أحد من الـ«آم» تخطيها سلطة العادات وزواجها من الغريب الذي يسخّر الـ«مادرا»، ولا تعتقد أنّ أوران نفسه قد يلومها. لكنّ الوجود برفقته في تلك السّفينة الغريبة المبحرة بعيدًا عن الدّيار يوحي إليها بأنّ مصارحةً ما ستكون محلّ ترحيب.

كانا منفردين أخيرًا، وينعمان ببعض الدّفء والهدوء، تنحنحت وهمّت بالحديث، لكنّ أوران تكلّم أولًا:

- هل تمانعين.. إذا قرَّرنا الفرار، أن نأخذ معنا.. مانويلا؟

حدّقت فيه بدهشة، بدا أنّه قد فكّر في الأمر مليًّا فيما كانت نائمة، وقد احتاج إلى استجماع شجاعته ليتلّفظ بالطلب. ازدردت لعابها بتوتّر ثمّ تجرّأت على سؤاله بحذر:

- هل يهمّك أمرها؟

إنّها لا تعرف كثيرًا عن مانويلا، جمعهما حديث قصير منذ ستّة أسابيع، حين كانت روان ضيفة على متن «الأسطورة»، ولم تشعر بالارتياح الكامل حينها. لقد بدت الشابة لعوبًا وجريئة، لم تعجبها نظراتها تجاه آدم ومحاولاتها شدّ انتباهه.. لكنّها بدت مختلفة بعد ذلك، ليست واثقة تمامًا، لكنّها تشعر بتحوّل عميق في سلوكها وتعاطيها مع الوضع عامّة. لا يعني ذلك أنّها قد أحبّتها أو تميل إلى صداقتها، لكنّها لا تحمل تجاهها الضغينة نفسها التي تضمرها لوالدها.

تضرّجت وجنتا أوران الشاحبتان والتهبتا بدفقة دماء حارّة تصاعدت إلى رأسه. تعتع في ارتباك:

- لقد أنقذتْ حياتي. كنتُ سجينًا في السّفينة.. لكنّها ساومت على حياتها لتردّ إليّ حريّتي.

بدا ذلك إعلانًا مؤثّرًا بقدرٍ لم تتوقعه. سيطر الصّمت لثوانٍ طويلة، ثمّ أومأت روان أخيرًا بهدوء، الـ«آم» يردّون ما عليهم من ديون، وإن كانت مانويلا قد سبقت إلى إسداء المعروف، فعليهم الإتيان بالمثل.

- سنأخذها معنا.

قالت مؤكّدة. إنّهما لا يعرفان بعد كيف يسعهم الهرب، ولا الطريقة التي سيتسلّلون بها عبر قُمرات السفينة لإخراج مانويلا وحدها، دون إثارة عاصفة من الفوضى، لكنّهما سيتدبّران أمر ذلك في أوانه.

- ثمّ.. ربّما تعرف طريقة للوصول إلى «آرا».

حدجته روان بنظرة متسائلة.

- كانت لديها تلك الأجهزة.. وهي كانت تتّصل بالسّفن التي بقيت على حدود الظلة، للحصول على تعليمات الاتّجاه.. هكذا تمكنّا من العودة.

فُتح الباب بغتة وارتطمت الدفّة الخشبيّة بالجدار في لطمة عنيفة، ثمّ دلف القرصان الكهل والشّرر يتطاير من عينيه، وقد جعل احمرار وجهه ندبة في جانب شدقه تبرزُ، ثمّ صرخ:

- ما الذي فعلتماه؟

تحرّك في أرجاء الغرفة في اهتياج، تقبض أصابعه على أشياء وهميّة وتسحق الفراغ، فكّرت روان أنّه لولا خلوّ المكان من الأثاث لكانت الأمتعة تتناثر من حولهما في جنون، أمّا أوران فاكتفى بالتحديق فيه بجمود. كانت قسمات كليهما هادئة ومتماسكة كأنّ المشهد لا يعنيهما.. أو لا يفاجئهما. يعرف الاثنان ما يجري بالضّبط، توقّع أوران القادم، أمّا روان فكلّ ما حدث من تخطيطها.

- الحجر! ما خطب الحجر؟ كُنتَ تقصد شيئًا ما بالأمس! قلت أنّ عليها البقاء بعيدًا عن الحجر.. ألأنّه سيؤذيها؟

سألت روان بلطف:

- ما الأمر؟ هل حدث شيء ما؟

رفع القرصان كفّيه فوق رأسه ثمّ مسح على وجهه بيد مرتجفة.

- هودان ليست بخير.. اشتكت من التّعب بالأمس، بدا مثل زكام عابر ثمّ ساء الوضع بسرعة. إنّها تتنفّس بصعوبة.. ترتعش وتهذي...

كان ذلك حتميًا، هذه الأعراض المألوفة لا تختلف عمّا يصيب الغرباء الذين يصلون إلى الجزيرة ويتنفّسون هواء الـ«مادرا»، فالتّعامل مع «حجر الشّمس» لا يختلف عن الاقتراب من الـ«مادرا» ذاتها. والآن بعد أن جرّب القراصنة أثر الحجر، سيكون عليها أن تمضي في خطوات اللّعبة وتحرّك البيادق على الرّقعة. قالت برفق:

- خذني إليها.

رمقها القرصان بنظرة حذرة، تردّد لثانيتين قصيرتين ثمّ أشار إليها لتتبعه. تقدّمت روان بثبات عبر الممرّ ثمّ دلفت إلى غرفة جانبيّة كانت- على عكس الغرف السّابقة- تحوي بعض الأثاث. ظهرت القرصانة الشابة هودان مستلقية على السّرير وهي تنزّ عرقًا، اقتربت روان لتنحني فوقها متظاهرة بالإصغاء إلى تنفّسها ومعاينة نبضاتها، تجنّبت طيلة الوقت أن تلمس جلدها العاري مباشرة، ليس بعد. ستحتفظ باللّمسات الشافية لبعض الوقت، ليس أنّها تضنّ على الفتاة بهبتها، لكنّ خطّتها تعتمد على استمرار عذابها فترة أطول. عضّت على شفتها السّفلى، ذكّرت نفسها بأنّهم لا يقلّون شرّا عن مايك راسل، لذلك لا يستحقّون عطفها. أشارت إليهم مانويلا بالـ«قراصنة»، وإن كانت روان لا تعرف معنى مباشرًا للكلمة في قاموسها فهي تدرك أنّها صفة سيّئة لا ريب، تليق بمن يحتجز الآخرين ويستحوذ على متاعهم بالقوّة.

قالت بعد حين:

- هناك أساطير في موطني.. تقول إنّ الجنّ استخرج الحجارة المتوهّجة من باطن الأرض وألقى تعويذة حماية.. إذا أخذت الحجارة بعيدًا عن موطنها، فإنّ التعويذة ستؤذي حامل الحجر.

مزجت في تلك القصّة شيئًا من أساطير الـ«آم» التي يرويها «صاحب الحكاية» على الأطفال في الأمسيات الرّائقة مع تحريف بسيط من خيالها، لم تكن تجيد الكذب وخيالها ليس جامحًا، لذلك لم تستطع الابتعاد كثيرًا عمّا سمعته ولقّنت إياه في صباها.

زمجر القرصان في غضب متزايد:

- لماذا لم تخبرينا بهذا في وقت سابق؟

- هل كنت لتصدّقني؟

لزم الصّمت أمام نظراتها الثّابتة، فتابعت بهدوء:

- إنّها أسطورة على كلّ حال، ولم يسبق لي أن غادرتُ الجزيرة حتّى أختبر حقيقتها.. لكن ربّما تكون صادقة.

غمغم في انزعاج:

- وما العمل الآن؟ هل نُلقي الحجارة في البحر؟ كيف نتخلّص من التعويذة؟

قالت في حزم:

- هذا لن يُجدي نفعًا. إذا كانت هناك تعويذة حقًّا.. فإنّنا بحاجة إلى كبيرة معالجات الجزيرة، وحدها تعرف كيف تفكّ تعويذات الجنّ.

- هل ستكون بخير حتّى نصل إلى الجزيرة؟

- أخشى أنّ وضعها سيسوء أكثر!

- إذًا ما العمل؟ هل سنتركها هكذا؟

سكتت روان متظاهرة بالتفكير ثمّ اقترحت:

- ربّما يمكننا عمل القليل.. للتّخفيف عنها.

تعلّقت عيناه بها في لهفة، فأخذت تشرح:

- أولًا، عليها أن تبتعد مسافة كافية عن الحجارة، باستثناء الحجر الذي تسبّب في اللعنة، حتّى لا تصاب بمزيد من لمسات الجنّ.

تحرّك القرصان عبر الغرفة وأخرج كيس الحجارة من الدّرج وألقاه نحوها.

- لا أريد أن تقع عيني على هذا الشيء ثانية!
- ثانيًا، يمكنك أن تحضّر من أجلها منقوعًا من الأعشاب البريّة.
- أعشاب؟ مثل الميرميّة والنعنع وإكليل الجبل؟
- إكليل الجبل سيفي بالغرض.

الأعشاب لا تضرّ، لكنّها ليست علاجًا حقيقيًا لمفعول الـ«مادرا»، إنّما عليها أن توهمه أنّ الصبيّة تحصل على عقار ما، لكنّ الشّفاء سيأتي من مصدر آخر، على جرعات خفيفة.

- هذا كلّ شيء؟
- تقريبًا. ثالثًا، إذا سمحت لي سأتلو بعض الصّلوات الخاصّة، فربّما تساعد على تهدئة الجنّ.. لحين وصولنا.

إلا أنّ غضب القرصان لم يهدأ إلا قليلًا، أشار إليها بالمكوث مكانها وزعق في أحد معاونيه بكلمات رجّحت روان أنّها تتعلّق بمنقوع الأعشاب. عادت لتُولي المريضة اهتمامها، ومارست مزيدًا من التّظاهر. انحنت إلى جوارها جامعة كفّيها عند صدرها في خشوع وتلت صلوات هامسة.. صلوات لنجاتها وأوران واجتماعها بعائلتها، ولتوقّف العاصفة قريبًا، فنجحت في استدعاء التأثر. إنّها تتقن نوعًا آخر من التّظاهر، أن تضع قناعًا يُخفي مشاعرها ومكنونات صدرها، لذلك لم يكن من اليسير تمثيل العاطفة دون بعض الحيل. ومن حين إلى آخر كانت تمرّر أصابعها برفق على جبين هودان، تنثر شيئًا يسيرًا من الوميض الأبيض على بشرتها.

حين جاء شابّ نحيل بكوب المنقوع الدّافئ، ساعدت الفتاة على الاعتدال جالسة وسقتها المشروب على جرعات صغيرة. لمّا فرغت، بدت الشابة أحسن حالًا، فتحت عينيها في إعياء فهبّ تجاهها القرصان الكهل وأمسك بكفّيها بحنوّ. خمّنت روان أنّها في سنّ مناسبة لتكون ابنته، لكنّها قد تكون رفيقته أيضًا.

سمعته يقول بتأثر بعد أن لاحظ تورّد وجنتي هودان وانتعاشها:

- شكرًا لك!

ابتسمت روان ثمّ قالت لتحكم السّيطرة:

- لم أفعل شيئًا يُذكر.. إنّها أفضل حالًا الآن، لكنّها لم تتخلّص من التّعويذة بعد. سأحتاج إلى عيادتها كلّ يوم وتلاوة الصّلوات من أجلها.. لكنّ كبيرة المعالجات هي القادرة على شفائها تمامًا.

- نعم، نعم.. سنتحرّك على الفور! كيف يمكننا تحديد الاتّجاه؟ هل تعرفين كيف يجدر بنا الإبحار؟

قالت روان لتتمّ العنصر الأخير في الخطّة:

- سنحتاج إلى الفتاة الصّهباء.. إنّها تعرف كيف تتصّل بالسّفن.

استجاب القرصان على الفور وقد تلاشت ريبته تجاهها، أشرع باب الغرفة التي يحتجز بقيّة الركّاب داخلها وأشار إلى مانويلا بمرافقته. تبعته في ارتباك إلى قمرة القيادة، وانضمّت إليهما روان. تبادلت الفتاتان نظرة سريعة قبل أن تقول المعالجة ببساطة:

- عليك محاولة الاتّصال بسفن والدك.. كما فعلتِ في السّابق.

رمقتها مانويلا في دهشة، همّت بشرح أنّها كانت تحصل على الإحداثيات من خلال أجهزة رصد متطوّرة تفتقر إليها سفينة الصّيد البدائيّة تلك، لكنّ روان همست:

- تظاهري بذلك على الأقلّ.

مزيد من التّظاهر سيكون من نصيب مانويلا هذه المرّة، وإن كانت لا تدرك الحكمة بعد، غير أنّها أومأت وهي تزدرد لعابها، ثمّ قالت تخاطب القبطان:

- سأحاول الاتّصال، إذا سمحت لي.

ابتعد القبطان ليفسح لها المجال أمام أجهزة الاتّصال، فراحت تنقر أرقامًا وهميّة على لوحة المفاتيح، ثمّ تترقّب برهة قبل أن تعاود المحاولة. لا تعرف إن كانوا أغبياء كفاية لتنطلي الحيلة عليهم، إلا أنّها استمرّت تتظاهر، ترسم علامات تفكير عميق على وجهها وتحاول أن تبدو واثقة وخبيرة، وتختلس نظرات إلى روان التي تدبّر أمرًا.

سألها القبطان متشكّكًا:

- هل تعرفين كيف تفعلين ذلك؟

ازدردت غصّة في حلقها وابتسمت في تشنّج ثمّ قالت بثبات مزيّف وهي ترمش:

- بالتأكيد، سأكرّر المحاولة خلال دقائق.. ربّما أحصل على الخطّ.

تكلّمت روان لتصرف الانتباه عن مانويلا:

- في الانتظار، أعتقد أنّنا إذا أبحرنا جنوبًا فسنحصل على اتّصال أفضل.

مطّ القبطان شفتيه الغليظتين ولم يعلّق، وأسلم أمره للمرأتين تحدّدان اتّجاهات الملاحة.

***

لم يُحبّ الـ«كوتانا» الفكرة.

هذا أقلّ ما يمكن لعمّار استنتاجه بعد أن ألقى في حضورهم فكرته اللامعة. المصاهرة كوسيلة لإنهاء الحروب تقنية معتمدة في العالم المتحضّر وأثبتت نجاعتها تاريخيًا، غالبًا يتزوّج الملك أو القائد في الطرف الأول ابنةً

أو شقيقةً لقائد في الطّرف الثاني، وهكذا كان على الـ«كوتانا» أن يُقدِموا على تضحية جسيمة من أجل سلامهم مع الدّخلاء الذين يساعدونهم الآن على حماية القرية من الطّوفان.

نهض توماس تاركًا مجلسه في انفعال غير معهود:

- هذه فكرة سخيفة!

كلّ من لديه ابنة في سنّ الزّواج وجد الفكرة سخيفة تمامًا، بل مخزية وغير منطقيّة، حتّى إنّ آشور اتّهمه علانية:

- لو كان الأمر يتعلّق بابنتك لما تجرّأت على هذا الاقتراح!

آشور نجل «كوتانا» تافي المغدور شابّ لم يُرزق الذّريّة بعد، لكنّ لديه شقيقة تصغره بثلاث سنوات، لذلك يجد نفسه معنيًا كذلك. حافظ «كوتانا» ماليك على هدوئه وسط الضّوضاء ولم يبد استياءً علنيًا مثل الآخرين، فاستدار عمّار نحوه متودّدًا:

- أعتقد أنّ خلود ابنة شقيقتك مرشّحة مثاليّة.

عند ذلك الحدّ امتقعت ملامح ماليك واكفهرّت عيناه، ربّما حسب أنّه في أمان لأنّه لم يُرزق إلا ولدًا واحدًا فترك للآخرين دحض الخطّة نيابة عنه، إلا أنّ اقتراح عمّار فاجأه. قالت بنبرة متعالية:

- بناتنا أسمى من أن نهينهنّ بزواج لا شرف فيه!

غالبًا ما يتنافس الشّبان على حظوة الفتيات، فيستعرض كلّ منهم مواهبه علانيّة حتّى يحصل على ربطة شعر من تلك التي يرغب بها، وتلعب الأمّهات دورًا مركزيًا في جسّ النّبض وتمهيد الطّريق من خلال مفاوضات سريّة، لكنّ التّكافؤ مطلوب والرّضا مشروط. أمّا هؤلاء المرتزقة الغرباء الذين تجاوز معظمهم سنّ الشّباب فلا فرصة لديهم.

عاد توماس ليقول وهو يحرّك ذراعيه في الهواء في غضب جليّ:

- حلول الـ«مهافيا دياما» هذه لا فائدة منها. لماذا علينا أن نصاهرهم من الأساس؟ قد نحتاج إليهم في موسم الأمطار هذا العام، لكنّهم سيرحلون بعد ذلك.. لا مجال لبقائهم وقتًا أطول...

قال عمّار بصبر:

- نريد أن يشعر شعبنا بالاطمئنان لحضورهم في الجوار، وإن كان ذلك لشهور قليلة، وكذلك يحتاج هؤلاء الرّجال إلى أن يأمنوا على أنفسهم من أيّ تجاوزات متهوّرة من شبابنا.. هذا النّوع من العقود الاجتماعيّة وسيلة مثاليّة لإنهاء الخلافات. ثمّ، من يدري، فقد نكسب أفرادًا نافعين يبقون بيننا إلى أمد بعيد...

يشير عمّار إلى تجربته الخاصّة، كغريب قبِل حموه الـ«كوتانا» تزويجه ابنته الوحيدة دون أن يحقّر من شأنه. اكتفى ماليك بنظرة مترفّعة، فيما غادر توماس دار العبادة وهو يضرب الأرض بقدميه معلنًا أنّ ابنته إيلارا لن تكون أبدًا جزءًا من المقايضة، أمّا الآخرون فقد أشاحوا بوجوههم معرضين.

لم يفارق عمّار الكدر وهو يرجع إلى كوخه حيث تنتظره يخنة ورق الشجر التي أعدّتها أرابيلا. لا يخرج الصيّادون كثيرًا إلى البحر، مع انشغال معظم الرّجال في أعمال البناء والتّرميم تحت المطر، لذلك لا يحصلون على سمك يوميًا، إنّما تضطرّ كلّ أسرة إلى تدبّر أمر وجباتها. تجود الجارات أحيانًا بنصيب من الفاكهة أو اللّحم حين ينجح بعض الأولاد في صيد طائر أو أرنب، وتكتفي زوجته بحساء الجذور أو اليخنة الكالحة حين لا يتوافر غيرها. لا تحاول الاجتهاد كما تفعل جاراتها، وتكتفي بقليل يسدّ الرّمق، متشبّثة بأستار الاكتئاب الذي زحف على روحها وعانقها بلا فكاك.

في أثناء الأكل، استمرّ عمّار يعاين في ذهنه الاحتمالات المتاحة، فيما أكلت أرابيلا بلا شهيّة وبذهن غائب. تذمّرت ريحان كما تفعل دائمًا لكنّها

تناولت وجبتها رغم ذلك، ولم يحضر مروان ليشاركهم مائدة العشاء، فهو يلازم آدم معظم الوقت ويجاريه في حمية غريبة لا يعرف غيرهما سرّها.

منذ اختطاف روان يخيّم على الكوخ صمت ثقيل، تجترّ أرابيلا الحزن بلا كلمات، ويشغل عمّار نفسه بالتّفكير والتّخطيط ويحدّث نفسه داخل رأسه دون أن ينطق. إلا أنّ أمر الـ«كوتانا» الذين لا يقتنعون على الإطلاق أهمّه فأرسل زفرة طويلة لفتت انتباه زوجته على غير عادتها. رفعت إليه عينين متفرّستين كأنّها تستيقظ من نوم عميق وتُبصره فجأة، وسألت:

- هل حدث شيء؟

التفت نحوها عمّار وراوده تردّد عابر، ثمّ وجد في الحديث تسرية فأعاد على مسامعها تفاصيل جلسة الـ«كوتانا» في وقت سابق ذلك النّهار، ينفّس عن ضيقه ويشكو تعنّت الحكماء. أصغت أرابيلا باهتمام وهزّت رأسها مرّات، ثمّ قالت:

- وما شأن الرّجال بتدبير الزّيجات؟ هذا شأن النّسوة.

حملق فيها غير مصدّق وقد أدهشه خروجها عن صمتها بل اكترائها. قال متعجّبًا:

- وما الذي يمكن للنّسوة عمله إذا رفض الحكماء؟

ضربت على صدرها بكفّها وقالت باعتداد:

- اترك الأمر لي!

***

لم يحدث أمر ذو بال منذ عقد المرتزقة اتّفاقًا مع مجلس الحكماء، لكنّ نايت استمرّ يتأمّل في كلمات الحكيم-الغريب ويتوجّس ريبة. كلّما تحرّك داخل الدّغل تتراءى له الخيالات وتتراقص الأشباح في جوانب رؤيته، إلا أنّه يتلفّت بسرعة فلا يُبصِر أحدًا. يكاد يجزم أنّ عينيه تخدعانه، بَيْد

أنّ أعصابه مشدودة ومزاجه متقلّب. غير أنّه لم يخبر أحدًا من رجاله عن تهديدات الحكيم المبطّنة، لا يريد أن يبثّ فيهم الاضطراب ويفسد شبه الاستقرار الذي يتمتّعون به. سيكون حذرًا بما يكفي عنهم جميعًا.

أمّا عرض الزّواج فقد أثار روح الفكاهة لديهم وأشاع جوًّا من المرح على سهرة المخيّم، لم ير نايت رجاله أكثر صخبًا وضحكًا منهم تلك اللّيلة، وقد وجد ذلك تغييرًا مرحّبًا به عن جوّ الكآبة الذي أصابهم بعد مقتل نيلسون. إلا أنّ أحدهم لم يُناقش المسألة بجدّ أو يبدو عليه الاهتمام بالعرض، وهو لم يحاول أن يدفع بدفّة الحديث واكتفى منهم بالتعليقات السّاخرة.

بقيت أذناه متيقّظتين لأدنى حركة، بعد أن أنهى رفاقه وجبتهم المسائية ووصلة المرح، وهجعوا استعدادًا للّنوم. توقّف براندن ليُلقي نظرة عابرة على ضفائر السّعف التي أخذت تتكدّس مع الوقت إلى جانب موضع نوم نايت وسأل في فضول:

- ما هذه؟

- سعف نخل كما ترى.

مطّ براندن شفتيه ثمّ ابتعد ليتفقّد الأرنب المعلّق الذي انضمّ إليه طائرا بوم وجرذ حقل في الأيّام الماضية. سأل هاورد وهو يستلقي في موضع نومه على بعد خطوات:

- متى تظنّه يصبح صالحًا للأكل؟

لم يبد براندن واثقًا، لا تسمح الرّطوبة في الهواء بجفاف أيّ شيء تقريبًا، لا الأرنب ولا الأحذية العسكريّة، لكنّ التحلّي بالصبر من شيم الصّياد المحترف.

- بضعة أيّام أخرى.

رضي هاورد بذلك الرّد، وأغمض عينيه ليستسلم للنّعاس سريعًا. بعد دقائق، قرّر نايت أنّ عليه التوقّف عن العمل والحصول على نصيب من الرّاحة بدوره. جمع الضفائر وكدّسها جانبًا، وقبل أن يعود إلى فراشه الأرضيّ، تناهى إليه حفيف بعيد بين الأشجار، أصاخ السّمع متحفّزًا، ثمّ أحنى جذعه وانسلّ بين الظلال بخفّة دون أن يثير انتباه النّائمين.

حبس أنفاسه حين لمح القامة المديدة تنحني لتضع وعاء العسل على الأرض على مسافة خطوات من موقع تخييمهم، ربّما تضخّم الإضاءة الضئيلة والظلال المحيطة الشكل، لكنّه استطاع أن يميّز جانبًا إضافيًا: غطاء الرأس! كانت امرأة. ربّما أكسبته تلك الملاحظة بعض الشجاعة، لو كان مسخّرًا لما تجرّأ على اعتراض طريقه وهو أعزل ووحيد.

- هل وضعتِ سمّا في العسل؟

توقّفت الهيئة مبغوتة وتسمّرت مكانها، فيما خطا نايت بهدوء ليخرج من الظلال. حين اقترب بالقدر الكافي، أمكنه أن يميّز ملامحها. حبس شهقة مفاجأة حين تعرّف إليها. تاليا، المترجمة. ربّما لو كانت أيّ شخص آخر، فإنّ المحادثة كانت لتتوقّف عند ذلك القدر. مهما كان ما تحاول عمله فإنّها ستُدرك أنّ أمرها قد كشف، ولن تغامر بتكرار المحاولة. لكنّ تاليا فهمت لا ريب ما قاله، وبوسعها الردّ. لكنّها لم تفعل.

ظهر الضيق على وجهها وغامت عيناها، بدت منزعجة ليس لأنّها ضُبطت متلبّسة، بل بسبب كلماته، قالت بعد صمت قصير:

- إنّه مجرّد عسل. إن كنتم لا تريدونه، سأسترجعه.

انحنت لتلتقط الوعاء، فسارع يقول وقد أدرك خطأه الفادح.

- كان لذيذًا.. شكرًا لك.

توقّفت مرّة أخرى وهي تمسك الوعاء بين كفّيها في ارتباك، متردّدة بين وضعه ثانية أو الانسحاب على الفور. سألت أخيرًا:

- لماذا قلتَ ذلك.. أنّ العسل مسموم؟ هل تأذّى أحد؟

هرش مؤخّرة رأسه في اضطراب ولم يحر جوابًا. لو كان أحد الرّجال قد تأذّى لكانت ظهرت عليه آثار الوعكة، لكنّ أيّا من ذلك لم يحدث، جميعهم موفورو الصّحة. ربّما بالغ في شكوكه وحمّل الأمر أكثر ممّا يحتمل، فتحولت بادرتها الطيّبة إلى مساءلة متعسّفة.

- أنا آسف.. من أجل شقيقك.

لم يخطّط لتلك الكلمات، ليس تمامًا. أراد الاعتذار وحسب، لكنّه وجد نفسه يعتذر من أجل أشياء أكثر أهميّة. ارتيابه الشخصيّ بلا قيمة، مقارنة بنزعتها الغيريّة رغم ما سبق وألحقه بها وقومها من أذى معتبر. رغم الإضاءة القليلة، لمح الاحمرار يصعد إلى وجنتيها. كانت محاولة خرقاء تعوزها اللّباقة، لكنّ الكلمات تدافعت على لسانه دون حساب.

- كان ذلك قدره.

جاءت كلماتها البسيطة مثل صفعة صاخبة. ربّما يتقبّل بعضهم المصاب بسكينة أكثر من الآخرين، لكنّه لم يكن ليقدّم كوز عسل لقاتل أحد أفراد عائلته تحت أيّ ظرف من الظروف.

- هل كانت.. لديه عائلة؟

رغم أسئلته المفاجئة، كانت تاليا تجيب بتلقائية:

- ولد واحد.. عمره سبع سنوات. ماتت أمّه أيضًا، أنا كلّ ما بقي من عائلته.

- لا شكّ أنّه يفتقدهما.

أومأت برفق، بدا لنايت أنّ أيّ تعليق من طرفه سيبدو إساءة مطلقة، كان عليه أن يلتزم الصّمت ويحفظ لسانه، لكنّه جازف متهوّرًا:

- كرم منك أن تغفري وتتجاوزي عن الماضي..

قاطعته بحزم:

- أنا لم أغفر!

تقلّصت معدته لعبارتها القويّة وتوقّع تقريعًا قاسيًا، غير أنّها استمرّت تقول:

- لقد كدتُ أفقد ابن شقيقي رائد منذ يومين.. كادت السّيول تجرفه بعيدًا.. رأيت عالمي كلّه ينهار! لكنّني أخذت أشعر بالأمان بعد الأشغال التي قمتم بها في القرية، ونمت أخيرًا باطمئنان دون أن أرتجف أو أخاف ممّا يحمله الصّباح التالي. في تلك الليلة، رأيت شقيقي الشهيد في المنام.. قال لي: «العسل شفاء للجسد، والأمل شفاء للقلب، فشاركي كليهما!». حين استيقظت، كان فؤادي ينضح طمأنينة.. ومن أجل هذه الطمأنينة، قررت العمل بالرّؤيا. شقيقي كان يربّي النحل ويجمع العسل.. وحين ذهبت إلى المنحلة وجدتها ملآنة عسلًا، فشعرت أنّ من واجبي أن أشارككم إيّاه..

ساد الصّمت بعد كلماتها الأخيرة وقد انتاب نايت خجل شديد من نفسه، تمتم بعد لحظات في شبه اعتذار:

- يبدو أنّه كان.. رجلًا عظيمًا. أقدّر حجم خسارتك..

أطلقت تاليا زفرة طويلة، ثمّ تراجعت بهدوء حتّى غابت في الظلال والضّفائر الذهبيّة تتراقص على ظهرها مثل بندول السّاعة.

لبث نايت في موقعه بعض الوقت متأمّلًا فيما ترفرف أوراق الأشجار من حوله تحت قطرات المطر، ثمّ سحب نفسًا عميقًا قبل أن يلتقط وعاء العسل ويقرّر العودة إلى العريشة.

(9)

اليوم التّاسع بعد الستين

تململت مانويلا في مكانها، لم تنعم بليلة نوم مريحة، لكنّها كانت أفضل من سابقاتها. جعلها القراصنة تنضمّ إلى أوران وروان في غرفة منفصلة، وقد وجدت رائحتها أفضل -لم تتضوّع برائحة الأسماك العفنة- وهي أيضًا أقلّ اكتظاظًا. استطاعت أن تمدّ ساقيها وتلتفّ ببطانية دافئة بدل كيس الخيش الرّطب والعطن. كان الـ«آم» يحظون بمعاملة مميّزة مقارنة بالآخرين، والآن يبدو أنّها صارت واحدة منهم، لسبب تجهله.

حين رفعت رأسها، ألفت أوران يطالعها بنظرات باردة، ولم تكن روان في الجوار. أيقنت أنّها قد استغرقت في النّوم فعلًا، حتّى إنّها لم تنتبه حين غادرت المعالجة الغرفة. على الأرض قرب الباب، لمحت وجبة الإفطار التي وفّرها مضيفوهم: كسرة خبز جافّ وقنّينة ما. لا تمييز بين المجموعتين بهذا الصّدد. لم يدخل جوفها شيء منذ أيّام باستثناء الخبز اليابس مثل الحجارة، تسقيه بالماء وتتركه جانبًا بعض الوقت حتى يتشرّب السّائل ويصبح صالحًا للقضم دون تحطيم الأسنان.

تناولت كسرتها على مضض وهي تطلق زفرة متعبة، ثمّ ألقت نظرة جانبيّة على المُسخِّر.

- أليس بإمكانك تحطيم الباب، والخروج من هنا، كما فعلتَ في شقة كلاوديا؟

حدجها في صمت، فأردفت:

- أنت تحتفظ بالحجر، أليس كذلك؟ لماذا لا تفعل شيئًا إذًا؟

بدا عليه التردّد قبل أن ينطق:

- روان تقول إنّنا يجب ألا نجذب انتباههم إلى قدرات «حجر الشمس» والطاقة التي يحويها.. لا نريد أن نثير مزيدًا من الأطماع.

أطلقت ضحكة مغتصبة، إنّه يشير بوضوح إليها وإلى والدها وما فعلاه بسبب الحجر. من الجيّد أنّه قد انتبه إلى الخطأ الذي كان على وشك ارتكابه منذ يومين، ولو متأخرًا.

- هذه حكمة بالغة.. من المعالجة الصّغيرة!

شعرت بالغيظ، إنّه يستمع إلى كلّ كلمة تقولها المعالجة. كانت لديه بعض الإرادة الحرّة في السّابق، حين كسر باب الشقة وفرّ إلى شوارع المدينة ليمضي ليلتين في العراء قبل أن يجد طريق العودة إليها. لكنّه الآن لا يهمس بهمسة قبل أن يستشير المعالجة، وكذلك كان حين جاء برفقتها إلى «الأسطورة» للتفاوض.

- كما أنّنا في حاجة إليهم، للوصول إلى «آرا».. نحن مضطرون إلى التّحالف معهم.

هزّت رأسها برفق، نعم بالتأكيد، تمامًا كما كان مضطرًا لمرافقتها لأنّها وسيلته الوحيدة للعودة إلى الجزيرة. أخذت تلوك الخبز الجافّ والمبلل بطريقة غير متوازنة وتبتلعه كرهًا لتُسكت جوعها. لا تنفكّ تشعر بالاضطراب لوجودها معه في الغرفة ذاتها، دون طرف ثالث يشتّت انتباهها عن حضوره.

فُتح الباب لينقذها من توتّرها، ظهرت روان وانغلق الباب خلفها على الفور، ابتسمت تجاهها ثمّ جلست على مسافة منها، ليشكل ثلاثتهم

مثلثًا متساوي الأضلاع. تكلّم أوران بالآرامية، فأدركت أنّهما يتجاهلان وجودها الآن.

- كيف تسير الأمور؟

- حالتها مستقرّة.

- أنت قادرة على علاجها.. لكنّك لا تفعلين؟

رغم اللّغة الغامضة التي يتكلّمانها، أخذت روان تهمس، كأنّها تخشى أن يستمع أحدهم عند شقوق الباب:

- يجب أن تظلّ عليلة، لتواصل السّفينة تحرّكها.. إذا شُفيَتْ فلن تكون هناك ضرورة للإسراع.

- لكنّها لن تموت؟

- أزوّدها ببعض الطاقة كلّ مرّة لتفيق وتشعر وتتكلّم، لكنّ بقاء الحجر إلى جوارها يجعلها تنتكس ثانية، فيطلبونني من أجل الصّلوات.. وهكذا تبقى الأمور تحت سيطرتنا.

تململ أوران قبل أن يقول:

- لقد تعمّدتِ إخفاء تأثير الحجر عنهم.. كان هذا من تخطيطك.

بالتأكيد، كانت تلك الخطّة منذ البداية، وهي على مكرها وقسوتها خيارهما المثالي. ردّت بحزم:

- إنّهم ليسوا أصدقاءنا! لو كانت الأمواج قد رمتهم على شواطئ «آرا» ما كنتُ لأتردّد في تركهم ينفقون! هؤلاء النّاس ليسوا جيّدين.. إنّهم شياطين!

هزّ أوران رأسه ببطء موافقًا، فقالت مانويلا التي لم تفقه حرفًا واحدًا مما قيل بينهما:

- هذا مدهش! المُسخِّر العظيم يتعرّض للتّوبيخ!

التفتت روان نحوها بنظرة استغراب، لكنّ أحدهما لم يبرّر. بعد صمت قصير، عادت روان لتقول بالعربيّة مخاطبة مانويلا:

- سيطلبونك بعد قليل.. كوني مستعدّة.

تنهّدت الصّهباء.

- لأتظاهر بالاتّصال بالسّفن؟ هل يمكنك توضيح ما نفعله على الأقل؟

- نستسلم للقدر.

رمقتها مانويلا بنظرة دهشة، لكنّها ستصغي إليها بدورها. كان من الواضح أنّ المعالجة هي المتحكّمة في الوضع الآن، في غياب أيّ خطة ممكنة وفي ظلّ ضبابيّة الرؤية عامّة، كان على أحدهم أن يمسك زمام الأمور، وعلى البقيّة الإذعان ما لم يملكوا بدائل معقولة. لذلك، حين جاء الشابّ النحيل لاصطحابها، نفضت مانويلا عنها فتات الخبز وقامت لأداء دورها في المسرحيّة.

***

دخل المرتزقة واحدًا إثر الآخر إلى الغرفة التي دعاهم إليها الحكيم عمّار في مبنى المدرسة وهم يقطرون ماءً، وقفوا متململين تحت وطأة نظرات مجموعة النّسوة اللاتي حدّقن فيهم بتمعّن مثل تاجر ماشية في سوق الخراف، لم يكن هذا توقّعهم بعد أن تحدّث الحكيم عن منحهم فرصة الاندماج في مجتمع الجزيرة، ربّما طاف بخاطر بعضهم أنّ مجلس الحكماء سيخضعهم لبعض الاختبارات الفنيّة والنّفسيّة.. لكن هذا؟ لم يكن أحدهم مستعدًا لمواجهة مجلس النّساء.

وقفت تاليا جانبًا مستعدّة للتّرجمة، فيما جلست السّيدات الموقّرات في كامل أناقتهنّ المعهودة في صدر المجلس، وأخذن يعاينَّ المرشّحين ويتبادلن الملاحظات الهامسة. تبادل الفريقان نظرات متوجّسة، تقيّم السّيدات

أشكال الرّجال الغرباء الذين تزيّن أذرع بعضهم وشوم غريبة ويرتدون ما يشبه الزيّ الموحّد من اللّون الكاكي الدّاكن، وتختلف قصّات شعورهم من القصير جدًّا إلى ذيل الحصان الذي ينسدل على الظهر، وتتفاوت درجة بشراتهم من السّمار الشديد إلى البياض النّاصع المعهود لدى الـ«آم».

تأمّل الرّجال بدورهم السيّدات في فضول، بدون جميعهنّ في مقتبل العمر، ربّما لم تبلغ بعضهنّ الأربعين أو تجاوزنها ببضع سنوات، يرفعن شعورهنّ في لفّات سميكة يبين حجمها تحت أغطية الرأس التّقليديّة، على عكس الفتيات اللاتي يسدلن ضفائرهنّ ويتركنها تتدلّى لتظهر الخصلات البلاتينيّة الشقراء حين يمشين أو يتحرّكن.

ازدردت أرابيلا لعابها فيما تعرّقت راحتاها توترًا. لم يكن جمعهنّ لتلك المناسبة مهمّة يسيرة، تذكر حماستهنّ منذ أسابيع حين جئن إلى دارها -التي احترقت تمامًا وغدت كومة من الرّماد- وطلبن الاجتماع بالشابّ الغريب الذي يُعتقد بكونه مُخلِّصًا، لكنّ بضاعة اليوم تفتقر إلى الجودة ولا تثير الاهتمام!

كان عليها أن تحشد كلّ ما أمكنها من حجج لتقنعهنّ بالحضور، جعلت تجربتها الشخصيّة مثلًا وموعظة، ألم تقبل الزّواج من الغريب لمجرّد أنّ والدها الـ«كوتانا» -آنذاك- توسَّم فيه خيرًا؟ وكذلك تثق في فراسة زوجها وحسن تقييمه لمعدن البشر، ألم يكن أوّل من تعرّف على المُخلِّص؟ إذا كان يقول بأنّ في هؤلاء الرّجال خيرًا محتملًا فهي تصدّقه! صحيح، لقد كانت بينهم وبين الغرباء عداوة وصراع، لكنّ زعيمهم قد رحل، وهم استسلموا وطلبوا الصّلح، وأوان السّلم غير أوان الحرب.. إلا أنّها لم تحظ منهنّ بالرّضا إلا حين أعلنت أنّها لا تشترط عليهنّ تزويج بناتهنّ -وكلهنّ أمّهات لفتيات في سنّ الزّواج- بل النّظر بشأن الرّجال أولًا على أن تُنتقى لاحقًا من تناسب المرشّح الأمثل سنًّا ومنزلة.

إلا أنّ العبوس على ملامحهنّ لا يُنبئها بخير، وهي تخشى أن يُفسدن الجلسة قبل أن يمنح الرّجال فرصة يتيمة. تأكّد حدسها حين رفعت السيّدة كارين صوتها بنبرة ساخطة:

- لا أرى هنا شيئًا يدعو إلى الاهتمام! لماذا يعتقد الـ«كوتانا» أنّ هؤلاء الرّجال يصلحون لبناتنا؟

عادت أرابيلا لتشرح دون كلل أو ملل، وهي تشعر في كلّ مرّة أنّها تُلقي المحاضرة للمرّة الأولى على آذان صمّاء، وأنّ ما يعلق في الأفهام منها يتبخّر فور انفضاض السيّدات من حولها، قالت محاولة أن تبثّ صوتها ثقة ورسوخًا رغم ارتجافها الدّاخليّ:

- هؤلاء الغرباء ربّما يبقون على الجزيرة لوقت طويل، وقد يُصبحون جزءًا من عالمنا.. إذا لم تحضر سفينة أخرى لتأخذهم.. لذلك من الأفضل لنا أن نقيّمهم ونعرف كيف نتعامل معهم، إن كان فيهم الخير فسيكون علينا تزويجهم واستقبالهم في بيوتنا ليصبحوا جزءًا منّا فنأمن على أرواحنا في حضورهم حولنا.. وإذا لم نجدهم أهلًا لذلك، نطردهم إلى أقصى الشاطئ ونمنعهم من الاقتراب من أماكن معيشتنا، لنحفظ أنفسنا من شرورهم!

أمّنت النّساء بهزّات بطيئة من رؤوسهنّ -كما فعلن مرّات قبل أن ينقلبن عليها- وبدا عليهنّ نزر يسير من الاقتناع المشوب بالحذر. تصفّحت أرابيلا الوجوه بحثًا عن أثر كلماتها، ثمّ أردفت:

- ثمّ إنّ كثيرًا من نسائنا قد فقدن أزواجهنّ خلال الأسابيع الماضية، وأصبحت بعض العائلات دون عائل.. بطريقة ما، نحتاج إلى إرساء التّوازن..

أرخت المعلّمة تاليا جفنيها إلى الأرض متجاهلة الحديث الذي يخصّها، فقد كان شقيقها كلّ ما تبقّى من عائلتها. كست ملامح السّيدات علامات

حزن وشمل الوجوم جمعهنّ، لم يكن التذكير بدور هؤلاء الرّجال بالمصاب الذي حلّ بالـ«آم» في صالح خطّة أرابيلا قطّ. تأهّبت لدفع الحديث في اتّجاه آخر يُبعدها عن حقل الألغام الذي قد يتفجّر بوجهها في أيّ لحظة، لكنّ السيّدة ناسور سبقتها وهي تشير إلى تاليا في نفاد صبر:

- اسأليهم إن كان أحدهم متزوّجًا؟

استدارت تاليا نحو نايت والآخرين وصدحت بالأمر. تململ هاورد وقال:

- هل تؤخذ العلاقات السّابقة بعين الاعتبار؟

لمزه براندن بخفّة وقال:

- السّؤال لا يتعلّق بعذريّتك أيّها العجوز! لا أعتقد أنّهنّ يمانعن في بعض الخبرة.

سرت ضحكات مكتومة بين الرّجال، ثمّ همهم راجو:

- ساندي لديه صديقة!

احمرّت وجنتا ساندي حرجًا فيما شرحت تاليا بمساعدة من نايت أنّ الصّداقة بين المرأة والرّجل في العالم المتحضّر نوع من العلاقات التي تسبق الزّواج. لم يكن أحدهم متزوّجًا زواجًا رسميًا -باستثناء هاورد الذي انفصل عن زوجته منذ سنوات- وربّما مضى زمن طويل على آخر علاقة جادّة لأيّ منهم، فطبيعة عملهم ليست ممّا يثير إعجاب الإناث عمومًا، وكلّ من يجرّب حياة المغامرة تلك يجد صعوبة في الاستقرار والالتزام. لكن لكل واحد منهم رصيد من التّجارب القصيرة والعابرة.

أشارت السّيدة ناسور إلى ساندي وهتفت:

- الأصلع يبدو لي رجلًا صالحًا.

اتّسعت عينا أرابيلا وقد فاجأها الاهتمام غير المتوقّع، فالتفتت إليها مستفسرة:

- لماذا تعتقدين أنّه رجل صالح؟

- ألم يكن المسؤول عن عمليّات الإصلاح في القرية؟ نحتاج إلى رجال محنّكين مثله يعلّمون شبابنا مهارات نافعة.

هزّت أرابيلا رأسها مؤيّدة وقد انشرحت أساريرها قليلًا، كان عليها السّيطرة على اندفاعها وعدم إبداء حماس زائد في غير محلّه، لكنّ ملاحظة ناسور كانت تدفع بالجلسة نحو شيء من الإيجابيّة. من الضّروريّ التّذكير بالمزايا، وتطوّع الرّجال لترميم أبنية القرية المتهالكة يغفر -نوعًا ما- جزءًا طفيفًا من الذّنوب السّابقة ويجعلهم إنسانيين ومتعاطفين، ودّت لو تغتنم الفرصة وتطرق وتد الحجّة التي غرستها ناسور فتثبّتها، لكنّها تلجلجت:

- جميل، جميل، لكنّه.. هل قال إنّ هناك امرأة تترقّب عودته؟

مطّت ناسور شفتيها ثمّ رفعت صوتها:

- امرأة تنتظر ليست زوجة، أليس كذلك؟ لقد كان يلهو في السّابق، ولعلّه ينوي الآن الاستقرار وبناء أسرة كما يليق برجل أن يفعل.

اعترضت السيّدة جليلة بصوت غليظ:

- قد يكون بينهما عهد لا ينبغي نقضه.

نقلت أرابيلا عينيها بينهما وهي ترى الفرصة تُفلت، لكنّ ناسور عادت تقول في إصرار:

- مجرّد الخطبة لا تعني ارتباطًا حقيقيًا.. إنّه ما يزال رجلا حرّا، أليس كذلك؟

استدارت نحو تاليا وقالت بحدّة لتقطع اللغط:

- اسأليه!

ألقت تاليا السّؤال على ساندي بالإنجليزيّة، فسرت ضحكات وهمهمات بين الرّجال، فيما أطرق الرّجل القصير الأصلع حرجًا وازدادت

وجنتاه التهابًا. تنحنحت أرابيلا لتعيد السّكون إلى القاعة، فيما بقي سؤال ناسور معلّقًا دون جواب، ثمّ توجّهت بالكلام إلى تاليا لتصرف الحديث في مسار مختلف علّها تصل إلى نتيجة أفضل:

- فلنتحدّث أولًا عن مهاراتهم.. باستثناء القتال، ما الذي يُجيده كلّ واحد منهم؟

في الدّقائق التّالية، تنافس الرّجال في التّباهي بمهاراتهم الفرديّة واستعرضوا قوّة عضلاتهم المفتولة وأجسادهم الصّلبة فيما يشبه عروض كمال الأجسام فوجدت السّيدات المشهد مسليًا. تبجّح براندن ببراعته في الصّيد، وأشار هاورد إلى متانة بنيانه وقدرته على تحميل الأوزان الثقيلة، وحظي ساندي بوقت كافٍ ليتحدّث عن خبرته في دراسة عوامل المناخ وتقييم أنواع التّربة واستخدام المواد الطبيعيّة والصّناعيّة في البناء، تحت نظرات ملؤها الاهتمام الخاشع. ترجمت تاليا بما تملك من مفردات، وخجلت كثيرًا وهي تتوقّف لتطلب منه مزيدًا من الشّرح أو تبسيطًا للمفاهيم، وحين جاء دور نايت قال بشيء من التردّد:

- أعتقد أنّني أجيد الطبخ.

سرت الضّحكات بين الرّجال من جديد فيما ترجمت تاليا للسّيدات، فنلن نصيبهنّ من الضّحك أيضًا قبل أن تقول جليلة والدة خلود في نبرة تراوح بين الجدّ والهزل:

- ابنتي ليست طاهية جيّدة، لكنّها بارعة في النّسيج.. أعتقد أنّها ستحبّ أن يكون زوجها طبّاخًا ماهرًا!

رفعت أرابيلا حاجبيها في شكّ، هل كانت جليلة تعرض ابنتها فعلًا؟ في ارتياح بالغ، لاحظت أنّ الجلسة تتّخذ منحى مرضيًا. لعلّ المرشّحين يملكون حقًّا بعض المميّزات التي قد تجعلهم مرغوبين في نظر السيّدات، لكنّها تعرف جيّدًا أنّ فائدتهم الحقيقية ليست في مهاراتهم ولا أشكالهم.

التقطت ابتسامة جليلة وهي ترمق نايت بنظراتها الفاحصة، ربّما يكون وسيمًا، ببشرته اللامعة التي لوّحتها شمس «مهافيا دياما» وشعره القصير حالك السّواد وشامته المميّزة قرب أنف طويل أقنى. لقد لاحظت في وقت سابق حسّ القيادة في سلوكه وهي تُدرك أنّه يبخس نفسه حقّها أو يبالغ في التّواضع حين يختزل مهاراته في فنون المطبخ. ولعلّ الأخريات لحظن الشيء ذاته، لكنّ ناسور فاجأتها حين أعلنت فجأة:

- أنت رجل صالح!

طالعتها الأخريات بنظرات مستغربة، وقد فاجأهنّ تعمّدها توزيع صكوك الصّلاح على الرّجال الأجانب، كأنّها خبيرة بشأنهم، فأضافت بصوت مرتجف:

- لم يطلق النّار، يوم المجزرة.

يطلقون الآن على يوم هجوم مايك راسل المباغت على الجزيرة «يوم المجزرة». قتُل في تلك الواقعة عشرات دفعة واحدة، حين فقد مايك عقله وأمعن في النّاس تقتيلًا بلا تمييز. تذكر تاليا تلك اللّحظات الحاسمة التي سبقت خروجها عن صمتها، لتضطلع بمهمّة التّرجمة منذ ذلك الحين. لمّا مُنح المرتزقة الضّوء الأخضر لإطلاق النّار، اندفعوا بغضب عارم ينفّسون عن طاقة انتقام محتبسة داخلهم.. لكنّ ناسور التي ارتمت على الأرض تحتضن طفلها وهي تنتحب بصوت مكتوم، كانت على مقربة من نايت. انطبعت ملامحه القريبة في ذاكرتها، رأت كيف شحبت سحنته واكتست حزنًا، وكيف تجمّدت حركته رغم عاصفة النّيران المتفجّرة من حوله، ضغطت قبضته على سلاحه بقوّة حتّى ابيضّت مفاصلها، إلا أنّه لم يوجّه فوهة بندقيّته نحو أحد.

غمر الوجوم السيّدات المتربّعات في صدر المجلس واستمرّ صمتهنّ برهة، فيما تسرد ناسور تفاصيل تلك اللّحظات القاسية، قبل أن تعلن أرابيلا بنبرة دافئة:

- الرّجل الصّالح يُعرف في المواقف الحاسمة!

أمّنت الأخريات بهزّات من رؤوسهنّ، فيما تململ الرّجال الواقفون وهم يتساءلون عمّا يجري تداوله بلغة لا يفهمونها.

تذكّرت تاليا بدورها حديثًا على لسان إحدى الفتيات المتدرّبات على العلاج، روت كيف أراد رجاله اقتحام المشفى لكنّه أبقاهم في الخارج حتّى لا يرعبوهنّ، وكيف حاول إيقاف صاحبه المتوحّش الذي آذاها. تعرّفت إليه ذلك اليوم، حين ظهر في ساحة القرية يعرض خدماته، قالت إنّه يتمتّع بشهامة تجعله مختلفًا عن الآخرين.

انتبهت إلى أنّها حدّقت لوقت طويل، حين سألها نايت في حيرة:

- ماذا الآن؟

خفضت بصرها في حرج، ثمّ سرعان ما أعادت السّيدات الجلسة إلى مسارها.

استمرّ الاجتماع بعض الوقت، والسيّدات يطرحن الأسئلة ويقيّمن المرشّحين تقييمًا جادًّا، وقد أجمعن في هذه الأثناء على أنّ الأمر يستحقّ المحاولة، ثمّ أعلنت أرابيلا أخيرًا أنّ برنامج الإدماج سيبدأ منذ الغد، وستكون اللّبنة الأولى دروس تعليم اللّغة المحليّة. ستحضر تاليا للتّرجمة، لكنّ المعلّم جبريل سيقدّم الدّروس.

حين اجتمعت أرابيلا بزوجها ذلك المساء، حدّثته بتفاصيل الجلسة فأصغى عمّار في اهتمام وهو يهزّ رأسه بين الفينة والأخرى مستحسنًا، لقد قادت المهمّة الموكلة إليها بنجاح. حين فرغت، أرسلت زفيرًا طويلًا ثمّ سألت في شكّ:

- هل تعتقد حقًا أنّ هؤلاء الرّجال صالحون للزّواج والعيش بيننا؟

ربّما يكون بعضهم كذلك، اثنان أو ثلاثة منهم قابلون للتّأهيل والإصلاح على أقصى تقدير، لكنّ الشكّ يراودها بشأن البقيّة، وهي لا تودّ أن تشارك السّيدات ريبتها حتّى لا تفسد عمليّة الإدماج التي يخطّط لها زوجها، فهي تعتمد عليهنّ في التّرويج للفكرة وتشجيع الفتيات على خوض المغامرة.. إلا أنّ ثقتها بنجاح تلك الزّيجات واهية.

سكت عمّار برهة ثمّ قال:

- لا يهمّ!

رمشت أرابيلا ببطء، فيما استمرّ الـ«كوتانا» يقول:

- ليس مهمّا إن كانوا صالحين أم لا.. وإن كانوا سيعمّرون بيننا أم سيرحلون قريبًا. كلّ ما نريده منهم هي جينات «مهافيا دياما»، نحتاج إلى جيل جديد من الهجناء الذين لا تمثّل شمس العالم الخارجيّ خطرًا عليهم، ويمكنهم السّفر خارج حدود الظلة والعودة بأمان!

تعرف أرابيلا أبعاد مخطط زوجها ودوافعه الخفيّة، ليس مجرّد التحالف مع الغرباء، بل استغلالهم كمادّة للتكاثر، لبناء مستقبل لا مكان لهم فيه، وهي لم تنعم بليلة نوم هادئة واحدة منذ اطّلعت على السّر العظيم.. غير أنّها تشفق على السيّدات اللاتي يجارينها وهنّ يجهلن ما ينطوي عليه من نتائج مستقبليّة لبناتهنّ، إنّها تدفعهنّ إلى التّضحية بفتياتهنّ وتورطهنّ في زيجات ربّما تكون مؤقّتة وقصيرة الأمد، من أجل النّطف المهجّنة!

لكن إذا كان مستقبل الـ«آم» يتوقّف على التّهجين، فلا ريب أنّهنّ لن يمانعن في التّضحية بذلك القدر، إلا أنّها لا تملك إفشاء السرّ بعد. وحين يحين الوقت المناسب، سيدركن كم أنّهنّ محظوظات بحصولهنّ على الأجنّة الثمينة.

دائمًا ما اعتبرت أرابيلا نفسها صاحبة حظّ عظيم، لخصوبة زوجها وكثرة أبنائها مقارنة بنظيراتها، لكنّها تكتشف أبعادًا أخرى لاختيارها منذ خمس وعشرين عامًا الارتباط بـ«أيتورا» غريب عن قومها. إذا صحّت فرضيّة زوجها، فإنّ أبناءها لا يختلفون عن أقرانهم من ناحية لون البشرة وحسب، بل يملكون بداخلهم قوّة لا تُضاهى.

اغرورقت عيناها دمعًا وهي تسند رأسها إلى كتف زوجها وتهمس:

- هل تعتقد أنّ روان في طريقها إلينا؟

لعلّ تلك الفكرة وحدها تبقيها ثابتة الجنان وتمنع فؤادها من التشظي إلى ألف قطعة وقطعة بعد فقدان فلذة كبدها.

أغلق عمّار عينيه لبرهة قصيرة قبل أن يجيب. مرّر يده برفق على شعرها، كأنه يستمد الثبات من حضورها المألوف، وهمس:

- إنها هجينة فريدة، منيعة ضد همسات الشياطين، نعم.. لكنها عنيدة، قوية الإرادة، خُلقت لتسلك طرقًا لا يستطيع غيرها اجتيازها. أعلم أنّها ستجد طريقها. أنا واثق من ذلك.

أطلق عمّار زفرة حارّة ثمّ أردف:

- أريد أن ينال مزيد من الـ«آم» هذه الهبة العظيمة، البوصلة الذاتيّة ستكون أهمّ من كلّ هبات المُسخِّرين في المستقبل، حين تصبح الأولويّة الكبرى هي امتلاك مسار العودة!

***

أخذ براندن يشحذ سكّينه وهو يواصل مناكفة ساندي بشأن اختبار مجلس النّسوة.

- إذًا هل قررت التّخلي عن صديقتك في الدّيار والحصول على شابّة يافعة؟

تمعّر وجه ساندي وهو يحدجه بنظرة غاضبة:

- يبدو أنّ الوضع يروق لك! لا أرى أمر الزّواج يضايقك على الإطلاق؟

- هل تمزح؟ وما السيّئ في فراش دافئ ووجبة طازجة كلّ يوم؟ لم أعتقد أنّ هؤلاء القوم البدائيّين قد يقدّمون إلينا بناتهم طواعيّة بعد أن أفلتن من الأسر! سأفعل ما بوسعي لأحصل على أجملهنّ وأنضجهنّ جسدًا.. لا أريد مراهقة ساذجة في سريري!

حدجه نايت بنظرة زاجرة، ثمّ قاطعه بصرامة:

- هل تعتقد أنّ المجلس سيعجز عن تقييم دوافعك على حقيقتها؟ أولئك النّسوة يقرأن الأفكار كما يقرأن الوجوه، وستعرف كلّ واحدة منهنّ ما الذي يدور بخلدك قبل أن تتكلّم!

هزّ براندن كتفيه استهانة.

- إن كنّ يردن ساندي بكلّ هذا الحرص، فلا أعتقد أنّ معاييرهنّ عالية إلى تلك الدّرجة!

أطلق ضحكة ساخرة فيما رماه ساندي بحفنة من الرّمال الرّطبة، وقال يغيظه:

- لا تحاول.. لم تجدك إحداهنّ رجلًا صالحًا، على عكسي أنا ونايت!

جاء صوت راجو من خلفهما:

- ماذا عن تغيير الدّين.. ألا يضايق هذا أحدكم؟

راجو هندوسيّ فخور ويأبى أن يكون غير ذلك. وجم ساندي الذي كان كاثوليكيًا جدًّا، في السّابق احتفظ بصليب فضيّ حول رقبته إلا أنّ السلسلة ضاعت منه في أثناء مكافحة العاصفة. أمّا براندن فهزّ كتفيه ثانية وقال ساخرًا:

- إنّها مجرّد إجراءات شكليّة.. بضع كلمات سخيفة تردّدها، ثمّ.. بام، أصبحتَ واحدًا منهم!

ضحك هاورد وستفين، فيما أضاف براندن:

- ما الذي يتوقّعونه؟ أن ينزل الإيمان على قلوبنا فجأة؟ ثقوا بي، ربّما لا يعترفون بهذا علانيّة.. لكنّهم بحاجة إلينا، لسبب ما. وسيفعلون أيّ شيء لجعلنا نبقى. سيرغبون في كلّ واحد منّا، لذلك ما علينا إلا مجاراتهم.

تبادل الرّجال نظرات ريبة ثمّ استمرّوا يسترجعون تفاصيل جلسة اليوم، يُناكف بعضهم بعضًا في صخب ويطلقون الاحتمالات والتوقّعات بخصوص ما ينتظرهم في الغد.

تابعهم نايت ساكنًا وسرعان ما شردت أفكاره بعيدًا، فكّر أنّ السّكّان المحلّيين يجازفون لا محالة باختيارهم وضع ثقتهم في رجاله. هم رجاله، وهو حريص على سلامتهم ويهمّه أمنهم وحصولهم على القوت الكافي والمأوى الجافّ والفراش الدّافئ، قد يأتمنهم على مهمات عالية الخطورة ويثق في مهاراتهم القتاليّة وإنجازهم للأعمال الشاقة والدّقيقة.. لكنّه قطعًا لن يأتمن أحدهم على شقيقته أو ابنته، فكيف يفعل قوم لم تجفّ بعد دماء ذويهم الذين قضوا على يد هؤلاء الرّجال أنفسهم؟

في وقت ما في زمن غابر، سرت عادة الزّواج بين الأمم المتناحرة لإرساء السّلام بعد حروب دامية. يرسل كلّ طرف آنسة نبيلة -ابنة دوق أو أمير- ويستقبل أخرى، لتكون رهينة لدى الطّرف المقابل ورمزًا لطيّ صفحة الحزن. لطالما اعتقد أنّ التّعاسة ستكون من نصيب سيّئة الحظّ التي ستضطرّ إلى التّضحية بحياتها من أجل هدف السّلام السّامي، فأيّ سعادة في مشاركة قاتل أهلها فراشه؟

لم يكن متديّنًا، في مجتمع يغلب عليه الإلحاد، لكنّه يعرف آخرين دخلوا الإسلام، إمّا اقتناعًا -بعد فترة خدمة في العراق أو أفغانستان تركت أثرًا

عظيمًا في نفوسهم- وإما بعد وقوعهم في الحبّ، ورغبتهم في الارتباط بحبيبة يشترط أهلها ودينها الإيمان لإتمام الارتباط. لا يعرف إن كان هؤلاء يقتنعون بالفعل وتثبت أركان إيمانهم، أم أنّهم يتظاهرون لمجرّد إكمال المعاملات الرّسميّة.

لكن ما الذي يجنيه الحكيم من ذلك التّزاوج؟ وهل يثق فعلًا بصدق نواياهم تجاه الجزيرة وأهلها والتزامهم الدّيني؟ كلّما فكّر في الأمر ازداد شكّا في عبثيّة المشروع برمّته.

لازمته تلك التساؤلات خلال جلسة مجلس النّساء، فكّر بالفتيات اللواتي سيُلقى بهنّ بين أيدي رجال مثل براندن، فشعر بالشفقة والرّأفة. لا تستحقّ أيّ فتاة نقيّة في عمر الزّهور أن يقطفها براندن لتذبل نضارتها. وهو يتأمّل في المنطق الذي يدفع الـ«آم» إلى تلك المصاهرة المجنونة ترجّح لديه أنّهم يخشونهم مجتمعين وربّما يهدفون إلى التّفرقة بينهم بدعوى تزويجهم! ما الذي سيحدث إذا انفرد نفر من الشّباب الثائر بكلّ واحد من رجاله على حدة، وهو مجرّد من سلاحه بعيد عن الفريق؟

سرت في جسده رعدة باردة. إذا انقلبت الموازين، فسيكون الرّجال هم الرّهينة هذه المرّة في أيدي نساء الجزيرة!

لفتت انتباهه الحركة العابرة لظلّ ينزلق بين الأحراش بخفّة بالغة، فترك موقعه وتسلّل ناحيته متحفّزًا. لم يعد أمر الشبح الذي يقترب من موقع تخييمهم يثير قلقه، ولعلّه أدرك وهو يتتبّع الأثر ما ينتظره.. بل تاق إلى اللّقاء.

وقفت تاليا على مرمى بصره، دون محاولة التّواري وقد تساقط الماء على أطراف خصلاتها الشقراء لتهبها الـ«مادرا» توهّجًا رائقًا في ظلمة الليل، توقّف نايت للحظات حائرًا متأمّلًا جمالها الأخّاذ الذي زادته العتمة المهيمنة من حولها رونقًا، كأنّ بشرتها الحليبية الشّاحبة تسحب الضوء من

حولها وتعكسه. سحب نظراته إلى الأرض مرتبكًا، وبحثت عيناه عن وعاء العسل الذي لم يكن هناك. تساءل في صمت إن كان حديث الزّواج هو ما يجعلها جميلة في نظره في تلك اللّحظات وهو الذي لم ينتبه إلى ملامحها في السّابق. إن كان سيتزوّج حقًا، فهو يفضّل شابّة ناضجة مثلها، لا طفلة مراهقة لم تبلغ العشرين.

جاءه صوتها ثابتًا وواضحًا يشقّ السّكون المطعم بنقرات المطر، يشوبه الشّك:

- هل كنتَ هنا من قبل؟

أخرجه السّؤال من تأمّلاته، غير أنّه لم يستوعب مطلبها على الفور. هنا؟ في الغابة؟ على الجزيرة؟

- أشرف صافي كان هنا في السّابق، منذ خمس وعشرين عامًا.. لقد حسبنا طويلًا ألا أحد يستطيع العودة، أنّ طريق «آرا» يُطرق مرّة واحدة.. ثمّ تغلق بوابات المحيط إلى الأبد، من يسلك مسار الضّباب يتوه ولا يرجع أبدًا.

- فهمت.. لكنّني لم أكن هنا في وقت سابق.

لا يعرف لماذا تشكّ في زيارة سابقة له، هل بدر منه ما يشي بذلك؟ أم لعلّه يذكّرها بأحد ما. جاء التأكيد سريعًا في كلماتها:

- أنت تشبهه!

لعلّ ذاكرتها تخونها، لعلّ ملامحه التبست وتشابكت مع ملامح الغرباء الآخرين الذين جاؤوا تباعًا، لعلّها أمضت وقتًا طويلًا تستحضر شكله وتتخيّله حتّى اختلط الواقع بالخيال فصارت تراه في كلّ الوجوه. قالت أخيرًا في استسلام:

- لا عليك.

- هل تنتظرين أحدًا؟

أوحت إليه كلماتها بأنّها تترقّب زائرًا ما من وراء البحار وتفتّش عن ملامحه في قسمات الغرباء، لمس الحزن البالغ في نظرتها المنكسرة وارتجاف شفتيها، فسأل في فضول:

- هل مضى وقت طويل؟

شعر بانقباضها المفاجئ حين ضمّت ذراعيها إلى صدرها ومال جسدها إلى الخلف في وضعيّة دفاعيّة. أدرك أنّه قد تطاول أكثر ممّا يجدر به. تغيّرت نبرتها وهي تقول:

- لا أحد يبقى، كلّهم يرحلون.. وأنت أيضًا ستفعل.

انفرجت شفتا نايت ببطء وفكّر في الردّ المناسب. بالتأكيد، لا أحد منهم ينوي البقاء. إنّهم عالقون على الجزيرة الآن، يجارون الحكماء ومجلس النّساء لمجرّد الإبقاء على حياتهم، يفعلون ما يجدر بهم عمله للحافظ على أنفسهم من مغبّة الانتقام. لا أحد منهم يأخذ الاندماج في المجتمع على محمل الجدّ، مجرّد تظاهر حتّى يحين موعد الرّحيل.

لكنّ أحدهم لا يعرف كم سيستمرّ الوضع على ما هو عليه، وإن كانت حياة الجزيرة ستروق لأحدهم بالفعل فيقرّر أن يترك حياة الحضارة وراءه. قد لا يفعل براندن، فهو مهووس بألعاب الفيديو والبقاء بعيدًا عن أجهزته كلّ هذا الوقت والاضطرار إلى التخلي عن سلاحه يبعث في سلوكه عدوانية ظاهرة، وقد لا يفعل هاورد، فلديه طفلان في الدّيار من زواج سابق ولن يختار التخلّي عنهما طواعية دون محاولة جادّة وحثيثة. لكن ماذا عنه هو؟ هل هناك ما يدفعه إلى العودة إلى حياته القديمة؟

حين استمرّ صمته، علا صوتها في استجواب مباشر:

- هذه حماقة. زواج أيّ منكم من بنات الجزيرة حماقة! أنتم لا تنوون البقاء، أليس كذلك؟ سترحلون حين يتوقّف المطر وتظهر سفينة تأخذكم إلى دياركم.

لقد امتلك الوقت للتفكير في الأيام السّابقة، يمكنه أن يقدّم إضافة حقيقيّة لهذا المجتمع الصّغير البدائيّ، أكثر ممّا قد تعنيه حياته كلّها في الوطن. حتّى شقيقته الوحيدة لن تلحظ غيابه، ربّما تترقّب رسالته مع اقتراب موسم الأعياد، وقد يراودها الشك بشأن غياب هديّته المعتادة تحت شجرة عيد الميلاد، لكنّها ستعود إلى أشغالها سريعًا وتنسى أمره. لقد عاش حياة يظلّلها شبح الموت، كان يمكنه أن يلقى حتفه على أيدي القراصنة أو في مواجهات مسلّحة مع عصابات مشاغبة، لكنّ تلك الحياة كانت بلا هدف -باستثناء العائد المادّي- وليس فيها ما يملأه فخرًا أو يشحذ همّته.

في وقت ما، حلم بأن يكون طبّاخًا. وقد وجد الفرصة كثيرًا لتحضير وجبات مسيلة للعاب على متن السّفينة، لتلقى وصفاته المديح من البحّارة والمرتزقة. لا شكّ لديه بأنّ الرّجال الجلف يفتقرون إلى الذائقة، وأنّ أيّ طعام يسدّ الرّمق ويذهب الجوع ويختلف عن المعلّبات الماسخة والسّمك النّيّئ سيمثّل مأدبة فاخرة في أعينهم، إلا أنّ تلقي الثناء على طبخه دائمًا ما بعث في نفسه سرورًا يفوق اعتزازه بالعمليّات الأمنيّة المحفوفة بالمخاطر. وقد عرف في داخله أنّه سيختار مسارًا مختلفًا إذا أتيحت له الفرصة. غير أنّ تتابع المهام وشعوره المستمرّ بالإرهاق والتبلّد جعلاه يفتقر إلى الشجاعة المطلوبة للثورة على حياته.

قد يعتقد الآخرون أنّ عمله هو عين الشّجاعة، أن يعرّض نفسه للخطر ويبحر نحو المجهول، إلا أنّه يعرف في داخله أنّ فورة الأدرينالين هي ما يبقيه، وأنّ الحياة الطبيعية الوديعة تحدّ حقيقيّ بالنسبة لأمثاله. الشجاعة الحقّة تكمن في مواجهة ذاته ورغباته والتجرؤ على محاولة الاستقرار.. افتتاح مطعم، والحصول على زوجة وأطفال!

حين واجهته تاليا بالسّؤال، تأرجحت الخواطر في ذهنه، ليس واثقًا بعد ولم يتّخذ قرارًا قاطعًا، لكنّه مستعدّ لمغامرة جريئة ما، مغامرة تعطي

لحياته الخاوية طعمًا جديدًا. ربّما لا يخطّط لاستقرار بعيد المدى، لكنّه قد يسبح مع التيّار وينظر إلى أين يأخذه.

خرج صوت من حلقه لا يكاد يتعرّفه بلهجة هادئة مستسلمة:

- ربّما أودّ البقاء.

منذ شهر ونصف، أدهشه قرار آدم بالقفز إلى الماء والتّخلي عن أمان الخوذة والبدلة الواقية، ثمّ رآه يتّخذ مواقف بطوليّة في وجه مايك راسل ويحارب من أجل قناعاته والفتاة التي اختارها. لقد أثار إعجابه في تلك الأوقات، رغم وقوفهما على جانبين متقابلين من الصّراع، لذلك يكاد يشعر بالفخر وهو يعلن لأوّل مرّة بصوت عالٍ رغبته في البقاء.

لمس على الفور أثر كلماته في ملامح المعلّمة تاليا، لعلّ الذّهول سيطر عليها وأفقدها القدرة على النّطق لوهلة، ثمّ همهمت في استغراب:

- أنتَ لست جادًّا...

- الحكيم عمّار أراد البقاء، وآدم فعل أيضًا.. لقد تزوّج كلاهما من بنات الجزيرة وأصبح جزءًا من الـ«آم»، أليس كذلك؟

لم يعرف بزواج آدم من المعالجة إلا منذ وقت قريب، فسكّان الجزيرة لا يبادلونه أحاديث كثيرة فضلا عن الثرثرة، باعتبار حاجز اللغة أوّلا ثمّ المسافة النّفسية التي لم تتلاش بعد. لقد حسب في البداية أنّ الرّداء الأحمر المميّز الذي يرتديه آدم -بالتناقض مع الأثواب البسيطة التي يلبسها الآخرون- يخصّ منصبه كمخلّص، لكن الحكيم عمّار ذكر عرضًا أنّ الظروف لا تسمح بحياكة ثوب أحمر من أجل حفل الزّفاف، كما جرت العادة، فتجرّأ على السّؤال.

والآن يعرف أنّه ورجاله قد هاجموا الجزيرة في الليلة ذاتها التي تزوّج خلالها آدم، ثمّ تلا ذلك سيل من الأحداث التي انتهت باختطاف العروس. تؤدّي كلّ المحادثات إلى النّهاية المعلومة: إقرار الذّنب المعلّق برقبته.

لعلّ المقارنة بينه -كعدوّ سابق مضطرّ إلى الاستسلام- وبين الحكيم الموقّر عمّار وآدم، المنقذ الهُمام الذي يضعه الجميع في منزلة تقديس لا تُضاهى، تجاوز لا يغتفر وطموح عالٍ بلا مسوّغ معتبر، لكنّ التّوبة هي المفتاح، أليس هذا ما يحاول عمّار أن يقنعه به؟ أليست اختبارات مجلس النّساء جزءًا من عمليّة التطهير؟

لم تنطق تاليا لثوانٍ، ثمّ قالت بنبرة غاضبة:

- سوف ترحلون.. كلّهم يرحلون في النّهاية!

ثمّ استدارت لتغادر. تابع بعينيه ظلها وهو ينسحب نحو أعماق الغابة بسلاسة وخفّة، ثمّ تسلّل إليه إحساس موحش بالوحدة بعد أن عادت الأجمة إلى سكونها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(10)

اليوم العاشر بعد السّتين

لم يبد على ملامح تاليا أثر لمحادثة الأمس وهي تقف إلى جوار المعلّم جبريل، تترجم حين يستدعي الأمر، فيما أصغى الرّجال باهتمام متفاوت إلى الدّرس، يتعلّمون عبارات التحيّة البسيطة ويكرّرون المفردات بألسنة معوجّة، ويغتنمون لحظات غفلة المعلّم لإطلاق النّكات ومعاكسة المترجمة.

لاحظ نايت بشيء من الحيرة أنّها تتجاهل وجوده، لا تكاد تردّ على أسئلته وتترجم باقتضاب حين يتعلّق الأمر به. ربّما تبدو طبيعيّة في نظر الآخرين، هادئة مبتسمة ومتعاونة وصبورًا على السّلوك الصبيانيّ المعوج، لكنّها لا تنظر في اتّجاهه تقريبًا.

تأكّد لديه تدريجيًا إحساس الأمس، إنّها ترفضه، وتحرص على أن يصله رفضها جليًا.

شعر في وقت ما بتآلف بينهما -أو هكذا اعتقد- لكنّه يكاد يجزم الآن أنّ اهتمامها السّابق يتعلّق بالشّخص الذي في خيالها، الغريب الذي تنتظر عودته، وليس بذاته. عاين المواقف التي جمعتهما من تلك الزّاوية ليكتشف أنّها لم تعبّر في أيّ وقت مضى عن إعجاب أو ميل، والمصادفة وحدها هي ما جعله يلتقي بها في الغابة، لو أنّ أيًا من الرّجال قد ذهب مكانه لتقصّي أمر وعاء العسل لكان حصل منها على الاهتمام نفسه.

لم يعهد نفسه غرًّا ساذجًا حين يتعلّق الأمر بالعلاقات، فما الذي حلّ به؟ لقد تحدّثت إليه المعلّمة الشّابة بضع مرّات، وها هو يبني في خياله

قصورًا من وهم. انتبه إلى كونه يأخذ كلماتها على محمل شخصيّ جدًّا، رغم أنّ عبارتها مجملة. لا يتعلّق الأمر بشخصه، بل هو موقف صريح من المجموعة كلّها.

ربّما ليس بقاؤهم محلّ ترحيب في نهاية الأمر. لعلّ الحكيم واهم، ومجلس النّساء يتخبّط، فيما ترفض الفتيات تلك الزّيجات المدبّرة من أجلهنّ. لعلّ المعلّمة الشابة تعرف أكثر من الآخرين، لكنّها لا تقول شيئًا بعد.. وإن كانت كلماتها كافية جدّا ليقرأ ما بين السّطور.

انهمك بقيّة الفترة الصّباحية في متابعة الدّروس، بعد درس اللّغة يأتي درس الدّين، وهي فقرة بسيطة تشرح أسس العقيدة، يحضرها المرتزقة بتذمّر مكبوت وتركيز قليل. لا يأخذ أحدهم تلك الدّروس على محمل الجدّ، يتبنّى ستيفن وهاورد وجهة نظر براندن.. ما هي إلا طقوس شكليّة للحصول على ختم القبول، فيما يحلّل راجو وساندي كلّ شيء ويتشاركان الأفكار والمقارنات مع معتقداتهما الشخصيّة. أمّا نايت فيغلب عليه الفضول لا غير.

يشغل رجاله حجرة جانبيّة تشترك في الفناء ذاته مع فصول الأطفال في بناء المدرسة، إلا أن الحياة لم تعد إلى طبيعتها بعد، لا تزال الغرف الأخرى مليئة باللاجئين من سكّان القرية الذين انجرفت بيوتهم مع السّيول ولم يكن إلى إصلاحها من سبيل. فيما يُحرم الصّغار من الدّراسة، كان المرتزقة محظوظين لحصولهم على تلك الحجرة الضيّقة، يطلّ عليهم الأطفال الفضوليّون بين الفينة والأخرى، تظهر الرّؤوس الصّغيرة عبر الباب الموارب وترمقهم العيون الواسعة بنظرات اهتمام حذرة. لا يزال حضورهم في ساحات القرية وطرقاتها يثير تحفّظ بعضهم ونفورهم، لكنّ عمليّات التّرميم أسهمت في تحسين صورتهم في عيون كثيرين.

لكنّ ذلك لم يكن كافيًا بعد.

بينما يمشي في اتّجاه المدرسة ذلك الصّباح، تلقّى بعض التحيّات من هنا وهناك. لم يكن كثيرون يتحرّكون عبر المسارات التّرابية المشبعة بالماء مع استمرار المطر، لكنّ رجالًا تجشّموا عناء الخروج على عتبات بيوتهم، التي غدت منيعة أمام هجمات الماء المستمرّة، وأشاروا إليهم برؤوسهم في حركة احترام وامتنان، وقد ملأ ذلك صدره رضا أكثر من أيّ عمل آخر أقدَم عليه في حياته. خلال أيّام، كاد ينسى تحذيرات الحكيم عمّار بصدد مواجهتهم لمحاولات الثأر العشوائيّة من قِبل شباب متهوّر، واعتبر خطواته في اتّجاه الاندماج ثابتة.

حين انتهت فترة الدّراسة المقرّرة، خرجت المعلّمة تاليا فتبعها نايت مهرولًا، أراد أن يسألها عن حقيقة موقفها منه.. من الغرباء عامّة، وعن سبب تجاهلها إيّاه ذلك الصّباح، وربّما يعتذر إذا تبيّن له أنّه قد اقترف خطأً ما دون أن يدري، لكنّه لم يكد يخطو في الشارع الموحل حتّى حطت على كتفه كتلة طينية لزجة، ثمّ تلتها أخرى وأخرى.. وتتابعت اللّطخات المسدّدة بدقّة ومهارة لتصيب وجهه وصدره وظهره. توقّف مكانه مصدومًا ومسح الطّين عن صدغه بمساعدة من ماء المطر، فيما التفتت تاليا وعادت باتّجاهه وهي تهتف في ارتياع:

- يا إلهي! أنا آسفة جدًا!

من المؤكّد أنّها لم تكن من ضربه بكتل الطين، فقد تعالت ضحكات الصّبية الأشقياء من وراء الجدران التي يحتمون خلفها لتعلن مسؤوليّتهم عن الهجمة، لكنّها شعرت بطريقة ما أنّها تتحمّل قدرًا من الذّنب.

- لا عليكِ.

تلقّى نايت المطر بين راحتيه مرّة بعد أخرى وغسل عنه ما أمكنه من الطين، لكنّ ثيابه ستحتاج إلى نقع ليذهب عنها الأثر. لم يعد يعبأ كثيرًا بالحفاظ على جفاف ملبسه ومطية قدميه، فقد تخلّى عن حذائه العسكريّ

منذ أيّام بعد أن فشلت محاولات تجفيفه. حين كان يغوص في الأخاديد ويحفر المطبّات، وجد أنّ الخوض في الماء بقدمين حافيتين أيسر وأقل كلفة، لعلّ السكّان المحلّيين يدركون هذا أفضل من غيرهم.

لم يكن البقاء جافًا ممكنًا في تلك الأيام التي أمضاها يعمل في العراء لذلك انتهى إلى الاستسلام لحالة البلل الدّائمة. من ناحية أخرى، ألفى المناخ دافئًا ومحتملًا رغم الرّطوبة، فلا يضرّه أن يتحمّل الماء من فوقه على الدّوام، وبالنظر إلى إقامته داخل الأدغال ونومه فوق سرير من الأوراق، فإنّ النظافة قد غدت أمرًا ثانويًا.

لكنّ الاعتداء شأن آخر.

حاول ألا ينفعل، سحب دفقات من الهواء ودفعها ببطء ليطفئ غضبه. ليسوا إلا أولادًا ينفّسون عن غيظ مكبوت بطريقة غير مؤذية. لو أنّهم كانوا مُسخَّرين أو متدرّبين على التّسخير حتّى فإنّ العواقب قد تكون وخيمة.

- سأتحدّث إلى الـ«كوتانا»، سيفعلون شيئًا بشأنهم.
- لا بأس.. ليس أمرًا ذا أهميّة.
- لا، هذا سلوك مشين.. لم يكن عليهم فعل هذا.

وقفت تحت المطر، وقد غامت عيناها وأكسب الانفعال وجنتيها درجة احمرار محبّبة غطّت على شحوبها بقدر وجده نايت مثيرًا للاهتمام، وقد أطفأ تعاطفها غضبه وحوّل انتباهه عن الاعتداء وأصحابه. تذكّر أنّه أراد سؤالها عن شيء ما منذ حين، لكنّه لم يستحضر الكلمات على الفور، استمرّ يقف في جمود وبلادة، حتّى ظهر الحكيم عمّار في مجال بصره. ألقى التحيّة بإيماءة من رأسه وواصل طريقه بخطوات وئيدة، فوجد نايت نفسه يعتذر إلى المعلّمة ويلحق به مدفوعًا برغبة ملحّة في الخلاص من حرج الموقف.

- أيّها الحكيم، هل يمكن أن نتحدّث؟

أومأ عمّار دون أن يتوقّف، فتبعه نايت. مرّت لحظات من الصّمت من الجانبين، قبل أن يتجرّأ نايت على طرح سؤاله:

- إذا سمحت لي.. هل يمكنك إخباري عن.. فترة اندماجك الأولى في مجتمع الجزيرة؟

توقّفت خطوات عمّار فجأة، وتفرّس في وجه الرّجل بعينين حائرتين من تحت المظلة العريضة التي تحجب نصف وجهه. يدرك أنّ قائد الفرقة الذي لمحه كثيرًا يلازم مايك راسل في أوقات سابقة يبدو مختلفًا شكلًا وجوهرًا هذه الأيّام. يجد عزمه على الحصول على قبول السكّان المحليين جديرًا بالثناء. خلافًا لرفاقه كان قد تخلّى عن حذائه، وهو ينتبه الآن إلى هيئته المعفّرة بالطين، كأنّما كان يزحف على الأرض أو يحفر خندقًا منذ وقت قريب، ولم يبد عليه أنّه يهتمّ. ربّما يجد الـ«آم» فخرًا وعزّة في نظافتهم وهندامهم المرتّب، لكنّ الأوضاع سيّئة منذ بداية العاصفة، بل منذ حريق القرية، لا يحظى كثيرون بفرصة البقاء جافين وعطري الرّائحة.

وإن كان عمّار قد جاء بفكرة الزّواج فإنّ نايت قد خطا الخطوة الأولى التي جعلت المشروع ممكنًا حين وقف في الميدان وعرض السّلم. والآن، هذا...

- لقد مرّ ربع قرن على ذلك يا بنيّ، وإن لم تخني الذاكرة فإنّني لم آت حاملًا السّلاح في ذلك الزّمان، ولم أحرص على استعداء سكّان الجزيرة قاطبة.

قرأ الوجوم على ملامح الرّجل، فأضاف بلهجة أكثر لينًا:

- لذلك.. لا أعتقد أنّ تجربتي ستفيدك في شيء. لكن.. إن كنت صادقًا، فالـ«آم» سيعرفون ذلك. لديهم حدس مرهف غالبًا حين يتعلّق الأمر بتقييم معدن الرّجال.

حيّاه بإيماءة أخرى ثمّ حثّ الخطى مبتعدًا وعلى شفتيه ابتسامة غامضة.

حين وصل عمّار إلى الكوخ، نزع المظلة وقطر ماءها، ثمّ جفّف قدميه على عتبة الحشائش التي ترصفها زوجته عند المدخل ليبقى الطين في الخارج، علّق المظلة على وتد مغروس في الجدار ثمّ اهتمّ بنفض القطرات العالقة بثوبه واعتصار سرواله مبلّل الأطراف قبل أن يخطو إلى وسط الغرفة التي تحرص أرابيلا على بقائها جافّة. منذ حصلت على سقف جديد ومتين بفضل الألواح المعدنيّة، استرجعت شغفها بأشغال البيت.

جاءت ريحان لاستقباله بحفاوة، يُصيب الصّغيرة الملل لاضطرارها إلى قضاء وقتها وحيدة غالبًا في غياب كلّ سبل المرح بسبب المطر، ومنع الأهالي صغارهم من الخروج خشية السّيول. ربت عمّار رأسها ولاعبها برهة، ثمّ استدار نحو زوجته التي وضعت إناء الطعام بينهما وانضمّت إلى الجلسة:

- أعتقد أنّنا سننظّم زواجًا قريبًا!

توقّفت حركة أرابيلا وهي تسأل في شك:

- هل تعني.. أنّك قد وجدت عروسًا مناسبة لواحد من الغرباء؟

أومأ عمّار ببطء.

- المعلّمة تاليا.

اتّسعت عينا أرابيلا وظهر عليها التّردّد.

- لا، تاليا المسكينة.. لا أريد أن أعرّضها لهذا، لن يكون هذا عادلًا.

يدرك عمّار ما تقصده زوجته، إلا أنّه تابع في إصرار:

- إنّها مثالية لهذا الدّور.. عزباء في سنّ مناسب للزواج بمقاييس العالم المتحضّر وتتفوّق على الصّبايا اليافعات من ناحية النّضج، وتجيد لغة الغرباء فوق ذلك، لذلك سيكون التّواصل يسيرًا.. بالإضافة إلى أنّني.. أظنّ أنّها تميل إلى نايت.

همست في ارتياب:

- كيف عرفت؟

- كانا يتحدّثان أمام مبنى المدرسة، بديا منسجمين تمامًا!

ربّما يبالغ نوعًا ما، ربّما يقترب ما رآه من اللّوحة الصّامتة أكثر من الانسجام التّام، لكن في تلك اللّحظة فإنّ أيّ امرأة تُظهر لطفًا تجاه الغرباء تعتبر مرشّحة مناسبة للمصاهرة. وتاليا.. مناسبة جدًّا، الكلّ يعلم مدى شغفها بالغرباء وعالمهم، وإن كانت الفتاة المسكينة قد عانت كثيرًا بسبب تلك الوصمة التي ارتبطت بها منذ سنوات.

أضاف وهو يشرع في تناول لقيمات اليخنة:

- ستتحدّثين إليها.. وحين يتوقّف المطر، سيكون لدينا زفاف نحضره.

***

تململ آدم في مجلسه قبالة الـ«كوتانا»، يعرف أنّ عمّار قد استدعاه لاتّخاذ قرار بشأن رجال مايك راسل القابعين في الغابة، ورغم رفضه السّابق التّعاون لدفع مخطّط النّزوح والتهجين قدمًا، فقد راوده شيء من التّعاطف حين خلا بنفسه وأمعن التّفكير بشأن الغرباء. لقد شعر بالذنب في وقت سابق بسبب الأرواح التي أُزهقت في عرض البحر على يديه، لم يتردّد للحظة واحدة قبل أن يسحب الخيوط كلّها ويغرق السّفن الثلاث في فورة غضب عاتية. وقد فكّر لأيّام بأنّه قاتل مثل أيّ واحد منهم، وغشيه إحساس مقيت بالعار والنّدم.

تساءل في تلك الأوقات إن كان المرتزقة المتخلّفون عن ربّ عملهم نادمين. ربّما يكون ذلك الحدّ الفاصل بين الرّجل الصّالح والطالح، ربّما لم يعرف أحدهم طبيعة الأعمال التي سيضطرّون إلى ارتكابها قبل أن يدفع بهم مايك إلى القوارب المطاطيّة، لقد رافق هو ووالده مايك طوال عمليّة التمشيط العبثيّة لأسبوعين قبل ذلك ولم يدرك أيّ منهما النّوايا الخفيّة التي تحرّك المستثمر. لا شكّ أنّ الرّجال حملوا السّلاح كجزء من مسؤوليّاتهم،

واكتفوا بحماية شحنات البضائع سنوات، دون أن يضطرّ أيّ منهم لإطلاق النّار إلا في حالات اعتداء سافرة. يكاد يتخيّل ارتباكهم -بعضهم على الأقلّ- حين تلقّوا الأمر بقنص المدنيين الأبرياء.

في خلوته تلك، قرّر أنّهم يستحقّون فرصة للنّدم والتّكفير عن ذنوبهم، وأنّه سيمنحهم تلك الفرصة بموجب السّلطة التي تسبغها عليه منزلته كمُخلِّص للـ«آم».

استمع إلى لغط الـ«كوتانا» الغاضبين الذين احتدّت أصواتهم دون أن ترتفع محافظين على سمتهم الوقور، وتحوّل الحديث عرضًا إلى لغتهم المحليّة مغفلين وجوده بينهم. دون أن يفقه حرفًا ممّا قيل، يدرك أنّ عمّار قد تجاوزهم حين مضى في خطّته منفردًا قبل أن يحصل على موافقة المجلس، وأنّ الأنباء تصلهم عن طريق زوجاتهم المتورّطات بسبب أرابيلا في التّعامل مع الدّخلاء الخطرين، ولعلّ سبب النّفور الحقيقيّ هو إشفاقهم من التّبعات الشخصيّة التي قد تترتّب على إقرار مشروع التّزاوج مع الغرباء. إن لم يكن لعمّار بنت في سنّ الزّواج -بعد أن زوّج المعالجة من المُخلِّص ونال الشرف الذي يطمح إليه كل واحد من الـ«آم»- فإنّ بعضهم قد يضطرّ إلى المقامرة بمستقبل ابنته ليكون قدوة للآخرين، وهم رغم إدراكهم للخطر العظيم الذي يتربّص بالجزيرة غير مستعدّين بعد للتّضحية الشخصيّة.

تنحنح آدم بصوت حادّ، فخَفَت اللّغط واستدارت إليه الرّؤوس، منتبهين إلى تجاهلهم غير المقصود لحضوره. همهم «كوتانا» توماس معتذرًا:

- العفو أيّها المُخلِّص، لقد انجرفنا ونسينا حضورك بيننا.

أومأ آدم بلطف، لم يكن ليعتب عليهم قطّ، فقد فضَّل دائمًا أن يكون شبه شفّاف في مجالسهم، لا يكاد ينطق حتّى يُطلب منه، ولعلّهم اعتادوا صمته أكثر من حديثه، فلم يشأ أحدهم أن يفسد عزلته حتّى يرغب في ذلك بنفسه.

قال آشور بلهجة رجاء:

- ربّما يودّ المُخلِّص أن يشاركنا حكمته؟

طالعه عمّار بنظرة رجاء مشفقًا من إفساد آدم الخطة كلّها بكلمة منه. تجاهل آدم نداءه الصّامت وقال بلهجة حاسمة:

- دعوني أتحدّث إليهم.. سأعرف إن كان أحدهم جديرًا ببنات الـ«آم».

ارتفع صوت عمّار في ارتياح:

- ونحن نثق في حسن تقدير المُخلِّص!

لم يشارك الحكماء الآخرون «كوتانا» عمّار حماسته، بل سرت بينهم موجة من الهمسات القلقة قبل أن يفصح توماس:

- لكنّ أيًّا من الـ«آم» لن يوافق على تزويج ابنته من أحد الـ«أيتورا» أتباع الشيطان!

وجد عمّار أنّ اللحظة مناسبة ليعلن عن المرشّحة المثالية:

- المعلّمة تاليا.. ليس لديها والد أو شقيق يعترض، كلّ ما لديها ابن شقيق يتيم، كلاهما بحاجة إلى رجل.. وهي تتحدّث لغة الغرباء.

- هل تعتقد أنّها ستوافق؟

- ستوافق.

أعلن عمّار بثقة، غير أنّه يعتمد كليّا على مهارة زوجته في الإقناع.

***

دنا آدم ببطء من موقع تخييم المرتزقة داخل الغابة، لم يسبق له أن تحدّث إلى أيّ واحد منهم على متن السّفينة، لقد حافظ على مسافة الحذر، حتّى وهو يمضي مرارًا ليتفاوض مع مايك راسل، فإنّ تعامله ظلّ مع مايك نفسه ولم يحتج إلى الاحتكاك بهؤلاء الرّجال.

لم يحاول التسلّل أو إخفاء خطواته، لذلك فقد كانت نظراتهم متأهّبة ورؤوسهم مشرئبّة متطلّعة إلى القادم وهو يطلّ عليهم من وراء الأجمة. كان نايت أوّل من خطا باتّجاهه بغريزة القائد التّلقائيّة، وهو يعرف من يكون نايت خلافًا للآخرين الذين لم تكن وجوههم مألوفة لديه إلى حدّ بعيد. ربّما يذكره بعضهم مثل ضيف عابر على متن الـ«أسطورة» وربّما يستحضر آخرون صورًا أكثر قتامة كان لآدم دور البطولة فيها.. مثل شقّ الـ«أسطورة» نصفين، أو امتطاء العظايات العملاقة، أو التجلي المجنون في قلب الإعصار.

لم تضايقه نظراتهم التي تتأرجح بين النّفور والاحتراز، فقد بات الجميع الآن يعرف أنّه مُسخِّر، لكنّهم لا يعرفون ربّما أنّ بقاءهم على سطح الجزيرة بفضله.

مسح الوجوه بنظرة شاملة، لقد تبجّح في وقت سابق ذلك النّهار بقدرته على تقييم معادنهم، ولعلّه يعتمد على الحدس أكثر من أيّ شيء آخر، وربّما -إذا كان توقّعه صحيحًا- ستساعده قدرات المُسخِّر الكامنة بداخله. كان عليه أن يختار رجلًا.. رجلًا واحدًا صالحًا. تجاوز نايت دون أن يمنحه أكثر من نظرة عابرة، لم يكن ذراع مايك راسل اليمنى رجلًا صالحًا في نظره، وتوقّف يطالع الآخرين بنظرات متفحّصة واحدًا بعد الآخر.

بدا عليهم الارتباك وهو يكتفي بالتّحديق كأنّه يزنهم، يخترقهم ويعبث بأذهانهم بالنظرات وحدها، وقفوا جميعًا ببطء وتسمّروا في أماكنهم متحفّزين ومترقّبين الآتي، تربكهم حدقتاه المتوهّجتان بلون عسليّ شاحب، وخصلاته الشقراء التي تبدو مثل صبغة عشوائيّة حديثة.

كان نايت أول من تكلّم بنبرة هادئة:

- آدم، هل هناك ما يمكننا مساعدتك بشأنه؟

لوّح آدم بكفّه كأنّما يدعوه إلى الصّمت حتّى لا يعكّر لحظات تركيزه. استمرّت لحظات أخرى من السّكون إلا من وقع قطرات المطر على السّقف المعدنيّ الذي يظلّل عريشتهم، ثمّ عاد نايت يقول:

- لا أودّ الإساءة، لكنّ التّواصل بالكلمات يكون أفضل.. دائمًا.

استدار آدم نحوه في انزعاج، هل يحاول المتحذلق أن يجرّب حظّه مع الفكاهة؟ هل يعتقد أن المزاح ممكن بينهما؟ إنّه لا يثق به ولا يفكّر في منحه الفرصة البتّة، قد يتسامح مع آخرين لم يكونوا في موضع قيادة أو إشراف، لكنّه لا يحبّ هذا الوغد اللّئيم.

تكلّم آدم أخيرًا موجّهًا كلامه إلى الرّجال الواقفين إزاءه مثل الأصنام:

- أنت وأنت وأنت.. اقتربوا..

استجاب ساندي وبراندن وستيفن لإشارته، تقدّم كلّ واحد منهما خطوتين ليصبح ثلاثتهم قبالته تحت المطر. عقد نايت ذراعيه أمام صدره وتابع المشهد في ضيق، في حين شرع آدم في استجواب الرّجال الذين وقع عليهم اختياره عبر الفراسة:

- كم شخصًا قتلت؟

امتقع وجه ساندي حين وقع السّؤال على رأسه وانعقد لسانه. واصل آدم:

- ربّما لا تودّ أن تخبرني، لكنّني آمل أنّك تحصيهم بدقّة!

نكس ساندي رأسه في حرج، فيما حدّق براندن بنظرات قاسية وتململ ستيفن في عدم ارتياح.

«اثنا عشر!» همس نايت لنفسه بصوت خافت لا يكاد يُسمع، لكنّ أذني آدم اليقظتين أكثر من أيّ وقت مضى التقطتا الكلمات، فاشتدّت قبضته في غضب مكبوت. باستثناء نايت لم يُعلن أيّ من الرّجال رصيده بصوت عالٍ. بعمليّة إحصائية بسيطة، إذا كان عدد الـ«آم» الذين قُتلوا على أيدي

الغرباء في حدود الخمسين، فإنّ المعدّل لكلّ واحد من الرّجال الأربعة والعشرين سيكون اثنين إلى ثلاثة.. أمّا اثنا عشر، فعدد كبير.. كبير جدًّا!

- آمل أنّك تذكّر كلّ وجه وكلّ نظرة رعب طالعتك بها الضحيّة قبل أن تُزهق روحها، وأنّك تشعر بالنّدم.. لأنّك لن تحصل على المغفرة من دونه!

ساد الصّمت الرّهيب بعد أن دوَّت كلمات آدم بصوت هادر يشقّ الهواء مثل إعصار، ثمّ تكلّم براندن فجأة بلهجة يظهر فيها الاستياء:

- لماذا تتوقّع منّي النّدم على عمل نفّذته لأنّه يُفترض بي ذلك؟ للحرب حديث، وللسّلم حديث آخر! يؤدّي كلّ منّا واجبه كما ينبغي، حين نحتاج إلى القتل، نفعل.. لكنّني أعدك بشيء واحد: لن أقتل أحدًا غيلة ولن أرفع سلاحي في وجه الحلفاء.. إذا لم يغدر بنا أحد فلن نفعل. هذا ما أعدك به!

رمقه آدم بنظرة طويلة، ثمّ ابتسم ساخرًا:

- هذا رجل متّسق مع ذاته.. يُعجبني هذا!

ثمّ استدار إلى ستيفن وسأله:

- ماذا عنك، هل توافقه الرّأي؟

هزّ ستيفن العصا كتفيه في استهانة وقال:

- ما الذي تريده منّا؟ نحن ضيوف على هذه الأرض، وسننفذ نصيبنا من الاتّفاق.. ما قد مضى قد مضى، لا نريد أن نُعيد سيرة الماضي.. كما قال براندن، كنّا نقوم بواجبنا وحسب، مثل الجنود في الحرب. حين ترجع من العمل وتنزع البدلة العسكريّة، تخلّف ميدان القتال وراءك.. هذا ما يحدث، والحياة تستمرّ..

نخر آدم ثمّ قال بنبرة ازدراء:

- يبدو هذا عادلًا!

عادت نظراته إلى ساندي الذي تستمرّ عيناه تلتصقان بالأرض.

- ما قولك في هذا الكلام؟

ارتجف ساندي ثمّ انفجرت الكلمات على شفتيه مثل الطّوفان:

- قتلتُ واحدًا فقط.. رجلًا واحدًا! فاجأني، خرج من وراء الأشجار فاضطربت وأطلقت النّار دون تفكير، كنتُ مرتعبًا.. أنا رجل عمارة ومنشآت ولستُ رجل حرب! لقد خضعت للخدمة العسكريّة، أعرف كيف أحمل السّلاح وأسدّد، وأؤدّي مهام الحراسة والنّقل بكفاءة.. لكنّني لم أقتل أحدًا قطّ، ليس قبل ذلك الرّجل المسكين الذي تلازمني عيناه حتّى في أثناء النّوم! أنا أرى الكوابيس منذ ذلك الحين.. وأبكي حين أتذكّره في خلوتي.. لا أريد أن أعيش ذلك ثانية! لا أريد هذا العمل بعد الآن، أعدك إذا رجعت إلى الدّيار فلن أركب سفنًا بعدها ولن أفتّش عن جزر مجهولة في عرض المحيط أبدًا!

ساد السّكون بعد اعترافات ساندي المؤثّرة ولم يعلّق أحد بكلمة، باستثناء نصف ضحكة أطلقها هاورد الماكث في الخلف. اقترب آدم بهدوء من ساندي ووضع كفًا على كتفه، وسأله برفق:

- ما الذي كنت تفعله على متن سفينة مايك راسل؟

رفع ساندي عينيه في ارتباك:

- قال إنّه يحتاج إلى خبير في التّخطيط العمرانيّ.. تحدّث عن جزيرة مجهولة، وعن مشاريع عملاقة ينوي إنجازها. كان المقابل مجزيًا، والعمل يشترط خبرة في حمل السّلاح وفنون الدّفاع عن النّفس.. ظننت أنّها المهمّة المثاليّة لرجل مثلي..

- وما الذي فعلته على الجزيرة؟ لماذا كنت ضمن الفريق؟

- كنت أحمل أجهزة قياس الأبعاد وتقييم المساحات.. وأجري اختبارات لنوعيّة التّربة. كان مايك راسل ينوي بناء منتجع ما..

هزّ آدم رأسه في رضا ثمّ قال:

- شكرا لصراحتك. ما اسمك؟

- ألكسندر.. لكنّهم ينادونني ساندي.

رفع آدم حاجبيه، فيما شرح ساندي:

- إنّه لقب شائع في اسكتلندا حيث نشأت. لقد ورثت اسم جدّي ولقبه.. هذا تقليد عائليّ.. يمكنك أن تناديني ساندي مثل الجميع هنا.

- أنت اسكتلندي؟

أومأ ساندي، تفرّس آدم في ملامحه بدقّة كأنّه يدرسها، قبل أن يقول:

- أفضّل ألكسندر، إذا لم تكن تمانع.

دون أن ينتظر ردّا، استدار مبتعدًا لتبتلعه الأدغال الكثيفة والأمطار.

كان قد اتّخذ قراره بالفعل.

(11)

اليوم الحادي عشر بعد الستين

لا تحبّ أن تكون مخادعة، ليست تلك شيمها، لكنّها مضطرّة إلى استخدام الحيلة مع هؤلاء القراصنة، فحياتها تتوقف على ذلك. حاولت روان أن تنفض عنها اللّوم وجلد الذات وهي تنهي وصلة الدّعاء والعلاج الوهميّ قرب الفتاة المُسجَّاة على السّرير، وأرهفت السّمع في هذه الأثناء تصغي إلى همسات البحّارة الذين يتحرّكون عبر الغرفة، علّها تلتقط طرف خيط أو تفكّ شفرة الكلمات المبهمة.

حين وقفت تهمّ بالانصراف، جاء القرصان الكهل ليقول بمزاج مستبشر:

- لقد توقّف المطر.. سيكون الإبحار أفضل في جوّ صحو.

تهلّلت أسارير روان ولم تُخفِ فرحتها بانتهاء العاصفة أخيرًا، بعد أسبوعين من انفتاح مزاريب السّماء فوق رؤوسهم. لكنّ موسم الأمطار قد حلّ، وهي لا تضمن ألا يعاود المطر الهطول في أيّ لحظة. أردف الرّجل:

- لكنّ الضّباب كثيف في الخارج، ربّما نتريّث بعض الوقت.

تبعت البحّار الذي قادها نحو غرفة احتجازها في استسلام، وإن كانت الحراسة عليها متراخية في الآونة الأخيرة، قدّرت أنّ أحدًا لن يلاحظ إن هي تسلّلت في وقت ما تلك اللّيلة خارج الغرفة، لكنّ المهمّة ستكون أعقد من مجرّد التسلّل.

حين أفضت إلى الغرفة حيث ينتظرها أوران ومانويلا، بادرها أوران على الفور:

- لقد توقّف المطر، أليس كذلك؟

لم تكن الغرفة تحوي أيّ نوافذ أو فتحات تسمح بمتابعة أحوال الطّقس -أو محاولة الهرب- إلا أنّ اختفاء الدّبيب المتواصل لنقرات الماء فوق رؤوسهم وفي جنبات المركب الخشبيّة كان كفيلًا بإنبائهم بها جدًّ. أومأت روان في حماس، ثمّ أضافت:

- قال القرصان إنّ الضباب كثيف..

قاطعها أوران ومانويلا بصوت واحد:

- إذًا قد اقتربنا!

أضاءت مقلتاها بنظرة العارف. يهبط الضّباب قريبًا من الماء ليموّه الحدود بين «آرا» وما حولها، ثمّ يندمج مع سحب الـ«مادرا» الكثيفة التي تظلّل الجزيرة، فلا يعلم أحد متى يبدأ الحدّ الفاصل بين العالمين، لكنّهم يدركون أنّهم على أعتابها، يكاد طرفها يَبين. لكنّ القراصنة لا يعرفون، ليس بعد.

وشوشت مانويلا:

- نتحرّك الليلة إذًا؟

اتّفقت العيون في صمت، في سكون الغرفة المظلمة التي تجمعهم منذ أيّام، كان أمام ثلاثتهم متّسع من الوقت لوضع الخطط وتوزيع الأدوار بدقّة، يعرف كلّ واحد منهم مسؤوليته.

كانت تنقلات مانويلا من وإلى قمرة القيادة تسمح بملاحظة ما يدور حولها، فيما تطلع روان في أثناء زيارتها للمريضة على جانب آخر من السّفينة، وقد أدّت تلك الملاحظات المتفرّقة مجتمعة إلى تحليل سلوك

القراصنة وتوّزعهم على متن المركب. لكنّ الحركة في أثناء الليل ستكون مختلفة عنها خلال النّهار، ولذلك فإنّ الخطّة معرّضة للعشوائية والارتجال.

اتّفقتا على فكرة واحدة: ستكون إحداهما في المقدّمة. ربّما يكون حضور إحداهما خارج الغرفة أكثر توقّعًا من وجود أوران، فهما منوطتان بمهامّ محدّدة من القبطان، وإن كان استدعاء أيّ منهما في عتمة الليل ودون مراقبة غير اعتياديّ، فيمكن تبريره ومن ثمَّ ربح بعض الوقت قبل الاضطرار إلى المواجهة العنيفة. لذلك سيتوارى أوران في الخلف، وستعملان على تأمين الطّريق والوصول إلى زوارق النّجاة في مؤخّرة السّفينة، إن وُجدت. ألقت مانويلا بالتّلميح المتشائم:

- هذه سفينة مسروقة غالبًا، وقد تفتقر إلى كثير من المعدّات الطبيعية التي تحرص عليها الرّحلات النظاميّة. ربّما يثمّن القراصنة حياتهم، لكن ما من ضمان لاحتفاظهم بزوارق مطاطيّة حسب معايير السلامة.. إلا أنّهم غالبًا ما يملكون زوارق خشبيّة يستخدمونها للإغارة على السّفن العابرة..

حاول ثلاثتهم استحضار مظهر السفينة الخارجيّ حين برزت أمامهم في عتمة العاصفة، لكنّ الصور كانت مهزوزة وملتبسة. لا يذكر أحدهم على وجه اليقين إن كان شيء يشبه زوارق النّجاة قد شوهد في وقت ما. سألت روان:

- ماذا عن القوارب التي أبحرنا فيها؟

أومأت مانويلا:

- ليسوا أغبياء للتّفريط فيها، لا شكّ أنّها قد رُبطت إلى مؤخّرة السّفينة.

لكنّ الأوان لم يفت بعد للتأكد قبل الإقدام على أيّ مجازفة خرقاء. قالت مانويلا:

- ربّما ننتظر حتّى تقترب السّفينة أكثر، فلا نضطرّ إلى التجديف طويلًا..

ابتسمت روان وقالت بلهجة غامضة:

- لا تشغلي بالك بمسألة التجديف، أنت تجهلين ما يمكن للمُسخَّر عمله!

حدّقت مانويلا في أوران للحظات، لكنّ أحدهما لم يستفض في الشرح. أضافت روان:

- لكنّ اقتراب القراصنة من مجال الـ«مادرا» أكثر ممّا يجب قد يُسبّب متاعب إضافيّة. إذا تعطّلت السّفينة فسيعلق الآخرون أيضًا..

كانت تشير في صمت إلى مايك راسل ورجاله. يتّفق ثلاثتهم ضمنيًا على رغبتهم في رؤية المستثمر في طريقه نحو العالم المتحضّر بلا رجعة، حتّى مانويلا. إذا تمكّن والدها من العودة إلى سفنه المرابطة على حدود الجزيرة، فستعود المؤشّرات كلّها إلى خانة الصّفر، وربّما يستأنف الصّراع حيث انتهى منذ عشرة أيّام. مع ذلك، ليس هناك من سبب لبقاء السّفن في مواقعها بعد رحيلهم، تقتضي التعليمات التي ألقى بها مايك أن يتراجع الأسطول بدوره.. إلا أنّ العاصفة قد تكون مسوّغًا لبقائهم وقتًا أطول.. كلّ الاحتمالات ممكنة.

حين جاء البحّار لاستدعاء مانويلا «خبيرة الاتّصالات»، رمت نظرة متواطئة باتّجاه رفيقي الغرفة قبل أن تمضي إلى مهمّتها.

ربّما تطرّقت الخطة إلى مختلف التفاصيل العمليّة، لكنّ أحدًا منهم لم يجرؤ على تناول المعضلة الأخلاقيّة التي تتعلّق بأسرى الغرفة المجاورة. لعلّ روان وأوران لا يهتمّان على الإطلاق بمصير والدها ورجاله، لكنّ إنقاذهم يشغل ذهنها، هل تُقدم على النفاد بجلدها مخلّفة إيّاهم وراءها دون أن تراودها حسرة أو ندم؟

ليست قلقة بقدر كبير على سلامتهم، سيعرف مايك راسل كيف يساوم على حياته وسيذعن القراصنة عاجلًا أم آجلًا لبريق الذهب الذي سيلوّح به مثل جزرة تسوقهم إلى اتّباع تعليماته. حين ينفض جميعهم أيديهم من «حجر الشمس» ويدركوا ألا سبيل إلى الجزيرة من دون المعالجة والمُسخِّر، سيجدون طريقهم إلى العالم المتحضّر. تودّ الاعتقاد بأنّ النهاية ستكون ملائمة للجميع: ستكون حيث تريد، في موطن اختارته بإرادتها، وسيرجع والدها إلى عالمه وتجارته وينسى تدريجيًّا أمر تلك المغامرة.

تبدو الصّورة الذهنيّة التي تراودها عن المآلات المنتظرة مشرقة بقدر ما هي مبالغ فيها. لعلّ والدها لن ييأس بتلك السّهولة بعد أن وضع يديه على الحجارة وفقد كثيرًا من الرّجال والعتاد! ألم يمض البروفيسور أشرف صافي خمسة عشر عامًا في سعيه الحثيث وراء الجزيرة؟ هل تضمن أنّ والدها لن يمضي على الطريق الحتميّ ذاته؟

ثمّ ماذا عن اختيارها الاندفاعيّ بالبقاء على الجزيرة؟ هل تراهن على تقبّلهم لها بعد الفظائع التي ارتكبها قومها بحقّ السكّان المحلّيين؟ أيّ استحقاق يكمن بين جنباتها وينبئها بأنّها محلّ ثقة وترحاب؟ ثمّ أيّ حياة تنتظرها هناك؟ هل فكّرت مليًّا في المستقبل الذي توشك على التّضحية بكلّ مكتسباتها من أجله؟ أم أنّها تراهن على خيارات مثالية وغير مضمونة العواقب؟ هل وجدت هناك عالمًا مشرقًا يُضاهي الحقيقة التي تنشدها؟ أم أنّها تفرّ فقط من حياتها القديمة التي صارت فجأة لا تحتمل؟

تذكّرت كلاوديا، ما الذي يمكن أن يكون قد حلّ بها بعد اختفائها؟ تمنّت لو أنها تملك وسيلة للاتّصال بها والاطمئنان على سلامتها، إلا أنّها -إن هي عادت إلى الجزيرة- لن تجري أيّ نوع من الاتّصالات بعد ذلك مطلقًا! ستكون في معزل عن الحضارة والتّكنولوجيا، ستكون قد اختارت عزلة نهائية وبلا رجعة.. لكنّها ترجو ألا يصيب صديقتها الباحثة

أي مكروه، لن تملك الاستخبارات أيّ أدلّة ضدّها بعد تبخّر «الحجر» والعينّات وأوران -موضوع البحث نفسه- وستنتهي إلى إغلاق الملفّ كادّعاء بلا إثبات.

شغلتها تلك الأفكار وهي تجلس دقائق أمام أجهزة الاتّصال، ترسل التّوجيهات وتضغط الأزرار وتعدّل الإشارة، حين تلفّتت من حولها لتخرج من شرنقة هواجسها، ألفت الغرفة خالية إلا منها. تعوّد البحّارة ظهورها الدّوريّ فلم يعد أحدهم يراقبها مراقبة لصيقة، فينصرفون إلى أشغالهم فيما تقوم بدورها المفترض، أو لعلّ الشخصيّة الأنثويّة الغريبّة مهيضة الجناح لم تبد مصدر خطر يُخشى، فلم يهتمّوا بتحرّكاتها.

خمّنت أنّ أحدهم سيتذكّرها بعد دقائق قليلة وسيأتي مرافقها لأخذها إلى الغرفة ثانيةً، لذلك سيكون عليها العمل بسرعة. أطلّت برأسها لترصد الحركة في الممرّ، بدا المكان هادئًا، باستثناء الصّخب البعيد القادم من غرفة الطعام. لا تعلم إن كان القراصنة يحافظون على مواعيد الطعام بقداسة، لكنّهم -حسب ملاحظتها- يقضّون كثيرًا من الوقت في تلك القاعة. سيكون انشغالهم بالأكل تميمة حظّها.

تسلّلت برفق على أطراف أصابعها محاذرة أن يصرّ الخشب تحت ثقل خطواتها، انسلّت بهدوء حتّى مؤخّرة السّفينة وأشرفت على جانبها المتهالك، ثمّ تنفّست بارتياح حين أبصرت الزّورقين المطاطيين مشدودين بالحبال في الموقع المفترض لها، بالإضافة إلى مركب خشبيّ يخصّ القراصنة. بوسعهم الاستمرار حسب الخطة بعد أن تيقّنت من توافر عامل الهروب الأساسيّ.

- لا أظنّ أنّ هذا هو المكان الذي يفترض بك الوجود به!

استدارت في ارتياع لتجد القرصان الكهل إزاءها، تصاعدت الدّماء إلى وجهها وتلعثمت الكلمات على لسانها، ربّما ستكون فرصة للتدرّب على

الإلهاء الذي سيكون عليها ممارسته لاحقًا تلك اللّيلة، لتثبت جاهزيتها.. أو عدمها.

- كنتُ.. أبحث عن الحمّام!

بالنظر إلى اضطرارها -ورفاق غرفتها- إلى قضاء حاجتهم داخل إناء في زاوية الغرفة دون أدنى قدر من الخصوصيّة والنظافة الشخصيّة، فسيبدو بحثها عن الحمّام مقنعًا.

- ألا أستحقّ هذه المكافأة الصّغيرة.. على الجهود التي أبذلها لمساعدتكم على إيجاد موقع الجزيرة؟

كانت تبتسم بتودّد وتلهو بطرف خصلاتها الصّهباء بغنج، تلك حركتها الخاصّة التي لا تُقاوم، أو على الأقلّ هذا ما تعتقده. لقد أحرقت للتوّ واحدة من بطاقاتها الرّابحة وعذرًا أساسيًا يفسّر مغادرتها للغرفة خلسة ليلًا، لكنّها تحتاج إلى تبديد الشّكوك الآن فورًا، وإلا فلن تكون هناك محاولة ليلية أبدًا.

فوجئت حين دفعها القرصان من كتفها بعنف وأخذ يقودها نحو الغرفة بغلظة، متجاهلًا العذر والدّلال، ساقها أمامه حتى تعثرت لتسقط داخل الحجرة. وقف القرصان مشرفًا من علٍ على ثلاثتهم وكشّر عن أنياب حادّة وقواطع أكلها السّوس:

- هل تظنّوننا أغبياء؟ هل تعتقدون قدرتكم على خداعنا طويلًا؟

تجمّدت ملامح روان وتحفّز أوران مداعبًا الحجر المخفيّ في ثوبه، فيما واصل القرصان:

- لقد استيقظت هودان، وهي بحال جيّدة..

ركّزت روان نظراتها الواجمة عليه، فبادلها التّحديق الحادّ:

- لكنّ الفضل لا يعود إليك وإلى وصفاتك العلاجيّة! لقد وضعتُ الحجر في صندوق وأخفيته في مكان مُعتم بعيدًا عنها.. وبعد مضيّ يوم واحد، تراجعتْ الأعراض!

ابتسمت روان في شفقة ظاهرة:

- أيّها المسكين.. هل تعتقد أنّ هذا كافٍ؟ لو لم أقدّم لها..

قاطعها بعجرفة:

- لقد اكتفيتُ من الخرافات! لم أعد أصدّق أيّ كلمة! والآن، لن يغادر أيّ منكم الغرفة بعد الآن حتّى أقرّر مصيركم.

حدث كلّ شيء بعد ذلك بتتابع رهيب وبلا ترتيب مسبق، ما إن استدار القرصان مغادرًا الحجرة حتّى هبّ أوران من موقعه في حركة حادّة، ارتفعت كفّه في الهواء ورقصت ذرّات الغبار من حوله ثمّ اندفعت الصّاعقة لتشقّ الفضاء والخشب في لمح البصر، ترنّح المركب متمايلًا وفَقَد القرصان توازنه فهوى على ركبتيه مذهولًا، ثمّ ارتفع صرير الألواح التي أخذت تتشقّق وتتباعد بصوت مرعب.

لم تكن تلك الخطّة، لم يرغب أحدهم في فقدان القراصنة سفينتهم، لكنّ الوضع يضطرّهم إلى الارتجال. تعالت الصّرخات الفزعة حين مال المركب إلى جانبه ميلًا خطرًا. أخذت الأشياء تنزلق وتتساقط، وتشبّث القراصنة بالأعمدة والحوائط المتشقّقة دون أن يدرك أحدهم حقيقة ما حدث، زحف القرصان الكهل على أربع مبتعدًا عن الصّدوع التي تهدّد بالتهامه وابتلعت الضوضاء كلماته التي جمعت الغضب والهلع.

في خضم الفوضى، حافظ أوران على ثباته. حين ساد الارتباك من حوله، مدّ ذراعه ليساعد مانويلا على النّهوض، في حين سبقته روان إلى الانطلاق. صرخت مانويلا فيما يندفع ثلاثتهم عبر الممرّ المتداعي:

- الزّوارق في المؤخّرة!

بينما يشقّون طريقهم بما يملكون من تماسك، تناهت إلى أسماعهم أصوات الصّراخ والضّرب على جدران الغرفة المجاورة وبابها. توقّفت مانويلا بغتة، لم تكن تنوي أن تترك والدها والآخرين يغرقون، حتّى لو اضطرّت إلى مواجهته لاحقًا لمنعه من التوجّه إلى «آرا»، فإنّ التصرّف الصحيح سيكون بتحريرهم أوّلًا. تركت رفيقيها وعادت أدراجها إلى نهاية الممرّ. تجاهلها القراصنة الذين صادفتهم يزحفون على الأرض أو يجاهدون لصعود المنحدر، فيما كانت هي تنزلق نحو الجانب المنهار. كانت الغرفة موصدة، ولا وقت لديها للعثور على المفاتيح. وقفت عاجزة أمام الباب الذي لم تؤثّر به هزّاتها ولا الطّرقات الشديدة التي انهالت من الجانب الآخر.

- أبي، انتظر.. سأجد حلًا!

هتفت لتطمئنهم، لكنّ الضّجيج المهيمن ابتلع صوتها، تلفّتت تفتّش بعينيها عن آلة تساعدها على تحطيم الباب فتوقّفت نظراتها على أوران. أشار إليها بحركة من يده فتراجعت، كان من المجحف أن تطلب منه مساعدة الرّجال الذين كانوا آسريه منذ وقت قريب، لكنّه لم ينتظر منها رجاء بل أطلق صاعقة ثانية ليفلق دفّة الباب نصفين.. تمامًا كما فعل بباب شقّة كلاوديا.

ابتسمت وهي تطالعه في امتنان، ثمّ اندفعت وراءه باتّجاه زوارق النّجاة.

في هذه الأثناء، كان القراصنة قد وصلوا بدورهم إلى المؤخّرة وأخذوا ينزلون الزّوارق إلى الماء استعدادًا للهرب من السّفينة المنكوبة، قاد القرصان الكهل جماعته مطلقا الأوامر هنا وهناك واستمرّت الشّابة هودان متّكئة على كتفه وقد بدا أنّها لم تستعد صحّتها كاملة. وقف الجميع على السطح المتهالك بأقدام مرتجفة يهزّها الجزع والانهيار الوشيك للألواح

تحتها، ويحفّهم الضّباب الذي يسدّ الأفق. تقدّم أوران ليتصدّر المشهد بهامة شاهقة ورأس مرفوعة وقال بلهجة حاسمة:

- سنترك لكم قاربًا واحدًا.. لكنّنا سنحصل على الاثنين الآخرين!

تمعّرت وجوه القراصنة علامة رفض بيّنة، وتسلّحوا سريعًا بالسّكاكين ليأخذوا وضعيّة الهجوم، إلا أنّ المُسخِّر كان أسبق، ما لم تواجهه الرّصاصات القاتلة، فسيكون أسرع في أيّ تحدّ بالأسلحة التقليديّة. لم يستهدف أيًّا منهم، بل سدّد موجات البرق نحو الحبال لتنقطع كلّها دفعة واحدة وتسقط القوارب بصخب فوق صفحة الماء. تراجع القراصنة مشدوهين وقد أدركوا متأخّرين مصدر الصّواعق المفاجئة. كان عليهم الاستسلام لإرادة الرّجل الأقوى في الميدان وترك المجال له صاغرين.

ظهر اثنان من القراصنة تأخّرا عن المجموعة، يسحب أحدهما أكياس المؤونة فيما حمّل الثاني ذراعيه بما تمكّن من قنصه من الغنائم، توقّفا مشدوهين أمام المشهد غير المألوف، فتكلّم أوران ثانية:

- لن نستحوذ على المؤن دونكم.. لكنّنا سنحصل على نصيب منها، ونترك لكم ما يكفيكم.

لا أحد يعرف ما قد يكون كافيًا بالنظر إلى ضبابيّة الوضع وخطر الضّياع في عرض البحر أيّامًا قد تطول، لكنّ أحدًا لم يعترض على حكم الطّرف المسيطر. تقدّمت روان بخطوات ثابتة رغم السّطح الذي يستمرّ يميد تحت قدميها ويزداد انحدارًا، دسّت يدها داخل الكيس وحصلت على بعض العلب المعدنيّة التي تجهل ما تحويه، ثمّ دفعت الكيس بقدمها نحو الجانب الآخر، انحنى بحّارة مايك في لهفة واقتنصوا بعض العلب بدورهم تحت نظرات أوران الحازمة، بعد ذلك سُمح للقراصنة باستعادة الكيس. خلال الفوضى، اقترب قبطان «النّمر الأبيض» بخطوات حذرة وشدّ حقيبته من يد أحد القراصنة.

أشار أوران برأسه إلى مانويلا فابتسمت بامتنان، تحدّثت إلى والدها بلغتها:

– يمكنكم الحصول على قارب.. لكنّ طرقنا ستفترق هنا.

حدّق فيها مايك بعينين جاحظتين، بدا منهكًا أكثر من أيّ وقت مضى، يُجاهد ليستمرّ منتصبًا على قدميه والدّكتور كريس يسنده. تحرّك القبطان أولًا ليقفز إلى القارب المطاطي، وتبعه الآخرون واحدًا إثر الآخر. سيكون عليهم التّزاحم والتلاصق داخل المساحة الضيّقة للقارب الوحيد المتاح، لكنّهم لن يرفضوا وسيلة النّجاة التي أهديت إليهم.

كان مايك ومانويلا آخر المغادرين. في هذه الأثناء تدافع القراصنة وتشاحنوا بصخب وهم يقفزون بهمجيّة نحو القارب الخشبيّ الخاصّ بهم. هبط أوران وروان على الزّورق المطاطيّ الثاني الذي سيأخذهم إلى الجزيرة، في حين احتضنت مانويلا والدها وبكت بحرقة بين ذراعيه، ثمّ انسحبت من العناق وانضمّت إلى رفقتها المختارة.

طالعها أوران وروان بدهشة وهي تتخذ موقعها في قاربهما، لعلّ مانويلا لم تعلن صراحةً في أيّ وقت سابق رغبتها في الانضمام إليهما، ولعلّ تفاصيل الخطّة التي دبّرها ثلاثتهم لم تتطرّق إلى ما ستفعله الـ«أيتورا» الصّهباء حين ينجحون في الهرب من القراصنة أخيرًا، وإن كانت الخطّة الأصليّة تغفل تمامًا مصير المستثمر ورجاله الأشقياء، لكنّهما لم يفترضا حتمًا أنّها ستختار صحبتهما عن مرافقة قومها، إلا أنّ أحدهما لم يُشر بكلمة إلى غرابة الموقف وثلاثتهم يتناولون المجاديف في صمت.

وبينما شرعت سفينة القراصنة في الغوص تحت الماء في رحلتها النّهائية نحو الأعماق، أخذ ركّاب الزوارق المطاطية والقارب الخشبيّ في التجديف في اتّجاهات مختلفة، وقريبًا سيختفي كلّ منها عن الآخرين في غمرة الضّباب، ولن يعرف أحدهم مصير الآخر أبدًا. استمرّت مانويلا

تبادل والدها التّحديق بعينين دامعتين وهي تودّعه الوداع الأخير. فكّرت بأنّ تلك كانت السّفينة الثالثة التي تُصيبها لعنة «الحجر».. بعد غرق «الأسطورة» و«النمر الأبيض» -اليخت الأسرع على الإطلاق- ها هي سفينة القراصنة تلقى حتفها. في خضم رهبة الموقف العارمة لم يهتمّ أحد بكيس الحجارة الذي صادره القراصنة في وقت سابق وخلّفته روان داخل الغرفة، وبادروا إلى النّجاة بأرواحهم. إن لم يكن والدها قد يئس بعد من الاستحواذ على «حجارة الشّمس» فلعلّ تلك الإشارة تفي بإقناعه.

بادرها أوران متسائلًا:

- أنت واثقة من قرارك؟ إذا كنت تريدين الانضمام إليهم.. فما زال بوسعك اللّحاق بهم..

هزّت رأسها بقوّة مؤكّدة ثبات موقفها. ربّما لا يسعها أن تشرح اختيارها بعد، لكنّها بقدر ما واثقة ممّا تريد ولا يراودها أدنى تردّد.

حين استدار أوران بحدس المُسخَّر الغامض، لمح الوميض المعدنيّ يخترق الضّباب باتّجاههم، لم يملك وقتًا للتّفكير بل تحرّك في اندفاع غريزيّ ليحمي الـ«ماغداخا» بجسده. مرّت النّصول القاطعة التي أرسلها القراصنة في اتّجاههم في محاولة انتقام بائس أخير على مسافة إنشات دون أن تصيبه، ثمّ سمع صرخة مكتومة.

استدار مذهولًا، فرأى مانويلا تميل إلى الخلف والدّهشة مجمّدة في عينيها، وقد غُرس الخنجر في صدرها، والدّماء أخذت تنزف لتلوّث ثوبها.

(12)

اليوم الثاني عشر بعد الستين

توقّف المطر.

حظيت «آرا» بالسلام تحت ظلّة ساكنة لا تخترقها سهام الماء، مثل نسيج مخرّم لا يصدّ الوابل ولا يحمي من البلل. خرج الأطفال في مرح للقفز في البرك الطينيّة التي تكوّنت بالتّربة الرّمليّة دون أن تردعهم أمّهاتهم، ونشر الصيّادون شباكهم وانطلقوا نحو الأفق مستبشرين بصيد وفير بعد صوم طويل عن ثمار البحر.

عمّ السّرور في الطرقات وانسكب السّكان جميعهم خارج الأكواخ كأنّهم في يوم عيد، اجتمع الحكماء بالنّاس في الميدان ليشاركوهم الدّعاء والثناء، حتّى الغرباء الذين يقطنون عرائش داخل الغابة كانوا محلّ ترحاب للمشاركة في اليّوم السعيد، فقد غيّرت لمساتهم حياة الـ«آم» وأنقذتهم من خطر الفيضان.

راقب عمّار بنظرات رضا المرتزقة وهو يتحرّكون عبر السّاحة دون أن يثير حضورهم العبوس والانقباض، تلك خطوة جبّارة في اتّجاه قبولهم واندماجهم بمجتمع الجزيرة.

غمغم كوتانا آشور وهو يقف إلى جوار عمّار:

- كم تعتقد أن يدوم الصّحو؟

همس عمّار في أذنه:

- لا أحد يدري، لكنّ هذا موسم الأمطار.. ربّما تمرّ بعض الأيّام الهادئة، أو الأسابيع إذا كنّا محظوظين. لكنّ الأمطار ستعود في القريب، ويجب أن نكون مستعدّين..

ربّما من الحكمة السّماح للنّاس بفسحة المتعة لليوم، ثمّ سيهتمّ المجلس بالتّدابير اللازمة لحماية القرية من عاصفة جديدة، ماذا لو هاجمتهم الأمطار لوقت طويل ثانية وهم غير جاهزين لها؟ قد تكون التّحصينات التي أدخلها رجال مايك راسل أحدثت فرقًا لكنّها لن تكون كافية على المدى البعيد، ثمّ إنهم سيحتاجون إلى تخزين المؤن قدر المستطاع فقد أصاب الأطفال الهزال بسبب سوء التّغذية واقتصارها على ورق الشّجر والجذور لأسابيع.

أضاف عمّار وهو يردّ تحيّات الأهالي:

- ربّما نملك الوقت للاحتفال بزفاف أو اثنين قبل أن تسوء الأوضاع ثانية!

طغت على ملامح آشور دهشة صامتة وتساءل إن كان الحكيم يخرّف أو لا يزال تحت وطأة الصّدمة التي أفقدته عقله. لقد فقد الـ«آم» أرواحًا كثيرة، مات والده «كوتانا» تافي أمام عينيه، وكذلك اختُطفت الـ«ماغداخا» ابنة «كوتانا» عمّار، لكنّه يبدو في مزاج حسن للتفكير بالاحتفال، طالعه بنظرة فضول وقد بدا غارقًا في التخطيط.. لكنّه تذكّر أمرًا، لم يكن المخلّص حاضرًا ذلك الصّباح، لم يلمحه أحد في الجوار، وإن كان الجميع قد اعتاد الآن غرابة أطواره وتعاقب اختفائه وظهوره الغامضين.

اقترب عمّار من نايت الذي كان ينحني على الأرض يعلّم زمرة من الأطفال لعبة تعتمد على قذف الحصى في برك الماء السّطحيّة، أشار إليه إشارة خفيّة فترك الرّجل ما بين يديه وتبع الحكيم ليتحدّثا جانبًا.

- كيف تتقدّم في تعلّم اللّغة؟

هزّ نايت كتفيه، لقد بدأت مجموعته الدّروس منذ أيّام قليلة، يحتاج المرء إلى وقت أطول بكثير لإتقان لغة جديدة، أضاف عمّار:

- سنركّز على المهمّ، يجب أن تتعلّم كيفيّة تلاوة النّذور أوّلًا.

- النّذور؟

- نذور الزّواج. هل تذكر ما تحدّثنا بشأنه؟

بعد زيارة آدم، لم يعتقد نايت أنّه المرشّح المعنيّ بالأمر، فقد أظهر الشابّ ما يكفي من الازدراء تجاهه ليعي موقعه، قال في لا مبالاة:

- أعتقد أنّ عليك الحديث إلى آدم.

حدجه عمّار بنظرة استغراب. من بين المرشّحين المناسبين أجمع مجلس النّساء على نايت، وحين أعلن آدم عثوره على الرّجل المناسب، لم يشكّ لحظة واحدة في هويّة المرشّح. لكنّه الآن يعتقد أنّ خلطًا قد حدث، حين يلتقي بآدم سيستفسر عن ذلك.

حين رست مراكب الصيّادين في الميناء، تجمّع الأهالي لاستقبالها مثل الأيّام الخوالي. أفرغوا الحمولة العابقة برائحة اليود النفاذة في أجواء من الحماس والحبور، وزفّوا صناديق السّمك إلى مركز القرية بالأناشيد والإيقاع مستبشرين بأيّام شبع بعد مجاعة.

وسط الحشود، اقترب أحد البحّارة وانحنى أمام عمّار ملقيًا التحيّة، ثمّ أعلن:

- هناك مركب يقترب.

خفق فؤاد الحكيم وهمس لنفسه في شبه يقين:

- روان.

تلفّت حوله مفتّشًا عن آدم رغم إدراكه لغيابه عن احتفالات اليوم، ثمّ عاد إلى البحّار مستفسرًا:

- هل هي سفينة كبيرة، مثل السّفن الغارقة على حدود الظلة؟

هزّ الرّجل رأسه نافيًا.

- بل زورق مطاطي رخو مثل تلك التي استخدمها الدّخلاء للوصول إلى الجزيرة.

تسارعت نبضاته وهو يعاين الاحتمالات في ذهنه، يجب أن يتحقّق أحدهم من أمر المركب، فكّر أنّ آدم سيكون الشخص المناسب للانطلاق نحو الأفق على متن الحوت، لكن لا أثر لآدم على الإطلاق. لا يريد أن يُثير أمر المركب قلق الآخرين، فأزمتهم مع الدّخلاء حديثة الأثر، وقد يكون الرّكاب مجرّد غرقى يرومون النّجاة فحسب، فقد استمرّت العاصفة لوقت طويل ولا ريب أنّها قد فتكت ببعض السّفن العابرة، لذلك لا ينبغي له التحمّس أكثر ممّا يجب. لا يريد أن يداعب أملًا واهيًا سرعان ما يتبخّر.

حين أجال عينيه في محيطه، التقت نظراته بعيني مروان، فأشار إليه بحركة خفيّة. حين أصبح إزاءه، همس في أذنه:

- اذهب برفقة البحّار، وليرافقك يونا وعدد من المُسخِّرين..

- ما الأمر؟

- مركب يقترب.

أومأ مروان متفهّمًا، في السّابق لم يتعرّض الـ«آم» للمراكب التي تحوم حول حماهم حتّى تصل إلى اليابسة ويصبح الغرباء فوق أرضهم، لكنّهم لُدغوا مرّة ولن يتركوا أمر الغرباء للمصادفة بعد الآن.

خلال ثوانٍ كان المُسخِّرون الشّبان ينطلقون في مهمّتهم الاستطلاعيّة على متن الحيتان الفضيّة.

***

توقّف المطر.

عرف آدم قبل أيّ شخص آخر، فقد كان سمعه المرهف متيقظًا، يُصغي إلى القطرات الرّطبة وهي تضرب بإيقاع عميق فوق سقف الخوص المعزّز بالمعدن. لم يعد ينام كثيرًا أو ينام ملء جفنيه، يجافيه النّعاس لنصيب من اللّيل ويتقلّب في مرقده ثمّ يحدّق في الفراغ ويشرد ويناجي طيف روان. لقد أمطرت وقتًا طويلًا حتّى صار الوقع الرّتيب جزءًا من سيمفونيّة الطبيعة الثابتة، لذلك حين توقّف النّقر فجأة اعتراه خواء وذهول، تلاشى طيف روان الذي يسبح فوق رأسه وهبّ من مضجعه في تصميم.

لقد حان الوقت.

منذ أيّام، يترقّب اللّحظة التي يتوقّف فيها هطول المطر ويفكّر في ما سيفعله آنذاك. يعرف خطّته جيّدًا ولا وقت أمامه ليضيّعه، فقد أضناه الرّقاد والكساد. دخل الكهف وسار حتّى موقع ألواح الـ«نافيا»، واستخرج جهاز الارسال والاستقبال الذي انتشله من السّفينة الغارقة وجفّفه بحرص.. لقد آن أوان استخدامه. وضعه داخل جراب جلديّ مبطّن بالشّمع المقاوم للبلل من النّوع الذي تستخدمه روان لحفظ حبوبها، عثر عليه منذ أيّام وخبّأه لهذا الغرض، ثمّ انطلق.

غاصت قدماه الحافيتان في البرك الطينية وهو يركض عبر الطّرق المقفرة في تلك الآونة من اللّيل لا يلوي على شيء، وحين وصل إلى الشّاطئ، أطلق صفيره الحادّ ثمّ خاض في الماء قبل أن يلوح طيف الحوت الذي ورثه عن معلّمه نوح في الأفق، لقد اكتفى من الانتظار وهو بحاجة إلى عمل شيء في الحال، وحين ظهرت زعنفة الأوركا الفضيّة وهي تشقّ سطح الماء اللامع تحت وميض الـ«مادرا» قفز في اتّجاهها في لهفة.

- هيّا أيّتها الجميلة، أمامنا مهمّة!

ربّت خطمها الأملس ثمّ لكزها بقدميه ليغوص كلاهما في الماء.

لا يعرف في أيّ الاتّجاهات عليه أن يبدأ ولا أيّ المسافات عليه أن يقطع، لكنّه سيجرّب أيّ شيء وكلّ شيء. ما دامت مزاريب السّماء قد حبست ماءها فلن يوقفه شيء بعد الآن.

كانت لحظات الاختبار الأولى رهيبة، وهو يكبح اندفاع لولا على حدود الظلة، يخرج الجهاز من الكيس ويشرع في محاولة التقاط الإشارات الممكنة والمحتملة. تمضي الدّقائق بطيئة مرهقة للأعصاب وهو يُنصت ويكتم أنفاسه ويزدري الصّمت الذي يكاد يصمّ أذنيه. سيغيّر موقعه مرّة بعد مرّة وستتحوّل الدّقائق إلى ساعات ممتدّة، سيداخله الملل ويثقله الإنهاك وسيفكّر بجدوى ما يفعله بعد مرور أكثر من عشرة أيّام على رحيل اليخت الذي أخذ منه روان.

طلع النّهار وتلاشت الظلمة من حوله، تسلّلت خيوط الشّمس خلل السّحب والضّباب، فاستقبلها بامتنان عميق. لم يدرك كم يشتاق إلى الشّمس حتّى غمره دفؤها، فاستبشر خيرًا.. ربّما تحمل إليه همسات روان، أو تنبئه خبرها. لكنّ ساعات من السّعي الحثيث عبر مساحات الماء الشّاسعة عبثت بمعنويّاته وداست الأمل داخله بقسوة.

ثمّ وفي لحظة فكّر فيها في العودة أدراجه، تناهت إليه خشخشة بعيدة. قفز قلبه إلى حلقه واحتشدت الدّموع في مقلتيه وتهيّجت أعصابه المكدودة، ما الذي يرجوه وهو يصرخ في الجهاز «مرحبًا؟ هل يوجد أحد؟» هل توقّع أن يأتيه صوتها؟ هل راوده الحلم المستحيل، أن تكون قد تحرَّرت، استحوذت على قيادة المركب وسحبتها خيوط الـ«مادرا» الخفيّة نحو مركز ثقل الجزيرة، مثل الأجرام التي تدور حول الشّمس، فتبقيها الجاذبيّة في مداراتها؟

لكنّه أصغى إلى الصّوت البعيد على الجانب الآخر في لهفة، صوت رجل كهل متقطع:

- أنا أسمعك! هل هذه سفينة؟

توقّف آدم في حيرة وقد أدرك أنّه قد التقط نداء استغاثة ما، غرباء منكوبون على حدود الظلة، تكلّم بالإنجليزيّة مستوضحًا:

- هنا اليابسة.. هل تعطلت سفينتكم؟

سمع صيحات الفرح على الجانب الآخر، مسافرون هاجمتهم العاصفة وتسبّبت في فقدان مركبهم ربّما. لقد كان المُخلِّص، وهو من موقعه قادر على اتّخاذ القرارات التي تخصّ أمن الجزيرة وصفته تسمح له بتجاوز المجلس والتصرّف أحاديًّا، لكنّه شعر بخطأ في ذلك. لم تُشف «آرا» بعد من أثر الدّخلاء الذين اقتحموها منذ شهر ونصف، ولا يعتقد أنّ الـ«آم» مستعدّون للتعامل مع مزيد من الغرباء في تلك الآونة، غير أن الدّوافع الإنسانيّة تحرّك فيه الرّغبة في المساعدة!

- هل هذه منارة؟ أم ميناء؟ أيّ بلد هذا؟

لم يكن عليه أن يفصح عن موقعه من الخريطة، فلا أحد خارج «آرا» يعرف عنها شيئًا. تردّد وهو يقول:

- هذه جزيرة منعزلة في المحيط.. يمكنني محاولة تتبّع الإشارة..

- آدم؟

تجمّد حين سمع اسمه على لسان طرف ثالث تدخّل في المحادثة، لم يتعرّف الصّوت على الفور بسبب رداءة الاتّصال وارتداد الموجات، لكنّه أدرك بحدسه ومن طريقة تلفّظه لاسمه بلكنة أجنبيّة مألوفة من يكون مخاطبه.

- مايك راسل؟!

- إنّه أنت!

انطلقت ضحكات مجنونة غير مصدّقة من الطرّف الآخر، لكنّ ملامح آدم لم تزدد إلا تجهّمًا، هتف بنبرة قاسية:

- أين روان؟
- اسمع يا بنيّ، سيكون عليك أن تُرشدنا إلى اليابسة.. إن كنت تريد أن ترى صديقتك الصغيرة مرّة أخرى.

عضّ آدم على شفتيه في غيظ ثمّ زمجر بغلظة:

- سوف أجدك يا مايك.. وسوف أجعلك تدفع الثمن غاليًا!
- سيكون ذلك من دواعي سروري! فلتسرع بالمجيء.. نحن ننتظرك.

لم يتمهّل آدم للحظة واحدة، بل همز لولا بركبتيه لينطلق من جديد، يتتبّع الإشارة.

***

حين فتحت مانويلا عينيها، كان أوّل ما طالعها نظرة أوران الجزعة. تأوّهت وهي تمسك بموقع الجرح في صدرها، ثمّ تذكّرت ما حدث. استحضرت تفاصيل المشهد كلّه، النّصال الحادّة التي حلّقت في الهواء باتّجاهها وردّة فعل أوران الغريزيّة بحماية روان أوّلًا. لو أنّها ملكت نصف سرعة بديهته وخفّة حركته لكانت قد تفادت النّصل الموجّه إليها، لكنّها لم تستطع إلا التّحديق في الخنجر وهو يطير حتّى حطّ في صدرها.

- أنتِ بخير الآن.

سحبت مانويلا نظراتها عنه في ألم، ورفعت بصرها باتّجاه روان التي يستريح رأسها فوق ركبتها وتبقيها ذراعاها ثابتة. ربّما تكون قد نجت بأعجوبة من إصابة مميتة. في ظروف أخرى، لم تكن لتعيش يومًا إضافيًا، وهي تدين الآن للمعالجة بحياتها. كم حياة ستستردّ المعالجات من أجلها قبل أن يحين الأجل؟ لكنّها بفضل معجزة الشّفاء تتنفّس وتتحرّك، أمّا الألم في صدرها فمصدره شيء آخر، غير الجرح الذي أخذ يندمل بسرعة عجيبة.

ظلّت تتجاهل أوران وبداخلها يعتمل إحساس ممضّ بالخذلان. هل يمكنها أن تلومه؟ إنّ غريزة المُسخِّر بداخله تدفعه إلى حماية الـ«ماغداخا» المبجّلة، إنّها شخص فريد ومهمّ بالنّسبة لشعبها كلّه بغضّ النظر عن العلاقات الشخصيّة والميول والمشاعر، وهو الخيار العقلانيّ أيضًا باعتبار المنطق الصّرف. إذا أصيب أيّ شخص آخر فستكون المعالجة قادرة على علاجه.. أمّا إذا أصيبت المعالجة ذاتها فستنزف حتّى الموت دون أن يقدر أحدهم على مدّ يد العون. حتّى الدّكتور كريس لم يكن ليقدر على إجراء جراحة لها في تلك الظروف.

لقد اتّخذ أوران القرار الصّائب لا ريب، وهي لا تملك أن توجه إليه أيّ نوع من العتاب، لكنّها تمنّت في داخلها أن تكون مهمة في عينيه حتى يهتمّ لسلامتها في تلك الأوقات الحرجة. إنّها أمنية أنانيّة للغاية، وستندم عليها لا محالة إذا فقد الـ«آم» معالجة مثل روان بسببها.. لكنّها تبقى رغبة دفينة تسكن سويداء قلبها، ومن أجلها تزمّ شفتيها وتعبس عيناها وتولّي أوران ظهرها.

استمرّ تقدّمهم عبر الضّباب المنخفض حتّى قالت روان فجأة:

- أشعر أنّنا نقترب!

حدّق ثلاثتهم في الظلام الدّامس الذي يلفّهم، توقّف المطر لكنّ الرؤية تكاد تكون منعدمة أبعد من أمتار قليلة، خلال المساحات الممتدّة التي تحيط بهم لم يظهر أيّ مصدر للضّوء يمكن للعين المجرّدة تمييزه، لكنّ إحساس المعالجة مأتاه داخليّ ولا علاقة له بما ترصده الحواس.

همس أوران في اهتمام:

- أنت واثقة؟

هزّت رأسها في حركة خفيفة يعوزها الاقتناع، إنّه مجرّد إحساس لا يمكن تفسيره، لكنّ حياتهم قد تعتمد على إحساسها ذاك. استلم أوران المجاديف وأخذ يدفع بالقارب ليتحرّك في اتّجاه ما. قالت روان أنّ عليهم الاستمرار في الحركة، من وقت إلى آخر كان يسخّر الـ«مادرا» ليضيء الفضاء من حولهم، علّهم يبصرون علامة تدلّهم إلى موقع اليابسة، لكنّهم يدركون أنّهم بعد على مسافة معتبرة من أيّ أرض، ناهيك بـ«آرا» ذاتها.

أغمضت مانويلا عينيها وطلبت النّوم، لكنّ الألم في صدرها لم يخفت. استرقت إلى أوران نظرات قصيرة مختلسة، تأمّلت عبوس حاجبيه وزمّة شفتيه، وتتالي تقلّص عضلات ساعديه وانبساطها وهو يستمرّ في الحركة بلا تكاسل، ثمّ شعرت براحة روان تمسّد شعرها بلطف، وكانت كلّ لمسة تنثر وميضًا نورانيًا ساحرًا يبثّها دفئًا وسكينة. سرعان ما استسلمت للنّعاس وغشيتها طمأنينة آسرة.

حين فتحت عينيها مرّة ثانية، كانت قد مرّت ساعات عدّة. انتبهت إلى الضّوء المنتشر من حولها، فرنّ جرس الإنذار في رأسها على الفور: أوران. لم يكن القارب مزوّدًا بعريشة تظلّله أو أيّ وسيلة حماية من أشعّة الشّمس المباشرة. اعتدلت في جلستها فلمحت أوران مكوّمًا على نفسه في الطّرف الآخر من القارب، فشهقت جزعًا. زحفت ناحيته لتعاين وضعه رغم الألم الذي أشعلته الحركة في صدرها في موضع جرح لم يكد يلتئم، لم تظهر آثار حروق بيّنة من موقعها لكنّها واثقة من وجودها في مكان ما.

- إنّه متعب وحسب.. يحتاج إلى قسط من الرّاحة.

حتّى المُسخَّر الصّلب يصيبه الإعياء بعد ساعات طويلة من التجديف المحموم.

استدارت مانويلا ناحية روان وهمهمت في قلق:

- لكن.. الشّمس..

- نحن بأمان، الضّباب من حولنا كثيف، لن تضرّه الشّمس.

كانت المعالجة على حقّ، رغم الإضاءة الفاترة من حولهم، لا تكاد تُصيبهم أيّ أشعّة مباشرة. وهذا يعني أنّهم ربما قد صاروا ضمن نطاق الظلة نفسها! زفرت مانويلا في ارتياح، وبادلت روان ابتسامتها الصّافية.

- سأغفو قليلًا.. أيقظيني إذا رأيتِ اليابسة.

هزّت مانويلا رأسها ببطء فيما أسبلت روان جفنيها وغرقت سريعًا في سبات وديع، تبدو مرهقة هي الأخرى. لقد عمل كلاهما طيلة اللّيل بلا كلل، أبقتهما المعالجة سالمين في حين دفعهم المُسخِّر بقوّة ساعده وتدفّق طاقته على مسار العودة، فيما اكتفت هي بالنّوم والرّاحة. انتابها شيء من الخجل منهما، لم تُسهم بالشيء الكثير حين يتعلّق الأمر بخطّة الهرب أو رحلة العبور، لم تكن إلا عبئًا إضافيًا يثقلهما ويعطّل حركتهما. كانا أفضل من دونها كفريق متكامل وفعّال.

تدرك أنّها لا تنتمي إلى عالمهما، ليس أنّها قد حسبت نفسها واحدة من الـ«آم» في أيّ وقت مضى، لكنّها لا تختلف كثيرًا عن أسطورة عروس البحر السّاذجة التي ضحّت بزعانفها لتمشي بساقين إلى جوار أمير لا يُدرك عاطفتها نحوه. إلا أنّها ليست بكماء كما كانت عروس البحر المسكينة تلك، وهي تملك أن تسأل مباشرة إن كانت تضحيتها بعالمها -زعانفها- محلّ تقدير وترحاب، أم أنّها مجرّد ساذجة أخرى تحسب أنّ العالم يعبأ بما يدور في رأسها الصّغير، وأنّ كلّ شيء سيسير على هواها لمجرّد إرادتها!

عبست وهي تحدّق فيهما نائمين، ثمّ تحسّست موضع إصابة الخنجر في صدرها وأطلقت زفرة طويلة. تبدو سطحيّة إذ تستحوذ عاطفتها على تفكيرها، في حين أنّها كادت تلقى الموت مرارًا خلال الأسبوعين الماضيين. إنّها لحماقة أن تملأ تفاهات القلب ذهنها في وقت يواجهون فيه مخاطر جمّة

في عرض المحيط، عليها أن تضع قدميها على اليابسة قبل أن تستسلم لترف الرّومنسيّات السّخيفة.

في تلك اللّحظة، تراءى لها في الأفق البعيد خطّ هلاميّ مائع وداكن، حدّقت لثوانٍ وقد تسارعت نبضاتها، هل وصلوا؟ استوت على ركبتيها وهي تلهث انفعالًا، إنّها تريد أن تصدّق أنّهم قد نجوا حقًا، لكنّها لا تودّ أن توقظهما من أجل سراب عابر. ستنتظر بعض الوقت حتّى تبلغ اليقين.

أمضت بضع دقائق تعاين الشكل الثابت لما يبدو صخورًا وغابات بلا تفاصيل، مثل ظلّ ساكن يسقط من السّماء على صفحة المحيط، ثمّ سمعت نداءً ما. جاء الصّوت حادًا وقاطعًا لكنّه لا يشبه نداء البشر. على مسافة مائتي متر انشقّ البحر عن خطم حوت قاتل ضخم.. ثمّ آخر. ضربت الكائنات الهائلة بزعانفها سطح الماء وتحرّكت ذيولها يمنة ويُسرة قبل أن تندفع إلى الأمام في هجمة متزامنة، باتّجاه القارب مباشرة.

لم يعد هناك مجال للتردّد، مدّت مانويلا كفّها بسرعة لتشدّ كمّ أوران وهي تهتف:

- استيقظا، أنا خائفة!

***

ملأ آدم رئتيه هواءً وتأهّب للغطس من جديد، لم يعد يفصله كثير عن إيجاد المركب، يخبره حدسه بهذا، وتؤكّد له الإشارة التي تزداد قوّة على جهاز الاتّصال. خلال السّاعات الماضية، دأب يغطس وينطلق على متن لولا في اتّجاهات مختلفة، يطارد إشارة جهاز الإرسال والاستقبال التي تتضح تارة وتخفت تارة أخرى، فيستمرّ في تعديل المسار ويُجري حسابات معقّدة في رأسه لا تُجدي نفعًا في النهاية يستسلم للحدس ويندفع للأمام.

حين انشقّ عنه سطح الماء، حدّق في الأفق متفرّسًا قبل أن يخرج الجهاز من جرابه، فخفق فؤاده بجنون.. في البعيد، لاحت نقطة داكنة عائمة بدت

مثل مركب ما يتراقص في الضّباب. دون أن يحاول الاتّصال، سارع يهمس إلى الأوركا الفضيّة يحفّزها:

- هيّا يا حلوتي.. كدنا نصل.

ثمّ غطس غطسته الأخيرة قبل أن ينشقّ عنه البحر.

اندفع الحوت إلى السّطح بمحاذاة المركب في انفجار هائل من الزبد والرذاذ، انساب جسده الضخم فيما انبثق آدم بتجلٍّ مهيب فوق ظهره، كظلّ داكن على خلفية السّماء الرّمادية. للحظة خاطفة، لم يفعل البحّارة سوى التّحديق، ثم انطلقت شهقات متلاحقة، أعقبتها صيحات ارتياح وذهول ونشوة بالنّجاة.

إلا أنّ آدم استمرّ يطالع الوجوه بلهفة وجهًا بعد وجه، ثمّ تحوّلت اللّهفة إلى حيرة ومنها إلى يأس خانق، استقرّ نظره أخيرًا على مايك راسل فانفجر الغضب جارفًا متوهّجًا كاللّهب، صرخ في اهتياج:

- أين روان؟

حاول مايك المماطلة:

- آدم، ما رأيك أن تقودنا إلى اليابسة وسوف أحدّثك بكلّ شيء.

- سألتُ سؤالًا واحدًا وأريد الجواب الآن!

- المعالجة بأمان.. أعدك بهذا.

قلتُ: أين هي؟ إن لم تكن تريد الموت في التّو واللّحظة ستتكلّم!

هاج الماء حول المركب حين تحرّك الحوت تحته، فتنهّد مايك مستسلمًا، يُدرك أنّه قادر على إغراقهم في غمضة عين بضربة واحدة من ذيل الحوت، وهو يودّ أن يتجنّب غضبه قدر الإمكان، فأنشأ يقول:

- إنّها قصّة طويلة...

- اختصر إذًا.

- طيّب، أنت تعلم، لقد رحلنا معًا على متن «النمر الأبيض»، اليخت السّريع.. لكنّ العاصفة لم تتوقف، فغرق اليخت وتُهنا في المحيط أيامًا.. ثمّ ظهر مركب آخر ظننا أنه سينقذنا لكن تبيّن أنّ على متنه قراصنة، حبسونا واستحوذوا على الحجارة...
- قلتُ اختصر!
- حسنًا، سأختصر.. بعد ذلك غرق مركب القراصنة هو الآخر، ليس بفعل العاصفة بل بفعل المُسخّر هذه المرّة، فتحرّرنا وأخذنا قوارب النّجاة، لكنّ مانويلا والمسخّر والمعالجة انفصلوا عنّا.. لقد حاولنا تعقّبهم قدر الإمكان، غير أنّ قاربهم كان أخفّ حملًا وساعد المُسخِّر أقوى تجديفًا، لذلك ابتعدوا عنّا حتّى فقدنا أثرهم.. لكنّهم قريبون.. أنا واثق من هذا، إذا أخذتنا الآن إلى الجزيرة فسيكونون في انتظارنا هناك، أنا واثق!

أنهى مايك سرد روايته وهو يلهث، فيما حدّق فيه آدم طيلة الوقت في صمت ذاهل. كان من المطمئن أن يكون مُسخِّر برفقتها -حتى لو كان أوران- فهي وإن كانت واسعة الحيلة وحادّة الذّكاء، فإنّها ستفيد من قوّة المُسخِّر الجسديّة لا محالة. تسارعت نبضاته من جديد وهو يفكّر بأنّها ربّما تكون قد وصلت إلى الجزيرة بالفعل، فيما يضيّع هو الوقت في تتبّع إشارة مايك راسل، لو أنّه تحلّى ببعض النّباهة لطلب الحديث إلى روان مباشرة بعد التقاطه الإشارة.. لكنّ اللّهفة جعلته يغفل عن ذلك ويندفع وراء الأمل!

حرّكت لولا خطمها في الماء كأنّما سرى إليها توتّره، فربت رأسها مهدّئًا وعادت نظراته إلى القارب التّائه وسط الضّباب، جاءه صوت مايك من جديد في رجاء:

- لقد أخبرتك بكلّ شيء.. أنت لن تتركنا هنا، أليس كذلك؟

فكّر آدم أنّ هذا ما يستحقّه بالفعل، لكنّه بعد إغراقه السّفن الثلاث عاهد نفسه أن يعالج الأمور بصبر ورويّة في المستقبل، وأنّه سيحقن الدّماء طالما كان قادرًا على الحِلْم، فكّر أنّ الأساطير التي ستخلّد ذكره كمُخلِّص للجزيرة ستذكره كمتوحّش دمويّ لا يختلف في شيء عن سلفه سليمان بن إبراهيم، الذي ذبح الغرباء على الشواطئ ورفع رؤوسهم على الحراب! ربّما يكون عليه الشّروع في بناء صيت شخصيّ طيّب لقائد حكيم القرارات رصين التّفكير.

زفر بقوّة، ثمّ أشار إلى مايك:

- سآخذك إلى الجزيرة، لكنّك ستُحاسب على أعمالك كلّها.. وصدّقني، لن يرحمك مجلس الحكماء.. وستتمنّى لو كنت قد متّ غرقًا في عرض البحر!

ثمّ التقط طرف الحبل وربطه إلى ذيل الحوت، قبل أن ينطلق في طريق العودة!

***

برزت اليابسة من بعيد، فغطس آدم للمرّة الأخيرة وحبس أنفاسه مطوّلًا، حين يُخرج رأسه هذه المرّة سوف يعرف إن كان مايك قد كذب عليه. لمّا فتح عينيه ثانية، ميَّز على الفور شكل القارب المطاطيّ المستقرّ على الشاطئ إلى جوار زوارق الصّيادين الخشبيّة، فخفق فؤاده بشدّة. سحب القارب المتّصل بذيل الأوركا وهو يضاعف سرعته فارتجّ الرّكاب وتشبّثوا حتّى لا تتطاير الأجساد في الهواء. لم تكن تهمّه إصابتهم بدوّار البحر أو استمتاعهم برحلة مريحة أو حتّى نجاتهم، سيأخذهم إلى اليابسة وهناك سيُسلّمهم إلى قانون الجزيرة العرفيّ، حيث يُترك الأشرار من الغرباء للموت في الخلاء، ويحاسب المُسيء دون ذرّة رحمة برحلة إلى أعماق الكهف أو النفي إلى أبعاد المحيط.

لكنّه لا يفكّر في أيّ من ذلك الآن وهو يشدّ قبضته على زعنفة الحوت ويسابق الرّيح ليصل إلى مبتغاه، وما إن داست قدماه الأرض حتّى فكّ الحبل وأطلق سراح الحوت، ثمّ خلَّف المركب وراءه وهرول باتّجاه الشاطئ. كان المكان مقفرًا حال وصوله باستثناء عدد قليل من البحّارة الذين تخلّفوا لإصلاح الثقوب في مراكبهم التي عبثت بها العاصفة لأسابيع، توقّف آدم لثوانٍ ليلقي سؤالًا واحدًا على عجل:

- هل رجعت الـ«ماغداخا»؟

هزّ الرّجل رأسه موافقًا، فطارت قدما آدم تُسابقان الرّيح. لم يكن قد تعلّم طريقة المُسخّرين في طيّ المسافات حتّى اللّحظة، لكنّ الهبة تجسّدت فجأة مثل سابقاتها لينطلق بالسّرعة القصوى نحو دار العبادة، لم يسأل الرّجل أين يمكن أن يجدها، ولم يفكّر كثيرًا أين يجدر به البحث، ولعلّه لم ينتبه أيضًا إلى الكيفيّة التي طوَّعت بها قدماه طاقة الـ«مادرا» لتحمله في قفزات واسعة كأنّها انزلاق سلس على أرضية شفيفة، لو كان في كامل تركيزه لتوقّف ليحلّل ويمحّص ويفرح ويهلّل لأنّ أسرار التّسخير تستمرّ في الكشف عن نفسها أمامه، لكنّ ذهنه كان في مكان آخر.

حين وصل إلى مدخل القاعة الفسيحة، توقّف ليلتقط أنفاسه المضطربة، ثمّ خطا بتؤدة وهو يتصّفح الوجوه في لهفة لا يكاد يخفيها. لمح مانويلا أوّلًا بشعرها الأصهب المتموّج، ثمّ أوران بجسده الفارع الذي أخفى ما وراءه، ثمّ استدار كلاهما لتنفتح الدّائرة فأبصر روان أخيرًا. شعر بوهن في ركبتيه على حين غرّة وتجمّد مكانه كأنّما غاصت قدماه في رمال متحرّكة عاجزًا أن يخطو خطوة إضافيّة. تدفّقت في رأسه كلّ المخاوف التي كبتها وتجاهلها بأنّها ستهيم على وجهها في المحيط إلى الأبد، وأنّ البحر قد يكون مثواها الأخير، أو أنّ مايك راسل سيخفيها في موقع سرّي لن يصل إليه أبدًا.. انفجر صمام الأمان الذي أبقى أسوأ كوابيسه محبوسًا في قمقم منيع يحفظ

عقله من الشّتات، وهطلت العَبَرات من عينيه بلا استئذان حتّى غامت رؤيته.

شعر بها تقترب حتّى صارت قبالته، وسمع صوتها دافئًا كما سمعه كثيرًا في أوقات بين اليقظة والحلم، قالت هامسة:

- لقد رجعتُ.. هل انتظرتَ طويلًا؟

هزّ رأسه نافيًا في مكابرة مفضوحة، ثمّ ضمّها إليه بحنوّ ولثم قمّة رأسها. لا يُحصي عدد الحاضرين من حولهم، فالقاعة غاصّة بالخلق بالإضافة إلى الـ«كوتانا» الموقّرين، لكنّه لا يكاد يشعر بحضورهم أو يهتمّ، لو تفكّر قليلًا لأدرك أن بكاء المخلّص علانية يمسّ من هيبته ومنزلته، لكنّ بكاءه وهب الآخرين عذرًا لإطلاق العنان لعواطفهم لتهبّ على المجلس وصلة نشيج جماعيّ.

لعلّ يوم انقطاع المطر مناسبة مواتية للاحتفال، وعودة الـ«ماغداخا» المخطوفة تجبر القلوب الكسيرة، غير أنّ الدّمع وسيلة تعبير عابرة للمشاعر، يشترك فيها الحزن والفرح.

جاء عمّار ليحرّر روان من عناقه ويسحبه من ذراعه، مع أنّ علامات البكاء كانت جليّة في مقلتيه هو الآخر. جعله يجلس في صدر القاعة إلى جوار الحكماء الآخرين، فيما حاذاهما روان وأوران ليتحدّثا عن المغامرة العجيبة التي عاشاها، تداول الاثنان على أخذ الكلمة ليقصّ كلّ منهما جزءًا من الأحداث، حتّى انتهيا إلى وصول فرقة المُسخِّرين على ظهور الحيتان. كلّما جاء دور أوران، تلتفت روان إلى زوجها وتبتسم كأنّما تطمئنه إلى حضورها إلى جواره، مثل طفل يخشى البقاء وحيدًا في الظلمة.

بعد مضيّ ساعة تقريبًا، سُمعت جلبة في الخارج، وجاء البحّارة المتخلّفون على الشاطئ وهم يسوقون دستة من الرّجال الغرباء. انفرجت

الجموع والأفواه تطلق شهقات دهشة وزمجرات غضب حين أخذوا يتعرّفون على مايك راسل وطاقمه العائدين.

لوى آدم شفتيه وقال على سبيل الملاحظة العابرة:

- كنتُ في جولة على حدود الظلّة وعثرت عليهم. كانوا تائهين في المحيط، ففكّرت أنّ إخضاعهم لمحاكمة عادلة فكرة سديدة!

عبس عمّار وهبّت مانويلا واقفة لاستقبال والدها غير مصدّقة، فيما ارتفعت هتافات ساخطة من الجماهير وأخذت حرارة الغرفة ترتفع وتنذر بصدام وشيك. تبادل الـ«كوتانا» نظرات متشاورة وأخذت المقترحات تتناثر من هنا وهناك. لقد جاء الدّخلاء من تلقاء أنفسهم مستسلمين، لكنّ أفعالهم السّابقة لن تمرّ بلا حساب، ربّما يكونون قد تسامحوا مع النّفر الماكث في الغابة لأنّ مصاب العاصفة عطّل الحياة على الجزيرة وجعل البقاء على قيد الحياة الهدف الأوّل للجميع، ولعلّهم يتجاوزون عن الرّجال الممتثلين للأوامر، لكنّهم لن ينسوا جرائم مايك راسل نفسه.

تجرّأ الدّكتور كريس على رفع صوته طالبًا الكلمة:

- معذرة.. لا أقصد المقاطعة، ربّما تتحدّثون بشأنٍ مهم.. وربّما تودّون النظر في أمر السّيد مايك راسل في وقت لاحق.. لكنّني أودّ ملاحظة أنّ المدنيّين الحاضرين هنا لم يحصلوا على العقار الذي يمكّنهم من تحمّل مناخ الجزيرة..

ثمّ أشار إلى الرّجال الواقفين وراءه:

- هنا القبطان، وهؤلاء بحّارة وميكانيكيون.. وأنا طبيب، أعني، نوع من المعالجين.. مهما كان الثأر بينكم وبين مايك، أرجو أن نبقى خارجه..

لم يكن الرّجال في حال طيّبة إجمالًا، عانى بعضهم دوار البحر بسبب الرّحلة البحريّة المضطربة مجرورين وراء الحوت، لكنّ الضّرر الحقيقيّ كان في أثر الـ«مادرا» التي يتنفّسون هواءً مشبعًا بغبارها منذ بعض الوقت. لعلّ

آدم قد عبر المسافة الفاصلة بين المرسى ودار العبادة في لمح البصر بفضل قفزات المُسخِّر الخارقة، لكنّ الآخرين أمضوا ساعة أو نحوها يجدّون عبر الطرقات التّرابيّة وخطاهم تزداد ثقلًا وأنفاسهم عسرًا. خلال وقت قصير، ستظهر على بعضهم بثور ودمامل، ثمّ ستبدأ حالهم في التّدهور تدريجيًّا حتّى الموت.. إن لم يحصلوا على المساعدة العاجلة.

ترجم عمّار على الفور الكلمات لـ«كوتانا» فهزّ الحكماء رؤوسهم علامة التفهّم. وقف عمّار ونادى باسم نايت، فانشقّت الجموع عن المرتزقة الذين استقرّوا داخل الغابة وخرجوا ذلك اليوم لمشاركة السّكان المحلّيين احتفالهم.

- يمكن لهؤلاء السّادة الانضمام إلى فرقتك.

أومأ نايت فيما حملق فيه مايك ذاهلًا وهو لا يستوعب بعدُ تطوّر الأحداث. لقد خلّف السّفن راسية على حدود الظلّة ومنح الرّجال الإذن بالعودة أدراجهم، لم يتوقّع أن يكونوا في انتظاره بعد مضيّ اثني عشر يومًا من رحيله، لعلّهم لم يُجازفوا بالإبحار خلال العاصفة، أم أنّ سببًا آخر دفعهم إلى البقاء وعقد صلح مع الـ«آم»! مهما كانت دوافعهم فهو يشعر بالطمأنينة لوجود السّفن التي ستأخذه إلى الدّيار بعد فقدان اليخت.

قبل أن يستسلم مايك للأحلام، ارتفع صوت آدم ليعلن بلهجة ساخرة بالإنجليزيّة:

- عازيّ الحارّة يا مايك، ربّما لم يصلك الخبر بعد.. لكنّ أسطولك غرق بالكامل، وهذا ما بقي منه!

جحظت عينا مايك لوقع المفاجأة وانهارت آماله دفعة واحدة، حدّق في نايت والآخرين وأدرك أنّه أمام حفنة من النّاجين فيما ذهب طاقم الإبحار كاملًا مع العدّة والعتاد، باستثناء أولئك الذين رافقوه على متن «النّمر الأبيض»، لكنّ الوقت لم يكن ملائمًا لإحصاء الخسائر، فهو لا يتوقّع

أيّ كرم من أولئك الذين أسرهم وأحرق ديارهم وأطلق على أطفالهم الرّصاص. ازدرد لعابه في توتّر، وهو يستوعب أنّ انتقام الـ«آم» سيطاله لا محالة، إن لم يكن إغراق السّفن قد شفى غليلهم. قال متظاهرًا بالثّبات:

- لقد تسبّبت خلافاتنا السّابقة في كثير من الدّمار.. وأنا مستعدّ لعقد اتّفاق عادل.

أطلق آدم ضحكة مغتصبة، فيما ترجمت مانويلا الكلمات، فعمّ الهرج في القاعة من جديد. وقف آشور هائجًا وصرخ في غضب جارف:

- سوف أضع طلقة من سلاحك القاتل في رأسك ثمّ يمكّننا أن نعقد اتّفاقًا، ما رأيك في ذلك؟

لم ينس آشور ولا أيّ ممّن شهد الواقعة مقتل والده -»كوتانا» تافي- الغادر، وسيظهر آخرون لا شكّ ممّن فقدوا ذويهم ليطالبوا بالثّأر بدورهم من الرّجل المسؤول عن المذبحة وما سبقها وما تلاها من فساد في الأرض.

وقف عمّار ليهدّئ الوضع:

- سوف تقدّم الـ«ماغداخا» حبوب الدّواء للبحّارة الذين يحتاجون إليها.. وسيُحتجز مايك راسل، حتّى ينظر الـ«كوتانا» في أمره. أمّا الآن فهذا موسم الاحتفال بعودة «ماغداخا» روان و«بندار» أوران، ولن يُفسد ذلك شيء!

تحرّك اثنان من المُسخّرين لاحتجاز مايك وفصله عن رجاله، وانطلق آخرون للإعداد لوليمة الاحتفال.

***

استلقى آدم على الأرجوحة الشبكيّة وإلى جواره روان.

أمضى كلاهما السّاعات الماضية محاطين بالعامّة الذين احتفلوا بعودة روان وأوران، لم تكن الوليمة تحاكي الولائم الباذخة التي حضرها آدم في أوقات سابقة، حيث تذبح الشياه ويطبخ الأرز مع الخضار الطازجة، بل اكتفوا بالسّمك المشويّ على النّار والجذور المسلوقة ويخنة الأوراق التي ألفتها معدته بعد أن صارت الطّعام الوحيد المتاح لأيّام.

حين جنّ اللّيل، تسلّل الزّوجان إلى «مخبأ العشّاق». لم يحظيا بلحظة واحدة من الخلوة منذ وصول روان، وهو يتفهّم أنّ للـ«آم» كلّهم نصيبًا في الـ«ماغداخا» وأنّ لعائلتها عليها حقًا، وأنّ الجميع يشتاق إليها ويسعد بحضورها.. لكنّه يتوق إلى السّاعة التي يكونان فيها بمفردهما أخيرًا.

تحرّكت الأرجوحة بلطف تحت ثقلهما فيما تتشابك أصابعهما بقوّة، لم تشتكِ روان وهو يضغط راحتها ليتيقّن من وجودها إلى جواره كأنّه يخشى أن يكون طيفها حلمًا. على مقربة، تدفّق الشلال بصخب ملأ أذنيهما وقد تضاعف منسوبه بعد أسابيع طويلة من المطر الذي لا ينقطع. رفعت روان رأسها الذي تريحه على كتفه وأشارت إلى خصلاته الفاتحة.

- كيف حدث هذا؟

ابتسم آدم وهو يقول بخفّة:

- والدك لديه نظريّة ما.. عن الشّمس والماء والـ«مادرا» وكيف تعمل معًا، وصفة تفتيح شعر مضمونة!

أطلق ضحكة قصيرة واستمتع بنظرة المرح في عينيها، ثمّ أضاف:

- لقد نظرتُ إلى انعكاسي يومًا في الماء وكان الوضع كما ترين.. لا أدري كيف حدث ذلك.

قالت روان تداعبه:

- يا للخسارة.. لقد أحببت شعرك الأسود.

- تعلمين، هناك وسائل طبيعيّة تمكّن من صبغه باللّون الأسود!

قاطعته بسرعة:

- كنتُ أمزح، إنّه مجرّد شعر.. وأحبّ كلّ ما أنت عليه، مهما كان.

طالعها آدم بنظرات هائمة، لقد تمنّى كثيرًا أن يسمع منها تلك الكلمات، ونبضاته تعزف مقطوعة سمفونية حادّة لاعترافها العذب. لقد كانا في ذلك الموضع ذاته منذ أسابيع، وقد أفسد الأمر بطريقة خرقاء وكلّ ما يرجوه الآن هو أن يعوّضها عن الألم القديم، وينثر الورد على الجراح فتندمل.

- أرى لسانك منطلقًا على غير العادة. ما الذي فعلته بك هذه الرّحلة؟

تضرّجت وجنتا روان شديدتا الشّحوب، وتجاهلت مزاحه لتقول بلهجة جادّة:

- حين كنّا في عرض البحر، والمركب يميل تحت أقدامنا والعاصفة تكاد تلتهمنا، فكّرت في كلّ الأشياء التي أودّ أن أقولها.. وندمت لأنّني لم أفعل.

شدّت على راحته أقوى وأحاطته بذراعها الأخرى تتشبّث به كما يتشبّث بها، فتجدّد الألم في صدره. لا ريب أنّها عاشت أهوالًا أكثر ممّا تُفصح عنه. لقد تحدّث أوران عن خطفهما من طرف مايك ورجاله، ثمّ عن وصول القراصنة، وعن خطط روان المحنّكة.. وأثنت هي على تدخّل المُسخِّر البطوليّ في اللّحظات الحاسمة -بكلمات أثارت غيرته التي يجاهد ليبقيها تحت السّيطرة- تبارى الاثنان في إلقاء الورد الوهمي أحدهما تجاه الآخر كأنّ الرّحلة لم تكن سوى تتابع من الظروف الطيّبة حتّى حملهما القارب إلى «آرا».. لكنّه يعرف أنّ السّرّ يكمن في التّفاصيل، وربّما ستُخبره ذات يوم عن أسوأ اللّحظات التي مرّت بها، وكذلك سيمتلك الشّجاعة

ليعترف لها بشأن نفق الظلام الذي التهمه في غيابها.. لكنّه لا يريد أن يُفسد اللّحظة.

مضت دقائق من السّكون قبل أن تسترخي ذراعاها وهي تستمرّ في دفن وجهها بصدره، ثمّ رفعت عينيها إليه وسألت:

- لقد أخبرتك بكلّ شيء، لكنّك لم تخبرني عمّا حدث في غيابي؟

تصلّبت عضلات آدم، لقد وصلت حين كان يجوب الأفق مترصّدًا إشارة مايك راسل، كان أمامها متّسع من الوقت لتتحدّث إلى أشقّائها ووالدها، وقد تساءل عمّا أخبروها به عنه؟ يشعر بالخجل الآن من سلوكه الصّبيانيّ وجنونه المطبق لأيّام قبل أن يستردّ عقله، وقد خشي في تلك اللّحظات نظرتها إليه، هل ستحتقره؟ هل تستصغره؟ إنّه يرجع طفلًا حين يقف أمامها كأنّها المعلّمة التي ينتظر حُكمها وتقييمها.

حين طال صمته عادت تقول:

- عرفتُ أنّك أغرقت سفن الدّخلاء كلّها!

لم يكن في صوتها عتاب أو لوم، بل نبرة فخر لم تخف على أذنيه المرهفتين. يحقّ له الاعتزاز بما وصل إليه من درجة تحكّم في قدراته، لا شيء يدعو إلى الخجل في هذا، استرخى ثانية وهو يقول معترفًا:

- لقد سيطر عليَّ الغضب.. حدث كلّ ذلك دون وعي منّي. لم أكن أعرف أنّني قادر على الإمساك بالخيوط كلّها دفعة واحدة، أو أنّ هذا ممكن حتّى.. لو كنتُ قد قبضت على مايك راسل في ذلك الوقت، لكانت نهايته على يدي..

بدلًا عن مايك، مات عشرات من رجاله، مرتزقة ملطّخو الأيدي بدماء الـ«آم» وبحّارة أبرياء -ضحايا جانبيّة- سيظلّ النّدم على قتلهم يثقل ضميره إلى الأبد.

- لم أكن أعرف أنّ قدرتي فتّاكة إلى تلك الدّرجة.. وأنّها قد تخرج عن السّيطرة.

كان صوته يقطر ذنبًا وخجلًا، فجاءت كلماتها الدّافئة لتخفّف إحساسه البشع:

- مايك راسل أفسد كلّ شيء.. لقد خرق الاتّفاق حين أسرني وأوران، وكان لك كلّ الحقّ في الانتقام من القتلة الذين سفكوا دماء أهلنا. أنت تعتقد أنّك قد بالغتَ في القتل لأنّ روحك نقيّة، ولأنّك لم تقتل أحدًا من قبل.. لكنّ مايك يتحمّل المسؤوليّة كاملة عن النّفوس التي أُزهقت، نفوس الـ«آم» ونفوس رجاله الذين جاء بهم من «مهافيا دياما» ليرتكبوا الشّرور تحت إمرته.

غمره الارتياح وهو يعود لاحتضان كفّها، سمع صوتها وهي تردف بخفوت:

- ذات مرّة، منذ سنتين، تركتُ رجلًا يموت.. على الشاطئ..

ذلك النّفور الفطريّ من الغرباء لدى الـ«آم»، تمتدّ جذوره بعيدًا.. إلى عهد المعلّم الرّوحي، الـ«نافيا» سليمان بن إبراهيم. لقد احتاجوا إلى زمن طويل للتّعافي من شيطنة الغرباء، لكنّ مايك راسل قد يكون سببًا في انتكاسة عميقة، لن يلومهم أحد إن عادوا إلى السّيرة القديمة.

- كان رجلًا ضخم الجثّة، تغطي جلده رسوم قاتمة.. بدا لي مخيفًا في ذلك الوقت. كنتُ في الثامنة عشرة، وحين استدعاني الحرّاس للنظر في أمره، قرّرت ألا أفعل شيئًا حتّى يرجع الـ«كوتانا» من المعتزل. أحيانًا حين لا تفعل شيئًا تكون النّتائج وخيمة أيضًا.

قال محاولًا مواساتها:

- لا عليك، ربّما لم يكن رجلًا صالحًا.

تنهّدت، لعلّ تلك الحياة التي انتهت على الجزيرة تحمل المعالجة الشّابة وزرها ولا تنساها على الإطلاق، وكذلك يفعل، مع أنّه لا يقدّر العدد الدّقيق لضحاياه، ولا يضع وجوهًا على الجثث الوهميّة التي ترقد جثامينها في تربة ضميره.. لذلك اعتمد يقظة الضّمير كمقوِّم فاصل حين تعلّق الأمر بتقييم صلاح المرتزقة النّاجين. جعله ذلك يتذكّر أمرًا فقال في استياء:

- هل تعلمين ما الذي يفكّر فيه والدك بشأن رجال مايك راسل؟ إنّه يريد تزويجهم ببنات الـ«آم»!

رفعت رأسها في اهتمام:

- حقّا؟

استمرّ يعبّر عن سخطه:

- لقد جعل مجلس النّساء يعاينّ المرشّحين، واختار المعلّمة تاليا لعقد الارتباط.

سكتت برهة تقلّب الفكرة في رأسها، ثمّ قالت بفتور:

- لا شكّ أنّ لديه خطّة ما.

ابتسم في مرارة، لا تزال تدافع عن قرارات والدها بلا تردّد. لقد فعلت ذلك في الماضي، وهي تجد له المبرّرات المقنعة دائمًا، في نظرها «كوتانا» عمّار لا يخطئ التّقدير أبدًا. قبل أن يُسيطر عليه الضّيق، تذكّر حديثهما في الموقع نفسه ليلة زفافهما، وكيف أفسد الأمر بسرعة غضبه، لم يكن ليرتكب الخطأ ذاته مرّتين. قرّر أنّه سيبدأ منذ ذلك اليوم التّدرّب على التّحكّم في أعصابه، ثمّ ما ضيره لو دافعت عن والدها؟ ألم تلتمس له هو العذر منذ حين؟ ذلك طبعها: حسن الظنّ، ولا يمكنه لومها على ذلك.

أسند رأسه إلى الخلف وأرخى عضلاته قليلًا، ربّما عليه أن يترك للـ«آم» تدبير أمورهم، لم يصر جزءًا من الصّورة إلا منذ شهر ونصف لا أكثر،

وباستثناء روان، لم يكن يعنيه التدخّل في اتّخاذ قرارات تخصّ أحدًا. لقد استعادها، وكلّ شيء آخر يمكنه الانتظار، أو الانهيار.. لا فرق.

جاءه صوتها هامسًا من جديد قبل أن تستسلم للنّعاس:

- أنا سعيدة لأنّك لم ترحل.

لبثت عيناه مشرعتين، يحدّق في سقف الظلّة في شرود لبعض الوقت، لم يدرك على الفور إن كانت تتحدّث عن رغبته القديمة في الرّحيل، أم أنّها خشيت رحيله في غيابها، حتّى لو كان مقصده تتبّع أثرها والبحث عنها! تساءل في صمت إن كان الرّحيل سيظلّ تهديدًا خفيًّا يسكن هواجسها، بالنّسبة إلى غريب مثله لا يشعر بالانتماء التّام؟ هل سيأتي يوم تشعر فيه بالاطمئنان الكامل إلى بقائه إلى جوارها؟

وإن كانت فكرة الرّحيل ستتوقّف عن النّهش في لا وعيه؟

(13)

اليوم الثالث عشر بعد السّتين

جيء صباحًا بالرّجال الذين أنقذهم آدم في اليوم الماضي للمثول أمام المجلس في إطار من الهدوء، بعيدًا عن فوضى العامّة وصخبهم. أغلق الـ«كوتانا» أبواب دار العبادة أمام الأهالي لإدراكهم مدى الغضب الذي يثيره حضور مايك راسل في نفوس الثكالى والأرامل والأيتام الذين تسّبب الرّجل في مآسيهم.

في المساء السّابق، حصل كلّ واحد من البحّارة على حبّة دواء تبقيه على قيد الحياة، وأخذ المرضى في التّعافي وظهرت عليهم علامات القوّة والصحّة. باستثناء مايك نفسه -والمرتزقة الماكثين في الغابة- لم يكن أحد من مرافقيه قد تلقّى حقنة العقار، لذلك كان النّظر في شأنهم يسيرًا. لم يكن أحد منهم قد تورّط مباشرة في أعمال الخراب والدّمار على «آرا»، لذلك مُنحوا فرصة الانضمام إلى جماعة الغابة بشرط الالتزام بالبنود ذاتها من حفظ الأمن والمساهمة في إعادة إعمار القرية المنكوبة.

وقف مايك راسل وحيدًا أمام الـ«كوتانا» بعد أن انفضّ البحّارة من حوله، ليواجه نظرات الرّجال الغاضبين، وتخلّفت مانويلا لتترجم عنه. استند آدم إلى الجدار من ورائه منتحيًا جانبًا ليترك للحكماء تقرير مصير الرّجل. حين سحب القارب ليبلغه اليابسة، كان قد وعده بتلك المحاكمة، والآن يتوق إلى فرجة ممتعة.

احتدم النّقاش لبعض الوقت باللغة الآرامية التي لا يفقهها آدم ومايك، فيما تبادل الرّجلان نظرات صامتة، ملؤها الشماتة من طرف آدم والجمود من طرف مايك الذي لم تبد عليه أمارات النّدم أو الرّغبة في الاستسلام. من حين إلى آخر، كانت مانويلا تهمس في أذن والدها بكلمات ما، فيهزّ رأسه في صمت. بعد برهة، تجرّأ على مقاطعة الحكماء.

- أيّها السّادة، إذا سمحتم لي بالتدخّل، فربّما أساعدكم على اتّخاذ القرار.

رغم دهشته من صفاقة الرّجل، ترجم عمّار كلماته، والتفت الجميع نحوه في شيء من الفضول، أشار إليه عمّار بكفّه، فأردف مايك:

- أعلم أنّ كلّ ما تفكّرون به الآن هو كيفيّة قتلي، تعتقدون أنّ ذلك سوف يُطفئ غضبكم وينتقم لقتلاكم ويمنحكم الرّضا عن أنفسكم.. لكنّ حياتي الصّغيرة التّافهة إذا أخذت لن تغيّر شيئًا في مجرى الحياة على الجزيرة! بعد أيّام ستنتهي فورة النّشوة بالانتقام وسوف تستيقظون على واقع مرير وتعودون إلى مواجهة تحدّيات المعيشة الأساسيّة.. وحينها ستدركون مقدار الخسارة التي لحقت بكم لأنّكم ضيّعتم فرصة الاستفادة منّي!

ترجم عمّار الكلمات، فهتف توماس في شكّ:

- وما الذي قد نفيده منك؟

- كثيرًا!

انتفخت أوداج مايك في اعتزاز قبل أن يشرح:

- أنا رجل ذو خبرة في شتّى ميادين الحياة.. إعادة إعمار القرية؟ لديّ حلول شتى بشأنها. تنظيم الحياة في أوقات الأزمات؟ هذا اختصاص أساسيّ لديّ. مواد خام من شتّى بقاع العالم؟ تمتلئ بها سفن الشّحن الغارقة.. سوف أدلّكم على كيفيّة الإفادة منها إذا أرسلتم المُسخّرين

لاستخراجها. سأكون سجينًا لديكم، مثل محكوم بالأشغال الشاقة، وسأكون راضيًا مطيعًا.

تشاور الحكماء بالنّظرات، ثمّ عادت الأصوات لترتفع في نقاش حادّ.

وقف آدم وترك المجلس دون أن يعبّر عن رأيه، كان قد قرّر ألا يُبدي موقفًا من الرّجل الذي تسبّب في وصوله إلى الجزيرة ابتداءً وأن يترك مصيره لـ«كوتانا». ما إن صار خارج المبنى حتّى لحقت به مانويلا، لم يكن قد حادثها منذ يوم اختفائها برفقة روان وأوران. حين وقعت عيناها عليه في الضّوء الطبيعي خارج القاعة، هتفت في دهشة:

- ما الذي حلّ بشعرك؟ وعيناك.. هل كانتا عسليّتين دائمًا؟

هزّ كتفيه في إشارة عابرة، لا يزال شكله المستجدّ يثير الاستغراب، لكنّ قليلين يجرؤون على استجوابه بشأنه. يذكر أوقاتًا كانت فيها مانويلا صديقة يتحدّث إليها، لكنّها الآن ابنة مايك راسل وحسب، ولا يكاد يشعر بالارتياح إلى مكوثه على تلك المسافة منها.

- هل جئت تستطلعين مصير والدك؟

زمّت شفتيها وغامت عيناها بنظرة قلق، تذكّر آدم أنّها لم تكن على متن القارب ذاته حين عثر على مايك راسل وبحّارته في عرض البحر، لكنّها وصلت برفقة روان وأوران. لقد أعربت في وقت سابق عن رغبتها في البقاء -وإن كان لا يستوعب بعد مأتى تلك الرّغبة- فمايك يبقى والدها رغم كلّ شيء، ولن تمرّ محاكمته عليها دون أثر.

- هل سيقتلونه؟

هزّ كتفيه ثانية ثمّ قال بلهجة ساخرة:

- إنّه يستميت في جعل نفسه نافعًا.

لمعت في عينيها نظرة أمل، إنّها ترجو أن ينجو.

- هل يمكنك عمل شيء؟ أن تقول شيئًا لصالحه؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا يعرف آدم ما الذي يشعر به تحديدًا، إن كان يرغب في موت مايك أم يأمل في نجاته. لا شكّ أنّه يتمنّى أن يدفع ثمن الفساد الذي تسبّب به، والقصاص سيكون عادلًا ومرضيًا، لكنّ الثّمن الذي دفعه المرتزقة حتّى ذلك الوقت باهظ.. مقابل حريق القرية غرق أسطول كامل من السّفن التّجاريّة، ومقابل أرواح الـ«آم» لقي العشرات من البحّارة والمرتزقة حتفهم إمّا غرقًا وإمّا بأثر الـ«مادرا» بعد وصولهم إلى الجزيرة. عثر الحرّاس على جثث كثيرة في أثناء العاصفة. هل يجدر بسفك الدّماء أن يتوقّف عند ذلك الحدّ؟

لقد منح السلام لنايت ورجاله، حتّى إنّ عمّار يمضي في مسار إدماجهم في المجتمع.. فهل يستحقّ مايك راسل الصّفح والغفران، منتفعًا بإرساء السّلم الذي سبق وصوله؟

قال أخيرًا:

- لا أريد أن أتدخّل في هذا، سوف يحكم المجلس بما يراه مناسبًا.

ثمّ استأنف المسير.

لحقت به مانويلا بعد لحظات، كان بوسعه أن يتجاوزها ببعض التركيز فيشغّل خاصّية «القفز الخارق» لديه، لكنّه لم يشأ أن يتجاهلها علانية، ولم يعرف يقينًا إن كان سينجح بالفعل في القفز السّريع الذي لم يتقنه بطريقة واعية بعد.

- أعرف، لقد أخطأ.. لا، بل أجرم! ارتكب فظائع كثيرة.. لكنّ الجميع قد حصلوا على فرصة جديدة.. نايت والآخرون، لماذا لا يُمنح فرصة التّوبة أيضًا؟

توقّف اندفاع آدم واستدار باتّجاهها:

- هل تعتقدين أنّه نادم حقًّا؟ لماذا تركته إذًا؟ لقد تخلّيتِ عنه وانضممت إلى روان وأوران، ألم تفعلي؟

تناثر شعرها الأحمر حول وجهها المحتقن، قالت في رجاء:

- إنّه أبي يا آدم.. أنت تفهم هذا على الأقل؟

تسمّر مكانه وهلة، لعلّها لا تعرف أنّه يستوعب ذلك تمامًا. حين اتّهم والده بجريمة قتل ارتكبها دفاعًا عن نفسه منذ ربع قرن، وجد آدم نفسه يقف في الميدان قبالة أوران ليمثّل والده في معركة حياة أو موت. لذلك نعم، يعي ما تعنيه، ولا يملك ألا يتعاطف مع مأساتها، إلا أنّه لا يضمن مايك نفسه. إذا مُنح الرّجل فرصة ما، فسوف يجد وسيلة ليعود إلى سيرته القديمة. والده هو عبّر عن ندمه، أشرف صافي ظلّ مسكونًا بذنب الغريم الذي قتله في ساحة النّزال لخمسة وعشرين عامًا.. لكنّ عيني مايك راسل لا توحيان إلا بالترفّع والاحتقار. إذا أبقاه المجلس على قيد الحياة، فلن يمرّ وقت طويل قبل أن يدبّر أمرًا ما ويمدّ بصره نحو ما لا يخصّه.

هزّ كتفيه وأشاح بوجهه عن الشّابة الصّهباء المنكسرة وقال:

- أنا آسف، سيواجه المصير الذي يستحقّه حسب الأعراف والعادات.

***

لم يدخل ماهر الكهف منذ أسابيع، منذ اكتشف هبته الخاصّة وهو يحمّل الحجارة. لم يحظ بفرصة التّدريب على يد مُسخِّر حقيقيّ، ولا تعامل مع «حجر الشّمس» بالطريقة السّليمة، لكنّ الأمور في طريق العودة إلى المسار الصّحيح.

حين التقى الأولاد قبل دقائق وهو يتّجهون إلى الصّخرة، تاقت نفسه إلى مغامرة تسلّق واختباء أخرى، لكنّه شدّ هامته باعتداد واعتذر عن مرافقتهم، لأنّ تدريبًا جادًا بانتظاره. لمح الخيبة في عيون بعضهم والانبهار في نظرات آخرين، لكنّ ريحان ابتسمت وهي تهزّ رأسها في تفهّم. تبدو أكبر من سنواتها العشر وهي تمسك بكفّ ياسر من جهة وكفّ رائد من الجهة الأخرى، الصّبيين الذين فقدا كلا والديهما خلال الصّراع.

لا تبدو عليها المتعة أو الحماس مثل الأيّام الخوالي، لا تمثّل مغامرة الصّخرة بالنّسبة إليها بعد الآن إلا وسيلة إلهاء لإبقاء الأطفال مشغولين، فلا يطرحون الأسئلة الصّعبة التي لا تملك إجابات لها، مثل «هل ستعود أمّي؟» و «هل يمكنني رؤية أبي؟». لكنّها على الأقلّ لن تضطرّ بعد الآن إلى الاستماع إلى شكاوى بخصوص الطّعام غير المستساغ والجوع الذي يقرص البطن في عتمة اللّيل.

لقد مرّ الجميع بأيّام صعبة، وسيمرّ بعض الوقت قبل أن ترجع الحياة إلى طبيعتها. لكن بالنّسبة إلى بعضهم، لن تعود الحياة إلى سالف عهدها أبدًا.

شعر ماهر بالرّهبة وهو يخطو داخل الممرّات المغلّفة بطبقة فضيّة من الـ«مادرا» المتوهّجة، كأنّه يُقدم على التّجربة للمرّة الأولى، خفقت نبضاته باضطراب وهو يكاد يشتاق إلى ملمس المادّة الحارق على أطراف أصابعه.

ربّت مروان كتفه مشجّعًا.

- من النّادر أن نرى هنا أطفالًا في مثل سنّك. أنت محظوظ!

التهبت وجنتا ماهر حرجًا، لقد بالغ الجميع في الأيّام الماضية في الثناء على براعته ونبوغه، وذكّروه في كلّ مرّة بتدخّله الحاسم يوم المواجهة الأخيرة، وقد ألفت أذناه المديح واستعذبته، حتّى تاهت نفسه في شعاب الغرور وهي تحدّثه بما ينتظره من مجد. إذا كان قادرًا على الإمساك بالخيط الرّماديّ في هذه السّنّ، فربّما يملك زمام الخيوط كلّها بعد سنوات مثل المُخلِّص!

خلال أسابيع قصيرة، ارتقى من عداد الصّبيان إلى مصافّ المُسخِّرين حماة الجزيرة، ترك رفقة الصّغار؛ مقالبهم ومغامراتهم العابثة وأصبحت لديه مشاغل وطموحات. لم يجهّزه أحد لولوج تلك المرحلة بل زُجّ به في

عالم الكبار فجأة، والآن بعد أن توقّف المطر، يبدأ تدريبه الفعليّ داخل الكهف.

تأمّل مسار الـ«مادرا» المتدفّقة مثل تيّار ماء لامع يُحاذي الجدران، وشرح له مروان كيف كانت تُستخدم في نظام الإضاءة التي تحظى به بيوت القرية القديمة، تنقل أخشاب الـ«سانترا» المجوّفة المادّة السّائلة في عروقها وتحوّلها إلى مصدر طاقة دائم. حين يفرغ العمّال من بناء الأكواخ الجديدة، سوف يعمل المُسخّرون على إمدادها بالإنارة من جديد.

مرَّا في طريقهما بعدد من المُسخَّرين الشبّان يعمل كلّ منهم على تحسين مستوى تحكّمه في خيوط الطّاقة وتوجيهها عبر جسده قبل تحويلها إلى تجلٍّ مرئيّ، من دون المُسخَّرين المخضرمين الذين فُقدوا خلال المعركة يغمر المبتدئين التّيه والتّوتّر.. لكنّ الأكبر سنًّا والأكثر تجربة بسنوات قليلة يساعدون الأقلّ خبرة.

- تعالَ، ستريد أن ترى هذا!

أشار إليه مروان ليتبعه عبر متاهة الممرّات المتعرّجة والتي تزداد عمقًا وضيقًا مع تقدّمهما، مرّا بتماثيل الجصّ التي تحاكي نظرة الرّعب على وجوه الشياطين الذين أنزل عليهم الـ«نافيا» صاعقة الموت، ثمّ بألواح الخشب التي تحفظ وصيّة المعلّم الرّوحي بحروف مجهولة، قبل أن يفضيا إلى مساحة شاسعة سقفها مرتفع. من الجدار الجانبيّ يتدفّق شلال هادر من المادّة الفضيّة اللامعة ويتصاعد غبار كثيف يتسرّب من فوّهة الجبل فيصنع الضّباب الذي يغطي أرض الجزيرة ومحيطها.

فغر ماهر فاه وهو يتأمّل المشهد المهيب الذي تخيّله في رأسه مرّات ومرّات، لكنّ جمال شلال الـ«مادرا» والحوض الذي تمتلئ به في الأسفل سحرا عينيه أكثر ممّا توقّع.

- هل هذا هو.. الـ«مصدر»؟

هزّ مروان رأسه بشرود، وبدا مشغولًا بشيء ما. ربّما يجد ماهر المنظر مذهلًا وهو الذي يزور أعماق الكهف للمرّة الأولى، لكنّه في عيني مروان أقلّ رهبة من ذي قبل. هل يتخيّل الأمر، أم أنّ الشلال الهادر الذي عرفه في زياراته السّابقة قد تحوّل إلى انهمار شحيح مثل نهر في موسم الجفاف؟ تساءل إن كانت الـ«مادرا» تتأثّر عكسيًّا بالأمطار؟ هل يُطفئ الماء وهجها ويحدّ تدفّقها؟

اقترب ماهر من الحوض وجثا على ركبتيه لينحني فوق السّطح المتوهّج، فسارع مروان يسحبه إلى الخلف محذّرًا:

- احترس.. هذا خطر!

أومأ ماهر وهو يزدرد لعابه الجافّ، تساءل كيف يكون الملمس وهو بذلك القرب من الـ«مصدر»، لكنّه لم يجرؤ على اللّمس. إن كان لسع الحجارة المتصلّبة حادًّا إلى درجة الألم فالـ«مادرا» السّائلة لن تكون أكثر رحمة. تخيّل كيف يكون إحساس من يسقط داخل الحوض، هل يحترق؟ هل يتحلّل جسده على الفور، أم يتعذّب حتّى الموت؟ ارتجف من الخاطر وتراجع خطوتين، أراد أن يطرح السّؤال على مروان، لكنّ صاحبه بدا ساهمًا ونظراته معلّقة بالسّقف فوق رأسيهما. رفع ماهر بصره بدوره يتبع نظرات مروان، تساءل إن كان شيء ما يشغله.

- ما الأمر؟ هل رأيت شيئًا؟

لبث مروان صامتًا، ثمّ همهم في شرود:

- لا أدري، تبدو الفجوة في السّقف أشدّ وضوحًا من قبل. كأنّني ألمح اتّساعها للمرّة الأولى.. دائمًا ما كانت محجوبة بالبخار الكثيف فلا يظهر شيء منها.

- هل هذا.. أمر سيّئ؟

توقّف مروان ليفكّر، فأردف ماهر:

- هل تعتقد أنّ البخار أقلّ كثافة؟

عبست ملامح مروان وقد أزعجه الخاطر.

- إذا كان بخار الـ«مادرا» هو ما يصنع الظلّة فوق «آرا»، فإذا نقصت كثافة البخار...

أكمل عنه ماهر بلهجة مذعورة:

- سنصبح مكشوفين تحت أشعّة الشّمس!

لم ينطق مروان على الفور، فيما تشعّبت الفكرة في رأس ماهر الصّغير، كيف يكون العالم على وشك الانهيار وهو يكتشف موهبته للتّوّ؟ لا يمكن أن يكون هذا ما يحدث، لعلّ مروان مخطئ في تقديره أو أنّ عينيه تخدعانه، لم يدخل أحد إلى الكهف منذ أسابيع، لذا فربما يكون قد نسي شكل الفوّهة أو أساء تقدير كثافة البخار.

- ربّما يجدر بنا إحضار الآخرين.

أومأ مروان موافقًا، سيؤكّد الفحص الجماعيّ مخاوفه أو يفنّدها.

***

دخل مروان دار العبادة بوجه متجهّم، سار حتّى بلغ المنصّة التي تتصدّر المجلس ويشغلها الـ«كوتانا» المبجّلون، ثمّ جثا قرب والده وهمس في أذنه بكلمات مقتضبة.

ذلك الصباح، بعد أن حضر المُسخّرون الشّبان كلّهم أمام شلال الـ«مادرا»، أكّدت ملاحظاتهم شكوكه.. لم يكن أحدهم قد أبصر الفوّهة بذلك الوضوح قبل ذلك الوقت، وكان عليه أن ينقل استنتاجهم الجماعيّ إلى المجلس على جناح السّرعة.

اكفهرّت ملامح عمّار وهو يصغي إلى تقرير ابنه، واستدار إلى باقي الحكماء ليعلن أمرًا جللًا.

- أيّها السّادة.. إنّ اليوم الذي كنّا نخشاه جميعًا قد اقترب!

امتلأت الحدقات جزعًا وشحبت السّحنات البيضاء، سأل توماس بصوت مرتجف:

- هل.. توقّف التدفّق؟

ارتفعت شهقات فزع من حوله، تلك الكارثة العظيمة ستعني نهاية العالم كما يعرفونه منذ أجيال وأجيال، تتوقّف الـ«مادرا» عن التدفّق من المصدر، ثمّ تنقشع الظلّة التي تحمي الجزيرة من الشّمس، وبعد ذلك تنقرض الحياة على «آرا». لم يعتقد أحدهم أنّ الكارثة ستكون قريبة إلى تلك الدّرجة، لم يكتشفوا تقلّص المنسوب إلا منذ شهور ثلاثة فحسب. خلال تلك الفترة القصيرة مات «بندار» نوح، أوّل من لاحظ الخطر، وجاء مُخلِّص منتظر ومحتلّ جائر وعاصفة ساحقة.. والآن بعد أن استقرّ لهم الأمر، يتهاوى العالم من حولهم.

أعلن عمّار بصوت جزع:

- ليس بعد.. ليست النّهاية، لكنّها تقترب.

ثمّ شرح مروان ما عاينه وباقي المُسخَّرين ذلك الصّباح. لم تكن ملاحظة فرديّة قابلة للتأويل أو تقييم دقيق لـ«بندار» خبير.. لكنّهم كانوا زمرة من المُسخَّرين الشبّان، معظمهم مبتدئون وقليلو الخبرة، لكنّهم أجمعوا على أمر واحد: التدفّق من الـ«مصدر» شحيح عن العادة بقدر ملحوظ.

لا يعرف الـ«كوتانا» كيف يكون شكل المصدر، ولا كيف تتدفّق الـ«مادرا» سائلة أوّلًا قبل أن تتحوّل إلى «حجارة الشّمس» الصّلبة التي تصل إليهم. لكنّهم يتخيّلون كيف يبدو الوضع بناءً على صورة ذهنيّة متناقلة بينهم منذ القدم. يُدرك كلّ فرد في «آرا» طبيعة النظام الذي يُسيّر الحياة على جزيرتهم، كما يعرف باقي البشر أهميّة الشّمس في حفظ الحياة على الأرض.

ارتجف صوت عمّار وهو يأمر ولده:

- اذهب واستدعِ المُخلِّص.. لقد حان الوقت!

لم يعترض أحد الحكماء فيما انطلق مروان في لمح البصر ليجد آدم.

لقد اختلفوا منذ ثلاثة أشهر ورفضوا خطّة عمّار للنّزوح إلى العالم الخارجيّ، صرخوا في وجوه بعضهم والتهبت نقاشاتهم في المعتزل لأيّام، ثمّ انفضّ جمعهم دون الوصول إلى حلّ جذريّ أو الإجماع على مسار واضح، فكّروا حينها أنّ أمامهم متّسعًا من الوقت، ظنّوا أنّ زمنًا طويلا يفصلهم عن مواجهة الكارثة وأنّهم يملكون ترف الاختلاف وتأجيل اتّخاذ القرار.. لكنّ ها أنّ كلّ شيء يتسارع وهم عاجزون بعد عن البتّ في الأمر!

نظر توماس في غضب إلى عمّار وأخذ يصرخ:

- هل ستأخذنا الآن إلى «مهافيا دياما»؟ هل هذا ما بقي لنا؟

غامت عينا عمّار وهو يزمّ شفتيه، لقد كانت تلك الخطّة التي استقرّ عليها منذ شهور، وجنّد آدم من أجلها، لكنّه لا يعرف الآن وهم على أبواب المحنة إن كان ذلك ممكنًا. تعتمد خطّته على الهجناء، أولئك الذين يتحمّلون مناخ العالم الخارجيّ، ويعرفون الطريق. أثبت آدم وروان في مناسبتين صحّة نظريّته، لكنّه لم يشارك ذلك الاكتشاف مع آخرين بعد، لا يعرف كيف سيؤثّر الخبر في مكانة آدم كمُخلِّص -وعلى الدّور الذي ينبغي أن يلعبه في مخطّط النّزوح- إذا كان ابن هاجر التي فرّت قبل تلقّي عقاب الـ«كوتانا»، فهل سيحترمونه ويصغون إليه؟ لكنّه الآن يملك مثالًا ثانيًا يُعفيه من كشف سرّ آدم.. مثال واحد سيفي بالغرض.

- لقد أخبرتكم، هؤلاء الـ«أيتورا» الذين جاؤوا إلينا، هم المفتاح. مستقبل الـ«آم» مرتبط بهم الآن.

دمدم توماس في ضيق:

- ما الذي يعنيه ذلك؟

- الهجناء، يرثون من آبائهم القدرة على تحمّل مناخ «مهافيا دياما»، لا يُصيبهم سوء من التعرّض للشّمس. روان ابنتي، دمي يجري في عروقها، لذلك كانت آمنة خلال رحلتها وعادت إلينا سالمة!

عمّ الصّمت للحظات قبل أن يعترض آشور:

- لكنّها ذهبت في أثناء العاصفة! ربّما تحميها الأمطار؟

هزّ آخرون رؤوسهم مؤيّدين، فأردف عمّار:

- وقبل ذلك، كانت على السّفينة ولم يُصبها سوء.. فيما تعرّض الأسرى الآخرون للحروق!

أومأ بعضهم واحتفظ آخرون بنظرات الرّيبة، فعاد عمّار يقول:

- ثمّ، وهذا أهمّ، لقد وجدتْ طريقها إلى «آرا» ثانية! ألا ترون أيّ معجزة تلك؟

تلك الأسطورة القديمة التي تقول ألا أحد يجد طريقه إلى «آرا» إذا غادرها، أثبتت روان خطأها. قال أوران إنّ الـ«ماغداخا» أرشدتهم إلى الطّريق. قبلها، لم يرجع أيّ من المحكومين بالإبعاد. لم يفكّر أحد منهم في أثر تلك المعجزة ولا حاول تفسيرها، إنّها تنتمي إلى فئة فريدة، لذلك هي مختلفة عن الآخرين، لم يسبق لأيّ من بنات جنسها في أيّ زمن مضى مغادرة الجزيرة -بالاعتماد على التّاريخ الشفوي المتناقل جيلًا بعد جيل- لذلك لا يملكون الجزم بأنّها خاصيّة فريدة تتميّز بها المعالجات عن غيرهنّ. لكنّ عمّار يملك نظريّة مشوّقة تخصّ الهجناء.

همهم «كوتانا» آشور:

- أنت تقول إنّ أبناءك الثلاثة آمنون وقادرون على إيجاد موقع الجزيرة.. ماذا عن بقيّتنا؟ ما الذي نفيده من الذّهاب إلى «مهافيا دياما»؟ إذا اختفت الظلة، تساوت «آرا» مع غيرها من بقاع الأرض!

ابتسم عمّار الذي يملك الإجابة المثاليّة لذلك السّؤال:

- إنّ ما تهبه لنا «مهافيا دياما» هي فرص أوفر لتهجين الأجيال القادمة. أودّ أن تعاينوا بأنفسكم ميلاد أطفال هجناء بعد زواج المعلّمة تاليا من مرشّح المُخلِّص، بعد ذلك سيودّ كلّ واحد منكم أن يزوّج ابنته من «أيتورا»!

***

تأمّل آدم شلال الـ«مادرا» بعينين جاحظتين، لقد وقف تلك الوقفة منذ شهرين، دخل ذات ليلة خلسة يستطلع كيف يكون شكل الكهف من الدّاخل، والآن يقف إلى جواره أوران ومروان وروان يتطلّعون جميعًا إلى السّقف المرتفع بنظرات زائغة.

تلك المرّة، سأل روان عن تقديرها للوقت الذي يفصلهم عن توقّف التدفّق فلم تحدّد بدقّة، لكنّها كانت متفائلة.. لعلّها اعتقدت أنّ عقودًا تفصلهم عن مجيء الكارثة، لكنّ هذا العام مليء بالمفاجآت غير المتوقّعة.

فكّر آدم أنّ للعاصفة دورًا ما في تباطؤ الانهمار، حين كان في باطن الأرض حيث الأعماق المعتمة، كان الماء يتسرّب عبر الصّخور المساميّة ويصل إلى أغوار مستحيلة. لكنّه لم ير تيّارات الـ«مادرا» ولم يشعر بوجودها، لقد وصل وروان إلى مساحات لا أثر للمادّة المتوهّجة بها، ربّما إذا سار في اتّجاه آخر فقد يعثر على الـ«مصدر» الحقيقيّ، يشبه الأمر تتبّع النّهر إلى المنبع. في عالمه، حين تتنازع دولتان على الماء العذب، تبني إحداهما سدًّا في موقع قريب من العين فيشحّ المنسوب على جارتها التي يمتدّ النّهر عبر أراضيها. فماذا لو كان هناك «سدّ» في مكان ما قرب الـ«مصدر» الأصليّ؟

ما تزال طبيعة الـ«مادرا» مُستغلقة عليه، هل هي أقرب إلى الماء تتجمّع في طبقات جوفيّة وتندفع عبر قنوات بين الصّخور، أم هي مثل الحمم تأتي من أعماق الأرض الحارّة وتصعد بقوّة ضخّ ما؟ يعتمد تأويل الوضع على ثنائيّة الماء والنّار.

ماء مقابل ماء.. أو ماء مقابل نار.

- أفكّر باحتمالين ممكنين...

التفت إليه ثلاثتهم بعد دقائق من الصّمت المليء بالاحتمالات، فأكمل آدم:

- أعتقد أنّ للعاصفة علاقة ما بما يحدث داخل الكهف.. ربما أنّ الماء والـ«مادرا» يتفاعلان بطريقة ما...

أشار إلى اللّون البلاتيني على شعره على سبيل المثال.

- ربّما يُطفئ الماء الـ«مادرا»! لقد تساقطت الأمطار بغزارة في الأسابيع الماضية أكثر ممّا فعلت منذ زمن بعيد.. أليس كذلك؟ لعلّ الماء هو السّبب، والآن وقد توقّف المطر قد يعود كلّ شيء إلى طبيعته.. تدريجيًّا، فلا نحتاج إلى عمل شيء على الإطلاق، فقط نراقب وننتظر.

زمّت روان شفتيها متفكّرة ثمّ قالت:

- إذا كان الماء يُطفئ الـ«مادرا» مثلما يُطفئ النّار، فقد يكون التأثير دائمًا.. النّار التي تنطفئ لا تتأجّج ثانية، والحطب المبتلّ لا يعود صالحًا للاشتعال.

سأل مروان بفضول:

- ماذا عن الاحتمال الثاني؟

أخذ آدم نفسًا ثمّ قال:

- الاحتمال الثاني أنّ الأمطار الغزيرة قد تسبّبت في انهيارات عبر الصّخور الجوفيّة.. فربّما يتلخّص الأمر في مجرّد انسداد في موضع ما على امتداد مسار الـ«مادرا».. إذا اكتشفنا موضع الانسداد وحررناه من الصّخور والعوالق يعود التّدفّق إلى منسوبه الطبيعيّ.

حدّق فيه أوران بعينين متّسعتين وهتف:

- هل تعني تتبّع مسار الـ«مادرا» وراء الـ«مصدر»؟

أومأ آدم بهدوء:

- ما نعتبره الـ«مصدر» هنا هو مجرّد ثقب سطحيّ، لكنّ الـ«مادرا» تأتي من مكان ما أعمق بكثير، هناك هو الـ«مصدر» الحقيقي.

نظر إليه ثلاثتهم كأنّما يطالعون مجنونًا، ثمّ تكلّمت روان أوّلًا:

- أنت تعرف ما يعنيه البحث عن موضع الانسداد عبر مسار الـ«مادرا»؟ لا أحد، لا أحد على الإطلاق تجرّأ على ولوج الـ«مصدر».. هذا جنون!

يُدرك آدم ما تعنيه، الـ«مادرا» مؤلمة لأصحاب الهبات، يشعر كلّ منهم بلسعاتها المستمرّة في كلّ لحظة من اتّصالهم بها، وهي غير مؤذية ظاهريًا للبشر الطبيعيّين من أبناء الـ«آم» بتركيزها المنخفض في الهواء والماء خارج الكهف، لكنّ تعرّض أحدهم لكميّات مركّزة منها يسبّب هلوسة وضعف مناعة وقد يؤدّي التعرّض المطوّل إلى أضرار صحيّة أكبر، أمّا الغرباء فتهاجمهم بضراوة منذ لحظات اللقاء الأولى وتودي بحياتهم خلال ساعات قليلة.

ربّما يكون قد تعوّد الألم، يصبح تدريجيًّا شفافًا وطبيعيًّا فلا يعود يضايقه تقريبًا، حتّى في لحظات التّسخير الكبرى يغطّي تدفّق الأدرينالين في عروقه على مشقّة التّعامل مع الـ«مادرا»، ثمّ تأتي حالات الإغماء التي تليها حين ينهار الجسد ويغرقه الألم فيفضّل الغوص في دهاليز الغياب.

لا يستطيع أن يتخيّل كيف يكون الغطس في بركة الـ«مادرا» أو السّباحة عبرها. إلا أنّه لا ينوي ذلك على كلّ حال، ستكون هناك طريقة ما لسبر أغوار المجرى، وعليه أن يكتشفها.

حين اجتمع أربعتهم مع الحكماء لاحقًا، طرح آدم نظريّته فأصغى الرّجال الشّاحبون باهتمام ثمّ غلبتهم الحيرة. سأل عمّار:

- إذًا ما العمل الآن؟

كان «كوتانا» توماس أوّل من تجرّأ على الحديث:

- ننتظر!

- ننتظر؟

تساءل آدم في حيرة. إنّه يُدرك، مهما كانت علاقة الـ«مادرا» بالماء سواء نارًا/ ماء أم ماء/ ماء فقد تحلّ المشكلة من تلقاء نفسها، النّار قد تعود إلى التأجّج إذا جفّت الرّطوبة والماء قد يدفع من طريقه الرّواسب ويحفر مساره ثانية بقوّة الدّفع.. لكنّه لن يجلس في انتظار حدوث أمر ما دون أن تكون له رؤية واضحة لما يجري.

قال توماس بثبات:

- سيواصل المُسخِّرون مراقبة الـ«مصدر» عن كثب وسننظر كيف يتطوّر الوضع قبل الإقدام على أيّ عمل.

بدا إبقاء الأمور على ما هي عليه حلًّا مريحًا يزيح الحمل عن الحكماء القلقين، لكنّ آدم لم يستسلم، قال في حزم:

- سندخل الأنفاق لنعرف طبيعة الإشكال أوّلًا، وندرك ما الذي نراقبه. لا أرتاح إلى فكرة البقاء مكتوفي الأيدي في انتظار حدوث الكارثة!

تلبّدت سحنة توماس بالكدر وهمهم بكلمات مبهمة بالآراميّة، فشرح عمّار جانبًا:

- إنّها معتقدات قديمة، أنفاق الـ«مادرا» مرتع الجنّ.. لا يُسمح للبشر بولوجها.

- الجنّ؟

- تقول الأسطورة إنّ جنّ النبيّ سليمان -بعد تفجيرهم النّبع المقدّس الذي تتدفّق منه الـ«مادرا»- سكنوا الأنفاق، ودخول البشر إليها تدنيس لها وتعدٍّ على مساحة الجنّ الممنوعة.. وكلّ من يتجرّأ على الدّخول سيصاب باللّعنات!

قال آدم مستنكرًا:

- إنّها مجرّد أسطورة!

انتفخت أوداج «كوتانا» ماليك ورفع ذراعيه في الهواء وهو يزمجر:

- الأساطير تحكي الحقيقة التي عرفها أسلافنا! لا أحد.. لا أحد سيتجرّأ على دخول أنفاق الـ«مادرا».. ولو كان المُخلِّص نفسه!

اعترض آدم من جديد:

- لكن ماذا سيحدث لو ساء الوضع؟ ماذا لو تواصل التردّي بنسق سريع؟ سنكون قد تأخّرنا في اتّخاذ قرار حاسم قبل فوات الأوان!

- نحن نملك أن نفعل شيئًا، دون تدنيس الأنفاق المقدّسة!

استدارت النّظرات نحو عمّار الذي أضاف بلهجة واثقة:

- علينا الاستمرار في مخطّط التّهجين.

زوى آدم ما بين حاجبيه وهو يدرك ما يرمي إليه عمّار، إنّه يريد مواصلة العمل على مشروع النّزوح الكبير الذي يخطّط له منذ أمد، كأنّ الهجرة إلى العالم الواسع صارت هدفًا في ذاتها لا مجرّد حلّ لمشكلة توقّف الـ«مادرا». إذا كان عمّار يريد أن يفتح أمام شعبه فرصة السّفر واكتشاف العالم الخارجيّ فلن يجد ذريعة أفضل من هذه.

لقد اعتقد الـ«آم» لدهور طويلة أنّ العالم ليس آمنًا لبني جلدتهم، وأنّ كلّ من يغادر لا يعود أبدًا، لكنّ أصنامهم تتحطّم واحدًا إثر الآخر، وهو ربّما يرجو أن يصبح التنقّل من وإلى الجزيرة عن طريق الهجناء أمرًا متاحًا.. يحلم آدم بدوره برحلة يأخذ فيها روان لتلقى والديه. ولعلّ عمّار يدغدغ حلمًا قديمًا بأن يرى موطنه الذي غاب عنه خمسًا وعشرين عامًا.

هزّ الـ«كوتانا» رؤوسهم مؤيّدين، وقد صارت الفكرة مستساغة فجأة، إلا أنّ آدم لا يشعر بالارتياح، ولن يفعل قبل أن يكتشف ما يحدث حقيقة داخل أنفاق الـ«مادرا».

***

في ميدان القرية، يعمل المرتزقة جنبًا إلى جنب مع رجال الـ«آم» على تشييد بيوت جديدة تصمد أمام الأمطار والسّيول، لعلّ العاصفة قد

توقّفت لكنّها قد ترجع في أيّ وقت. يعرف سكّان الجزيرة موسم الأمطار ويتجهّزون له كلّ عام، لكنّ استعداداتهم هذه السّنة هشّة، ومخزونهم منعدم. كان عليهم مضاعفة الجهود في أيّام الصّحو للتّعويض عن الخسائر التي تسبّب بها الدّخلاء.

توقّف عمّار ليراقب بعين ناقدة الأشغال، ثمّ أشار إلى ساندي ونايت كي يتبعاه إلى دار العبادة. بدت مثل مشاورة عابرة مع منسّق العمليّات وخبير الإنشاء، لكنّ الموضوع كان مختلفًا. لا يزال الغرباء يتلقّون دروسًا في اللّغة المحليّة والعقيدة، وقد انضمّ إليهم البحّارة الواصلون حديثًا والدّكتور كريس. شرح لهم نايت في ليلتهم الأولى داخل الغابة القواعد التي جرى إرساؤها لعلاقتهم مع السّكان المحليّين، الاندماج والتّعاون، لكنّ أحدًا منهم لم يكن ملزمًا باتّفاقيّة التّزاوج بعد، ليس قبل أن ينظر في شأنهم مجلس النّساء.

حين دخل نايت وساندي إلى القاعة حيث جلس آدم وروان وعمّار، التفت آدم في استياء إلى عمّار وقال:

- ما الذي جاء به؟

- من تقصد؟

أشار آدم برأسه باتّجاه نايت، فأردف عمّار:

- إنّه مرشّح مجلس النّساء!

بدا على ملامح آدم الامتعاض:

- هذا ما يحدث حين يكون الاختيار على أساس الوسامة والشكل!

حدّق آدم في عمّار مستغربًا أن يحتاج إلى تفسير نفوره من ذراع مايك اليمنى، كبت غضبه وأشار إلى ساندي بالاقتراب، لطالما كان الرّجل الأصلع المفضّل لديه، بدا من النّوع الخجول والانطوائيّ، ليس معتدًّا بذاته ولا مغرورًا.. رجل صالح تناسبه الحياة العائليّة. سأله في اهتمام:

- كيف تتقدم مع المعلم جبريل؟

لم يكن آدم نفسه قد حرص على تعلّم الآراميّة وإن كان قد بات يتعرّف بعض الكلمات المألوفة، لذلك لم يكن يرى وجاهة دروس اللّغة في تلك المرحلة. إذا أراد الرّجل الاستقرار طويلًا، فسوف يتشرّب اللّغة مع الوقت، لكنّ الدّين مسألة أخرى.

لم يكن عليه أو على عمّار الإقدام على تغيير دينهما، فقد كانا يشاركان الـ«آم» الإيمان، أمّا هؤلاء المرتزقة فيجد صعوبة في الثقة بهم. لكنّ عمّار لا يُولّي المسألة اهتمامًا كبيرًا، مجرّد إقرار لفظيّ ونطق بالشهادتين سيكون كافيًا في نظره.. إلا أنّ آدم يفضّل متابعة التّطورات بنفسه. أخذ يستجوب ساندي لبعض الوقت عن مقدار ما تعلّمه، وكان الرّجل يتلعثم ويتردّد، فيهمس له نايت بالإجابات. استمرّ ساندي يردّد كلمات نايت آليًا، يستعير كلّ مقطع كأنّ لسانه فقد الإرادة الحرّة، ، حتّى نفد صبر آدم. كانت همسات نايت تصله بوضوح، تتبعها إجابات ساندي المحرّفة اعتمادًا على ما يلتقطه من عبارات متناثرة.

استدار آدم بحدّة نحو نايت:

- أنت.. يبدو أنّك مستمتع بهذا، وربّما تودّ أن تكون محلّه؟ اقترب هنا.

تمعّر وجه نايت حرجًا وخطا إلى الأمام خطوتين. باغته آدم حين قال فجأة:

- لقد قتلت اثني عشر شخصًا، ألم تفعل؟

اتّسعت عينا نايت في صدمة وقد أربكه تصريح آدم الذي لم يتوقّعه.

- كيف...؟

- لا تحاول الإنكار.. لقد سمعتك تعترف.

كان من المدهش أن يلتقط سمع آدم اعترافه الهامس كأنّه حديث المرء بينه وبين نفسه في أثناء زيارته لمخيمهم تلك اللّيلة وتلقينَه لساندي منذ حين رغم وقوفه وراء صاحبه، لكنّ نايت تمالك نفسه سريعًا، هزّ رأسه موافقًا وقال بنبرة تحدّ:

- نعم لقد فعلتُ.. لكنّ حصيلتك تتجاوز هذا العدد، أليس كذلك؟

شعر آدم بالدّماء تصعد إلى وجهه حتّى احتقنت وجنتاه وطاش صوابه:

- هل تُقارن من قتلتَهم أنت بمن صرعتُهم أنا من رجالكم؟

هزّ نايت كتفيه استهانة.

- أليست كلّ الأرواح تتساوى؟

زمجر آدم في سخط:

- لكنّني لا أسعى إلى مصاهرة أحد منكم، هل تراني أفعل؟

التبس الأمر على نايت لبعض الوقت، ثمّ همهم في خفوت:

- لا أفهم.

- ما الذي يُغلَق عليك؟ لقد قتلتَ اثني عشر رجلًا من الـ«آم»، لذلك لستَ مؤهّلا للمصاهرة. أريد رجلًا نظيف اليد، لا ثأر بيننا وبينه، لذلك لا حاجة لك إلى حضور الدّروس أو تعلّم الدّين.. وفّر جهدك!

سحب نايت نفسًا ثمّ قال:

- أعتقد أنّك أسأت الفهم.. لا أظنّ أنّني قد قتلتُ واحدًا منكم. لقد أطلقتُ الرّصاص، نعم، لكنّني غالبًا أصبت السّيقان لتعطيل الحركة أو الأذرع لشلّ هجوم.. لكنّني لم أوجّه السلاح لرأس أو صدر، ولا رأيت أحدًا يموت تحت يدي. أعترف أنّني لم أمتلك الشّجاعة لإيقاف رجالي عن القتل، لكنّ أوامري كانت دائمًا باستخدام العنف عند الحاجة الملحّة..

سحب نايت نفسًا قبل أن يُكمل:

- أمّا الاثنتا عشرة ضحيّة، فهي حصيلة خمسة عشر عامًا من الخدمة العسكريّة ومهمّات الحماية الخاصّة.. تضمّ رجال عصابات ومتمرّدين وقتلة. لا أستطيع أن أجزم إن كان كلّ واحد منهم قد استحقّ القتل.. لكن غالبًا ما تقع ضحايا جانبيّة في كلّ المعارك، أليس كذلك؟

لبثت نظرات آدم شاخصة وخبا غضبه تدريجيًّا، لكنّه لم يخفض حذره تمامًا. قال متشكّكًا:

- وما الذي يُثبت ادّعاءك؟

همس عمّار قرب أذنه:

- هناك شهود.

رفع آدم حاجبيه في استغراب، ثمّ تنهّد مستسلمًا. يبدو أنّه قد أساء تقييم الرّجل.. لكنّه لا يزال غير مرتاح إليه. عاد تركيزه نحو ساندي وهو يقول بلهجة حازمة:

- كرّس نفسك لهذه الدروس. يجب أن يعكس تقدمك إمكاناتك.

حين خلت القاعة إلا منه وعمّار وروان، حدجه صهره بنظرة استغراب:

- أنت مُنحاز ضدّ الرّجل، لقد راقبته منذ وصوله ورجاله.. وأعتقد أنّه رجل صالح، لكنّ الظروف جعلته في خدمة مايك راسل. إنّه يريد أن يصحّح الأمور، وأودّ أن أمنحه فرصة.

تجهّم آدم وهو يشيح بوجهه:

- لخدمة مايك راسل ثمن يجب أن يُسدّد!

رفع عمّار ذراعيه في حركة مسرحيّة:

- إذًا ما الذي نفعله هنا؟ كلّهم رجاله، وهم كلّ المتاح الآن!

- هناك البحّارة، والطّبيب.. هؤلاء مدنيّون على الأقلّ.

- نعم، أنت محقّ.. سيأتي دورهم، سنأخذ كلّ الأعداد المتاحة، نحن نبني لبنة أولى لشعب قادر على تحمّل الشّمس، أنت لا تنسى هذا؟ سنحتاج إلى كلّ الدّماء الأجنبيّة الممكنة. هؤلاء القادمون الجدد عليهم إثبات جدارتهم أيضًا والحصول على القبول من الـ«كوتانا» ومجلس النّساء وعامّة النّاس. لقد قطعنا شوطًا مع المجموعة الأولى، ونحن في فترة انقطاع المطر علينا أن نغتنم الفرصة.. نريد زفافًا في أقرب وقت ممكن!

زفر آدم في استسلام ثمّ قال وهو يترك مجلسه:

- سأتابع ألكسندر إذًا.. يبقى في نظري المرشّح الأفضل، لولا بلادة ذهنه.

أومأ عمّار في تسليم ولم يعقّب.

قبل أن يبلغ آدم المخرج، استدار وسأل:

- ما الذي ينويه الـ«كوتانا» بشأن مايك راسل؟

- إن كان الأمر يهمّك انضمّ إلينا مساءً، سنتداول بشأنه لاحقًا.

هزّ آدم رأسه ثمّ انطلق على الطّريق التّرابي. لحقت به روان بعد بضع خطوات، لم تكن قد استوعبت كثيرًا ممّا قيل بالدّاخل إذ دار الحديث غالبًا باللغة الإنجليزيّة الغريبة عنها، لكنّها لمست انفعال زوجها، قال حين أصبحا منفردين على الطّريق:

- لا أحبّ أسلوب والدك.. ما زلت أعتقد أنّ أمر الـ«مصدر» قابل للإصلاح، لو أنّنا نعرف ما يجري على وجه الدّقة..

همست بحذر:

- أنت مصرّ على دخول الأنفاق؟

واجهها بنظراته ثمّ قال في ثبات:

- إذا كان كلّ واحد من الـ«آم» يخشى لعنة الجنّ، سأذهب بنفسي، لن أعرّض أحدكم للخطر!

أطرقت برهة ثمّ قالت في وجوم:

- أعرف أنّك تفعل هذا من أجل الـ«آم»، لكن لا تفكّر للحظة واحدة أنّ سلامتك ليست الأولويّة المطلقة! لستَ مضطرًا للتّضحية من أجل أحد.. ولا حتّى من أجلي!

ابتسم في امتنان وهمس:

- أريد أن نجرّب كلّ الحلول الممكنة قبل أن نلقي بالـ«آم» جميعًا للمجهول. ما زلتُ على رأيي القديم -إذا كنتِ تذكرين- التخلي عن الجزيرة ستكون عواقبه وخيمة.

سارت إلى جواره في صمت، ثمّ أعلنت بلهجة حاسمة:

- سنفعل ما تقول.

- حتّى لو اعترض والدك؟

- والدي لديه طريقته، لكنّنا قد نجرّب طريقة أخرى.

- حتّى لو غضب الـ«كوتانا»؟

- سنقنعهم.

- وإن لم يقتنعوا؟ إنّنا نضرب بأساطيرهم عرض الحائط!

- ألن ننقذهم وننقذ الـ«آم» في نهاية المطاف؟

- ربّما نفعل.

- عظيم، سيشعرون بالامتنان حينها!

- ماذا عن الدّنس واللّعنة؟

أطلقت ضحكة قصيرة ثمّ قالت تداعبه:

- إذا كنت لا تخشاها، فلمَ أفعل؟

حدّق في وجهها غير مصدّق، على غير عهدها تقف في صفّه في مواجهة والدها، وذلك الخاطر يملأه دفئًا، أن تؤمن به وتمنحه ثقتها. سرعان ما تحوّل الحبور إلى ثقل فوق كاهله، صار لزامًا عليه أن يثبت وجاهة رأيه، حتّى لا يخسر دعمها.

***

لازم مانويلا إحساس مقيت بالإهمال طيلة اليوم، لم يبد أنّ أمرها يهمّ أحدًا. حظي والدها بالانتباه لأنّ محاسبته على جرائمه أمر ضروريّ، وانضمّ كريس والبحّارة إلى فريق نايت داخل مخيّم الغابة، فيما شعرت بأنّ وجودها شفّاف لا يكاد يثير اهتمامًا يذكر.

تجلب خصلاتها الحمراء الثائرة النّظر للوهلة الأولى، فهي دخيلة تمامًا، مختلفة شكلًا ومظهرًا، لكنّها وصلت برفقة المعالجة والمُسخِّر مثل صديقة لا يدعو حضورها إلى الرّيبة، لذلك يتركونها وشأنها. انشغلت روان بلقاء زوجها، واختفى أوران أيضًا، لم تره منذ غادرت الجموع دار العبادة، كما لو أنّ الحشد سحبه في تيّاره وحين تلفّتت حولها لم يبق أحد تقريبًا، لا وجوه مألوفة تركن إليها.

لم تجد من اللّائق أن تشارك في الوليمة التي أعدّها السّكان المحليون ليلة أمس احتفالًا بعودة المعالجة والمُسخِّر الذين اختطفهما والدها. رغم أنّها «تقنيًا» واحدة من المختطفين، لكنّ غيابها لم يكن ليصنع فرقًا بالنّسبة لأحد، في نظرهم جميعًا كانت رهينة جرى استرجاعها.

جلست وحيدة على عتبة مبنى المشفى المألوف لديها تراقب المشهد من بعيد وتتساءل عمّا عليها عمله. كانت تتصوّر جوعًا بعد أيّام من الاقتيات على الخبز الجافّ لكنّها لم تجرؤ على الاقتراب. ثمّ جاءت الصّغيرة ريحان لتحضر إليها نصيبًا من السّمك المشويّ. دمعت عيناها للمبادرة اللّطيفة، فقالت ريحان تذكّرها:

- نحن صديقتان، أليس كذلك؟

تساءلت مانويلا إن كان لتلك الصّداقة ثمنٌ بالنّسبة إلى ريحان، فربّما لا يرضى أهلها عن مصاحبتها الشّابة الأجنبيّة، وربّما يعيّرها رفاقها بسبب علاقتها بابنة المعتدي.

بعد أن خلّفتها الصبيّة وحيدة وهرعت لتشارك قومها المأدبة، أكلت مانويلا في صمت ونامت على عتبة المشفى دون أن يعبأ بها أحد، وحين طلع النّهار غادرت موقعها قبل أن تأتي المتدرّبات. تذكر نظراتهنّ الحادّة تجاهها، لم يحببنها في السّابق وتشكّ أنّ شيئًا قد يتغيّر اليوم.

مشت وحيدة بلا وجهة عبر الطرقات الطينية اللّزجة، تتّجه الرّؤوس نحوها في فضول بداية، ثمّ تنصرف عنها دون أن تُبادر بتحيّة أو كلام. فكّرت في الالتحاق بمجموعة المرتزقة في الغابة، ثمّ عدلت عن ذلك. لم يكن من المناسب أن تنضمّ إليهم الآن بعد أن رفضت مرافقتهم على مركب القراصنة. لقد اختارت جانبها وعليها أن تلتزم به مهما كانت النّتيجة.

بعد ساعات وجدت قدميها تقودانها نحو المشفى ثانية، سيكون عليها أن تتحمّل ازدراء الفتيات لكنّها في حاجة إلى لقاء روان أو مارتا، فهما حليفتان محتملتان.

حين وقفت عند العتبة اتّجهت إليها نظرات الشّابات في الدّاخل وقطعن حديثهنّ، ثمّ انتبهت إليها العجوز مارتا، فابتسمت ودعتها إلى مجلسها. تردّدت مانويلا قبل أن تقطع المسافة التي تفصلها عن المقاعد الخشبيّة الواطئة والطاولة المنخفضة. جلست قبالة المعالجة يكتنفها الحرج، فجاءت كلمات مارتا لتخفّف عنها:

- هل أكلتِ شيئًا؟ عندي قليل من العسل جاءتني به تاليا، لكنّني لم أعد أستسيغ الطّعم الحلو كثيرًا. يمكنك الحصول عليه إذا أردتِ..

سحبت إناء العسل من تحت المائدة ووضعته أمامها بابتسامة حانية، فدمعت عينا مانويلا من جديد. شربت العسل على جرعات تحت العيون الحاسدة للفتيات المنزويات عنها، تناهت إليها همساتهنّ الخافتة التي لا تفقه منها حرفًا، لكنّها أدركت أنّ كلّ واحدة منهنّ تشتهي العسل لا ريب لكنّها استأثرت به دونهنّ، وذلك يزيد من خجلها. إلا أنّها جائعة، ولذلك تدفن رأسها في الإناء وتلتهم العسل حتّى آخر قطرة.

حين وضعت الوعاء الفارغ على المائدة، قالت مارتا فجأة:

- أنت تعرفين القراءة؟

أومأت مانويلا في دهشة، القراءة؟ ذلك يعتمد على اللّغة، لكنّ المعالجة لم تكن لتطرح عليها السّؤال إن لم تكن العربيّة هي اللّغة المقصودة، أو ربّما الإنجليزية. عادت مارتا تقول:

- كلّما وجدتِ متّسعًا من الوقت تعالي إلى هنا لمساعدتي. تذكرين الدّفتر؟ ما زلت لا أفهم كثيرًا ممّا كُتب فيه.

اتّسعت عيناها أكثر، بالتأكيد تذكر الدّفتر، تكاد تجزم أنّ المعالجة تعاملها معاملة خاصّة بسببه تحديدًا. همهمت في لهفة:

- بالتّأكيد. يمكن أن أبدأ على الفور.. إذا أردتِ. لا شيء يشغلني على الإطلاق.

ابتسمت مارتا مجدّدًا ومدّت ذراعها النّحيلة لتربت ركبتها القريبة.

- جميل، من الآن فصاعدًا يمكنك قضاء اللّيل في غرفة الفحص بعد أن ينصرف المرضى.. ومشاركتنا الوجبات. نأكل معًا أنا والفتيات، مع أنّ الطعام شحيح هذه الأيام.. لكنّنا نتقاسم المتاح.

عند ذلك الحدّ، انفجرت مانويلا باكية، ولم تُفلح أيّ من محاولات مارتا لتهدئتها.

(14)

اليوم الرّابع عشر بعد السّتين

مرّة أخرى، يقف آدم قبالة الشلال يتأمّل الانهمار الشاهق بنظرات زائغة، جاء وحيدًا هذه المرّة، لكنّه لم يأتِ خالي الوفاض. لم يكن اصطياد البومة عمليّة يسيرة، لكنّه وضع قيد التّنفيذ كلّ التّقنيات التي تعلّمها في رحلة التّسخير فأوقع الطائر المسكين في شركه، ربّما لو طلب المساعدة من ريحان لوجدت طرقًا أفضل وأيسر، لكنّها قد تُخبر شقيقتها أو والدها وهو يفضّل الحفاظ على السّرية.

أطلقت البومة البيضاء نعيبًا صاخبًا وأجنحتها تتخبّط محاولة الخلاص من قبضته، فربت ريشها مهدّئًا وهمس:

- أنت هنا في مهمّة.. هل يمكنك المساعدة؟

كان قد جهّز حبلًا طويلًا يتكوّن من قطع كثيرة التقطها من هنا وهناك ربط بعضها إلى بعض ليصنع تلك الكبّة المكتنزة، ثمّ ربط طرفها إلى ساق الطّائر قبل أن يطلقه داخل الكهف. حلّقت البومة إلى أعلى وطارت مباشرة نحو فوّهة الجبل التي تبثّ البخار في سماء الجزيرة، فسحب طرف الحبل الذي في يده ليشدّها إلى أسفل ثانية.

لعلّ غريزة الطير تدفعه إلى الانطلاق إلى أعلى دائمًا، يعرف ذلك عن تجربة، فكلّما علقت يمامة داخل المبنى الذي تقع به شقّته في الدّيار، تعمد إلى الصّعود إلى الطابق العلويّ وتبقى محاصرة هناك ترتطم بالجدران والسّقف ولا تفكّر قطّ بالمداخل والنّوافذ التي تركتها وراءها في مستويات أدنى.

لذلك يُدركُ أنّ توجيه البومة حتّى تتسلّل من الفتحة التي يتدفّق عبرها تيّار الـ«مادرا» في الجدار ليس مهمّة يسيرة.

استمرّ يطلق البومة ثمّ يشدّ الحبل مرّات ومرّات، وفي كلّ مرّة يحاول إرسالها في الاتّجاه المطلوب تنحرف مباشرة نحو الأعلى.

- ما الذي تحاول عمله؟

ابتسم وهو يطالع روان التي تعقد ذراعيها أمام صدرها وفي عينيها نظرة عابسة. لقد وافقت على مساندته في خطّته لكنّه لم يستشرها قبل أن يمضي في التنفيذ بمفرده.

- أحاول إرسال فريق استطلاع!

تخبّطت البومة وقد التفّ الحبل حول جناحها الأيسر ثمّ تهاوت إلى أسفل، فالتقطها آدم بين ذراعيه، ربتت روان رأسها بحنوّ فيما آدم يهمس لها بلطف:

- لم نتّفق على هذا.. يجب عليكِ الدّخول عبر الفجوة، هناك.. انظري! ذلك هو المسار الذي عليك اتّخاذه..

أشار بسبّابته إلى النّفق المظلم الذي تتدفّق عبره الـ«مادرا»، فابتسمت روان فيما أمالت البومة رأسها ورفرفت بأجنحتها في حركة مقاومة، لم يبد أنّها قد أصغت إلى شيء من تعليمات آدم، فما إن أطلق سراحها حتّى عادت للتّحليق نحو الفوّهة بالأعلى.

- دعني أجرّب.

ترك آدم روان تشدّ البومة البيضاء ثمّ راقبها وهي تهمس لها بصوت لا يكاد يسمع.

- ماذا تقولين؟

هزّت روان كتفيها وهي تلتفت إليه:

- الكلمات لا تهمّ، ليس أنّ البوم يستوعب لغة البشر!

بدا عليه الانزعاج، بالتأكيد يدرك أنّ البومة لا تفقه شيئًا ممّا يقول، لكنّه يعتمد على الإشارات ولغة الجسد والصّوت لإرشادها.. إلا أنّه لا يبلغ مهارة روان الفطريّة في مخاطبة الحيوانات بعد، لا يزال همسها السّاحر لغزًا محيّرًا بالنّسبة إليه. سمعها تقول شارحة:

- الهمس عمليّة تواصل ذهنيّة.. حين أهمس تتسرّب الأفكار، بطريقة ما..

يُدرك ذلك القدر، لكنّ العمليّة الميتافيزيقيّة ذاتها عصيّة على الفهم، ولعلّ روان نفسها لا تملك تفسيرًا منطقيًا ولا يمكنّها أن تشرح الطريقة أو أن تعلّمها لأحد، إنّ التّواصل يحدث فقط لأنّها معالجة.

أطلقت البومة وأرسلتها في الهواء، فانطلق الطائر ليحوم فوق رأسيهما ويرسم مسارًا لولبيًّا بخفقات أجنحته، تابعته أعين آدم وروان في رجاء، ثمّ أبصراه وهو ينحرف بسلاسة ويدلف عبر الفرجة ويختفي في النّفق. استمرّ الحبل يُسحب من كفّ آدم فأرخى الرّباط وسمح للبومة بالطيران أبعد وأبعد، ترقّب للحظات وهو يصغي إلى النعيب يتضاءل ويخفت فيما تردّد أركان الكهف صدى النّداء، لم يحدث شيء لبعض الوقت، وتساءل آدم كم طول المسافة التي قد يقطعها البوم وإن كان الحبل سيكون كافيًا.

بغتة، أصدر البوم صوتًا حادًّا شبيهًا بالصّراخ البشريّ، مثل نداء استغاثة، وأخذ الحبل يشتدّ في يده بحركة متخبّطة، ثمّ بعد دقائق قليلة سكنت الأصوات كلّها وتوقّفت الحركة والسّحب من الجانب الآخر. تبادل آدم وروان نظرات قلقة، ثمّ أخذ آدم يجذب الحبل المتراخي بلطف دون أن يبدي الطّائر أدنى مقاومة. بعد ثوانٍ، سقط البوم من الفجوة بلا حراك. هرع آدم لالتقاط الطائر الذي تضرّج ريشه الأبيض بالدّماء جراء الخدوش التي أصابته من الارتطام العنيف بجوانب النّفق.

- يا للطائر المسكين.. ماذا حدث؟

لم يملك جوابًا لسؤال روان، البوم طائر ليليّ لا يخشى الظلمة ويبصر بوضوح في العتمة، لكنّ الـ«مادرا» قد تكون شوّشت إشارات الدّماغ وعطّلت الرؤية، لا يدري يقينًا. تنامى القلق في جنبات صدره، هل تلك هي لعنة الجنّ التي يخشاها الـ«كوتانا»؟

هل يصيب الجنون البشر إذا ما توغّلوا في النّفق؟

***

دلف أوران إلى مبنى المشفى، وعيناه ملتصقتان بالأرض. تجاهل الفتيات الجالسات في الغرفة الرئيسيّة والمعالجة مارتا وسار مباشرة إلى حجرة الفحص الدّاخليّة. رغم أنّه لم يرفع عينيه ليميّز حضورها فإنّه يدرك أنّها ليست في الجوار، لا أثر لخصلاتها الحمراء الثائرة التي يمكنه التقاطها على مسافة شاسعة. يعرف أنّها تتردّد على المشفى، بل وتمضي لياليها داخله، ولو أنّه أراد الاستمرار في تجاهلها فعليه أن يبقى بعيدًا عن المكان ما أمكنه. والحقيقة أنّه لولا دعوة روان للقاء سرّيّ في المشفى لم يكن ليقترب من المبنى على الإطلاق، أمّا وقد وجد الذّريعة المثالية للحضور، فإنّ إحساسًا خفيًا بالخيبة ينخز صدره لغيابها.

حيّاه آدم بهزّة من رأسه ودعاه للجلوس. في الدّاخل سبقه إلى الانضمام روان وشقيقها مروان. يجري ذلك الاجتماع المغلق في منأى عن الـ«كوتانا»، وإن كان ذلك يبعث فيه التوتّر والقلق فإنّ الإثارة تغلب عليه، أن يكون ضمن مجموعة المخلّص المقرّبة التي يأتمنها على أسراره فذلك شرف عظيم.

تحدّث آدم -همسًا- عن تجربته ذلك الصّباح. لقد أراد أن يختبر النّفق عن طريق الطيور، اعتقد أنّ قدرتها على التّحليق دون أن تلامس تيّار الـ«مادرا» تجعلها أفضل المرشّحين للمهمّة، لكنّ المحاولة لا تبشّر بخير. قال آدم عابسًا:

- لو كنت أمتلك تكنولوجيا العالم المتحضّر لكنت أرسلتُ طائرة دون طيّار أتحكّم بها يدويًّا لتلتقط صورًا مباشرة لداخل النّفق، لكنّ البوم هو فريق الاستطلاع المتاح!

تخيّل أوران الطّائرة التي ركبها من قبل في أثناء رحلته إلى العالم الخارجيّ برفقة مانويلا فوجدها ضخمة للغاية لدخول الأنفاق، ثمّ استحضر المروحيّة الصّغيرة التي تحطّمت بآدم منذ شهور، كانت أصغر حجمًا لا ريب، لكنّها لا تزال أكبر من أن تعبر الممرّات الضيّقة. طرد الفكرة عن ذهنه، ليست أيّ منها متاحة على كلّ حال.

تسلّلت ريحان إلى الغرفة خلسة في أثناء حديث آدم، دنت من الجالسين دون أن تُحدث صوتًا وأخذت تُنصت في سكون. انتبه أوران إلى وجودها إلا أنّه تظاهر بعدم ملاحظتها، حين فُتح الباب تناهت إليه الأصوات المتقطّعة القادمة من الغرفة الخارجيّة، أرهف السّمع غريزيًا متهيّئًا للالتقاط صوتها، إلا أنّ صوت آدم أعاده إلى الواقع.

- الفجوة تبدو ضيّقة، حتّى لو تسلّق أحدٌ الجدار للوصول إليها فإنّ التنقّل داخل النّفق لا يبدو يسيرًا.. لا نعرف ما يوجد في الجهة الأخرى، وكيف هي الممرّات التي تتدفّق عبرها الـ«مادرا»، وكم سيتطلب من الوقت للوصول إلى موضع الانسداد وتحريره -إذا وُجد انسدادٌ فعلًا- ولا كم يملك المغامر داخل النفق من الوقت قبل أن يبدأ تأثير الـ«مادرا» في بلبلة حواسّه..

في مخيّلة آدم، تعمل تيّارات الـ«مادرا» مثل حقل مغناطيسيّ، كلّما ابتعد عن الـ«مصدر» تضاءل مفعول الحقل حتّى يتلاشى، أمّا داخل الأنفاق التي تسيل عبرها الـ«مادرا» فمن المرجّح أن يكون الحقل في أقوى حالاته.. يمكنه أن يقارن المفارقة بتأثير الموجات الكهرومغناطيسيّة التي يتلقاها الجسد في الظروف الطبيعية كاستخدام الهاتف أو الجلوس إلى جوار جهاز

«الواي فاي».. مع الدّخول إلى غرفة بها مغناطيسات قويّة، أو داخل فرن المايكروويف! لا يدري ما الذي عاناه البوم المسكين قبل أن يقع مغشيًا عليه.

هناك ما يكفي من النظريات العلميّة المنطقيّة لتفسير الظاهرة دون الاضطرار إلى تقبّل لعنة الجنّ التي يدّعيها الحكماء.

قال مروان:

- فلنفكر بكلّ مرحلة على حدة.. أوّلًا، كيف يمكن الدّخول لإلقاء نظرة على مدخل النّفق. ربّما علينا أن نجرّب وسيلة أخرى غير الطيور.. وسيلة يمكنها الكلام ووصف ما رأته مثلًا؟

سأل أوران في شكّ:

- هل تقصد أن نرسل مُسخِّرًا مثلًا؟

المُسخِّرون هم الخيار الأوّل بالتّأكيد، وجودهم داخل الكهف طبيعيّ ومألوف وهم أكثر سكّان «آرا» تعاملًا مع الـ«مادرا» وأجسادهم تهضمها بطريقة أفضل ممّا يفعل البوم أو أيّ كائن آخر.. إنّهم الأفراد المختارون الذين يستمدّون هِباتهم من الـ«مادرا» ذاتها.

اعترضت روان:

- لكنّ الفجوة ضئيلة.. لا يمكن لشخص طبيعيّ -ناهيك بمسخِّر- أن يلج عبرها دون احتكاك بسيل الـ«مادرا».

تجرّأ آدم على السؤال الذي يؤرقه منذ أيّام:

- ما الذي يحدث إذا لمست الـ«مادرا» السّائلة جسم الإنسان؟ هل.. يحترق مثل ما يحدث عند ملامسة النار؟

ساد صمت ثقيل أطول ممّا توقّع آدم، وحين اعتقد ألا أحد سيجرؤ على إجابة سؤاله، نطق أوران بكلمة واحدة:

- أسوأ.

تنهّدت روان ثمّ أخذت تشرح بهدوء:

- منع دخول الكهف لغير المُسخِّرين ليس قانونًا اعتباطيًا.. والتزام المتدرّبين بضوابط صارمة داخله ضرورة، لأنّ العواقب ستكون وخيمة. تقع الحوادث من حين إلى آخر، في زمن بعيد، حين اضطرّ السّكان إلى دخول الكهف للاحتماء من الطوفان، تجرّأ بعضهم على خرق القواعد والاقتراب من سيل الـ«مادرا». الأفراد العاديّون لا يشعرون بشيء على الإطلاق حين يلامسون المادّة المتوهّجة، لذلك لا يشعرون بالخطر على الفور ولا يقدّرون مدى الأذى إلا حين يكون الوقت قد تأخّر. بعض الصّبيان عصوا الأوامر وظنّوا اللّهو بالـ«مادرا» تسلية متاحة.. في البداية، لم يحدث شيء، ثمّ أخذت عروقهم تتحوّل إلى اللّون الأسود، كأنّما تحترق أجسادهم من الدّاخل، ثمّ.. أخذت أطرافهم تتساقط.. نعم مثل اللّحم الفاسد الذي يسقط عن العظم، أسود قاتمًا ومنتنًا..

حدّق آدم بنظرات زائغة، فيما تابعت روان بصوت مرتجف:

- أمّا بالنّسبة إلى المُسخِّرين.. فالأمر أفظع.

ازدرد آدم لعابه بصعوبة وترقّب بقيّة القصّة، لكنّ أوران تابع عنها:

- ذات مرّة، سقط أحد المُسخِّرين في الحوض.. حدث تدافع بين متدرّبين، فتعثّر أحدهما وانكفأ على وجهه لتغمره الـ«مادرا» تمامًا.. لقد دوّى صراخه داخل الكهف كأنّه يحترق حيًا، ورغم أنّ اثنين من المُسخِّرين القدامى هرعا إليه على الفور وغامرا بالخوض في الحوض لإخراجه، فقد مات بعد دقائق من الألم الممضّ.. توهّجت عروقه من الدّاخل كأنّه يضيء تلقائيًا ولبث يئنّ وينهج مختنقًا حتّى فاضت روحه.. أمّا المُسخِّران اللّذان أنقذاه فقد عانيا آلامًا شديدة في الأطراف -اليدين والساقين- التي غمرتها الـ«مادرا» في أثناء عمليّة الإنقاذ.. ولم يعيشا طويلًا بعد ذلك.

أطلق آدم زفرة طويلة. ها أنّه قد حصل على الإجابة. فرن المايكروويف، تشبيه مثالي. بدا أنّ الخطوة الأولى عقبة لا يسعهم تجاوزها، ثمّ خطرت له فكرة عابرة، المعالجة.. ربّما يمكنها عمل شيء ما.

- أليس هناك عقار ما.. يمكنه الحدّ من تأثير الـ«مادرا»؟ مثلما تمكّن حبوب الدّواء الغرباء من البقاء أحياء فوق الجزيرة.. فربّما يمكن عمل شيء أكثر تركيزًا..

عبس مروان وهو يقول:

- إذا كانت حبوب العلاج تُصنع من دماء المُسخِّرين، فممّ سيُصنع العقار الذي سيحمي المُسخِّرين؟

فكّر آدم في صمت: الهجناء؟ ربّما يعتقد في داخله أنّ الهجناء أفراد مميّزون للغاية، لكنّ ادّعاء فوقيّة دمائه درجة من الغرور لم يبلغها بعد. لعلّها مجرّد حماقة. لكنّ صوت روان جاءه كأنّها تقرأ أفكاره:

- ربّما.. الهجناء؟ فكّروا في هذا: أجساد المُسخِّرين تتعامل بطريقة مختلفة مع الـ«مادرا»، تمتصّها وتوجهها ثمّ تحوّلها إلى طاقة من نوع مختلف.. لذلك ربّما يحتاج المُسخِّر إلى عقار يخفّف من امتصاصه للـ«مادرا»، يدفعها أو على الأقلّ يُحيِّدها.. أعتقد أنّ دماء الهجناء القادرين على تحمّل أشعّة الشّمس قد تحمل عناصر مميّزة عن غيرها.

استمرّ الصّمت للحظات قبل أن تزفر روان وتقول ثانية:

- لكنّها مجرّد نظريّة.. لا أعلم إن كان عقار مثل هذا ممكنًا. ولا إن كنّا نملك الوقت للتّجربة ثم المجازفة.

- ربّما يمكنني المحاولة.

استدار أربعتهم دفعة واحدة إلى مصدر الصّوت، كانت ريحان التي أصغت حتّى تلك اللّحظة وهي تكتم أنفاسها تعلن أخيرًا وجودها.

- إذا كانت المجازفة غير ممكنة للمُسخّرين، فربّما ألقي نظرة عبر التّجويف، أنا صغيرة الحجم، أصغر من أيّ مُسخّر.. يمكنني العبور.

زمجر مروان في غضب:

- هل تعلمين حتّى عمّا نتحدّث؟

أومأت برأسها بثبات.

- لقد كنتُ في الكهف.. أعلم عمّ تتحدّثون.

التهبت وجنتا آدم حرجًا، يعلم أنّ الصّبيّة تتسلّل إلى الكهف، لقد رآها لكنّه لم يخبر أحدًا. إلا أنّ ذلك ليس موضوع النّقاش، قال بهدوء:

- هذا ليس خيارًا.. لن نرسل طفلة داخل النفق، انسي الأمر!

- سأكون حذرة، أعدك. أنت تعرف مهارتي، أعرف كيف أتسلّل و...

قاطعتها روان هذه المرّة بلهجة حازمة:

- من الخطأ استماعك إلى هذا الحديث من الأساس.. وجودك في هذه الغرفة تجاوز كافٍ. ارحلي الآن، ولا أريد كلمة إضافيّة بهذا الصّدد!

وقفت ريحان وهي تتأفّف وغادرت الحجرة بسحنة متجهّمة.

حين عادت السّكينة إلى الغرفة، قال آدم:

- ربما.. تكون لديّ فكرة!

***

احتاج كريس إلى أيّام حتّى يمارس التنفّس الطبيعيّ دون أن يُحاول كتم أنفاسه لوقت طويل، لا يزال يعتقد أنّ للـ«مادرا» من حوله أثرًا بعيد المدى في صحّته، مثل الإشعاع النّووي العالق في ذرّات الهواء، فكّر أنّ بإمكانه تقليص الكميّة التي يخزّنها داخل جسمه من خلال سحب أنفاس قصيرة وتجنّب الشّهيق العميق.. إلا أنّه سرعان ما استسلم لقدره، إن كانت الـ«مادرا» في كلّ مكان حوله، فستخزّنها خلايا الجلد وستعلق في كلّ الثقوب والمسام.

زار المشفى للمرّة الأولى دون بدلة الحماية. بعد أن تلقّى كلّ فرد من البحّارة حبّة الدّواء الخاصّة به، تلكّأ كريس ولم ينصرف. استرجع ذكرى زيارته السّابقة، حين كانت مانويلا طريحة الفراش، وأراد أن يعرف أكثر عن المعالجة العجوز التي أنقذت حياة الشابة الصّهباء.

- هل يمكنني الحديث إلى المعالجة؟ أنا طبيب بالمناسبة.. ربّما يمكنّنا الإفادة من تجاربنا المشتركة.

حدّقت فيه الفتيات اليافعات بنظرات مستغربة، فانتبه إلى أنّه يتكلّم الإنجليزيّة في غياب المترجمة، تراجع وهو ينحني معتذرًا وانتحى جانبًا، سينتظر أن يأتي أحد للتّرجمة. من موقعه، راح يراقب الحركة في أنحاء القرية، رأى البحّارة والمرتزقة يعملون جنبًا إلى جنب مع رجال الـ«آم» على إزالة ركام القرية المحترقة وحفر أساسات لتشييد مساكن جديدة. من وجهة نظره، بدا ذلك أقلّ ما يمكن لمايك راسل ورجاله بذله للتّعويض عمّا اقترفته أيديهم.

يطالب مجلس الحكماء كلّ فرد بتقديم خدماته حسب مؤهلاته وخبراته، وهو مستعدّ لتقديم خدماته الطبيّة دون تردّد، إلا أنّ أحدًا لا يأتي إليه حتّى اللّحظة. مقارنة بالآخرين الذين يرجعون مساءً إلى المخيّم داخل الغابة

مكدودين ومتقرّحي الكفوف، تشتعل عضلات الكتفين والعنق لديهم بسبب الحمولة وتكشط جلودهم في مواضع مختلفة، لا يجد لنفسه نفعًا.

بالتّأكيد، يمضي ساعة أو نحوها كلّ مساء يضمّد الجراح ويعالج التقرّحات، لكنّه لا يفعل شيئًا تقريبًا طيلة النّهار. إن سمحت له معالجة القرية بالمساعدة، فإنّه سيكون سعيدًا بذلك.

انتبه إلى الفتيات اللواتي يتلصّصن من داخل المبنى، يختلسن النّظر إليه من فرجة الباب ويتبادلن الهمسات، فابتسم لهنّ وأحنى رأسه في تحيّة صامتة. حين أبصر مانويلا مقبلة وهي تحمل وعاء خشبيًا مليئًا بالماء، هرع إليها متلهفًا.

- أحتاج إليك للتّرجمة.. أودّ الحديث إلى المعالجة الكبيرة!

رافقته مانويلا إلى داخل المشفى، عبرا المدخل حيث تحلّقت المتدرّبات ودلفا إلى إحدى غرف الفحص الدّاخليّة، حيث وضعت مانويلا الوعاء على الأرض. تجمّعت الفتيات عند الفرجة تحدّقن في الرّجل الغريب في فضول، فأشارت إليهنّ مارتا بحركة حازمة ليختفين على الفور. قال كريس في رجاء:

- أردت أن أقدّم التحيّة للمعالجة القديرة، لقد رأيت ما صنعته لعلاج مانويلا.. وأدرك أنّها معجزة حقيقية بمقاييس العلم الحديث. ربّما لا أملك موهبتها العظيمة، لكنّني أرغب في التعلّم.. وربّما أفيد أيضًا بتجربتي المحدودة.. إذا تكرّمتِ..

ترقّب ريثما تترجم الشابة الصّهباء كلماته، وتعلّقت نظراته بشفتي المعالجة العجوز ذات العينين الصّارمتين. معظم الأطبّاء الشبّان من جيله لا يقدرون على عمل شيء دون حقيبة المعدّات الطبيّة والعقارات، تتلخّص إمكاناتهم في إعطاء الحقن ووصف الأدوية، لكنّه سيكون عاجزًا تمامًا في مكان بدائيّ كهذا دون حقيبة أدواته. لا تزال الحقيبة موجودة وعامرة،

لكنّه لا يضمن أن يستمرّ كذلك.. المعدّات قد تتلف مع الوقت وعلب الدّواء قد تنفد، حين يصبح دون حقيبة، سيكون بلا فائدة. لذلك يرغب في تعلّم الأساليب التّقليديّة التي قد تنقذ الأرواح في الحالات القصوى.

أومأت مارتا أخيرًا، ثمّ أشارت إليه بالجلوس، ترجمت مانويلا كلماتها:

- سوف تجلس هنا وتلاحظ. لا تحاول عمل أيّ شيء آخر.

أصابه الارتباك للحظات، ثمّ هزّ رأسه موافقًا. يختلف الاستشاريون في المستشفيات الجامعيّة من ناحية الأسلوب التعليميّ، بعضهم يستقبل الأسئلة والملاحظات طيلة الوقت ويرحّب بمشاركة الطلاب في عمليّات الفحص السريريّ، وبعضهم الآخر يفضّل المراقبة الصّامتة وتسجيل الملاحظات لوقت لاحق.. ربّما تكون المعالجة العجوز من النّوع الثاني.

تحوّل انتباهه نحو مانويلا، كانت تتحرّك حول المكان كأنّها في بيتها، لاحظ أنّها لا تتحدّث إلى الفتيات، بل لعلّهنّ يتحاشينها ويتهامسن بشأنها معظم الوقت، إلا أنّها لا تبدي اكتراثًا بهنّ. كانت تلازم مارتا كظلّها والعجوز تحادثها وتشرح لها ما تفعله من حين إلى آخر، ثمّ تلقي إليها بالتّعليمات مثل طحن الأعشاب أو إحضار الماء، فتنفّذ مانويلا دون تأخير.

مطّ كريس شفتيه في استياء حين غادرت مانويلا بوعاء فارغ لتملأه من الجدول، إنّها تفعل هذا كلّما فرغ الوعاء ولا تتذمّر، تجعل نفسها مفيدة، وهو وإن تاق إلى تقديم العون فلن ينزل إلى مرتبة السّعاة والمساعدين، إنّه طبيب. بمنطقه يكون هو والمعالجة في مرتبة واحدة، لذلك سيترك لمانويلا الأعمال الشاقة إذا كان ذلك ما تريده.

وجد نفسه وحيدًا في عالم من اللّغط المجهول، تتناهى إليه أحاديث المتدرّبات في الصّالة الخارجيّة بوقع غريب على أذنيه، فيما يأتي المرضى والمصابون إلى المعالجة فتدخلهم إلى غرفة الفحص، يفاجأ الزوّار بحضوره

هناك، لكنّهم يتجاهلون وجوده ويستمرّون في الحديث في ما بينهم دون إيلائه انتباههم.

وبينما يجيل بصره حول المكان، وقعت نظراته على دفتر يبدو غريبًا عن الجزيرة، يشبه في شكله ما يُستخدم في العالم المتحضّر، دفعه الفضول إلى التقاطه وأخذ يتصفّح الأوراق في اهتمام. شعر بالخيبة على الفور لأنّ لغة الكتابة لم تكن مفهومة لديه، لعلّه لا يقرأ العربيّة، لكنّه يميّز رموزها عن غيرها من لغات المشرق.

سحبت كفّ المعالجة العجوز الدّفتر من يده بحركة حادّة وبدت في عينيها نظرة انزعاج. قال كريس معتذرًا، وإن كان يدرك أنّها لن تفقه حرفًا ممّا يقول:

- شعرتُ بالملل، فأردت أن أشغل نفسي بشيء ما.. أعتذر على التطاول.

لم تنطق المعالجة، فأردف وهو يشير إلى الدّفتر:

- كيف حصلتِ عليه؟

استمرّ الصّمت من ناحيتها، فتنهّد في ضيق، التّواصل مستحيل بينهما وهو يضيّع وقته بالجلوس في ركن الغرفة بلا طائل. ربّما عليه أن ينتظر عودة مانويلا. فاجأته المعالجة حين أخرجت جرابًا بلاستيكيًا شفافًا يحوي إبرًا صينيّة ووضعتها بين يديه، تناولها كريس في دهشة، ثمّ سألها:

- هل جاء صينيّون إلى هنا؟ تركوا لك هديّة؟

لم يبدُ أيّ من ذلك منطقيًا، فالكتابة على الدّفتر لا تشبه الصّينية بالتأكيد، أشارت المعالجة إلى الإبر، فهزّ رأسه متفهّمًا، إنّها تسأله إن كان يعرف كيف يستخدمها. لقد تعلّم ذلك في وقت ما حين كان طالبًا مقيمًا، تعلّم أشياء كثيرة تعلّمًا سطحيًّا، لكنّه يذكر كيف يمسك الإبر ويغرسها، ويعرف تقريبًا نقاط الوخز المناسبة في كلّ جزء من أجزاء الجسم. قال بابتسامة ظفر:

- يمكنني أن أعلّمك هذا.. لكنّني أريد منك خدمة في المقابل.

أشار كريس إلى يدها وحرّك أصابعه ليحاكي عمليّة العلاج السّاحرة التي تمارسها.

- أريد أن أرى كيف تفعلين هذا...

لم تفهم مارتا كلّ شيء، لكنّها قدّرت تقديرًا، فأومأت بدورها في اتّفاق صامت.

***

وضعت مانويلا وعاء الماء على الأرض وهي تلهث، مسحت حبّات العرق عن جبينها وهي تنتصب واقفة وتتمطى لتتخلّص من تصلّب ظهرها. بدا أنّ الدّكتور كريس قد غادر وكذلك الفتيات والسيّدة مارتا. لا تبرح المعالجة العجوز المكان إلا فيما ندر، لكنّها قد تنضمّ إلى السيّدات لبعض الأحاديث فيما تسهر المتدرّبات مع أقرانهنّ على الشاطئ أو عند أطراف الغابة، لكنّهنّ يرجعن بعد ذلك لقضاء اللّيل داخل المشفى.

خيّم السّكون على المبنى، إلا من همهمة مبهمة مصدرها الحجرة المغلقة. ظلّ الباب موصدًا طيلة النّهار تقريبًا، حين مضت مانويلا لإحضار الماء ظهرًا، انتبهت إليه فور عودتها. بعض الضّيوف يشغلون الحجرة. والآن وبعد أن اختفى الجميع ينتابها الفضول بشأن ما يجري وراء الباب من أحاديث سرية بين أطراف مجهولة.

لم تكن قد حسمت أمر فضولها حين انفرج الباب فجأة، وظهر أوران.

تضرّجت وجنتاها بحمرة الخجل حين ألفيا نفسيهما وجهًا لوجه، تكاد تجزم أنّ الحمرة ذاتها قد غمرت سحنته الشّاحبة، ثمّ تدفّق الآخرون نحو البهو: آدم وروان وشقيقها المُسخِّر. تراجعت مانويلا خطوتين في ارتباك لتفسح المجال أمام جمعهم.

توقّفت روان عندها وقالت بلهجة حانية:

- عرفتُ أنّك تمضين وقتك برفقة «ماغداخا» مارتا، هل يناسبك المكان؟

أومأت مانويلا وعلى شفتيها ابتسامة امتنان، ولحظت بطرف عينها أوران الذي انصرف دون تلكؤ. شعرت بالخيبة لاختفائه السّريع وتمنّت التخلّص من روان لتلحق به، رغم نوايا المعالجة الشابّة الطيّبة. لم تبصره في أيّ مكان على الجزيرة، وهي التي ترسم مسارات مختلفة كلّما أرسلتها مارتا لإحضار الماء علّها تقابله في ركن ما. عبرت الطّرقات مرّات ومرّات إلا أنّها لم تقع له على أثر.. إن كان يحاول تجنّبها فقد أفلح بامتياز.

قالت تتملّص من أسئلة روان:

- عن إذنك، هناك أمر عاجل عليَّ القيام به!

ثمّ اندفعت نحو الطّريق. توقّفت في دهشة أمام السّاحة المقفرة، كيف يكون قد تبخّر بتلك السّرعة؟ إنّه لا شكّ يطير! وذلك غير عادل بالمرّة، فكيف تلحق قدماها الصّغيرتان بمن يحلّق دون قيود؟

كانت السّماء قد أخذت تميل إلى القتامة وكأنّ المساء قد حلّ، يجدر بها العودة إلى المشفى والاستعداد لليلة أخرى تمضيها وحيدة، تنزوي في ركن قصيّ وتتظاهر بالنّوم حتّى لا تلفت انتباه المتدرّبات إليها. إلا أنّها تحرّكت في إصرار إلى الأمام.

أخذت تُمطر فجأة. شهقت مانويلا فزعًا حين طالتها القطرات الأولى، وقد ارتبط المطر في لا وعيها بالعاصفة، إلا أنّ الرّذاذ نزل خفيفًا متفرّقًا وإن كان سيبلّل ثيابها لا محالة. مرّة أخرى فكّرت في العودة، لكنّها لم تفعل. لم تكن أقرب إليه منذ وصولها إلى الجزيرة ممّا كانت عليه اليوم، لقد وقف أمامها مباشرة ولمحت الارتباك في عينيه القريبتين، قبل أن يتبخّر طيفه كأن لم يكن. لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا.. إلا إذا كان يفرّ منها متعمّدًا.

لمعت العبرات في عينيها. هل يفعل؟

ظهرت الأشباح من بين الظلال دون أن تنتبه، أبصرتها وهي تكبر وتقترب حتّى أحاقت بها من كلّ جانب، أحصتها دون التباس: خمسة. تجمّع خمسة شبّان حولها، وفي عيني كلّ واحد منهم لمعت نظرة مخيفة.

لقد سارت عبر طرقات الجزيرة بأمان طيلة النّهار، ولم تشعر بالتّهديد على الإطلاق، لكنّ تلك الهيئات لا تنبئها بخير. عرفت بالأمس أنّ المرتزقة في الغابة قتلوا واحدًا من الـ«آم» على وجه الخطأ منذ أيّام، فانتقم السّكان المحليون وأردوا واحدًا من رجال والدها، قبل أن يحلّ السّلام ويلتزم الطّرفان بالهدنة، لكنّ قلبها يخبرها في تلك الآونة بأنّ أحدهم ينوي خرق تلك الهدنة. قالت بصوت مرتجف:

- أنا آسفة.. إن كنتُ توغلت في مساحة خاصّة.. كنتُ أتجوّل وحسب.

لم يردّ أحدهم على كلماتها العربيّة ولم يُبد على أحدهم الفهم، ربّما كانت اللّغة مألوفة عند كثيرين لكنّ فهمهم لها متفاوت، ورغم نبرتها المسالمة ازدادت القامات الفارعة اقترابًا، تضيّق عليها الخناق. ارتسم الرّعب في مقلتيها وفكّرت بإطلاق عقيرتها بالصّياح. تساءلت إن كان صوتها ليصل إلى أيّ كان، وإن كان أحدهم سيهبّ لنجدتها، أم أنّ حظّها قد نفد أخيرًا.

بغتة ارتفعت زمجرة غاضبة في الجوّ بكلمات غامضة لا تدري من أين مأتاها، فتغيّرت السّحنات من حولها، وتراجع الشّبان الثائرون وتفرّقوا في لمح البصر.

وقفت تلهث وحيدة وقد صار المكان مقفرًا ثانية، إلا أنّها لم تشعر بالاطمئنان، ربّما ذهب هؤلاء وسيأتي بعدهم آخرون، استدارت لترجع أدراجها، ثمّ توقّفت فجأة حين لمحته أمامها مباشرة. أوران. همهمت بأنفاس مقطوعة:

- كنتُ.. أبحث عنك...

قال بلهجة صارمة:

- لا تتجوّلي وحدك. الجزيرة ليست آمنة لك.

أجابت في إصرار:

- لم أكن أتجوّل.. كنتُ أبحث عنك!

استمرّ في تجاهله وهو يقول بنبرة صلبة لا تلين:

- لن أكون في الجوار لحمايتك كلّ مرّة. ابقي في المشفى، من أجل سلامتك.

لا تذكر مرّة نطق فيها بذلك القدر من الكلمات دفعة واحدة، وإن كان قد فعل لتأنيبها! حاولت أن تبدو متماسكة، إلا أنّ شفتيها أخذتا ترتجفان، رمشت في حركة عصبيّة لتمنع عبرَاتها من التّدحرج وقالت بما أمكنها من ثبات:

مكتبة سُر مَن قرأ

- أنت تتصرّف كأنّني غريبة تمامًا. هل نسيت كلّ ما مررنا به...

قاطعها بجفاف:

- ما حدث في عالمك أو في البحر لا أهميّة له.

- لا أهميّة له؟

لعلّها تبالغ، لعلّ كلّ شيء بينهما لا يربو على نظرات عابرة ومواقف سطحيّة ضخّمها خيالها الجامح، لكنّها -كما يبدو- لم تعنِ شيئًا على الإطلاق بالنّسبة إليه.

عاد يقول بنفس اللّهجة القاسية:

- لقد أنقذتني من أسر والدك، وأنقذتك من مقاتلي البحر. نحن متعادلان.

متعادلان؟ لم يكن الأمر بالنّسبة إليه أكثر من تسديد دين قديم، والآن لا يريد أن تكون له أدنى علاقة بها. كان عليها أن تدرك ذلك منذ زمن، ألم يتجاهلها بما يكفي؟

حبست دموعها وهي تخطو مبتعدة، كبرياؤها جريحة وفؤادها مشطور.

مضت تحت المطر دون أن تلتفت.

عروس بحر يعلن أميرها غباءَ تضحيتها.

***

بعد توقّف العاصفة، استعادت الفتيات عاداتهنّ القديمة بقضاء الأمسية على الشاطئ، يتسامرن ويتندّرن، وكان زواج تاليا من أحد الـ«أيتورا» موضوع السّاعة بلا منازع. لا تشارك المعلّمة الشابّات جلساتهنّ غالبًا، فهي في سنّ أمّهاتهنّ تقريبًا، فيما تتراوح سنّ الفتيات غير المتزوّجات بين السّادسة عشرة والعشرين. معظمهنّ ينضممن إلى صفوف السّيدات في نحو الثّامنة عشرة.

إلا أنّها تلقّت دعوة لمشاركتهنّ السّهرة ذلك اليوم.

حين فرغت من مهامها وهمّت بالعودة إلى الكوخ، اقتربت خلود وقالت بنبرة رجاء:

- تاليا، أريد أن أتعلّم لغة الـ«أيتورا»!

حدّقت فيها تاليا للحظات، في وقت ما كانت خلود واحدة من طالباتها، لكنّها لم تُبدِ حماسًا للدّراسة. لا تمثّل اللّغات مادّة أساسيّة في تعليم الـ«آم»، قد ينبغ بعض الطلاب ويتفوّقون، لكنّ قليلًا منهم يهتمّ بتعلّم لغة الغرباء. غالبًا ما يحرصون على فكّ رموز اللّغة العربيّة لقدسيّتها لديهم، وإن كانت الكتابة تبقى حكرًا على نخبة قليلة العدد، أمّا هذا الاهتمام المفاجئ بالتعلّم من طالبة لا تفكّر إلا بالزّواج.. فمن اليسير تقريبًا أن تحزر السّبب وراءه. شعرت بألم في صدرها، خلود ليست مضطرّة لتقديم تلك التّضحية مثلها،

لديها عائلة تذود عنها، ووالداها لن يدفعا بها إلى مصيدة الغرباء. حتّى لو كانت خلود تُقدم على ذلك بملء إرادتها، فقد وجب عليها تحذيرها.

- خلود، أنت صغيرة السّنّ.. أصغر هؤلاء الرّجال سنّا يبلغ ضعف عمرك على الأقلّ.

مطّت خلود شفتيها في استياء وقالت:

- لم أذكر شيئًا فيما يخصّ الرّجال.. أردت فقط التعلّم!

زفرت تاليا وسكتت، تعرف كيف تكون الفتيات في تلك السنّ، عنيدات ومعتدّات برأيهنّ، لن يفلح شيء في ثنيها عن عزمها إن هي أصرّت على عمل شيء ما. تجهل إن كانت خلود معجبة بأحد الرّجال، لكنّ أيّا منهم لا يستحقّ العناء. مهما كان ما يفكّر به الـ«كوتانا» فإنّ إلقاء بنات الـ«آم» بين أيدي الـ«أيتورا» الذين قتلوا أهلهم وأحرقوا قريتهم ليس قرارًا حكيمًا في نظرها. ربّما تقبل ذلك مضطرّة، لكنّها تختلف عن أيّ منهنّ.

لقد تجاوزت السن التي يُنظر فيها إلى الفتاة كعروس محتملة في عُرف الجزيرة.. لكنّها لا تتمنّى لأيّ من البنات اليافعات مصيرًا مشابهًا. أمام إلحاح الشابة لم تجد بدّا من الإذعان.

- حسنًا، تعالي إلى الشاطئ بعد المغيب، سوف أعلّمك.

قفزت خلود في مكانها فرحًا، ثمّ انصرفت إلى شأنها.

حين جلست إليها الفتيات في المساء -خلود وصديقاتها- تأمّلت تاليا في وجوههنّ، تستحضر أيّام شبابها وحماقتها وتهوّرها، ثمّ قالت بابتسامة صافية:

- سأعلّمكنّ ما تردن.. لكن عدنني أوّلًا!

حدّقن فيها بانتباه وهززن رؤوسهنّ، فاستطردت:

- ألا تمنحن قلوبكنّ بسهولة.. قلبك الجميل أيّتها الصّغيرة هو أثمن ما تملكين، فلا تمنحيه لأوّل طارق، لا تثقي في الكلام المعسول، ولا

تغرّنك أحلام اليقظة. ابقي متيقظة وميّزي الصّدق من الكذب.. واعلمي أنّ الوعود نصفها كذب، إن لم تكن كلّها!

تململت الفتيات، وهمست إحداهما بنبرة مازحة:

- ظننت أنّنا سنحضر درس لغة، لا درس أخلاق!

تنهّدت تاليا، إنّها تعرف.. تعرف جيّدًا كيف هو الشّباب والحماس والفضول تجاه المجهول، لقد كانت شابّة مثلهنّ، وأفسدت حياتها جرّاء مطاردة السّراب.. لذلك لا تريد لأيّ منهنّ أن ترتكب الخطأ ذاته، لكن كيف تجعلهنّ يصغين، إذا كانت هي أولى المرشّحات للزّواج من أحد الغرباء؟

- حسنًا، فلنبدأ الدّرس...

أمضت ساعتين برفقة الفتيات على الشاطئ تلقّنهنّ الكلمات فيردّدن وراءها، وتتلعثم ألسنتهنّ فيتضاحكن على الرّطانة الأجنبيّة الغريبة، وحين انصرفن جلست بمفردها على الرّمال الفضيّة تستنشق هواء النّسيم العليل. كان عليها أن ترجع إلى كوخها، لا شكّ أنّ رائد ابن شقيقها ينتظرها، تطلقه طوال اليوم مع أطفال من سنّه، فَقَد بعضهم آباءهم مثله، لعلّ اللّعب يشغله ويُنسيه مصير والديه.

لم تستطع تاليا الاستسلام للنّعاس تلك الليلة، ضمّت إليها رائد كأنّها تتشبّث به، وبكت في صمت في ظلمة اللّيل. بعد أيّام ستحتفل الجزيرة بزفافها، تلك اللّحظة التي تترقّبها كلّ فتاة في الجزيرة بشغف وحماس، تأتي متأخّرة جدًّا بالنّسبة إليها.. بعد خمسة عشر عامًا من الأجل الطّبيعيّ. تجاوزت الثلاثين من عمرها، وأصبحت بالنّسبة إلى عادات أهلها خارج السّرب، لن يفكّر بها أيّ شابّ من «آرا»، ولعلّ أحدًا لم يفعل منذ سنوات. يتجاهل النّاس مسألة زواجها كأنّها أمر ثانويّ.. لأنّها لا تستحقّ.

لقد تجلّل ماضيها بعارٍ لا يغتفر، لذلك فضّلت أن تكرّس حياتها للأطفال، تعلّمهم اللّغات وتفتح أعينهم على العالم الواسع الذي حلمت ذات يوم بأن تكون جزءًا منه. يُحذّر المعلّمون والشّيوخ والحكماء الصّغار من «مهافيا دياما»، لكنّها تحدّثهم خلسة عن العجائب التي تسمع عنها من الغرباء، تُفصح عن قليل وتحتفظ بكثير لنفسها حتّى لا يبكّتها المجلس وتتعرّض للّوم والعقاب.

بدأت تعلّم اللّغة الإنجليزية حين كانت في السّابعة عشرة وحسب، حين جاء ذلك الغريب الذي أسر قلبها. رأت في عينيه انعكاس العالم الكبير، وحلمت بمستقبل في أرض بعيدة، برفقة الرّجل الذي ملك روحها. طيلة الشّهور التي أمضاها على الجزيرة، لازمته معظم الوقت، تتسلّل خلسة إلى الشاطئ لتتأمّل قاربه الذي يرسو على الرّمال الفضيّة، وتتشرّب لغته بنهم كأنّ حياتها تتوقّف على ذلك.

في تلك الأيّام، ضربها والدها ضربًا مبرّحًا مرّات حتّى دميت شفتاها وتورّمت أطرافها، وتعهّدت كثيرًا بألا تقترب من مهاجع الغرباء، لكنّها استمرّت تفعل رغم ذلك. حدّثتها والدتها عن هاجر التي مثّلت قصّتها فضيحة لا يزال الـ«آم» يتناقلونها همسًا، منذ عشر سنوات جاء غريبان، اختار أحدهما البقاء وتزوّج من ابنة «كوتانا» أنوش، فيما اختطف الثاني شابة لترافقه إلى «مهافيا دياما» بعد أن قتل عريسها.. يُنظر إلى الأوّل بعين الاحترام والتّبجيل، فيما مثّلت فعلة الثاني خطيئة كبرى.

حذّرتها والدتها من مصير يشبه مصير هاجر، وتمنّت هي أن يكون نصيبها مشابهًا لنصيب أرابيلا زوجة «كوتانا» عمّار، ليس أنّها قد توقّفت عن التّوق لعالم بعيد وممتدّ، لكنّها خشيت الفضيحة والعار وآثرت السّلامة لها ولأهلها.

كانت حسناء في صباها، وقبل أن يحدث ما حدث تقرّب إليها كثيرون، لكنّ أيًا من شباب الـ«آم» لم يكن كافيًا بالنّسبة إليها. وذلك الغريب الذي تعلّقت به حطّم فؤادها، رحل ذات يوم ولم يعد. حين فرغ رفاقه من إصلاح المركب رحلوا جميعهم.. هكذا، ببساطة. وعدها على الشاطئ وهي تذرف العبَرات الحارّة بأنّه سيعود من أجلها، وداعبها الحلم لزمن طويل قبل أن تدرك أنّها تتمسّك بوهم، فالرّاحلون لا يرجعون.

لا أحد يأتي إلى «آرا» مرّتين.. أبدًا.

لقد استمرّت بعد ذلك تفتّش عن ملامحه في وجوه الغرباء الذين سترمي بهم العواصف على شواطئ الجزيرة، وستستمرّ تتعلّم اللّغة بحرص متزايد، تفكّر في يوم لقاء محتمل، فتفاجئه بمقدار ما تعلّمته. لسنوات، ظلّت ترفض الزّواج من كلّ من خطب ودّها، وتتعرّض للضّرب الشّديد والتّعذيب على يد والدها، فيُدافع عنها شقيقها الوحيد ويحميها ما أمكنه من اللّسعات، يتلقّى عنها بعضها ويدفع والدهما بالقوّة وهو بعد فتى لم يتجاوز العاشرة.

في تلك الفترة، لم يعد المجلس يفرض زيجات مدبّرة على الفتيات، وقد صار لهنّ كلمة مسموعة حين يتعلّق الأمر باختيار شريك الحياة. بعد بعض الوقت، انفضّ الخاطبون من حولها، وأصبح معروفًا عنها شغفها بالغرباء، ستمرّ سنوات تذوي خلالها الشعلة بداخلها وينطفئ الأمل، لم تعد تنتظر غريبًا بعينه قد أخذت ملامحه تتلاشى من ذاكرتها، ولم تعد تأمل في زواج مناسب بعد أن تجاوزت العشرين والتصقت بها سمعة سيّئة تعيبها في عيون أهل الجزيرة، لم تعد تريد شيئًا من الحياة لنفسها.

ستحمل عبء عائلتها، بعد وفاة والدها -حرجًا وعارًا كما يزعم كثيرون من حولها- ووالدتها -حزنًا وكمدًا على رحيل زوجها- ليصير شقيقها كلّ عالمها، وطفله من بعده كلّ ما تبقّى لها. شغلت نفسها بعد

ذلك بالأطفال، تعلّمهم اللّغة والمعارف التي تتشرّبها من الكتب المخزّنة في مبنى المدرسة، وتدوّن بنفسها كلّ ما تسمعه من الغرباء ومن المعالجات وتحرص على حفظ العلم من النّسيان. درّبت معلّمين ومعلّمات خلال سنوات خدمتها ووجدت في رحاب علاقتها بالأطفال الصّغار بلسمًا ينسيها جرحها القديم.

والآن، وهي على أبواب الزّواج من رجل غريب آخر، تتنازعها أحلام الماضي التي وأدتها منذ خمسة عشر عامًا. هل تكون أمامها فرصة للفرح والسّعادة؟ أم أنّها مجرّد حجر على الرّقعة يحرّكه الـ«كوتانا» في سبيل مصالحهم، يعقدون الصّفقات على حساب مشاعرها؟

لعلّ ساندي لا يُقارب الصّورة المثاليّة لحبيبها المنتظر، فهو يفتقر إلى الشّعر الذي يعدّ زينة تتحلّى بها النّساء والرّجال على حدّ سواء عند قومها، ولا يمتلك قامة فارعة ولا عضلات مفتولة، لعلّه ليس الشّخص الذي تمنّته.. لكنّه فرصتها الأخيرة لاسترجاع شبابها المسلوب، وربّما يمنحها طفلًا يملأ حياتها.

لن تريد منه أكثر من ذلك.

حتّى لو رحل بعد أسابيع أو شهور، حتّى لو خلّفها وحيدة يُشار إليها بالبنان مرّة أخرى فلن تهتمّ. مسحت العبَرات التي بلّلت وجنتيها ووطّنت العزم، ستأخذ ما يُتاح لها إلى آخر قطرة. لن ترفض عطيّة القدر المتأخّرة، ستجد ما تستطيع من السّلام في ذلك.

(15)

اليوم الخامس عشر بعد السّتين

جاء حكم المجلس صارمًا وقاطعًا بما لا يدع مجالا للنّقاش: اجتياز محاكمة الـ«مادرا»!

لا يصدر ذلك الحكم كثيرًا في «آرا»، لكنّه -بالإضافة إلى النّفي إلى «مهافيا دياما» أو إلى الأعماق- يعدّ واحدًا من العقوبات القصوى، فلا أحد يخرج سالمًا من عزلة الكهف -باستثناء أصحاب الهبات- وقضاء ثلاثة أيّام داخله مرادف لحكم الإعدام حين يتعلّق الأمر بالأشخاص العاديّين ناهيك بالغرباء.

بكت مانويلا بصوت عالٍ وانتحبت حين اقتيد والدها نحو الكهف، لقد أراد المجلس تلقين الرّجل درسًا قاسيًا لتكون «حجارة الشّمس» التي سعى إلى سرقتها عقابه ونهايته. ودّعته بحرارة على عتبة التّجويف الصّخريّ ثمّ انهارت على الأرض حين أُخذ بعيدًا عبر الممرّات المظلمة، جاء عدد قليل من رجاله لمشاهدة تنفيذ الحكم، فيما تدافع السكّان المحلّيون لحضور إقامة العدل، وهتفوا رثاءً لمن فقدوا من أحبّة.

انضمّ آدم إلى الحكماء الذين وقفوا شامخين فخورين بتحقيق القصاص، لم تُفلح محاولات مايك لجعلهم يتعاطفون أو يطمعون، حتّى إنّه ذكّر عمّار باتّفاق قديم كانا على وشك إبرامه، تبجّح بأموال وعدّة وعتاد وممتلكات تنتظره في الدّيار، وأنّه سيدفع ثمن حياته أضعافًا مضاعفة، لكنّ آذانهم بقيت صمّاء أمام توسّله وتذلّله.

رأى آدم تأثير الـ«مادرا» على متدرّبات روان، رآهنّ يتساقطن على الأرض ويعانين الهلوسات والنّزيف من الأنف والأذنين بعد يومين داخل أنفاق الكهف، لذلك سيكون مايك راسل ميّتًا لا محالة بعد ثلاثة أيّام كاملة، ربّما يكون قد تلقّى عقارًا ما أبقاه ورجاله على قيد الحياة حتّى السّاعة على الجزيرة، لكنّ الـ«مادرا» قُرب المصدر لن تكون رحيمة أبدًا. قد يحاول التوغّل داخل الكهف بحثًا عن الماء كما فعل آدم سابقًا، لكنّ لقاءه بالعظايات لن يكون من حسن طالعه، أمّا إذا تاه بين الدّهاليز لينتهي في مساحات أخرى مجهولة تحت الأرض، فلا أحد يعلم ما قد يصيبه.

رغم كونه مُسخَّرًا من نوع فريد يُدرك آدم أنّ نجاته لم تكن ممكنة دون حضور روان إلى جواره، لذلك سواء بقي مايك قريبًا من السّطح أم ابتعد نحو الأعماق، فالأرجح هو أنّه لن يعود من تلك الرّحلة أبدًا.

تابع آدم مايك راسل بعينين صارمتين وهو يُساق إلى حتفه المحتوم، بعد أيّام سيكون الرّجل الذي تسبّب في قلب حياة الـ«آم» رأسًا على عقب في عداد الموتى، سيكون موته الصّفحة الأخيرة في فصل الألم، وسيملك الأهالي أخيرًا فرصة الحداد على شهدائهم بعد الأخذ بالثّأر.

ساق اثنان من المُسخّرين المحكوم بالموت إلى غياهب الكهف، تحت زخّات المطر التي هطلت باعتدال تلك الظهيرة، ثمّ أُعلن إغلاق الكهف ومنع الدّخول على الجميع بما في ذلك المُسخّرين والمعالجات -لتجنّب أيّ تعطيل للحكم أو تفاعل مع المحكوم- حتّى مساء اليوم الثالث.

تنهّد آدم وهو يستدير مبتعدًا.. لقد عرف الرّجل خلال الرّحلة البحريّة التي جمعتهما لأسبوعين، لكنّه اكتشف له وجهًا مختلفًا خلال الشّهر الماضي. لا يحبّ الطّريقة التي تنتهي بها قصّته، لكنّ مايك قد جنى على نفسه.

لاحقه صوت نشيج مانويلا وشعر بصدى ألمها يتردّد في داخله. لقد تمكّن في السّابق من إنقاذ والده بفضل هبته ودمه المميّز، لكنّها وحيدة وغريبة وبلا قدرات خارقة.

ترك مانويلا ومأساتها وراءه، فأمامه عمل كثير.

كان يفترض به أن يكون في شهر العسل الآن. فكّر بأنّ الوقت لم يفت ليأخذ زوجته في رحلة تخصّهما إن لم تكن خارج الجزيرة ففي بعض بقاعها النّائية بعيدًا عن الأعين. لقد أمضيا الأيّام الأولى لزواجهما عالقين في نفق عميق داخل الكهف، ثمّ خُطفت روان لأيّام بعدها، أمّا الآن فيحقّ لهما أن يحظيا ببعض الوقت الخاصّ.

لكنّه بدل ذلك ينهمك في حلّ أزمة «آرا»، ويأخذ مهمّة المُخلِّص على محمل الجدّ أكثر من أيّ وقت مضى.

وقف أمام مكبّ نفايات «مهافيا دياما» التي لفظتها حركة المدّ أو انتشلها البحّارة من قعر المحيط، أمامه أكوام من المعدن، كثير من المعدن. في وقت سابق، استخدَم المغناطيس للعثور على موقع الحوآمة، ثمّ لتسلّق هيكل السّفينة، ولئن وجد المُسخِّرون صعوبة في طيّ المعدن الصّلب المكوّن لفوّهات البنادق، فقد نجحوا في تطويع الصّفائح لصناعة الخوذات والدّروع التي أنقذت حياة روان ورفيقاتها.. وفي وقت لاحق صمّم رجال مايك راسل أسطحًا واقية وخنادق عازلة ومطبّات باستخدام أنواع مختلفة من الحطام المعدنيّ.. لكنّ ما يفكّر فيه الآن أشدّ جنونًا من كلّ ذلك.

بالأمس في أثناء الاجتماع سألته روان عن تفاصيل فكرته الغريبة. إلا أنّها لم تكن قد تبلورت بعد في ذهنه، لكنّه على وشك أن يضع أنامله عليها.

سيكون عليهم دخول أنفاق الـ«مادرا» العميقة، لكنّهم لن يفعلوا دون حماية مناسبة.

استدار نحو روان الماثلة إلى جواره، تتأمّل أكوام الخردة بدورها بنظرة متجهّمة.

- الحراشف، العظايات..

- ما شأنها؟

حاول أن يرتّب الفوضى داخل رأسه

- الحراشف السّميكة مثلت حماية طبيعيّة للعظايات ضدّ الـ«مادرا».. تلك الحيوانات لم تتعامل مع المادّة المتوهّجة من قبل، لكنّها لم تستسلم لتأثيرها ولم يبد عليها أيّ نوع من التحوّل بعد ساعات من خروجها من الأعماق.. لذلك، نحتاج إلى شيء يشبه الحراشف..

سألت روان مستحضرة المعدّات التي صنعها المُسخَّرون من المعدن:

- هل تقصد دروعًا أخرى؟ مثل التي لبسناها لمواجهة السّلاح؟

هزّ آدم رأسه بقوّة:

- لا، لن تفي تلك بالغرض، فهي لا تلتصق بالجلد مثل الحراشف، بل تتسرّب الـ«مادرا» تحتها.. لذلك نحتاج إلى صناعة شيء مختلف.

- شيء.. يلتصق بالجلد؟

أومأ بحرارة:

- لا أدري إن كان هذا ممكنًا.. لكنّني أفكّر في نوع من العجينة قوامها المعدن، تُغطّى بها الأطراف فتصنع جلدًا ثانيًا صلبًا وعازلًا، مثل الحراشف!

اتّسعت عينا روان وفكّرت بكلّ المحاولات التي باءت بالفشل لتطويع المعدن، ثمّ سألت:

- وهل يتحوّل هذا الشّيء لعجينة؟

- - تحت درجات حرارة عالية جدًا.. نعم. لكنّ الحرارة الشديدة ستجعله حارقًا وغير قابل للاستخدام قبل أن يبرد، ناهيك بوضعه

مباشرة على الجلد! لم أتوصّل بعد إلى المزيج المناسب الذي قد يبقي المعدن سائلًا دون حرارة.. لكن بشكل ما، أعتقد أنّ هذا ممكن.

بقي عليه أن يجد المادّة الملائمة للحفاظ على ميوعة المعدن دون حرارة.

- ماذا عن الحراشف ذاتها؟

- ماذا تقصدين؟

تابعت روان بحماس:

- يمكننا استخدام الحراشف! إنّها عازلة ومانعة وتلتصق بالجلد مثل جلد ثانٍ إذا التحمت في شكل قطع ثياب مغلقة.. مثل تلك التي ارتداها الغرباء عند مهاجمتهم الجزيرة!

تذكّر آدم بدلات الحماية التي يملكها مايك راسل وتساءل إن كان بوسعها أن تكون ذات فائدة.. لو أنّه ينتشل بعضها من حطام السّفن. إنّ تكنولوجيا العالم الحديث ستكون أفضل من أيّ صناعة يدويّة خرقاء يُنجزها في وقت شديد الضّيق.. لكنّ أهل «آرا» أدرى بشعابها، عقار الـ«ماغداخا» أفضل من أيّ حقن تجريبيّة تنتجها مخابر متطوّرة، وكذلك حراشف العظايات المنيعة ستكون أفضل من أيّ بدلات حماية، خاصّة إذا عُزّزت بطبقة من عجينة المعدن التي يفكّر بها!

- إذًا، كيف نحصل على الحراشف؟

ساد صمت ثقيل لثوانٍ، لا يجد أحدهما تسلية في النّزول إلى الأعماق ثانية، بغضّ النظر عن الأيّام الطويلة التي ستتطلبها الرّحلة الشاقة -وإن كان آدم يملك اختصارها الآن بفضل القفزات التي صار يجيدها- فإنّ قتل العظايات من أجل جلدها لا يبعث في أحدهما أيّ قدر من الرّاحة. إنّها كائنات حيّة، وقدرها أن تخدم الإنسان، مثلما تُذبح الشّياه والأرانب من أجل لحومها، فربّما يمثل جلد العظايات فائدة عظيمة.. لكنّ اصطيادها

بعد الدّور المحوريّ الذي لعبته في الدّفاع عن الجزيرة ضدّ الدّخلاء يُورث في نفسيهما إحساسًا ممضًا بالخيانة. ما هكذا يُجازى الحلفاء.

ثمّ، لن يوافق المجلس على ذلك بتاتًا، العظايات كائنات مقدّسة في تقاليد الـ«آم»، حيوانات أسطوريّة عظيمة لم تُر منذ دهور ويخلّد ذكرها في الحكايات والنّقوش. في الحقيقة، لا يوافق المجلس على دخول الأنفاق أساسًا.

هتفتْ روان فجأة:

- «سراب الليل»!

تألّقت نظرة ظفر في عيني آدم، بالتأكيد.. لديهم جثّة سراب الليل. إذا كانوا محظوظين كفاية فإنّ الجلد لن يأخذ في التّحلل قبل بعض الوقت، ربّما يتعفّن اللّحم سريعًا لكنّ الحراشف قاسية.. ستصمد.

عادا أدراجهما نحو موقع القرية وتسلّقا التلّة التي تتناثر في ثناياها قبور الـ«آم» والـ«أيتورا».. وعلى الجانب الآخر من السّفح، دُفنت جثّة «سراب الليل»، العظايا التي ضحّت من أجل نجاة الجزيرة. توقّف آدم وروان أمام المساحة التّرابيّة، كان الوقت مساءً والإضاءة خافتة، لكنّهما ميّزا قطعة الأرض غير المستوية وآثار حفر حديث.

- أحدهم كان هنا.

لم يحتج آدم إلى كلمات روان ليُدرك ذلك، لكن لماذا؟ ما الذي قد يجعل أحدهم ينبش قبر الدّابة؟ جثا على ركبتيه فوق الأرض الرّطبة وأخذ يحفر بيديه، أزاح جزءًا من التّربة ثمّ انتقل إلى موقع آخر، لم يظهر شيء من جسد العظايا! سألت روان في قلق:

- ما الأمر؟

- ليست هنا!

- أنت واثق؟

جئت إلى جواره وأخذت تحفر بدورها، كيف تختفي العظايا العملاقة؟ من الذي يقدر على سحبها دون أن ينتبه إليه أحد؟ ولماذا قد يفعل أحدهم ذلك؟ هل يمكن أن يكون ذلك من عمل المُسخَّرين؟ أم أنّ أحدهم أراد إقامة طقوس وثنية ما تعظيمًا للدّابة الأسطوريّة؟

توقّف آدم فجأة عن الحفر حين لامست أصابعه جسمًا صلبًا، أخذ يزيح التّراب بخفّة، ثمّ استخرج قطعة عظام طويلة ونظيفة تمامًا! حدّق غير مستوعب.

– هل تحلّلت العظايا بهذه السّرعة؟

هزّت روان رأسها نافية، لا يمكن أن يحدث هذا. قد يتعفّن الجسد ويتفسّخ لكنّه لا يختفي كليًا ليخلّف عظامًا عارية كتلك. واصل آدم الحفر أعمق فأعمق، استخرج مزيدًا من العظام، لا يمكنه أن يتخيّل نوعًا آخر من الحيوانات تليق به تلك العظام الطويلة الخشنة.. ربّما تقترب من عظام الثيران، لكنّ أحدًا لن يدفن الثيران ويتركها تتحلّل، فهي دوابّ يُعتمد عليها في الخدمة والنّقل، وما يهرم منها أو يمرض يُذبح على الفور ليُقتات من لحمه. توقّف آدم عند ذلك الخاطر.

– أحدهم أكل لحم العظايا!

شعر بمعدته تتشنّج وبإحساس القيء يداهمه.. ميتة ونجسة، لكنّها مثّلت وليمة لا تفوّت في نظر بعضهم. جلست روان إلى جواره وملامحها تتقلّص في ألم. خلال فترة سيطرة مايك راسل على الجزيرة ثمّ العاصفة التي لم تتوقّف، عانى السّكان سوء التغذية، كانت يخنة الورق وحساء الجذور كلّ ما توافر غالبًا. همست روان:

– حين كنّا على مركب القراصنة، كان الخبز الجافّ كلّ قوتنا. قطعة واحدة كامل اليوم.. لقد قرص الجوع أحشاءنا وشعرنا بالوهن الشّديد، فكّرتُ حينها.. لو أنّ بعض الجرذان التي نسمع دبيبها فوق رؤوسنا تتسلّل

إلى الغرفة، ربّما كنتُ لأقبض على واحد.. ربّما يكون عشاء دسمًا على سبيل التّغيير!

احتضن آدم راحتها بين كفّيه في مؤازرة صامتة، لم يكن الوضع على الجزيرة أفضل.. لكنّه كان غائبًا لوقت طويل، لعلّه لم يهتمّ بأكثر من حاجاته الشخصيّة في أيّام الحزن تلك، فلم ينتبه إلى آلام الآخرين. الجوع.. آفة قاتلة لا ترحم. ربّما يتجاهل جوع بطنه ويُجبر جسده على الصّوم، لكنّ الآباء لا يصمدون أمام بكاء أطفالهم طلبًا لطعام يسدّ الرّمق.

همست روان بصوت ضعيف:

- هل علينا إبلاغ المجلس بشأن هذا؟

تنهّد آدم.

- ما الفائدة؟ العظايا ماتت، ولحمها قد أُكل.. لعلّه أشبع بطونًا جائعة على الأقلّ.

في أوقات صعبة من التّاريخ الحديث، أكل النّاس القطط والكلاب والجيفة.. لم يعتقد أنّه قد يعايش واحدة من المجاعات، لكن ها هو ذا. هل يحقّق شيئًا إذا بحث عن المذنب؟ وهل يستردّ حقّا ما؟ فوق ذلك سيضطرّ إلى تبرير نبشه قبر العظايا بدوره، وهو لا يودّ أن يثير حفيظة الـ«كوتانا» في ما يخصّ خطّته التي تتحدّى أساطيرهم.

- إذًا.. فلنستمرّ في الحفر!

أومأ آدم ثمّ انحنى ثانية وأخذ يزيح التّراب جانبًا ليحفر أعمق، أيًا من كان صاحب الفعلة فقد قطّع اللّحم ونقله مرّة واحدة أو على مرّات، لكنّه على الأغلب لم يهتمّ بأيّ شيء آخر قد يفضح أمره، مثل الرأس والعظام.. والجلد.

بعد دقائق بدأت باقي القطع تظهر، الرّأس أولًا، ثمّ الجلد كاملًا، بدا في حال جيّدة عامّة دون تمزّق أو تعفّن، ربّما كان تخليصه من اللّحم والدّماء

في وقت مبكّر أسهم في حفظه لوقت أطول. لم تكن الرّائحة زكيّة رغم ذلك، وقد أخذ يتخشّب ويتصلّب لكنّه لم يفقد الحراشف التي تلتصق به مثل الدّرع السّميكة. وهو يلمسها بيديه العاريتين فاجأه الملمس الخشن والقسوة، ربّما لم ينتبه إلى قوّتها وهو يركب العظايا سابقًا، وربّما تكون قد ازدادت قسوة خلال الأسبوعين الماضيين وفَقَد الجلد شيئًا من ليونته.

قال في رضا:

- إنّها صالحة تمامًا لصنع الدّروع.

أمّنت روان على قوله بحركة من رأسها، فسأل:

- كم درعًا يمكننا أن نصنع؟

قارنت في ذهنها جثة العظايا بحجم البشر، ثمّ مطّت شفتيها:

- ربّما اثنتين.. إذا حالفنا الحظ.

بدا ذلك مناسبًا لآدم، لم يكن من الحكمة إرسال أكثر من شخصين داخل النفق دفعة واحدة. عادت روان تقول:

- سنحتاج إلى بعض الوقت قبل أن تُصبح الدّروع جاهزة.

لم يكن تنظيف الجلد ومعالجته أمرًا هيّنًا، وإن كان آدم يفتقر إلى التّجربة تمامًا. شرحت روان الخطوات من خلال خبرة سابقة مع جلود الثيران والماعز التي يستخدمونها كبُسُط: سيكون عليها تنظيف الجلد من بقايا اللّحم والدّهن والأنسجة باستخدام سكّين الصّدف، ثمّ يُنقع في محلول الماء العذب والرّماد لتليينه وحفظه من التآكل، بعد ذلك يُشدّ إلى إطارات خشبيّة ويربط بالحبال ليتمدّد فلا ينكمش عشوائيًا، بعد أن يجفّ يمكن تقويته عبر تعريضه لنار هادئة تمنحه مقاومة للماء، ثمّ دهنه بشحم حيوانيّ لمزيد من المرونة..

قدّر آدم أنّ العمل سيتطلّب أيّامًا، لكنّ روان أعلنت:

- نحتاج إلى أسبوعين تقريبًا.

- هذا.. وقت طويل!

- النقع يستغرق ثلاثة أيّام إلى خمسة، التّجفيف لأسبوع أو عشرة أيّام حسب معدّل الأمطار.. ثمّ التّقوية بالنّار والدّهن ليومين.

- ماذا لو حاولنا اختصار المراحل؟ يمكننا تجفيفه داخل الكهف، سيستغرق وقتًا أقلّ.

أومأت روان بنظرة متفكّرة:

- ربّما يُمكّننا ذلك من حذف يومين أو ثلاثة.

- لا يزال ذلك كثيرًا.

ربتت روان ذراعه بابتسامة حانية:

- ولم العجلة؟ هل تخشى أن تخذلنا «آرا» بعد أسبوع من الآن؟

أطلق آدم زفرة طويلة، إنّه متشنّج، يكاد يفقد أعصابه، همست له من جديد:

- لا تخف، سنفعل ذلك في الوقت المناسب.

ردّ ابتسامتها واحتضن كفّها، لا يعلم بعد إن كان الانسداد داخل النّفق قريبًا، أو إن كان هناك انسداد على الإطلاق، إنّها مجرّد دراسة استكشافيّة لا يعلم مدى جدواها، لكنّهم سيفعلون كلّ ما يجدر بهم عمله. وإذا لم يفلح ذلك سيفكّر في احتمالات أخرى.

- لا بأس، فيما تعالجين الجلد ستكون أمامي أعمال كثيرة أخرى!

لم ينس نصيبه من المهام في الخطّة، عجينة المعدن.. ثمّ...

- أعتقد أنّ عليّ زيارة الأعماق مرّة أخرى.

- من أجل مزيد من العظايات؟

- بل من أجل الستارة النّباتية.

ذلك الحاجز الطبيعيّ الذي يمنع دخول الـ«مادرا» إلى الأنفاق البعيدة ويُبقي الهواء نظيفًا، قد يمكّنهم من صنع أقنعة للتنفّس إذا توصّلوا لاستخدامه بالطّريقة الصّحيحة، لكنّه سينتظر حتّى انتهاء محاكمة الـ«مادرا» فيصير دخول الكهف متاحًا.

عبست روان:

- الرّحلة إلى الأعماق ستكون طويلة!

ابتسم آدم في زهوّ وقال:

- أظنني أمتلك الحلّ المناسب لذلك.

أفلت كفّها ووقف في وضعيّة الاستعداد أمام نظراتها المستطلعة، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا وأطلق قدميه للرّيح في قفزات سلسة كأنّها الطيران. انزلق على الأرض حتّى النّهاية السّاحة ثمّ رجع على عقبيه ليقف أمامها من جديد، يمتّع نظره بمرأى الإعجاب في مقلتيها.

همس مداعبًا:

- عليك الرّجوع إلى القرية الآن، لا تزال أمامي مهمّة ليليّة أخرى.

***

استدارت الرّؤوس لتطالع الزّائر الغريب عن المخيّم، لم تكن نظراتٍ عدائيّة صرفًا، لكنّ آدم شعر بأنّه غير مرحّب به. بعد محاكمة مايك راسل انقسم الرّجال بين شامت ومتعاطف ومحايد، لكنّهم أمام الفريق المقابل جبهة واحدة، وآدم ينتمي الآن إلى «الآخرين». مع ذلك لم يجرؤ أحدهم على الإتيان بأيّ حركة أو كلمة حتّى قال مستفسرًا:

- من القائد هنا؟

تحرّكت عيناه تتصفّحان الوجوه الواجمة حتّى خطا نايت باتّجاهه وقال بنبرة باردة:

- لا قادة بعد الآن، ما الذي تُريده منّا؟

ابتسم آدم وقد أدرك أنّ شيئًا لم يتغيّر، في زيارته السّابقة كان نايت من تصدّى للقائه والآن وبعد أن تضاعف عدد سكّان الدّغل لا يزال يأخذ بزمام المبادرة رغم ادّعائه التنصّل من القيادة. صحيح أنّه لا يُضمر أيّ قدر من الودّ تجاه الرّجل، لكنّه سيضطرّ إلى التّعامل معه.

قال آدم مباشرة:

- هل هناك بدلات حماية في قاع المحيط؟

كان السّؤال مفاجئًا بالنّسبة إلى نايت والآخرين الذين يصغون إلى المحادثة دون أن يتدخّلوا، فلم يكن يفترض بأحد عدا البحّارة الغرباء أن يحتاج إلى البدلات، لكنّه أومأ موافقًا.

- هل تعرف موقعها؟ على أيّ سفينة؟ الطابق والغرفة؟

تكلّم آدم بلهجة آمرة، لم يكن يطلب إذنًا أو حتّى مساعدة، وكان بوسع نايت الإعراض والتّجاهل، ليس لأنّ محتويات السّفن تعنيه فبعد محاكمة مايك وغرق السّفن في المياه الإقليميّة للجزيرة، من حقّ السّكان المحلّيين الحصول على ما يشاؤون منها، أمّا نايت وباقي البحّارة والمرتزقة فلا يستطيعون الغوص من دون المعدّات، لذلك يعدّ الحطام في قعر المحيط بلا فائدة بالنسبة إليهم، فليس للمماطلة معنى. ولعلّ آدم يملك الشّروع في انتشال ما يريد دون إعلام أحد، لكنّ السّؤال سيوفّر عليه وقتًا وجهدًا. إذا تعاون معه فسيكون قد قدّم خدمة، وإذا أعرض فسيكسب عداوة هو في غنى عنها.

- ربّما يعرف الرّجال أكثر.

استدار نايت لينادي ستيفن وهاورد، وحين جاء الرّجلان كرّر عليهما السّؤال الذي سبق وطرق مسامعهما منذ حين. أومأ ستيفن بهدوء، كان هو آخر من خزّنها بعد حصولهم على العقار، لم يُستخدم عدد منها منذ فترة،

باستثناء تلك التي ارتداها الدّكتور كريس في يومه الأخير على الجزيرة.. لكن ما الذي قد يفعله سكّان الجزيرة ببدلات تخصّ الغرباء؟

سأل نايت بلهجة ارتياب:

- هل تفكّرون في التّوقف عن مدّنا بحبوب الدّواء؟ هل هذا بسبب محاكمة مايك؟

زفر آدم، لا شيء يدعوه إلى إخفاء حقيقة الأمر عن نايت ورجاله، جميعهم سكّان للجزيرة الآن وربّما يعنيهم شأنها إلى درجة ما. إن كانت الـ«مادرا» تنفد فلن يحصلوا على شيء منها على الإطلاق -إذا ما كانت لا تزال تثير مطامع أحدهم- ربّما إذا دفعهم إلى المساعدة فقد يفيدونه بأكثر من البدلات.

- الـ«مادرا» الثمينة التي أردتم سرقتها.. إنّها تتناقص.

- ما الذي تعنيه؟

- نعتقد أنّ هناك انسدادًا ما داخل الأنفاق يُعطل مسار الـ«مادرا».. سنرسل فريقًا عبرها للاستطلاع، لذلك قد نحتاج إلى البدلات.

خيّم صمت ثقيل على أربعتهم. يعرف نايت ورجلاه تأثير الـ«مادرا» داخل الكهف، لكنّهم لا يتخيّلون مقدار تركيزها وخطورتها داخل الأنفاق. هزّ نايت رأسه وقال:

- بالتأكيد.. لن نكتم أيّ شيء قد يكون مفيدًا، سندلّك على موقع البدلات داخل السّفينة.

شكره آدم بإيماءة عابرة، كأنّما يضنّ لسانه بكلمات الشّكر، إلا أنّ نايت فاجأه حين سأل:

- هل يمكننا المساعدة بأيّ طريقة أخرى؟

حدجه آدم بنظرة طويلة، قال عمّار إنّ نايت قاد رجاله في السّابق لعرض خدماتهم في ترميم البنايات المتداعية، وها هو يعرض مزيدًا منها، وربّما لا يجدر بآدم أن يرفض اليد التي يمدّها نحوه. قال بعد تردّد قصير:

- هل بينكم حدّاد؟

تبادل الرّجال نظرات صامتة، قبل أن يرفع هاورد يده ويقول:

- كنتُ صبيّ حدّاد في وقت سابق!

رفع آدم حاجبيه ثمّ ربت كتف الرّجل وقال:

- رائع! وافني إلى مكبّ المعادن غدًا صباحًا إذًا.

ثمّ استدار نحو نايت وأضاف:

- يمكنك المجيء أيضًا.

(16)

اليوم السّادس عشر بعد السّتين

وجد آدم استخدام قدرات المُسخِّرين أمرًا مريحًا يومًا بعد يوم، كلّ الأعمال التي تستهلك جهدًا ووقتًا للأفراد العاديين صارت يسيرة ومتاحة إلى مدى بعيد. بدأ يصدّق أخيرًا أنّه «رجل خارق» بمعايير الدّراما التمثيليّة والأساطير الشعبيّة، وقد وجد ذلك مثيرًا ومنعشًا، بل حتّى ممتعًا. مرّ بفترات كان عليه خلالها أن يُثبت نفسه أمام الحكماء والمُسخِّرين والعامّة وروان أيضًا، لكنّه الآن يجد الرّضا في الإنجاز، القدرة على الإتيان بالأعمال المرهقة والمتطلّبة تكسبه اعتزازًا وثقة. لم يعد «مُخلِّصًا» صوريًا بفضل همسات عمّار وشائعاته، بل إنّه قد استحقّ أخيرًا كلّ جزء من هالة التعظيم التي تحيط به.

تساءل في شيء من الغرور: هل يفكّر العظماء حين يطالعون سحناتهم في المرآة بمقدار عظمتهم؟ عليه أن يعترف؛ ذلك الإحساس العميق بالقيمة والنبوغ مُسْكِرٌ حقًا.

سحب مركبًا مطاطيًا صباحًا على ظهر لولا حتّى حدود الظلة في زمن قياسيّ -بالمقارنة مع التجديف أو السّباحة لساعات- اختصر عليه تواصله مع الحوت وقتًا ثمينًا. ثمّ غاص إلى الأعماق ليكتم أنفاسه دقائق طويلة متنقلًا داخل هياكل السّفن الغارقة، ينتشل صناديق وعبوات أكسجين وبدلات حماية مخزّنة في غرف معيّنة، بناءً على توجيهات ستيفن. لقد تدرّب على الغطس أخيرًا بوتيرة عالية، حين كان يفتّش عن جهاز

الإرسال والاستقبال.. فكان أداؤه يتحسّن مع كلّ مرّة، وهل كان ليعتقد قبل شهرين من الآن أنّه قد يمارس السّباحة فضلًا عن الغطس الحرّ؟!

بعد خمس أو ستّ جولات تحت الماء تكدّست أعداد من البدلات البيضاء والخوذات الزجاجيّة والأسطوانات المعدنيّة داخل القارب. فيما يلتقط آدم أنفاسه، قلّب نايت وستيفن المعدّات بدقّة، بدا معظمها في حال حسنة وصالحًا للاستعمال.

بعد عودته إلى اليابسة، التقى آدم بهاورد وعدد من المرتزقة عند مكبّ الخردة، في انتظار وصوله كانوا قد تمكّنوا من فرز كميّة من المعادن الصّالحة للصّهر، وحفروا في الأرض موقعًا مناسبًا لإنشاء فرن الحدادة. وجّه هاورد الأشغال اعتمادًا على تجربته السّابقة، فبطّن الرّجال الحفرة من الدّاخل بالطّين اللّزج ممزوجًا بالرّمل والسّعف لمقاومة الحرارة، بعد ذلك شكّلوا هيكل الفرن على هيئة أسطوانة مثل المدخنة ارتفاعها متر ونصف، ثمّ دعّموها بالحجارة من الخارج لحفظ الحرارة ومنع الانهيار. في وقت لاحق، أضافوا أنابيب الخيزران المجوّفة كمنافخ للهواء عند قاعدة الفرن. استغرق منهم العمل نصف يوم، في الوقت الذي قضاه آدم في عمليّة انتشال تجهيزات الحماية.

وضع هاورد راحتيه عند خصره وسأل بلهجة جادّة:

- ماذا عن الوقود؟

رسم آدم ابتسامة جانبيّة، ثمّ تقدّم خطوتين ليواجه الفرن، وضع قطعة معدن في البوتقة المصنوعة من الطين ودفعها داخل الفرن، ثمّ سحب الخيط الحليبيّ ووجّه طاقته إلى التّجويف، فتفجّر الضوء داخل الفرن مثل شمس ساطعة لترتفع الحرارة بوتيرة متصاعدة. لم يكن واثقًا إن كان الخيط الحليبيّ مناسبًا للغرض أكثر من الخيط الرّماديّ، لكنّه أصغى لحدسه. ربّما تولّد الصّاعقة حرارة أكبر في وقت وجيز، لكنّها ستكون مركّزة على

نقطة محدودة، أمّا الضّوء فهو ثابت وغامر.. وربّما يحفظ نقاء المعدن. أبقى تركيزه ثابتًا لدقيقة كاملة ليضمن توزيع الحرارة بشكل متساوٍ على السّطح المعدني، ثمّ أفلت الخيط وترك الضّوء يتلاشى تدريجيًا. حين سحب قطع المعدن المحمّرة من الفرن، قرأ علامات الذهول في أعين الرّجال المحيطين به. سأل في شيء من الغرور فيما يعاين هاورد المعدن السّائل:

- هل هذا مناسب؟

أومأ هاورد بقوّة وهو لا يكاد يكتم انبهاره:

- مناسب جدًا.

- إذًا سأجعل اثنين من مُسخِّري النّور يتناوبان على إشعال الفرن طيلة اليوم.

بعد ترتيب الأدوار وتنسيق المناوبات بين المُسخِّرين والمرتزقة، أعلن آدم طبيعة المهمّة: تحويل المعدن إلى بودرة! لم يعتقد أنّ المهمّة يسيرة أبدًا، ولم تفتّ من عضده نظرة الهلع في عيونهم يكادون يتّهمونه بالجنون، قال هاورد أكثرهم خبرة:

- هذه عمليّة معقّدة.. حتّى بالنسبة إلى حدّاد متمرّس، فكيف بمجموعة من المبتدئين دون معدّات حقيقيّة أو فرن حدادة معتبر!

هزّ آدم رأسه متفهّمًا.

- ستفعلون ما بوسعكم، وسنعدّل الأسلوب بناءً على النّتائج الأوّلية.

لا يعرف آدم شيئًا عن الحدادة، لكنّه يثق في مهارات المُسخِّرين، مهما كانت العمليّة عسيرة ستكون هناك وسيلة لتذليلها.

إلى جوار الفرن، سيُجهّز محطّة الطّحن حسب توصيات هاورد، ما إن تخرج قطع المعدن المصهورة من الفرن حتّى تُسكب على سطح حجريّ لتشكّل في صفائح رقيقة يسهل طحنها. سيحتاج إلى رجلين لتلك المهمّة يقفان على جانبي المسطّح فيمسكان قطع حجارة صلبة يتناوبان على

ضرب الصّفائح لتفتيتها، مثل تأثير حجريْ رحى كتلك التي تُستخدم لطحن الحبوب يدويًّا. ومن حين إلى آخر، تُغمس قطع المعدن في الماء للتّبريد المفاجئ الذي يجعل المعدن أكثر هشاشة.

حين عاد إلى القرية وجد أنّ روان قد أنهت تنظيف جلد العظايا، أدهشه مشهد الجلد المفرود على الأرض مبسوطًا على رقعة متّسعة أكثر ممّا تخيّل، وقد أثار عملها كثيرًا من الفضول فقرفصت إلى جوارها ريحان تتابع بنظرات مبهورة فيما وقف أطفال آخرون على مسافة يتأمّلون القشور القاسية التي استعادت لمعانها بعد جولات من الدّعك والنّقع. أمضت روان ساعات الصّباح في تقشير اللّحم والدّهن عن الكساء الجلديّ مع الشطف بالماء العذب من حين إلى آخر، وقد استغلّت فضول الأطفال فأرسلتهم مرّة بعد أخرى لجلب دلاء الماء من النّبع.

رغم ذلك، لم يتجاسر أحد على مساءلة المعالجة بخصوص جلد العظايا. رآها كلّ واحد منهم تركب الزّاحف العملاق تحت خيوط المطر، وإن قرّرت الـ«ماغداخا» أنّ جلد العظايا يلزمها فلن ينازعها إيّاه أحد، سواء قرّرت أن تعلّقه على جدار المشفى مثل تميمة حظّ أو تفرشه على الأرض كبساط أو تصنع منه عباءة لزوجها المُخلِّص!

تأمّل آدم نتيجة العمل المضني برضا ثمّ سألها:

- كيف يبدو؟

- سميكًا ومتينًا.. رغم بعض آثار التّعفّن البسيطة، فإنّ معظمه صالح للاستخدام.

ثمّ التفتت إليه وسألته في اهتمام:

- كيف سارت الأمور من ناحيتك؟

- حصلنا على البدلات ومعدّات الحماية، سنحتاج إلى بعض الوقت لفحصها والتأكد من سلامتها.. إذا استدعى الأمر سأغطس مرّة

أخرى للحصول على مزيد. الرّجال يعملون على فرن الحدادة.. لم يبق إلا النّباتات المتسلّقة من أجل الأقنعة.

أومأت روان، سيتأجّل أمر الأقنعة للغد حتّى ينتهي أمر مايك راسل وتُدفن الجثة، بعد ذلك سيصبح الكهف متاحًا من جديد.

خلال يوم واحد أنجز كثير، أكثر ممّا أمل أو توقّع، الخطة أ -دروع الحراشف- والخطة ب -بدلات الحماية- تسيران بسلاسة ومثالية يصعب تصديقها. *هل تلك ثمار الرّوعة التي يحصدها المُسخِر الحقيقيّ؟*

أخذ روان مساءً إلى مكبّ الخردة، يتواثب بداخله فخر وزهوّ، أراد أن يجرّب الفرن أمامها ليُبهر عينيها بمرأى المعدن المنصهر وهو يتحوّل إلى اللّون الأحمر اللّامع مع ارتفاع الحرارة ويسيل مثل قالب الزّبدة على النّار، يودّ أن يأتي الـ«آم» كلّهم لاحقًا للفرجة على معادن العالم الخارجيّ تتحوّل إلى حمم ثمّ تُفتّت وتُطحن.

هطل المطر خفيفًا ذلك المساء في زخّات متفرّقة، ومشى كلاهما عبر الطّرقات الطينيّة على مهل، مرّة أخرى يعاوده خاطر شهر العسل، حين يفرغ من كلّ هذا، وتُصبح الجزيرة آمنة مرّة أخرى، سيأخذها في رحلة ما. سيحتاج إلى مركب -تلك تفاصيل سيعالجها في أوانها- ليأخذها إلى بعض الجزر السّاحرة، جزر تسطع فوقها الشّمس وتتلألأ رمالها البيضاء وماؤها الفيروزيّ، حيث للأشياء ألوان حقيقيّة مشبعة.

فاجأ نفسه يفكّر في الرّحيل، ويشتاق إلى عالمه البعيد، إلى الشّمس الحارقة والضّياء الغامر، إلا أنّه احتفظ بتلك الخواطر لنفسه. حين يأتي الوقت المناسب، سيُحدّث روان بكلّ ذلك.. أمّا الآن فيخشى أن تفهمه فهمًا خاطئًا وتعود مخاوفها القديمة.

حين وصلا إلى موقع نفايات عالمه، قادها وهو يمسك بكفّها نحو موقع الفرن، المكان خالٍ إلا منهما والمطر ينقر الأسطح المعدنيّة بنغمة رقيقة محبّبة، قال وهو يشير إلى الشّكل الدّائريّ ذي السّقف المرتفع:

- تعالي، ستحبّين هذا..

لم يميّز مدخل الفرن بداية، وقد أعاق المطر وظلمة التّلال رؤيته، ثمّ سرعان في سرت في جسده موجة غضب جارفة. استحال شكل الفرن كومة من الحجارة المبعثرة وتحطّم السّقف المحدّب وقنوات النّفخ، لم يعد يمكن التعرّف إلى أيّ من أجزائه.

سألت روان في ذهول:

- من فعل هذا؟

سكت آدم وهو يحدّق في نتيجة العمل التخريبيّ، في الحقيقة هناك أطراف عدّة قد يضايقها وجود الفرن، السّكان المحلّيون الذين يضطرّون إلى إخفاء ضغينتهم تجاه الغرباء ومهادنتهم فيما يفكّرون في الانتقام، لم يكن تحطيم الفرن سوى الطريقة الأسهل لنسف صنيعهم، نكاية بهم، ثمّ هناك بحّارة مايك راسل الذين يستاؤون ربّما من تعاون رفاقهم مع الأعداء وجثّة ربّ عملهم لم تُدفن بعد.. وأخيرًا هناك الـ«كوتانا» أنفسهم، إذا بلغهم خبر خطّة آدم لدخول الأنفاق، فلن يسرّهم أن يمضي قدمًا رغم معارضتهم الصّارمة.

أيًا يكن الفاعل، فسيقوم فرن جديد مكان الأوّل.

قال في تصميم:

- سيُعيد الرّجال بناءه في الغد.. وسنضع حراسة عليه.

لن يفتَّ ذلك الحادث البسيط من عضده.

رجعا أدراجهما نحو القرية في وجوم، تراكمت الضغينة في صدر آدم وإن اجتهد ليحافظ على هدوئه، لن يفقد أعصابه بتلك السّهولة. قبل أن يبلغا الأكواخ الطّينيّة، ظهر أمامهما مروان بملامح ممتقعة، بادر يعتذر بحرارة:

- أنا آسف جدّا.. لقد غادرت الكوخ لوقت وجيز ولم أتوقّع أن يحدث هذا.

حبس آدم أنفاسه وهو يسير وراءه إلى الكوخ. البدلات -الخطة ب- أحدهم انهال عليها بآلة حادّة فتمزّقت الأنسجة في مواضع عدّة وتهشّمت الأقنعة الزّجاجيّة وانبعجت أسطوانات الهواء المعدنيّة وأصابتها الشّروخ.

تصاعد الغضب الهادر داخله واسودّت الدّنيا في عينيه، ذلك تخريب متعمّد وعرقلة مقصودة للمهمّة، ليست مجرّد تنفيس عن حقد شخصيّ أو استياء فرديّ.

لمست روان ذراعه بلطف وهمست:

- إنّهم الـ«كوتانا».

بات يُدرك ذلك.

(17)

اليوم السابع عشر بعد السّتين

مرّة أخرى يدعوهم آدم إلى اجتماع في المشفى، لكنّ المزاج مختلف عن السّابق. قال بلهجة مترعة بالمرارة:

- الـ«كوتانا» يحاولون عرقلة عملنا.. ولن يتركونا وشأننا بعد الآن.

تململ مروان في مكانه وقد عبست ملامحه، من بينهم جميعًا يتعرّض الشابّ إلى أكبر قدر من الضغط من طرف والده «كوتانا» عمّار. روان شقيقته، لكنّ أمرها مختلف، منذ زواجها لم تعد لوالدها سلطة صريحة عليها.. وإن كان ذلك أوّل عهدها بالخلاف العلنيّ مع والدها.

زمّ أوران شفتيه ولم يتكلّم. يُدرك منذ البداية أنّه إذا اختار صفّ المُخلِّص، فإنّه يعرّض نفسه لغضب الـ«كوتانا». طيلة حياته كان مُسخّرًا مثاليًا، يطيع الأوامر بلا نقاش، يتطوّع للمهام العسيرة، يحفظ أمن أهله وعشيرته ويعرف أولويّاته جيّدًا. وقد وجد تعليمات مجلس الحكماء تتماشى غالبًا مع مبادئه الشخصيّة، فلم يجد نفسه قطّ في صراع أخلاقيّ مماثل.

قال أخيرًا بنبرة هادئة:

- ألا يمكننا التّوصّل إلى أرضيّة مشتركة معهم؟

قالت روان بتؤدة:

- أبي مصرّ على خطّته، وهو يشحن الحكماء الآخرين ضدّنا.

يأخذ عمّار المسألة على محمل شخصيّ للغاية، لو أنّه يقف في صفّ واحد مع المُخلِّص لكان النّقاش مع الحكماء ممكنًا، إلا أنّه يُذكي الخلاف متعمّدًا ليدفع بعجلة مشروع النّزوح الذي صار يستحوذ على تفكيره. في غياب ممثّل داخل المجلس ينتصر لرأيهم يجدون أنفسهم أمام طريق مسدود.

قال آدم:

- لا تهمّني موافقتهم، سأفعل ما يجب عليَّ فعله ولو ذهبت وحيدًا. حين نفرغ من هذا، ستقنعهم النّتيجة.

سكتَ برهة ثمّ أضاف:

- إذا كان أحدكم يرغب في الانسحاب، فهذا الوقت المناسب لذلك.

مضت لحظات ثقيلة من الصّمت، ولم يبرح أحدهم موقعه، تنفّس آدم وهو يعلن:

- جيّد.. إذًا سنناقش التّرتيبات الجديدة. مروان، سترافق المرتزقة غدًا لإعادة بناء الفرن وستحرص على حراسته. أوران، ستتولى مراقبة المعدّات حتّى لا يقع إتلاف ما تبقّى منها.. لحسن الحظّ أنّ بدلتين منها ما زالتا صالحتين، كما أنقذنا بعض الأسطوانات الإضافيّة، لكنّها قد تحتاج إلى فحص دقيق.. سأطلب من نايت أن ينظر في أمرها.

سألت روان:

- أقترح أن نحتفظ بها هنا، في هذه الغرفة.

أومأ آدم موافقًا، من بين كلّ سكّان الجزيرة يثق في جدّته مارتا أكثر من غيرها.

هزّ أوران رأسه، لا يمانع في مراقبة المشفى. في الحقيقة، يفعل ذلك تطوّعًا منذ بضعة أيّام، منذ اللّيلة التي تعرّضت فيها مانويلا للمضايقة، يبقى متيقظًا لجزء من الليل ليطمئنّ إلى عدم اقتراب أحد الأولاد الجامحين منها أو إقدامهم على عمل متهوّر.

قال آدم مخاطبًا روان:

- جلد العظايا مسؤوليّتك.

ابتسمت المعالجة، ستحرص عليه وتضمن ألا يصيبه أذى.

أمّا آدم، فبعد أن تخرج جثّة مايك راسل من الكهف وتُوارى التّراب، سيصبح الوصول إلى الأعماق متاحًا له لإحضار عيّنة من النّباتات الطفيلية التي تمتصّ الـ«مادرا».

***

هبط الظلام على «آرا» وخفتت الحركة عبر الطّرقات. رغم انقضاء أجل الأيّام الثلاثة، لم يأت أحد إلى الكهف، باستثناء الفريق المكلّف بالدّفن.

حين دخل المُسخّرون لانتشال جثّة مايك راسل، وجدوه ممدّدًا على الأرض قُرب ألواح المعلّم الرّوحيّ المقدّسة في وضعيّة مستقيمة وذراعاه متعامدتان على صدره، عيناه مغلقتان وشفتاه جافّتان ومتشقّقتان. لم يملك أحدهم تحديد موعد الوفاة، لكنّ الجسد كان دافئًا نسبيًّا لّما تُداهمه برودة الموت، وبما أنّ الأقمشة البيضاء لم تتوافر لتكفينه، فقد استخدموا سعف النّخل لصنع محفّة ينقلونه عليها إلى مثواه الأخير في مقابر الـ«أيتورا» على جانب السّفح.

وبينما يمشي يونا ومروان بالمحفّة عبر طرقات القرية في سكينة المساء، توقّفت خطوات مروان فجأة. استدار يونا الذي يتقدّم صاحبه وسأل في استغراب:

- لماذا توقّفت؟

- أظنّني رأيت عينه ترمش!

- أنت تتخيّل.. إنّه ميّت. لقد أمضى ثلاثة أيّام داخل الكهف!

هزّ مروان رأسه واستأنف المسير، إلا أنّ عينيه ظلتا ثابتتين على وجه الرّجل الغريب. لقد تمنّى في وقت سابق أن يقبض عليه ويلقّنه درسًا، لكنّ المجلس حقّق القصاص باسمهم جميعًا أخيرًا.. حتّى لو بقيت جثته كاملة وسليمة، فإنّ الموت واحد في النهاية.

أطلق مروان صرخة مباغتة وأسقط طرف المحفّة فارتطمت قدما الجثة بالأرض، التفت يونا في حيرة ووضع الطرف الثاني على الرّمال وسأل:

- ما الأمر الآن؟

أشار مروان إلى الذراع التي انزلقت إلى الجانب وتدلّت.

- لقد تحرّكت يده.

وقف يونا يتأمّل الجسد المسجّى وقد فارقت ذراعه اليمنى وضعيّة التعامد على الصّدر وارتخت، إذا كان موعد الوفاة قريبًا فإنّ الجسد لن يتصلّب على الفور، وقد تحتفظ العضلات بمرونتها لبعض الوقت ممّا يؤدّي إلى تحرّك الأعضاء مع اهتزاز المحفّة. إلا أنّه أراد أن يُثبت لمروان ألا شيء يدعو إلى الذّعر، فانحنى ليلتقط الكفّ السّاكنة وهو يقول:

- انظر، إنّها لا تتحرّك..

لكنّه ما لبث أن أطلق صرخة بدوره حين قبضت الأصابع النّحيلة على كفّه وسمع صوتًا هامسًا مبهمًا. تعلّقت نظرات الشابين بوجه الميّت -الذي تبيّن أنّه ليس بميّت بعد- وقد تباعد جفناه وارتجفت شفتاه كأنّما يتكلّم. همس يونا في صدمة:

- إنّه حيّ!

- ماذا نفعل؟

- يجب أن نبلّغ الـ«كوتانا».

انطلق يونا في لمح البصر لينقل الخبر إلى الحكماء: الغريب الذي قضى ثلاثة أيّام داخل الكهف تحت حكم الـ«مادرا» خرج حيًّا يتحرّك ويتكلّم.

لم يحصل الرّجل على ماء أو غذاء طيلة الوقت ممّا أدّى إلى ضعفه ووهن جسده.. لكنّ الـ«مادرا» لم تقتله.

سرى الخبر بسرعة في أرجاء الجزيرة، جيء بمايك راسل على محفّته إلى دار العبادة واجتمع الـ«كوتانا» للنّظر في المعجزة. جاء الدّكتور كريس وتجرّأ على الاقتراب من الرّجل الذي اشتعل رأسه شيبًا كأنّما داهمته الشيخوخة فجأة، ساعده على الجلوس وقدّم إليه قربة ماء فشرب بنهم تحت العيون المتطلّعة، فيما جثت مانويلا إلى جواره بمقل دامعة وهي لا تصدّق أنّه قد عاد سالمًا من رحلة الموت.

تساءل الحكماء عن حقيقة ما حدث، ولم يجدوا تفسيرًا مقنعًا.. كان يجدر به أن يموت، لكنّه لم يفعل. تصاعدت الهمسات بين الحشود، لم يلتقط آدم معظمه لكنّه ميّز كلمة واحدة تتكرّر.. الـ«نافيا». لقد ادّعى مايك راسل في وقت سابق أنّه سليل المعلّم الرّوحيّ، ولقد امتلك مناعة ضدّ الـ«مادرا» منذ زمن، والآن يخرج من محاكمة الـ«مادرا» حيًّا يُرزق.

ثمّ حدث أمر غير متوقّع، من بين الجموع خرج رجل كهل من الـ«آم» واقترب حتّى جثا عند قدمي مايك ووضع بين يديه قطعًا من الفاكهة البريّة. تقبّل مايك الطّعام بامتنان وأكل بجوع من لم يطعم شيئًا منذ ثلاثة أيّام، ثمّ ربت رأس الرّجل بحركة أبويّة بسيطة، لكنّ عبرات التأثر تناثرت على وجنتي الكهل وهو يتراجع من حيث أتى.

شعر عمّار بالاستياء ممّا حدث، الرّجل الذي اعتبر منذ أيّام قليلة عدوّ الـ«آم» الأوّل ونفّذ بحقّه حكم القصاص يرجع في ثوب المبعوث من الموت، كأنّها قيامة شهيد لا مجرم! لم يكن حضوره وسط القاعة إلا مدعاة للبلبلة، فبادر بالإشارة إلى الدّكتور كريس وقال:

- خذوه الآن.

ساعده كريس ومانويلا على الوقوف وأسنداه ليسير إلى خارج المبنى بخطى مترنّحة، لقد دخل محمولًا على محفّة لا يكاد يتنفّس، والآن يغادر ماشيًا على قدميه بعد أن استعاد بعض القوّة، وذلك مشهد أشدّ وطأة على العامّة المتشبّعين بالأساطير والخرافات.

على امتداد الطّريق إلى المخيّم وسط الغابة تابعتهم النّظرات الزّائغة المليئة بالدّهشة، وأخذت أسطورة أخرى تتشكّل في الوعي الجمعيّ: أسطورة الرّجل الذي اختارته الـ«مادرا».

حال وصولهم إلى المخيّم، استلقى مايك على سرير مصنوع من الأوراق الجافّة وقد تملّكه الإجهاد، ازدرد مزيدًا من الماء وأكل سمكة مشويّة بقضمات صغيرة وقد ذهبت اللّهفة، ثمّ أغمض عينيه وخلد إلى النّوم. أطلّ الرّجال عليه بفضول لكنّ أحدهم لم يتحدّث، إن كان السّكان المحلّيون في حالة صدمة لخروجه حيًّا فلا شكّ أنّ الأمر جلل.

حين غاب مايك في سبات عميق وارتفع شخيره الرّتيب، انتحت مانويلا بكريس جانبًا.

- هل سيكون بخير؟

هزّ كريس كتفيه ومطّ شفتيه، العلوم التي يعرفها لا تنطبق كثيرًا على الـ«مادرا»، لذلك لا يمكنه الجزم، لكنّه يضع نظريّات في رأسه، قال يشرح:

- أعتقد أنّه قد تعرّض لردّ فعل تحسّسي ضدّ العقار، حين كنّا في اليخت!

تذكر مانويلا الأعراض التي ظهرت عليه، كانت شبيهة نوعًا ما بتلك التي أصابتها، لكنّها انجلت سريعًا ولم يُعانِ والدها كما فعلت، قالت تعترض:

- لكنّ ردّ الفعل التحسّسي جاء بعد وقت طويل من تلقّيه الحقنة.

- ربّما يكون فرط حساسية من النوع الثالث، حيث تتشكل معقدات مناعية بمرور الوقت.. ولعلّ ذلك قد مكّنه من الحصول على مناعة أقوى، أحيانًا يكون فرط التحسّس مؤشرًا لاستجابة مناعيّة قويّة.. وقد تُكسب صاحبها مقاومة لاحقة.

أطلقت مانويلا ضحكة قصيرة ثمّ قالت بعدم تصديق:

- هل تعتقد أنّني قد حصلتُ على مناعة عالية إذًا؟ أفضل من الجميع هنا؟

أومأ كريس مؤكّدًا، فسألت من جديد:

- لكن لماذا أصبينا نحن الاثنان فقط بالتّحسّس؟ مع أنّني قد حصلتُ على نسخة مختلفة من العقار.. لكنّ والدي حصل على العقار ذاته.. مثل الآخرين.

رفع كريس حاجبيه متأمّلًا قبل أن يقول:

- في الواقع هذا يجعل الأمر منطقيًا أكثر.. جرعة مختلفة من العقار أدّت لدرجة تحسّس مختلفة لديك ولدى مايك، في الوقت ذاته أنتما متشابهان جينيًا لذلك من المحتمل أنّ لديكما القابليّة ذاتها للتّحسّس وأيضًا للتّأقلم مع الـ«مادرا»!

فغرت مانويلا فاها برهة ثمّ سألت:

- إذًا.. هل هو بأمان الآن؟

- لا أعتقد أنّ أحدًا يدري بعد.. السكّان المحلّيون في حالة صدمة، لذلك من المرجّح أنّ ما حدث مع مايك أمر غير مسبوق. لعلّ العقار قد غيّر عملية أيضه، مما جعله يتعامل مع طاقة الـ«مادرا» كما يتعامل الجسم مع إشعاع غريب، بطريقة فوضويّة ومؤلمة. إلا أن التّعرض المطول للإشعاع طغى على المقاومة الجزئية، فقد اخترقت الـ«مادرا» خلاياه، محرقة أنسجته ومُحورة إياها بدلًا من قتله مباشرةً. لقد خضعت مقاومته لاختبار إجهاد

شديد، مما قد يكون أدّى إلى اندماج خلوي بين الـ«مادرا» وجزيئات البلازما التي حُقن بها، هذا يشبه العلاج الجينيّ.. حيث تتحوّر الجينات لتتعامل بطريقة مختلفة مع الـ«مادرا»..

حاولت مانويلا أن تتابع أفكار كريس بما تملكه من معرفة بيولوجيّة سطحيّة ثمّ سألت في صدمة:

- هل تعتقد أنّ.. طفرة جينية قد حدثت عنده؟

- ربّما.. إمّا ذلك وإمّا...

- ماذا؟

لم يرد كريس أن يُفسد بهجتها بعودة والدها من الموت، لكنّه نطق بالكلمات التالية فيما يشبه الاعتذار:

- وإمّا أنّه يتسمّم داخليًا بنسق بطيء..

مكتبة
t.me/soramnqraa

(18)

اليوم الثامن عشر بعد السّتين

حمل آدم جلد العظايا على كتفه وسار برفقة روان حتّى مدخل الكهف، حملقت فيهما العيون الفضوليّة في أثناء عبورهما طرقات القرية ولعلّ كثيرين تساءلوا عمّا يفعله المُخلِّص والمعالجة بالجلد الأسود الخشن، إلا أنّ أحدهم لم يجرؤ على التفوّه بما يضمر، واكتفوا بتوجيه التّحيّات والإيماءات الصّامتة.

سيجفّ الجلد أسرع داخل الكهف، بعيدًا عن الرّطوبة والأمطار المتفرّقة التي يناله منها رذاذ متفرّق كلّ مساء. يعمل الحدّادون في تلك الآونة على صهر المعدن وتفتيته بعد أن أعادوا بناء الفرن ثانية، حين يجفّ الجلد وتجهز عجينة المعدن سينهي صناعة درعه المبتكرة والفريدة، وحينئذٍ سيكون دخول الأنفاق متاحًا.

فردا الجلد على الأرض ثمّ ثبّتته روان بالأوتاد الخشبيّة عند الأطراف.

قال آدم:

- سأذهب الآن.

أومأت روان بابتسامة وهمست:

- سأنتظرك.

اقترب آدم من الممرّ الحجريّ الذي سبق وتسبّب في انهياره مرّتين، مرّة حين طاردهم رجال مايك راسل وحاصروهم داخل الكهف ومرّة ثانية

حين رجع من الأعماق على ظهر العظايا، والآن سيقطع الطّريق ذاتها حتّى المساحة الفاصلة بين عالم السّطح وعالم الأعماق، حيث السّتارة النّباتيّة الكثيفة التي تتصدّى لـ«مادرا». سيكون عليه الذّهاب وحيدًا، فروان ستبطئه لا محالة، الرّحلة التي تطلّبت يومين مشيًا تلك الكرّة ستكون أقصر بمراحل بفضل قفزات المُسخِّر التي صار يملك زمامها.

رغم ذلك، وجد الرِّحلة مرهقة. بعد ساعة أو نحوها اضطرّ للتوقّف ليلتقط أنفاسه، استنزفتْ القفزات مخزونه من الطاقة أيضًا فقد ارتخت أطرافه وانتابه الخواء، لم يكن ذلك مؤشّرًا طيّبًا. جلس على الأرض واستند إلى الجدار يطلب الرَّاحة، ما زالت أميال كثيرة تفصله عن وجهته، تليها رحلة العودة.. هل بالغ في تقدير قدراته؟

لم يُحضر طعامًا أو ماءً، معتقدًا أنّ المهمّة يسيرة لا تستحق! إلا أنّه يعرف الآن أنّ طاقته تنضب مثل غيرها، وأنّ القفز مثل المشي مجهود عضليّ معتبر. لم يسبق له أن شارك في ماراثون مسافات طويلة، لكنّه يفعل الآن بطريقة ما. يحتاج العدّاؤون إلى فترات استراحة قصيرة، وكذلك سيفعل.

أغمض عينيه وتنفّس بعمق، وقبضت يده على «حجر الشّمس» الذي يتدلّى على صدره. قلادة روان. قريبًا ستختفي الـ«مادرا» من حوله ويتلاشى أثرها من الجدران، عندئذٍ سيعتمد على الحجر لاستمداد الطاقة. بعد دقائق من الرّاحة، انتصب واقفًا وقبض على القلادة. هذه المرّة لن يتوقّف حتّى يبلغ موقع الستارة النّباتيّة.

بشكل ما، يتفهّم دوافع عمّار. يحلم الرّجل منذ خمسة وعشرين عامًا برحلة إلى الدّيار، رحلة آمنة وقصيرة ربّما، يرجع بعدها ليستلم مهامّه كحكيم مبجّل لـ«آرا» دون أن يشكّك أحد في انتمائه أو ولائه، ودون أن يفقد امتيازاته التي كدّ لحيازتها عمرًا.

إلا أنّ آدم لا يستطيع تجاهل الحلّ القريب في متناول اليد ليمكّن صهره من المضيّ في مخططه الذي سيقلب حياة الـ«آم» رأسًا على عقب. التّهجين سلاح لا يُقدّر بثمن، وهو لا يمانع أن ينتفع به السّكان المحليون، أن يسافروا ويختلطوا بالأقوام الأخرى. ولعلّ حقبة جديدة قد بدأت منذ رحيل «كوتانا» تافي وتوقّف إرث الـ«نافيا» عنده، لن يُقتل الغرباء بعد الآن إذا أرادوا مغادرة الجزيرة، وإذا أراد أحد الـ«آم» مرافقتهم نحو العالم الخارجيّ فلا حرج في ذلك. سيحدث النّزوح تدريجيًا بأعداد محدودة ومعقولة، وسيعرف الهجناء من الأجيال القادمة أنّ لديهم وطنًا في مكان ما من المحيط الهنديّ، وإذا ما عزموا على الوصول فسيفعلون ذات يوم كما فعل.

لا يتطلّب الأمر تعريض الجميع للخطر والحثّ على هجرة جماعيّة لأنّ النّهاية قريبة. النّهاية قد لا تأتي أبدًا، إذا أنجز المهمّة كما ينبغي وعرف كيف يعيد تدفّق الـ«مادرا» إلى سالف عهده. لقد تساءل كثيرًا إن كان أيّ من ذلك يستحقّ معاداة الـ«كوتانا» وفقدان مساندة عمّار الذي كان حليفه الأوّل وإهانة الـ«آم» بالتطاول على مقدّساتهم؟

وقد كانت الإجابة دائمًا: نعم.

قد تهتزّ مكانته في نفوسهم الآن وقد يشكّكون في رجاحة رأيه.. لكنّهم سيمتنّون له لاحقًا.

أوقف اندفاعه بغتة حين لاحت السّتارة النّباتيّة أمام عينيه، لهث بشدّة وانحنى إلى الأرض وهو يضغط على جانبه الأيمن حيث انفجر ألم ممضّ، بعد دقائق أخذ الألم يتلاشى تدريجيًا، قد يكون مجرّد شدّ عضليّ أو اختلال للتنفّس في أثناء المجهود، تمالك نفسه أخيرًا وخطا باتّجاه النّبات المعلّق الذي ينمو في خمائل متداخلة.

تأمّل الأهداب الفضيّة التي تتوهّج بوميض يحاكي لمعان الـ«مادرا»، والأوراق العريضة التي تنقبض وتنبسط ببطء كأنّها تتنفّس، والسّيقان الملتفّة بعضها حول بعض مثل نسيج متماسك.. لم يعرف أيّ الأجزاء تصلح لصنع الأقنعة ولا أيّها ينهض بمهمّة ترشيح الهواء، لذلك مدّ يده واجتثّ مجموعة من السّيقان من جذورها وجمع الأوراق والألياف التي تفرّعت عنها بحرص محاولًا ألا يسحقها أو يتلفها، ستقرّر روان ما تفعله بشأنها.

احتضن الحجر مجدّدًا يستمدّ منه مزيدًا من الطاقة، ثمّ استعدّ لرحلة العودة.

***

لم يغادر مايك سريره معظم النّهار، لكنّ الزوّار توافدوا للقائه، زوّار من السّكان المحليّين يجذبهم الفضول. تحدّثت إليهم مانويلا نيابة عنه، كانوا يطالعونه بنظرات دهشة وانبهار كما يطالع الأطفال في حديقة الحيوان الفصائل القادمة من بلاد بعيدة. لم يعد شخصه يثير الاشمئزاز والكراهية، بل نوعًا ما.. التّقديس.

كان مايك يشعر بالضّعف ويتحرّك بصعوبة، لكنّه يتحدّث حديثًا متقطّعًا، وحين يأتيه الزوّار يطلب من مانويلا أن تترجم، ورغم أنّ كلماته بدت أشبه بهلوسات بلا معنى فقد فعلت. تحدّث عن رجل اسمه «سليمان بن إبراهيم» قال إنّه يراه في أحلامه، وقد حدّثه سليمان عن رحلته الأولى إلى «آرا».. قال كلامًا على لسان الرّجل، عن الغرباء والشياطين ورؤوس مقطوعة رُفعت على الحراب. وكان المستمعون يرتجفون ويشهقون ثمّ يقبّلون ظاهر كفّ مايك في خشوع قبل انصرافهم.

وحين سألته مانويلا عمّن يكون «سليمان بن إبراهيم» هذا، قال بابتسامة باهتة:

- الرّجل الذي تنحدر عنه سلالتنا يا ابنتي.. نحن أحفاد سليمان بن إبراهيم، المعلّم الرّوحي للـ«آم»!

تعلم أنّ والدها قد ادّعى ذلك فيما مضى، لكنّها لا تعرف لماذا يختلق تلك القصّة الآن بعد أن نجا من الموت بمعجزة، وحين سألته عن ذلك، قال بثبات:

- ليست قصّة مختلقة، بل هي حقيقيّة جدًا.. وهم سيعرفون هذا.

حدّقت في ملامحه الجادّة برهة ثمّ هزّت كتفيها، لا تريد أن تتورّط في أيّ ممّا يعزم على عمله، إنّها لا تصدّق أنّه على قيد الحياة حتّى بعد أن تهيّأت لاستقبال جثّته منذ أيّام.. لكنّه لا يتغيّر أبدًا، لا يزال يفكّر بطريقة ملتوية ويخطّط للصفقة التالية. وهي لا تحبّ ذلك على الإطلاق.

مدّ مايك ذراعه ناحيتها وقال آمرًا:

- ساعديني على النهوض. أودّ رؤية الرّجال..

أخذت مانويلا بذراعه وسارت برفقته بضع خطوات حتّى صارا داخل المخيّم. منذ الأمس لم يأت أحد لرؤيته باستثناء كريس والسّكان المحلّيين.

استقبل البحّارة مايك راسل في مخيّم الغابة بفتور، مشى ببطء حتّى توسّط المساحة التي احتلّها رجاله -سابقًا- وأعلن بأعلى ما تسمح به حنجرته المتعبة:

- لقد عدتُ! ألا ترحّبون بي؟

صافحه قبطان «النمر الأبيض» وربت كتفه، وجاء بحّارة آخرون لإلقاء التحيّة، لكنّ الاستقبال العام اتّسم بالبرود واللا مبالاة. لم يكن أغلبهم قد اهتمّ كثيرًا بمعرفة مصيره بعد خضوعه لمحاكمة مجلس الجزيرة، إلا على سبيل الفضول، وقد تقبّلوا -بل توقعوا- إعدامه سريعًا، وربّما فوجئوا مثل الجميع بتغلّبه على تأثير الكهف.. لكنّ معظمهم لا يغتبط

كثيرًا بعودته. لقد كان ربّ عملهم في وقت سابق، وربّما لو بقيت السّفن هناك على حدود الظلة لشعر بعضهم بالحماس، فسلامته قد تضمن لهم سبيل الرجوع إلى الدّيار. أمّا والوضع ما هو عليه، فإنّهم يشتركون في المصاب والمصير ولا فضل لأحدهم على الآخر.

بعد برهة قصيرة، طلب مايك من مانويلا أن تساعده على العودة إلى فراشه، لم تعد قدماه تقويان على الوقوف مطوّلًا. مشى بتؤدة حتّى وصل إلى السّرير الواطئ الذي يقع بمنأى عن باقي المخيّم، استند إلى مانويلا ليمدّ ساقيه أمامه واتّكأ على جذع الشجرة القريبة، إلى جوار مرقده تكدّست كومة من الأشياء التي أحضرها مريدوه من السّكان المحليّين: قطع فاكهة وسمك مشويّ وخبز وكوز عسل.

قالت مانويلا:

- إذا كنت لا تحتاج إلى شيء منّي، فسأعود إلى المشفى.

قبل مجيء مايك، لم تدخل مانويلا المخيّم. في وقت سابق، فضّلت أن تنفصل عن مجموعة والدها حين كانوا على سفينة القراصنة، وقد بدا أنّها مصرّة على إبقاء مسافة بينها وبينهم. وربّما يفضّل مايك أنها فعلت، فهي شابّة واحدة ضمن جمع من الرّجال الهمجيّين لا يستأمنهم عليها.

ضحك مايك وهو يشير إلى المؤونة:

- ألست جائعة؟ أراهن ألا مائدة على الجزيرة الليلة تزخر بمثل هذا الزّاد!

ابتسمت مانويلا بوهن ثمّ اعتذرت:

- سأشارك السيّدة مارتا عشاءها.

لوّح مايك بكفّه يصرفها وأشاح بصره عنها. لم يشيّعها بنظراته وهي تبتعد حتّى اختفت خشخشة الأوراق التي وطئتها قدماها. من موقعه

تصله الهمهمات البعيدة للرّجال الذين يشغلون المخيّم، إنّهم لا يريدونه الآن، لكنّهم سيفعلون في القريب.

***

داخل الدّغل، يعيش واحد وعشرون رجلا أجنبيًا جمعهم مايك راسل من مختلف أنحاء العالم، تتنوّع الأصول والأعراق ضمن الفريق المتبقّي، وهم أساسًا مرتزقة رافقوه في رحلته الأصليّة على متن «الأسطورة»، وآخرون التحقوا به على متن «سارا»، أمّا القبطان والبحّارة فهم مزيج من الرّجال الذين خدموا في وقت سابق على «الأسطورة» بالإضافة إلى فريق «النمر الأبيض» الذين اصطحبتهم مانويلا في مهمّتها العلميّة.

انتظمت حياتهم على الجزيرة في غياب مايك بعد أن تقبّلوا القواعد التي أرساها من سبقهم من الرّجال. عملوا على تمهيد جزء من الأرضيّة وتجهيز الأسرّة الصّالحة للنّوم وتظليلها حماية من المطر الذي يهطل كلّ مساء. لم يعد أحدهم يشعر بخضوعه لتسلسل هرميّ للسلطة بعد فقدان السّفن وفشل المهمّة برمّتها، أصبح الجميع سواسية في حاجتهم إلى النّجاة وتحصيل القوت. وربّما تشكّلت كتل غير متجانسة قوامها الألفة والزّمالة، وبدأ آخرون يتصدّرون لتسيير المجموعات داخليًا.

يبدأ نهارهم بزيارة للمشفى -باستثناء أولئك الذين تلقوا العقار في وقت سابق- حيث يحصل كلّ واحد منهم على حبّة دواء تمكّنه من إكمال النّهار دون التعرّض لخطر مميت، ثمّ يمضون ساعات في أعمال التحميل والبناء مثل أفراد مجتمع صالحين، قبل أن يحضر من يرغب منهم دروس اللّغة والدّين التي شاع أمرها بعد إعلان زواج ساندي المرتقب.

وجد نايت ترشيح المعلّمة تاليا لعقد الارتباط الاستراتيجيّ بين الفريقين منطقيًا، بالنظر إلى الدّور الذي لعبته في التّرجمة، فهي واحدة من

الأفراد النّادرين على الجزيرة الذين يتقنون الإنجليزيّة إلى درجة ما. لكنّ براندن وجد سبيلًا إلى السّخرية وهو يستفزّ ساندي:

- إنّها كبيرة في السنّ مقارنة بمعدّل سنّ الزّواج على الجزيرة.. تبدو في الثلاثينات من عمرها، فيما تزوّج المجتمعات القبليّة بناتها دون العشرين. إنّها عانس بالمقاييس المحليّة.. بضاعة سيئة غالبًا.

عبس ساندي وتجاهل محاولات براندن السّخيفة.

- أو ربّما تكون مصابة بمرض خطير ما، أو لديها عيب خلقي تخفيه تحت عباءتها.. من المؤسف أنّها لن تخضع لاختبار طبيّ قبل الزّفاف.. لو كنت مكانك لأخذت حذري!

انفجر ساندي في وجهه:

- أنت حاقد لأنّ الاختيار لم يقع عليك.. ولن تحصل على صبيّة ولا عانس!

أطلق براندن ضحكة تهكّم وردّ بعبارات نابية، فاشتعلت مشادّة بين الرّجلين.

لم يحاول نايت التّدخّل وفرض النّظام، لم يبد أنّ الرّجال يصغون إليه أخيرًا وهو لم يعد يرغب في تولّي منصب القيادة على كلّ حال. هناك شيء غريب حيال تطوّر الحال النّفسيّة للمرتزقة داخل الغابة، في البداية كانوا يتذمّرون من المطر ومن اضطرارهم للعمل، من الجوع والرّطوبة وسوء التغذية.. حسب أنّ أوّل ما سيعمدون إليه بعد أن تتوقّف العاصفة هو بناء طوف خشبيّ ومحاولة المغادرة، ربّما تعترضهم سفن عابرة تقلّهم إلى الدّيار.

بعد أن فُتحت أمامهم أبواب القرية، وصار بإمكانهم التّنقل بحريّة، شعر باختلاف في المزاج العامّ، تقبّل للوضع مع تأقلم سلس، كأنّ البقاء أصبح خيارًا متاحًا لأغلبهم. لقد عرف التحوّل ذاته، وربّما استغرب من

رغبته في البقاء.. لكنّه حسب الأمر يخصّه وحده، حتّى شاهد ساندي يقبل الزّواج من المعلّمة. تدريجيًّا، تمكّن منه اعتقاد بأنّ للجزيرة سحرًا ما.. ربّما يتعلّق الأمر بالـ«مادرا»، وإلا فما الذي يجعل عمّار وآدم يختاران الزّواج والاستقرار هنا؟ ومانويلا أيضًا تتصرّف كأنّها تنتمي إلى الجزيرة.

حمل نايت الألياف المجدولة على كتفه وخطا داخل الدّغل مخلّفًا الرّجال ومهاتراتهم المسائيّة وراءه، توقّفت نظراته على مايك النّائم في ركن قصيّ. بدا ربّ عمله السّابق عليلًا منذ وصوله، قال الدّكتور كريس بالأمس أنّ صحّته تدهورت، وقد يحتاج إلى وقت طويل ليستردّ عافيته كاملة.. إذا فعل مطلقًا. تأمّل وجنتيه الغائرتين وعينيه الجاحظتين والنّحول الذي أصاب جسده، وفكّر أنّ الـ«مادرا» لم ترحمه.

انتهى ذلك المساء من جدل أرجوحته الشّبكيّة التي عمل عليها طيلة الأسبوع، اختار موضعًا مناسبًا بين شجرتين غير بعيد عن موقع المخيّم ناشدًا بعض الرّاحة والسّكينة، قاس المسافة بخطواته وفرد النّسيج على الأرض قبل أن يهزّ رأسه في رضا، ثمّ انبرى يربط طرفها الأوّل حول الجذع العريض. لفّ الألياف مرّتين وربطها بإحكام، ثمّ شدّ الطّرف الثاني وانتقل إلى الجذع المقابل، بعد دقائق قليلة كانت الأرجوحة جاهزة. سحب النّسيج نحو الأسفل ليختبر متانتها قبل أن يحمّلها ثقله كاملًا.

استلقى على الأرجوحة أخيرًا وحرّكها بلطف يمنة ويسرة، وخزته العقد السّميكة والألياف الخشنة، لعلّ عمله لم يكن بالجودة المطلوبة، لكنّه قد يتجاوز عن بعض التّفاصيل مقابل التّجربة العامّة، يمكنه اعتبار المنتج مقبولًا بالنّظر إلى خبرته الضئيلة في المجال. فكّر أنّ عليه طلب النّصيحة من الحرفيّين المتمرّسين في القرية، من المؤكّد أنّ لديهم حيلًا ونصائح مفيدة لمشاركتها. سيطلب من المعلّمة تاليا مرافقته والتّرجمة من أجله بعد حصّة الدّراسة.

أسند رأسه إلى الوراء وأصغى إلى نعيب البوم في البعيد، فيما شردت عيناه عبر الأغصان المتشابكة التي تغطّي المساحات فوق رأسه، انصرفت أفكاره نحو تاليا.. تردّد في ذهنه سؤال براندن: لماذا لم تتزوّج حتّى ذلك الوقت؟

لا يعرف بعد كثيرًا عن عادات الجزيرة، لكنّه لاحظ أنّ مجلس السيّدات -زوجات الحكماء والوجهاء- معظمهنّ في الأربعينات من عمرهنّ، فيما لا تتجاوز فتياتهنّ اللاتي يرغبن في تزويجهنّ العشرين كحدّ أقصى. لكنّ أيًا منهنّ لم تجازف بتقديم ابنتها كبش فداء، لقد استقرّ القرار على تاليا التي تكبرهنّ سنًا، لأنّها بلا عائل، أب أو شقيق يدافع عنها أو أمّ يهتمّ لمصلحتها، وقد أغضبته تلك الملاحظة إلى حدّ بعيد.

ربّما لا يشكّل ذلك الزّواج أكثر من نزوة عابرة عند رجل مثل براندن، ومغامرة مثيرة عند ساندي، زواج غير موثّق قد لا يعتبره خيانة صريحة لصديقته في الدّيار، ما يحدث في «آرا» يبقى في «آرا» كما يقول مايك راسل.. لكنّه لا شكّ يعني كثيرًا بالنّسبة إلى شابّة فاتها قطار الزّواج بمقاييس عشيرتها.

ساءه لفظ «عانس» بحقّها، إنّها سيّدة لطيفة ومتعاطفة، وعلى قدر من الجمال أيضًا.. تستحقّ أفضل من الاكتفاء بخيار المجلس وحسب، ومن أن تكون بيدقًا بلا قيمة لتحقيق غرض سياسيّ ما لم يكتشفه بعد.

- أرجوحة جميلة!

قاطع صوت مايك راسل سيل أفكاره، لم يشعر بوقع خطواته حتّى صار عند رأسه، هامة منحنية تتوكّأ على عصا وأنفاس متقطّعة بسبب الجهد المبذول. ساء نايت أن يغفل إلى تلك الدّرجة ويخفض حذره، اعتدل في جلسته وألقى نظرة عابرة على مايك قبل أن يرجع إلى التّحديق في

الأغصان فوق رأسه، لم يعد يعتبره ربّ عمل بعد الآن، لا أحد من الرّجال يفعل، فقد المستثمر منصبه بعد غرق السّفن وفشل المهمّة.

- إذًا، كيف هي العودة من غياهب الموت؟

ابتسم مايك دون انفعال قبل أن يقول:

- أعرف أنّك لن تصدّق هذا.. لكنّني لم أعد الرّجل الذي عرفته. يحتاج المرء إلى تجربة كهذه ليفتح عينيه على حقائق العالم العميقة!

داعبت ابتسامة ساخرة شفتي نايت، يودّ أن يصدّق أنّ مايك قد تغيّر حقًّا. لكنّ شيئًا ما في هيئته ونبرته يبدو متكلّفًا وغير مقنع. عاد مايك يقول:

- نحن على أبواب تحوّل عظيم، أمامي مهمّة في غاية الأهميّة.. وأحتاج إلى رجال. أريدك إلى جانبي يا نايت، حين يحدث ذلك.

حملق نايت في العينين القريبتين والمطلّتين من أعلى، بدتا عميقتين ومخيفتين. فكّر نايت أنّه مريض بالفعل، لكنّ المرض الأخطر يسكن صدره. رغم هيئته المختلفة؛ كتفيه المتهدّلين وضعفه العام، لا يزال الرّجل يطالع العالم بنفس النظرة الطامعة المتعطّشة للقوة والثروة.

- مايك، أعتقد أنّ عليك صرف النّظر عن هذا. اُنظر، لقد مُنحتَ فرصة جديدة، ربّما عليك استغلالها بالطريقة المناسبة.. إذا شئت رأيي، اجمع الرّجال الذين يرغبون في الرّحيل، واشرع منذ الغد في بناء مركب شراعيّ يأخذكم إلى الدّيار..

- لا عليك. سأتدبّر أمري.. إذا غيّرت رأيك، تعرف أين تجدني.

حدجه نايت بنظرة طويلة مرتابة. لم يبد أنّ مايك قد تعلّم شيئًا من تجربة الموت التي مرّ بها، وقد بدا مستمتعًا بالاهتمام الذي يحظى به من السّكان المحليّين كأنّه أسطورة حيّة تغلّبت على قوى الـ«مادرا»، ولعلّه ينوي استغلال الظروف للحصول على مبتغاه في نهاية الأمر. سمع نتفًا

من الحكايات التي يدّعي أنّها تظهر له في الرّؤى ويدرك أنّه يدبّر أمرًا ما.. مايك لن يرحل في القريب.

- ماذا عنك؟ هل تغريك مسألة الاندماج والبقاء بالفعل؟

شعر نايت بوطأة نظرات مايك السّابرة الثقيلة، لكنّه لم يردّ. لا يعرف إن كان سيبقى لوقت طويل، وإن كان يهتمّ بالحصول على تصريح الأهليّة للاندماج بعد الآن، لكنّه يهتمّ بالخلود إلى النّوم أخيرًا في أرجوحته المعلّقة دون أن يشعر بالرّطوبة تحته، وربّما يضع أهدافًا مرحليّة أخرى في الغد. لكنّه قطعًا لا يريد أدنى علاقة بمايك وخططه. لقد شعر بما يكفي من تأنيب الضّمير لأنّه لم يردعه في وقت سابق، ولأنّه سمح له بالتحكّم فيه كأنّه أداة لا إرادة لها ولا حريّة، لقد أطلق النّار تحت إمرته وأسر المدنيّين الأبرياء وعرّض آخرين للخطر، وأضرم النّار في بيوتهم.

لا يريد لأيّ من ذلك أن يتكرّر!

سحب أنفاسًا قصيرة منتظمة ليطفئ النّار التي تلتهب داخله، وأغمض عينيه ليتجاهل وجود الرّجل الذي زجّ بهم جميعًا في ذلك المأزق ولا يزال يتصرّف كأنّ شيئًا لم يكن. بعد لحظات، تناهى إليه وقع خطوات مايك وهو يبتعد، يجرّ قدميه ويضرب الأرض بعصاه مثل عجوز متعب.

***

رجع آدم من الأعماق مساءً، مكدودًا لا يكاد يمشي على قدميه. رغم قفزات المُسخِّرين التي تجعله يكاد ينزلق على الأرض مثل قطار على سكّة ممغنطة، فقد استغرقته الرّحلة ذهابًا وإيابًا ساعات طويلة. استنزفته العودة أكثر ممّا قدّر لها أن تفعل، واضطرّ إلى التوقّف أكثر من مرّة وأخذ استراحات قصيرة.

عالجت روان التقرّحات في قدميه، ثمّ وضعت كفّها على جبينه وهي تقول بحنوّ:

- أنت تنهك نفسك.

ابتسم آدم في رضا، يريح رأسه على ركبتيها ويتلقّى من راحتها ذرّات الشفاء المذهلة، مهما بلغ منه الإرهاق فإنّ لمسات العلاج السّاحرة تُذهب عنه البأس في لمح البصر.. لذلك فإنّ الحفاظ على الـ«مادرا» واجب أساسيّ يُقبل عليه بحماس.

أغمض عينيه لينال استراحة قصيرة فيما أخذت روان تقلّب السّيقان والأوراق التي أحضرها. لا تعرف بعد كيف يمكنها استغلالها لتنقية الهواء، لكنّها تؤمن بحدسها وستجد طريقة ما.

نام آدم ساعتين، ثمّ نهض وهو يشعر بانتعاش تامّ.

كانت روان قد انهمكت في أعمالها، أمامها قدور تغلي وفي باطنها أجزاء من نبات الأعماق المتسلّق، فصلت الجذور والأوراق والأهداب وراحت تحاول استنباط وصفات ما. قال يداعبها:

- هل هذا ما سنتناوله على العشاء؟

زوت روان ما بين حاجبيها وقالت دون أن تلتفت:

- حسبتك ألفتَ الصّومَ هذه الأيّام!

أطلق زفرة طويلة وقال في أسف:

- إن لم يكن لديك طعام فسأضطرّ إلى زيارة السيّدة مارتا!

استوقفته قبل أن يخطو خارج الكوخ:

- كنتُ أمازحك. سيحضر العشاء بعد حين.

حدج وجنتيها المتورّدتين حرجًا بنظرة باسمة وقال:

- سأزور مايك راسل وأعود بعد حين، لا تأكلي من دوني!

تقدّم عبر العرائش المفتوحة التي تظلّلها الأشجار الباسقة وبحث بعينيه عن مايك راسل، حتّى ميّزه في موقع منعزل على حدود المخيّم.

تأمّل ملامح الرّجل التي ازدادت شحوبًا وشعره الذي كساه البياض، فسرت في جسده ارتجافة غير مرئيّة. تذكّره التّغيّرات الطارئة على شكل مايك بتلك التي ظهرت عليه بعد ليلة واحدة داخل الكهف، إنّها مسألة جينات.. يُدرك هذا. بعض النّاس يتأثّرون بالـ«مادرا» بطريقة مختلفة.

لكنّ الرّجل يلعب لعبة خطرة.

حين أخذت الحكايات تنتشر في القرية عن الرّؤى التي ظهرت لمايك في أثناء خلوته، عرف أنّ الرّجل لم يضيّع وقته وهو داخل الكهف.

منذ سنوات، كانتا مانويلا سببًا في تعلّم آدم اللّغة البرتغالية، من خلال الرّسائل التي كانت تبعث بها أثناء رحلاتها، فتمكّن لاحقًا من الاطّلاع على ألواح المعلّم الرّوحيّ المخفيّة في حجرات الكهف وتفسير فحواها، لينفرد بمعرفة لم يسبق أن حازها أحد. وإذا كانت مانويلا تتقن اللّغة، فلا عجب من إتقان مايك لها، إنّها مسألة ثقافة وإرث عائليّ.

إذًا لقد عثر مايك بدوره على الألواح الخشبيّة وأمضى وقته كلّه يفكّ شفرتها، وهو الآن يعرف القصّة كلّها، ويختار منها ما يناسبه لكسب اهتمام السّكان المحليّين وتأكيد صفته المدّعاة كسليل للـ«نافيا».

قال آدم دون مقدّمات:

- إذًا، لقد قرأت الألواح.

رفع مايك حاجبيه وقد باغتته المفاجأة، لكنّه سرعان ما سيطر على انفعاله وابتسم.

- إذًا فقد فعلتَ أيضًا.

تبادلا نظرات سابرة في صمت، قبل أن يقول مايك في فضول:

- إذًا، لماذا لم تكشف أمري؟ أم لعلّك تحتفظ بالسرّ لمرحلة متقدّمة من اللّعبة؟

- أيّ لعبة؟

- علم.. أنت متقدّم عليَّ بمراحل. ولستُ أحاول منافستك على المكانة والحظوة. أنت المُخلِّص المبجّل، أمّا أنا فسأكتفي بمرتبة «الرّجل الذي اختارته الـ«مادرا» أو «حفيد المعلّم الرّوحي» أو حتّى «صاحب الرّؤى الخارقة».. أيّ منها مناسب.

عقد آدم ما بين حاجبيه، إنّه محقّ، بوسعه أن يكشف أمره. حين تناهى إليه ما يتردّد على الألسن من «رؤاه» العجيبة ضحك ساخرًا، لكنّه لم يقل شيئًا. باستثناء عمّار، لا يعرف أحد عمّا قرأه في الألواح، ولم يكن ينوي أن يكشف أمرها لأحد غيره.

لكنّه قد يفعل، في وقت ما، إذا تطلّب الأمر، إلا أنّه لا يرى ما يدعو إلى ذلك بعد.

مايك يتخبّط مثل الدّجاجة المذبوحة، لكنّه يشفق عليه لا غير. لقد امتصّ جسده كميّات كبيرة من الـ«مادرا»، أكثر ممّا يتحمّله الجسد البشريّ، وإن كان لم يمت بعد فهو -حسب تقدير روان- قد تسمّم بشدّة، سيحتاج إلى تدخّل المعالجات وحمّامات يوميّة في الأحواض الدّافئة ليتخلّص من السّموم.. ومع ذلك فلن يمدّد ذلك عمره إلا قليلًا. لكنّه لن يحصل على أيّ من هذا، طالما لم يقرّر المجلس مساعدته.

لذلك لا يتدخّل بعد، فليتركه يستمتع بفترة مجده القصيرة.

- هل جئت لنتحدّث عن إرثنا المشترك؟

لا يحبّذ آدم أن تكون له قواسم مشتركة مع مايك على الإطلاق. قال آدم بصرامة:

- جئت لأحذّرك، أيّا ما كان ما تنوي عمله، فلن أسمح لك بإيذاء سكّان الجزيرة أو الحصول على شيء من «حجارة الشّمس»!

قال مايك بنبرة غامضة:

- لا تقلق، لن آخذ شيئًا لا يهبه السّكان لي طواعية.

استدار آدم وابتعد دون تحيّة، لا يزال الحديث إلى مايك يثير أعصابه في كلّ مرّة.

جاء صوت مايك من ورائه هادئًا وباردًا مثل نصل حادّ يشقّ سكون الغابة:

- واحد منكم لن يرجع.

- ماذا؟

التفت آدم نحوه في شكّ، على مسافة أمتار لم يعد يتبيّن ملامحه بوضوح، لا تلوح من الرّجل في الظلمة إلا خصلاته الشائبة البيضاء وعيناه الضّيقتان اللامعتان. أردف مايك:

- ستدخلون أنفاق الـ«مادرا»، أليس كذلك؟

عبس آدم، لقد قصد نايت ورجاله من أجل البدلات وفرن الحدادة، وهم سيتحدّثون في ما بينهم لا ريب، لن يبقى الأمر سرّا على مايك. قال متهكّمًا:

- هل هذه نبوءة ما؟

- الـ«مادرا» ستأخذ قربانها.

سرت في جذع آدم رجفة اخترقت عموده الفقريّ وهزّت جسده من الدّاخل. إنّها مهمّة خطرة، بل خطرة جدّا وكلّ ما يفعله مايك هو ركوب الموجة، إذا تنبّأ بأمر ما وثبتت صحّته فسيكسب احترام العامّة، إلا أنّ آدم لن يسمح له بصناعة مجده على حسابه. ستكون مسؤوليّته أن يرجع كلّ واحد منهم سالمًا. لذلك سيمضي في سبيله ولن يضع لكلمات العجوز المترنّح وزنًا.

- آدم، هل يمكن أن نتحدّث؟

لم يكن صوت مايك الذي استوقفه هذه المرّة، بل نايت. لحق به في خطوات واسعة، ووقف إزاءه يهرش مؤخّرة شعره القصير في شيء

من الارتباك. لم يعد آدم يستشعر نحو الرّجل عداءه السّابق، لقد أثبت خلال الأيّام الماضية تعاونه وفائدته. تحقّق من بدلات الحماية بعناية وعدّل صمّامات أسطوانات الهواء مرّات ومرّات ليتأكّد من كفاءتها، جعله سلوكه المسؤول يدرك مقدار تحامله. يستحقّ نايت أن يمنحه فرصة.

- كنتُ أفكّر.. هل تحتاج إلى متطوّعين لدخول الأنفاق؟

رفع آدم حاجبيه، ثمّ سأله:

- الأنفاق خطرة، هل تُدرك هذا؟

لا يعرف إن كان نايت يُصغي إلى حديثه ومايك منذ لحظات، لكن غلب لديه أنّه فعل وإلا ما كان ليعلم بوجوده قرب المخيّم. أومأ نايت ثمّ قال ببساطة:

- إذا ارتديتُ البدلة العازلة، أعتقد أنّني سأكون بأمان.

لم يكن آدم نفسه واثقًا من ذلك، لكنّه يأمل أن يكونوا آمنين فعلًا.

- لماذا؟

قرّر نايت ألا يناور أو يدّعي اهتمامًا بالشأن العام أو مصير الجزيرة، قال مباشرة:

- لديّ فضول شخصيّ تجاه الـ«مادرا»، ليس على سبيل التملّك أبدًا.. على الإطلاق، إنّما من أجل المغامرة، إنّه طابع من الصّعب الخلاص منه بعد سنوات من ركوب البحر والتنقّل عبر الأقطار.. أعتقد أنّ دخول الكهف، بل الأنفاق العميقة امتياز يسّرني أن أحظى به.

أصغى آدم بجمود، ثمّ قال بلهجة مريرة:

- هل تعلم أنّ مجلس الحكماء ليس راضيًا عن دخولنا الأنفاق؟

هزّ نايت كتفيه علامة الاستهانة، بدا أنّه قد حسم أمره ويعلم في أيّ صفّ يريد أن يكون بعد الآن. ابتسم آدم ابتسامة ودّية غير متوقّعة، يشكره على صنيعه كلّه ثمّ قال:

- تعالَ غدًا صباحًا إلى المشفى.

(19)

اليوم التاسع عشر بعد الستين

أنهى آدم تجفيف الجلد مبكّرًا ذلك الصّباح. لم يكن إبقاؤه داخل الكهف كافيًا لتسريع العمليّة، لذلك اضطرّ أخيرًا إلى سحب خيطه الحليبيّ وتسليط الضوء الأبيض الباهر على الحراشف القاسية، كان عليه أن يتوخّى الحذر حتّى لا يحترق الجلد تحت الحرارة العالية، لن تسامحه روان إذا أفسد عملها كلّه باستعجاله النّتيجة.

إلا أنّه كان موفّقًا هذه المرّة، تزداد دقّة تحكّمه بخيوطه مع التّجربة فيطوّعها كما يريد.. وها هو الجلد قد صار جافًا ومتماسكًا. قلّبته روان بين يديها وفحصته بنظرات مرتابة، ثمّ أعلنت أخيرًا أنّ الجلد جاهز للاستخدام.

قبل ذلك، استلم بودرة الحديد من هاورد ومساعديه، مزجها بالطين الرّماديّ اللّامع في خلطة تكاد تقارب الأسمنت المسلّح، حين تفرغ روان من إعداد درع الحراشف سوف يغطيها بطبقة من عجينة المعدن لتشكّل طبقة حماية إضافيّة.

بدورها، قدّمت روان نموذجها الأوّليّ للقناع وشرحت:

- بعد إجراء بعض الاختبارات، أعتقد أنّ لبّ السّيقان والصّمغ اللّزج الذي تفرزه سيشكّلان العنصر الأساسيّ للقناع.. لكنّ الأهداب والأوراق قد تكون ذات فائدة أيضًا.. لذلك أفكّر في طبقات بعضها فوق بعض لحماية متكاملة.

هزّ آدم رأسه ولم يعلّق، هي الخبيرة والقرار متروك لها، سيشعر بالأمان حتمًا وهو يرتدي قناعًا من صنعها.

تركا المعدّات داخل الكهف وقصدا المشفى من أجل الاجتماع بفريق العمل. سبقهما أوران الذي يمضي معظم الوقت في محيط المشفى للحراسة، ثمّ جاء نايت في موعده. ترقّبوا لبعض الوقت قبل أن يدركوا أنّ مروان لن يأتي. لقد أنهى مهمّته عند فرن الحدادة، وتلك خدمة جليلة في ذاتها، إلا أنّ الضغط من طرف عمّار لا شكّ قد بلغ درجة عالية حتّى اضطرّه إلى الانسحاب.

نظر آدم إلى نايت في امتنان، بفضله يضلّ الفريق مكوّنًا من أربعة عناصر حتّى الآن.

- آمل أن يكون استعدادنا قد اكتمل غدًا، حين تفرغ روان من إعداد الأقنعة سنجرّبها داخل الكهف.

بسبب حضور نايت، يضطرّ الآن إلى إعادة كلّ جملة مرّتين باللّغتين العربيّة والإنجليزيّة، وكلّما تحدّث نايت يترجم كلماته لروان وأوران، وذلك جهد إضافيّ لم يحسب حسابه.

صرّت الدّفة الخشبيّة للباب برفق فاستدارت الرّؤوس نحو القادم الجديد. لم يكن مروان يصل متأخّرًا.. بل مانويلا. اقترحت قائلة:

- أريد أن أكون جزءًا من الفريق.

طالعها آدم في دهشة:

- هل تعلمين ما الذي نعمل عليه؟

أومأت بهدوء:

- أعرف ما يعرفه كلّ سكّان «آرا»، أنتم ذاهبون إلى أنفاق الـ«مادرا»، أليس كذلك؟

لا يمكن لآدم أن يدّعي توخي السّرية، استخراج معدّات الحماية من السّفن الغارقة، إنشاء فرن الحدادة عند مكبّ الخردة ومعالجة جلد العظايا، كلّها تمّت تحت أنظار السّكان جميعهم دون محاولة التّواري أو الغموض، إلا أنّه لم يتوقّع أن يثرثر المُسخّرون بعد معاينة الانحباس داخل الكهف. بقي اكتشاف نوح سريًا لشهور قبل ذلك.. لكنّ عمّار لم يعد يروم الكتمان بعد الآن، سيسعى إلى تأليب الرّأي العام ومحاصرتهم علانية.

– هذه مهمّة خطرة، أنت تدركين ذلك؟

يذكّر آدم كلّ واحد منهم بمدى خطورة ما هم مقبلون عليه، إلا أنّ مانويلا أبدت ابتسامة عريضة وهي تقول:

– أظنّني أتمتّع بحماية عالية من الـ«مادرا».. مثل أبي!

لم يستوعب آدم قصدها، لعلّها تعتقد في تفوّقها الجيني بعد أن نجا مايك راسل من تأثير الـ«مادرا»؟ همّ بالاعتراض، إلا أنّ مانويلا سبقته بقولها:

– رغم ذلك، لا أمانع في الحصول على بدلة حماية.

زفر آدم في استسلام، سيقبل كلّ المساعدة المتوافرة.

– أهلًا بك ضمن الفريق.

***

لم تأتِ مانويلا لزيارته طيلة النّهار، مع ذلك توافد السكّان المحلّيون كعادتهم، يُحضرون الطعام والأشياء الثّمينة التي يملكونها، الأصداف اللامعة والحجارة الملوّنة ومنحوتات الخشب، كل الخردة التي لا تعني لمايك شيئًا لكنّه يتقبّلها بامتنان ظاهريّ، فيربت الرّؤوس ويهمهم بصلوات مبهمة ويترك لهم كفّه المجعّدة يمطرونها بالقبلات.

لم يتحدّث كثيرًا في غياب مترجم ينقل عنه كلماته، وقد وجد عزلته الإجباريّة بسبب الحاجز اللّغويّ مضنية، يريد مترجمًا خاصًا به يلازمه في كلّ وقت، ومانويلا لا تنوي النّهوض بالمهمّة.

حين هبط اللّيل وتفرّق النّاس، قرّر أنّ الوقت قد حان ليُمسك بزمام الأمور. لعلّه يحظى بمكانة تقديس عند سكّان الجزيرة، لكنّ يلزمه أن يستعيد موقع الصّدارة عند رجاله أنفسهم. توكّأ على عصاه وسار بمشقّة حتّى توسّط المخيّم، ورفع صوته بالهتاف في خطاب حازم:

- نحن في هذا المصاب سواسية، سوف تأتي الأمطار قريبًا، وستكون قويّة وستهطل بغزارة لوقت ممتدّ! فهل نبقى مشرّدين في الغابة طيلة الوقت؟ أنتم تعملون طيلة النّهار على تشييد بيوت الآخرين وتؤمّنون أسقفًا تحميهم من الماء وجدرانًا تقيهم الزّمهرير وأسسًا ثابتة تمنع عنهم السّيول.. لكن ماذا عنكم؟ ستكونون مكشوفين بلا مأوى، وستضرب العاصفة فوق رؤوسكم!

سرت همهمة قلقة بين الرّجال، حرّكت كلماته مخاوف كانت تعتمل في صدور كثيرة ولم يجرؤ أحدهم على التّصريح بها، فقد كان اتّفاقهم مع الحكماء ينصّ على تقديم خدماتهم لإعادة إعمار القرية التي أحرقوها مقابل الحفاظ على حياتهم واستقبالهم على أرضهم. عاد مايك يقول:

- ما الذي يقدّمونه لكم في المقابل؟ حبّات دواء لمن يحتاج إليها؟ هذا أقلّ ما يمكنهم توفيره لعمالة محترفة تكدّ من أجل خدمتهم! خلال أسابيع، سيكونون قد حصلوا على مساكن صامدة وخزّنوا مؤونة تكفيهم في أثناء المطر، لكنّ وضعكم لن يتغيّر.. لذلك عليكم أن تفكّروا بأنفسكم أيضًا!

تحدّث مايك طيلة الوقت بضمير المخاطب، لعلّه لم يكن معنيًا بالأزمة المرتقبة وهو الذي يحصل على كلّ ما يحتاج إليه في شكل عطايا تلقائيّة، لذلك يظهر في عباءة الرّجل المسؤول الغيور على مصالح رجاله القدامى.

وقف براندن وأشار إليه برأسه.

- ما الذي تفكّر فيه؟ هل نمتنع عن الذهاب إلى القرية؟

أطلت ابتسامة مخاتلة على شفتي مايك وهو يقول:

- لا يسعكم الإخلال بالاتّفاق، لكنّكم ستقتطعون جزءًا من ساعات النّهار للعمل على تشييد الملجأ الخاصّ بكم!

أومأ الرّجال في حماس، فأضاف مايك:

- لذلك تلزمنا قطعة أرض تخصّنا.. هل سنبقى داخل الغابة على الدّوام؟ هذا ليس مكانًا مناسبًا للعيش. قد يستمرّ بقاؤنا هنا لأشهر طويلة.. نحن عالقون، لذلك علينا الحصول على مستوى مناسب من الرّفاهية.. ليس بشكل مبالغ فيه، إنّما بالقدر الكافي..

لم ينتبه أحد إلى تغيّر الصّيغة إلى ضمير المتكلّم، مجدّدًا يجعل مايك نفسه واحدًا منهم، تعالت هتافات هنا وهناك تؤيّد صوت الحكمة الذي نطق به لسان الرّجل العائد من الموت.

- منذ الغد، سنشرع في جمع الفاكهة البريّة وصيد السّمك كما يفعلون، وسنختار موقعًا لبناء مخيّم يخصّنا!

أمّن الرّجال على قوله دون تردّد، كانت تلك مطالب معقولة ومنطقيّة لن يجادل فيها السّكان المحلّيون، أضاف مايك مغتنمًا فورة الحماس:

- سنجد أيضًا قطعة أرض خصبة لنزرعها، لن نعيش على الطعام البريّ إلى الأبد.

سأل هاورد في شكّ:

- من أين نأتي بالبذور؟

- حين ننتشل الصّناديق من قعر المحيط، سنحصل على كلّ ما نريد!

علت النّداءات المؤيّدة من جديد، إلا أنّ نايت رفع صوته ليعترض:

- أعتقد أنّ علينا عرض مطالبنا على الحكماء أوّلًا.. ليس من الحكمة أن نشرع في أعمال البناء دون موافقتهم، سيكون من الأفضل أن نلتزم ببنود الاتّفاق.

استدار مايك نحوه وحدجه بنظرة طويلة سابرة، ثمّ هزّ كتفيه وأعلن بصوت عالٍ:

- بالتأكيد، لا نريد أن يُساء فهم نوايانا. نُرسل مبعوثًا إلى المجلس إذًا.

تكلم هاورد:

- يجب أن تذهب أنت يا مايك، أنت تجيد التّعبير عمّا نفكّر به.

ابتسم مايك ثمّ قال بنبرة تواضع منكسرة:

- لا أعتقد أنّني أصلح لهذه المهمّة، أنا رجل عجوز وعسير الحركة.

تقدّم براندن وأعلن بثقة:

- سأذهب أنا وساندي!

طالعه ساندي في دهشة:

- لماذا أنا؟

قال براندن بنبرة لا تخلو من السّخرية:

- لأنّك العريس المنتظر، ستكون رغباتك ملبّاة!

ضحك الآخرون واحتقن وجه ساندي حرجًا، لا يبدو أنّ أيّ شيء قد ينقذه بعد الآن من الزّفاف المخطّط له في الغد، رغم بلادة ذهنه وتعثره المتكرّر لا يزال آدم يصرّ على اختياره له. اقترب مايك من براندن وهمس له:

- حين تذهب إلى القرية، أحضر مترجمًا.. أحتاج إلى واحد هنا.

حين تفرّق الرّجال واستلقوا في مهاجعهم، اقترب نايت من مهجع مايك وقال ببرود:

- ما الذي تحاول عمله؟

هزّ مايك كتفيه مجدّدًا وقال ببراءة:

- أدافع عن مصالحنا جميعًا. هل ترضيك هذه المعيشة الضنك؟

- أنت لا تفكّر في البقاء هنا لوقت طويل، أليس كذلك؟

ابتسم مايك في غموض، ثمّ قال:

- أنوي البقاء لوقت كافٍ.. فلنقل إنّني مكلّف بمهمة.

- مهمّة؟

- مهمّة تنويريّة سامية.. ستعرف في الوقت المناسب.

حدجه نايت بعينين مرتابتين. لقد احتقر مايك السّكان المحليين في السّابق، لم يعتقد أنّهم سيصلحون لشيء بعد احتلاله الجزيرة باستثناء توفير عمالة بخسة الثمن، لم يعتقد قطّ أنّهم بشر يقفون إزاءه على قدم المساواة بل آمن بانتمائه إلى مرتبة عليا.. لكنّه يغيّر أساليبه ويصبح أكثر ابتكارًا، وهو ما لا يروقه على الإطلاق.

رغم حفاظ مايك راسل على هدوئه، بدا نايت غاضبًا:

- هذه لن تكون إلا البداية، أليس كذلك؟ ما الذي سيأتي بعد بناء الأكواخ؟ هل ستطالب بنصيب من «حجارة الشّمس» أيضًا؟

أشار عليه مايك بخفض صوته، ثمّ أخذ يهمس:

- أعلم، لقد أخطأت في الماضي، لقد اقترفتُ أشياء لا أفخر بها.. لكنّني سأعتمد الطريقة الصّحيحة هذه المرّة.. ثق بي! أريد مستقبلًا أفضل لنا جميعًا، هذا كلّ ما في الأمر.

عبس نايت والتزم الصّمت. كان من العسير أن يثق في مايك وهو يكاد يجزم بأنّ طمعه لم ينضب، منذ وصوله تسرّب الاضطراب إلى الرّجال كأنّما يستمدّون من حضوره الشجاعة ليُقدموا على أعمال لم يتجرّؤوا على

اقترافها في غيابه. براندن أهوج وسهل الانفلات، لكنّ سلوكه بقي تحت السّيطرة حتّى تلك اللّحظة، لقد أصغى إلى كلّ مقترح قدّمه نايت وأبدى تعاونًا وانصياعًا، لكنّه الآن يتوق إلى القيادة وإثبات الوجود.

قال أخيرًا بلهجة حازمة:

- لا تعتمد عليَّ بعد الآن.. لن أكون جزءًا من فريقك.

ربت مايك كتفه وقال مهادنًا:

- على رسلك يا رجل، ليس هناك فريقي وفريقك.. يجب أن نبقى متّحدين، الفُرقة لن تكون في صالح أحد. سنتشاور ونتّخذ القرارات معًا.. ربّما يكون لنا مجلس كما لديهم مجلس، هل يُعجبك هذا؟

دفع نايت كفّ مايك عن كتفه وقال في إصرار:

- حتّى لو وافق الكلّ على خطّة ما، إن كانت تتضمّن سرقة شيء من السّكان المحليّين أو استخدام العنف..

قاطعه مايك بسرعة:

- أنت لا تصغي، قلتُ إنّني لن أكرّر الخطأ ذاته. سنعتمد الدّبلوماسيّة والحلول السّلميّة، لكنّني أريد أن تكون دائمًا جزءًا من الفريق، وأن نبقى على كلمة واحدة.. هل تفهمني؟

هزّ نايت رأسه دون اقتناع، ما زال يشكّ في نوايا مايك، لكنّه سيمنحه فرصة على الأقل.

(20)

اليوم العشرون بعد الستين

وقف براندن متململًا أمام مبنى دار العبادة ينتظر أن يُسمح له بالدّخول، كان يُفترض بساندي مرافقته للمثول أمام الحكماء وتبليغ مطالبهم، لكنّ الأصلع البدين تخلّف لسبب يجهله، إنّه يوم زفافه ولعلّ الرّجل يرغب في أن يبدو في هندام لائق للمناسبة. قد يحصل على حمّام في الأحواض الدّافئة التي سمع عنها كثيرًا لكنّ قدمه لم تطأها بعد، وقد يكون في حاجة إلى مراجعة النّذور والطّقوس التي عليه اتّباعها مساءً، إلا أنّ بلادة ذهنه لا تسديه معروفًا.

لم يكن براندن يبالي كثيرًا بحضور صاحبه، في الحقيقة تسمح له تلك الفرصة بإثبات نفسه كعنصر قيادة في المجموعة وهو يتوق إلى تحقيق ذلك منذ أمد. لا يدري لماذا يصغي الجميع إلى نايت، ينصّب الرّجل نفسه قائدًا عليهم دون استئذان، لا يذكر أنّ تشاورًا قد حدث أو أنّ تصويتًا قد تمّ، لكنّه يتصدّر لاتّخاذ القرارات نيابة عنهم.

لا ينكر أنّ نايت كان بارعًا حتّى اللّحظة وقد مكّنهم على الأقلّ من إرساء سلم مع السّكان المحليّين، لكنّ تلك المرحلة قد انتهت. يحتاجون الآن إلى نقلة نوعيّة في أسلوب المعيشة، وأفكار مايك راسل تُوائم ما يرومون إليه.

أشار إليه الصبيّ الواقف عند المدخل فتبعه إلى الدّاخل، رفع بصره في اتّجاه الحكيم عمّار، وقال بما أمكنه من اعتداد وثقة بالنّفس:

- أيّها السّادة، أنا مبعوث مخيّم الغابة.. أنتم تعلمون، الغرباء الذين يشاركونكم الحياة على الجزيرة.. حسنًا، لدينا بعض المطالب.

هزّ عمّار رأسه يستحثّه على قول مزيد، لم يترجم كلمة للحكماء الآخرين وقد أثار ذلك حنق براندن، كأنّ ثرثرته السّابقة بلا قيمة. تنحنح ثمّ أعلن بلهجة صارمة:

- نريد بناء أكواخ تخصّنا. ستأتي الأمطار، أليس كذلك؟ نريد أن نكون آمنين في مساكن لائقة أيضًا.

هذه المرّة ترجم عمّار، وهزّ الآخرون رؤوسهم قبل أن يقول الحكيم الأجنبيّ:

- لكم ذلك.

- نريد أيضًا أن نستخرج معدّات من السّفن الغارقة.. تلزمنا مساعدة من المُسخَّرين.

تبادل الحكماء بضع كلمات ثم سأل عمّار:

- أيّ معدّات؟

- معدّات بناء وأدوات طبخ وأشياء أخرى من الدّيار، الحياة قاسية في البريّة، بعض الرّفاهيّة لا تضرّ.. ثمّ هناك البذور! يمكننا مشاركتكم إيّاها.

- هل ستكون البذور صالحة بعد كلّ هذا الوقت تحت الماء؟

- مايك يقول إنّها محفوظة في صناديق عازلة. كلّما سارعنا بإخراجها كان ذلك أفضل.

هزّ عمّار رأسه موافقًا.

- لا بأس بذلك.

- ثمّ.. تلزمنا قطعة أرض خصبة، لن نعيش في الغابة إلى الأبد.. إن كنت تفهمني، سنزرع ونحصد ونخزّن المحاصيل.

رفع عمّار حاجبيه وقد علت ملامحه الدّهشة، ثمّ عاد يترجم لأصحابه. ارتفعت الأصوات بعد ذلك ولم يبد على الحكماء الرّضا، عجوز منهم كثيف اللّحية طويل الشعر الأبيض الناصع كندف الثلج بدا مهتاجًا أكثر من الآخرين. قدّر براندن أنّ المقترح لم يرقهم. قال عمّار أخيرًا:

- سنمنحكم مساحة محدودة لبناء الأكواخ. لكنّ المجلس لا يحبّذ فكرة الاستحواذ على أرض زراعيّة.. أنتم ضيوف على الجزيرة، وستحصلون على مقوّمات العيش الكريم ليس أكثر.

ثمّ أشار إليه بالانصراف قبل أن يضيف:

- انتظرني في الخارج.

تململ براندن على قدمين حافيتين أمام المبنى، مضت دقائق قبل أن يلحق به عمّار، أشار إليه أن يتبعه وسارا متجاورين، سأل عمّار في فضول جليّ:

- ما الذي حدث؟ هل تنوون البقاء؟ أعني.. الجميع؟

حكّ براندن شعيرات ذقنه النّابتة وحاول أن يبدو مقنعًا في دور النّاطق باسم المجموعة:

- الظروف.. تقتضي ذلك. الحياة داخل الغابة ليست مريحة..

- مفهوم، لكنّكم تطلبون أرضًا زراعيّة.

- نعم، يجب أن نأكل.. ألا ترى؟

لاحت الخيبة على ملامح عمّار وهو يهزّ رأسه، كأنّما توقّع إجابة مختلفة. قال براندن قبل أن يفترق سبيلاهما:

- يلزمنا مترجم.. أقصد، مايك يريد مترجمًا في المخيّم. هل يمكنك تأمين هذا؟

***

استعملت روان أهداب السّتار النباتي أولًا، تلك التي تتدلّى مثل الشعر وتلتصق بها ذرّات الـ«مادرا»، جعلتها الطبقة الخارجية من القناع لأنها تحجز الجزيئات الأكبر. أمّا الدّاخل، فصنعته من لُبّ السيقان بعد الغليان والتّجفيف حتى صار مثل الألياف، هذا الجزء هو الذي يُصفّي الهواء فعلًا. وبين الطبقتين وضعت وسادة من الألياف الممزوجة بالصّمغ الذي تفرزه النّبتة والفحم، الصّمغ يلتقط بقايا الـ«مادرا» ويثبّتها، والفحم يمتصّ ما يتسرّب منها. بعد ذلك أغلقت الحوافّ بطبقة رقيقة من الصّمغ كي لا يتسرّب الهواء الملوّث، وأضفت رباطين من نفس النّبات ليثبت القناع على الوجه. عندما تتنفّس من خلاله، يمرّ الهواء عبر الخيوط أولًا، ثم الألياف، ثم الوسادة المصفّاة، فيخرج نقيًّا تقريبًا، كما هي الحال تحت ستار النباتات في الأعماق.

استعرضت روان النّموذج النّهائي لأقنعة الهواء في فخر، ثمّ ساعدت آدم على ارتداء الدّرع كاملة. تُغطّي الحراشف الخشنة الصّدر والظهر والأطراف فيما استُخدم الجلد اللّين من أجل الأجزاء الخفيّة تحت الذراعين وفي باطن الفخذين والسّاقين، وتمنحها عجينة المعدن لمعانًا فضيًا يخطف الأبصار، أمّا الحذاء فمصنوع من فراء الأرانب اللّين والمريح للقدمين فتغطّيه طبقة من عجينة المعدن.

قال نايت مداعبًا:

- هل هكذا تكون درع «الرّجل الحديديّ»؟

ابتسم آدم وقد عكست كلمات نايت الأفكار التي تراوده. أليس «الرّجل الحديديّ» واحدًا من الأبطال الخارقين؟ إلا أنّه يفضّل لقبًا مختلفًا، مثل «رجل الحراشف» أو «الرجل العظايا» على سبيل التّجديد.

حدّق آدم في كومة المعدّات، بدلتان كاملتان من معدّات مايك راسل ودرعان من جلد العظايات يرتدي هو أحدهما بالفعل، قال يكمل الدّعابة:

- إذًا، فلينتق كلّ واحد بدلته الخارقة!

قالت روان:

- سوف تحتاجون إليَّ، سأكون ضمن الفريق.

اعترض آدم على الفور:

- أنت معالجة، الجزيرة كلها في حاجة إليك.. لا يجدر بك المخاطرة بدخول الأنفاق.

- لكن...

- كوني حاضرة عند المدخل.. في حال احتجنا إلى تدخّل سريع. أنت شبكة الأمان الخاصّة بنا، لا يجب أن يصيبك مكروه.

استسلمت روان لقراره. لم يتدافع الآخرون أو يتنافسوا على الدّرع المتبقية، بل بدا أنّ كلّ واحد منهم يعرف ما يناسبه. التقط أوران الجلد المعزّز بطبقة المعدن، معرضًا هو الآخر عن منتجات «مهافيا دياما»، وحصل كلّ من نايت ومانويلا على بدلة حماية بيضاء يألفها كلاهما.

تأمّل آدم أفراد الفريق، مُسخِّران وغريبان عن الجزيرة بلا مميّزات أو قدرات خارقة، لم يكن هذا الفريق المثاليّ الذي طمح إليه، لكنّه كلّ ما لديه. عادت كلمات مايك راسل تتردّد في رأسه.. «أحدكم لن يرجع أبدًا»، لكنّه طرد الأفكار السّوداويّة سريعًا واستعاد تركيزه.

ضرب كفّيه معًا وقال منهيًا الجلسة:

- إذًا سيكون الانطلاق غدًا.. نحتفل بالزّفاف أوّلًا.

***

أراد آدم أن يحضر جميعهم الحفل، رغم الفُرقة بين المُخلِّص ومجلس الحكماء فلم يشأ للعامّة أن يستشعروا تغييرًا في العلاقات. ذلك الزّفاف

كان لحظة فارقة في تاريخ الجزيرة وإعلانًا للانفتاح على الغرباء وقبولهم بينهم، فلم يكن ينبغي لأحدهم أن يتخلّف.

لم يأت مايك، فالمسافة من الغابة إلى الميدان العامّ وسط القرية مرهقة لأطرافه، وقد رفض أن يُحمل على محفّة، حتّى لا يراه مريدوه على تلك الحالة من الضعف، لكنّ ساندي انحنى أمام مرقده فباركه العجوز «العائد من ظلمات الموت» بهمهماته التي لا تكاد تُسمع ويده تُمسّد رأسه الأصلع.

لم يجد نايت الحدث مثيرًا للحماس، لا يدّعي أنّه أحبّ تاليا، إلا أنّها تروقه.. وهو يعتقد في داخله أنّها لا تستحقّ أن تكون كبش فداء للسّلام المزعوم. ربّما يكون ساندي أفضل من كثيرين ضمن المرتزقة، إلا أنّه ليس الرّجل الملائم لها. لو أنّه شقيقها أو وليّ أمرها لما رضي بتلك الزّيجة قط. لكنّه مجرّد غريب بلا صلة تجمعه بها، لذلك يقف صامتًا بين الجموع بشفتين مزمومتين وذراعين مكتوفتين.

تقدّم ساندي إلى وسط الميدان، واقتربت تاليا في ثوبها البسيط مطأطِئَة الرأس. توسّط الحلقة الشّيخ الشابّ الذي يعقد أوّل زواج بعد رحيل معلّمه، وتبعهم آدم وعمّار شاهدَين على العقد، كان ذلك اتّفاقًا مسبقًا قبل أن تتباعد وجهات النظر وبقي كلاهما على التزامه. بدا ساندي مرتبكًا وهو يفرك كفّيه المتعرّقين باستمرار ويتململ بلا توقّف. همس آدم في أذنه مطمئنًا:

- اثبت واسترخ.. لن يكون عليك إلا أن تكرّر العبارات وراء الشيخ.

أومأ ساندي ببطء، ثمّ شرع الشّيخ في تلاوة التّعليمات، بالآراميّة ثمّ العربيّة، قبل أن يتولّى آدم التّرجمة إلى الإنجليزيّة، وحين جاء دور ساندي للنطق بالشهادتين تراجع خطوة وهو يرتجف. زفر آدم وهو يشدّه من ذراعه:

- ما الأمر الآن؟

- أحتاج إلى الذّهاب للحمّام؟

- ماذا؟

- أنا متوتّر.. وحين أفعل تضغط عليَّ مثانتي.

- سننتهي من هذا خلال دقيقتين، ثمّ تذهب إلى الحمّام أو حتّى إلى أحواض الاستحمام.. لكنّك ستُنهي هذا أوّلًا!

أخذت الهمسات تتصاعد بين الجموع متسائلين عن سبب التّأخير، وتمتم آخرون بعبارات شفقة على العروس المسكينة التي لا يرغب عريسها في إتمام الزيجة، لم تتحرّك تاليا وحافظت على ثباتها رغم تنفّسها المضطرب، وبدت تلك اللّحظات ثقيلة كأنّها لن تنتهي أبدًا. شقّ نايت الحشود حتّى وصل إلى العريس وسأل في اهتمام:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

تشبّث ساندي فجأة بذراع نايت وهو يهمس:

- لا أستطيع أن أفعلها! أنا رجل مخلص، وناتالي لن تكون سعيدة بهذا. لا يمكنني أن أتّخذ زوجة الآن.. ناتالي تنتظرني، لقد وعدتها بالزّواج! نايت، يمكنك أن تتزوّجها أنت، أرجوك!

شحبت سحنة نايت فيما زمجر آدم وصبره يوشك على النفاد:

- هل هذه مزحة؟ لقد أمضينا أيّامًا نستعدّ لهذه اللّحظة.. فما الذي حلّ بك الآن؟

تخشّبت قدما ساندي كأنّها قد التصقت بالأرض فلم يتزحزح عن موقعه.

- أنا آسف، لقد ظننتُ أنّني قد أفعلها.. لكنّني لا أستطيع. نايت يمكنه أن يفعل، هو ليس متزوّجًا وليست لديه صديقة أيضًا، وقد حضر الدّروس كلّها.. يعرف ما ينبغي قوله وعمله. أليس كذلك نايت؟

تعلّقت النظرات بوجه نايت السّاكن، فقال عمّار يحثّه:

- لا يهمّني إن تغيّر العريس، لكنّ هذا الزّواج سيتمّ الآن.. هل أنت مستعدّ يا نايت؟

يكتشف في تلك اللّحظة أنّه قد أحبّها بالفعل، لكنّه اضطرّ إلى تنحية تلك الخواطر جانبًا مذ أعلن الحكيم أنّ ساندي خيارهم المثاليّ، والآن وهم يُلقون الزّواج بها في وجهه كأنّه حمل يودّون الخلاص منه، ترتع في صدره مشاعر نشوة وغضب تتلاطم وتنصهر.

لم يكن جزءًا من الاتّفاق، ولم يكن الزّواج في ذلك اليوم ضمن خطّته، فضلًا عن تغيير دينه. تلك أشياء تُدرس ويخطّط لها جيّدًا وتُطلب موافقة الأطراف المعنيّة مسبقًا. تُفاجئه المرونة التي يتعاطى بها الحكيم عمّار مع الأمر، كأنّها مجرّد صفقة، إجراء عرضيّ في سبيل السّلام. وهو وإن في قرارة نفسه كان راغبًا لا يقدر على إعلان موقفه بتلك البساطة، ليس بتلك الطّريقة.

لكنّ رأسه تحرّك في إيماءة بطيئة كأنّه مخدّر، ثمّ خطا في اتّجاه مركز الميدان حيث يقف الشّيخ والعروس. عاد عمّار يقف إلى يمين تاليا كشاهد من طرفها في حين وجد آدم نفسه إلى جوار نايت. رفعت المعلّمة عينيها في دهشة لتطالع العريس الجديد الذي حلّ محلّ الأوّل، ثمّ التهبت وجنتاها وهي تخفض بصرها. استدار عمّار نحو تاليا وسألها:

- أنت لا تمانعين في التّغيير يا ابنتي، أليس كذلك؟

ساد الصّمت للحظات، ثمّ هزّت تاليا رأسها بلطف لتعلن موافقتها. تنفّس نايت في اضطراب، الطّريقة التي طرح بها عمّار السؤال بدت كإجبار مقنّع، وهل أتيح لها الاختيار بداية حتّى تكون لها كلمة بصدد زواجها الآن؟

استمع بذهن غائب إلى كلمات الشيخ وهي يعيد تلاوة الطقوس، ثمّ جاء دوره.. كرّر دون فهم عبارات جوفاء باللّغة العربيّة عرف أنّها إعلان لاعتناقه دينهم، ثمّ سئل إن كان يوافق على الزّواج فأجاب بهزّة رأسه، لكنّ الشيخ حثه على النطق بكلمة «نعم»، بالعربيّة ثمّ الآراميّة، فاستجاب. ثمّ جاء دورها، سيسألونها السّؤال ذاته وسوف توافق لأنّها لا تملك خيارًا.

قاطع نايت الطّقوس قبل أن تنطق تاليا بالجواب:

- هل يمكنني الحديث إلى العروس؟

أطلق عمّار ضحكة مغتصبة وهمس إليها:

- فلننتهِ من هذا ثمّ سيكون أمامك اللّيل كلّه لتحدّثها بما تشاء!

حدجه نايت بنظرة جادّة، هل الحكيم غبيّ أم أنّه يتغابى؟ تمتم عمّار على مضض:

- تفضّل، لك ذلك.

سحب نايت تاليا من ذراعها جانبًا، مشى نحو عشرين مترًا حتّى صارا خارج الحلقة وبعيدًا عن الآذان المتطفّلة. لقد فكّر منذ حين أنّه لو كان وليّ أمرها فلن يسمح لها بتلك الزّيجة، لم يعتقد أنّ ساندي مناسب لها.. لأنّه شعر أنّه أولى، أنّ بينه وبينها نوعًا من التّناغم، لكن لو أراد أن يكون وفيًا لمبادئه فينبغي عليه أن يطرح عليها ذلك السّؤال، بعيدًا عن الضّغط الاجتماعيّ. قال بنبرة هادئة:

- نحن وحدنا الآن، ولا أحد من هؤلاء الواقفين وراءنا يهمّ، هذا زواجك وقرارك الخاصّ، وإن كنتِ لا تريدين.. فلن يحدث شيء على الإطلاق، أعدك بهذا.

حملقت تاليا في وجهه بعينين متّسعتين ذهولًا، فقال ثانية:

- هل يلزمك وقت للتّفكير؟

هزّت رأسها بسرعة لتنفي.

- إذًا هل اتّخذت قرارك؟

أومأت وهي تطرق برأسها حرجًا، فحثّها:

- وماذا نويت؟

أشارت إلى السّاحة وهمست:

- يجب أن نرجع إلى هناك..

غمره الارتياح، لا يعرف بعد إن كانت تلك الموافقة تعني شيئًا. إلا أنّها على الأقلّ لم تنهر باكية ولم تفرّ من أمامه، لقد منحها مخرجًا وهي اختارت أن تبقى. سار إلى جوارها حتّى مركز الميدان تشيّعهما النظرات المترقّبة. قال عمّار بابتسامة متشنّجة:

- هل نحن جاهزون الآن؟

أومأ كلاهما في صمت، ثمّ أعاد الشيخ تلاوة الصّلوات وإلقاء التّعليمات ولم يقاطعه أحد حتّى النهاية.

تنهّد نايت وهو يتراجع نحو جماعته، تلقّى من الرّجال التّبريكات الممزوجة بالمزاح الفجّ بعد أن تورّط في زواج مفاجئ. تجاهل الهمزات واللّمزات وجلس على الأرض وفي عينيه نظرة ساهمة، ومن حين إلى آخر كان يلتفت باتّجاه سرادق العروس ووصيفاتها. قال لنفسه إنّه قد فعل الصّواب وأنقذ الموقف، لو أنّه رفض مثل ساندي فلا يعلم كيف تكون التّداعيات، وهم محاطون بالسّكان المحليّين من كلّ جانب.. لم يكن التّراجع عن الميثاق سيمرّ دون عواقب.

ثمّ، كان ليكسر بخاطرها.

خفق فؤاده بشدّة وتساءل إن كانت سعيدة حقّا.

تذكّر حديثها عن رجل يشبهه.. غريب آخر ربّما وصل إلى الجزيرة منذ سنوات. تأمّل في تلك القصّة مرارًا منذ ذلك الحين، وقرأ الحكاية بين سطور مبهمة، وأدرك أنّ الرّجل الذي يشبهه قد غدر بها، ذهب ولم

يعد، وأنّ لذلك علاقة بعدم زواجها حتّى ذلك الحين. إنّه بارع في التخيّل والتّوقّع، وقد استهلك وقتًا في أثناء استلقائه الليليّ على الأرجوحة الشبكيّة يسدّ الفراغات في قصّة المعلّمة الحسناء التي فاتها قطار الزّواج.

ربّما لم يكن ساندي -ولا هو- ليملأ الخواء في فؤادها أو ليمحو أثر الخيبة القديمة، لكنّ تكرار التّجربة المريرة كان ليصمها بعار لا يُمحى إلى الأبد، لتكون العروس التي لفظها غريب ثمّ ثانٍ ثمّ ثالث!

هوّنت عليه تلك الخواطر مصير حياته العاطفيّة المبهم.

***

بعد انتهاء الاحتفال، كان عليه أن يأخذ زوجته إلى كوخهما. لم يكن أكثر من بناء طينيّ مرتجل مساحته الدّاخليّة لا تزيد على عشرة أمتار مربّعة، فضاء كافٍ لسرير منخفض لشخصين وركن طبخ وحمّام، يذكّره بمساكن الطلاب في أثناء دراسته الجامعيّة.. باستثناء التّرف الذي توفّره حياة الحضارة. لقد وضع بيديه لبِنات الجدران واحدة إثر الأخرى، ونضد أخشاب السّقف وغطّاها بطبقة عازلة من المعدن ثمّ كساها بالطّين والسّعف.. فعل كلّ ذلك وهو يناكف ساندي بشأن عشّ الزوجيّة، والآن أصبح كلّ ذلك يخصّه!

سبقته تاليا إلى داخل الكوخ وتوارت في خجل، فيما تلكّأ نايت أمام المدخل يشيّع بنظراته الأهالي الذين رافقوهما في زفّة شعبيّة مليئة بالبهجة. كان عليه أن يواجهها في نهاية الأمر، وقف إزاءها مرتبكًا ومشفقًا. كانا غريبين منذ حين، والآن -بقدر ما- أصبح عليهما أن يتشاركا تلك المساحة الضيّقة، حيث لا يتنفّس أحدهما دون أن يستهلك من هواء الآخر. سألها برفق:

- أين ابن شقيقك؟

رفعت عينيها المطرقتين في دهشة ثمّ همست:

- أخذته إحدى الجارات..

ذلك الولد كان كلّ العائلة المتبقّية لها، يذكر حديثها عنه تلك اللّيلة في عتمة الغابة.

- اسمه رائد، أليس كذلك؟

أومأت بهدوء وقد نمّت عيناها عن دهشة متزايدة، لأنّه يتذكّر.

- لو تودّين إحضاره؟

- الآن؟

- نعم، الآن.

بدا مقترحًا غريبًا بالنّسبة إلى ليلة زفاف، لكنّها أومأت في حياء.

- لعلّه يبكي الآن.. لم يعتد أن يكون بعيدًا عنّي، خاصة منذ..

توقّفت الكلمات في حلقها، لم يكن عليها أن تشرح أكثر، قال بلطف:

- يمكنه أن ينام إلى جوارك.. مثل السّابق.

- وماذا عنك؟

كان يُفترض بذلك المسكن أن يُصبح له منذ الليلة، لكنّه لا ينوي التّنازل عن أرجوحة الغابة الخاصّة به بعد. قال بابتسامة صغيرة:

- لا تشغلي نفسك بي، سأتصرّف.

شعر بانبساط أساريرها واختفاء التشنّج عن أطرافها، بدت أكثر ارتياحًا في حضوره الآن، همست:

- شكرًا لك.

هزّ كتفيه في حركة عابرة ثمّ استدار مغادرًا الكوخ. سوف ينتظر بعض الوقت حتّى يغطّ الرّجال في نوم عميق قبل أن يتسلّل إلى الغابة، لا يريد

الاستماع إلى مزيد من مزاحهم الثقيل، ولا يودّ أن يقابل ساندي الذي تسبّب في توريطه.

أمّا الواجبات الزّوجيّة فسيؤجّل أمرها حتّى يستوعب ما تورّط فيه.

(21)

اليوم الواحد والعشرون بعد الستين

تحرّكت مانويلا ببطء داخل بدلة الحماية، ارتدت واحدة من قبل في زيارتها الأولى للجزيرة منذ قرابة سبعة أسابيع، لكنّها كانت بدلة تناسب مقاسها، أمّا هذه فتبدو أكبر من السّابقة بمقاسين على الأقلّ، كلّ خطوة تخطوها مهمّة حقيقيّة، ربّما تكون بطيئة لكنّ هذا يبقيها حذرة على الأقلّ.

حين وصلت عند حوض الـ«مادرا» المنهمرة من الأعلى وجدت الآخرين في انتظارها. ارتدى نايت بدوره بدلة الحماية والخوذة الزّجاجيّة، غير أنّه سبقها في الوصول منذ دقائق طويلة. تنهّدت وهي تدرك أنّ عليها بذل مجهود إضافيّ لتواكب المجموعة.

حطّت نظراتها على أوران وآدم، يضع الاثنان دروعًا من جلد السّحالي المعزّز بعجينة المعدن تغطي الجسد كافة. تتكوّن الدّرع من قطعتين مشدودتين على الجسم، صدريّة عالية العنق تغلق بأربطة من الخلف، وبنطال ضيّق، لقد رأت الدّرع على آدم في وقت سابق، لكنّها على أوران أكثر مهابة، بدا بخصلاته الطّويلة الشّقراء مثل صيّاد من العصور الوسطى أو محارب أسطوري، ممّا جعلها تبتسم.

- أعتذر عن التأخير!

أعلنت وهي تلهث. لا يضع آدم وأوران الأقنعة بعد، على عكسها هي ونايت. لا تشكّل الـ«مادرا» داخل دهاليز الكهف الخارجيّة أيّ خطر

عليهما، أما هي فتتنفس هواء أسطوانتها طيلة الوقت، تذكر تجربة بعيدة تسبّب فيها دخول الكهف دون حماية في ليلة مريرة من القيء والهرش.

وضع آدم في كفّها ساعة ميكانيكيّة، لم تكن قد رأت واحدة منذ أسابيع.. تأمّلت في دهشة العقارب التي تتحرّك خلف الزّجاج وسألت:

- أين عثرت عليها؟

- في حطام السّفينة.

تكرّرت زيارات آدم لموقع الحطام في الأيّام القليلة الماضية، وقد انتشل معدّات كثيرة في كلّ مرة، وكان من الجميل أن تحصل على ساعة في ظلّ غياب أيّ مؤشّرات تنبئها بأوقات النّهار. سألت ثانية:

- هل التّوقيت صحيح؟

- لا يهمّ، سنستخدمها كمؤقّت، لتقييم فترات المكوث داخل الأنفاق.

- آه!

لم تكن هديّة لها، وما الذي قد يجعله يفكّر في إهدائها شيئًا ما؟ لوت شفتيها وهي تهزّ رأسها فيما أخذ آدم يشرح:

- وصلتُ قبلكم واغتنمتُ الفرصة لإلقاء نظرة عبر النّفق. الفتحة ضيّقة، لكنّها لحسن الحظّ تزداد اتّساعًا بالدّاخل. لا أدري إن كانت الأنفاق ستكون مريحة للمشي.. لكنّ انخفاض مستوى الـ«مادرا» صنع مساحتين جانبيتين مثل ضفّتي النّهر، هذا ما يظهر لي حتّى الآن...

هزّ الآخرون رؤوسهم، فأضاف:

- الجولة الأولى ستكون لاستكشاف طبيعة الأنفاق.. ارتفاعها، تشعّباتها، مستوى الـ«مادرا» وكيفيّة التّنقل عبرها، لنر إن كانت لعنة الجنّ ستكون في انتظارنا!

سرت موجة من الضّحك بعد دعابته السّاخرة، ثمّ أشار آدم إلى نايت:

- سأذهب أنا وأنت أوّلًا.

كان ذلك الاتّفاق، فرق مختلطة إمعانًا في الحذر، سيجرّبون كيف تتجاوب بدلات الغرباء ودروع جلد العظايا مع مجال الـ«مادرا» المركّزة، مُسخِّر في كلّ فريق ليتصرّف في حالة الخطر، وواحد من الغرباء للمراقبة والملاحظة، يجب ألا يدخل أحدهم النّفق وحيدًا، تلك قاعدة أساسيّة، والمعالجة تنتظرهم خارج الفجوة.

جاء توزيع المجموعات تلقائيًا، فنايت لا يجيد العربيّة ولا يسعه التّواصل مع أوران، في حضور مانويلا تستمرّ في ترجمة كلّ ما يقال له، لذلك كان من الطّبيعيّ أن يكوّن هو وآدم وفريقًا، لتنضمّ مانويلا إلى فريق أوران.

- كم ستدوم الجولة؟

توقّف آدم أمام سؤال مانويلا، إذا كان الكهف ذاته آمنًا بالنّسبة إلى المعالجة والمُسخِّرين ليوم أو أكثر، فإنّ الأنفاق التي يتركّز داخلها مجال الـ«مادرا» لن تكون رحيمة لأكثر من ساعات معدودة، غير أنّ تحديد تلك السّاعات مستحيل دون تجربة مسبقة.

استدار نحو روان وتساءل إن كانت تملك معطيات أوفر بهذا الصّدد، لا يتعامل السكّان المحليون بالدّقائق والسّاعات، لكنّهم يقسّمون اليوم إلى فترات باعتبار درجة اللّون الذي يظهر في سقف الظلة، ربّما لا يرون السّماء ذاتها ولا كيف تُضِيئُها الشّمس في مختلف أوقات النّهار لكنّهم يبصرونها في تلوّن الضّباب فوقهم.

قالت روان:

- إذا شعرتَ بشيء.. أيّ شيء مختلف، اخرج على الفور!

ابتسم آدم نصف ابتسامة، إنّه يشعر بكلّ شيء من حوله منذ استيقظت بداخله حواسّ المُسخِّر الفائقة، ويستمرّ إحساسه بمحيطه يتغيّر ويتحوّر،

لذلك لم يجد طلبها منطقيًا، لكنّه أومأ برفق يسايرها. قال مخاطبًا نايت ومانويلا:

- سنحدّد الجولة بساعتين مبدئيًا.

سارعت مانويلا تقول:

- أرى أن نبدأ بفترة أقصر ثمّ نمدّدها تدريجيًّا.. نحن لا نعرف بعد ما الذي ينتظرنا بالدّاخل.

وجد ثلاثتهم الملاحظة وجيهة.

تحرّك آدم أوّلًا، ولعلّ مانويلا لم تتخيّل على الإطلاق ما أقدمت على إقحام نفسها فيه حتّى أبصرت آدم وهو يشرع في تسلّق الجدار! فغرت فاها وهي تتابعه بنظراتها حتّى بلغ مستوى مرتفعًا على جدار يجاور الفجوة التي تنهمر عبرها الـ«مادرا» السّائلة. تعرف أنّها مقبلة على مغامرة داخل أنفاق محفوفة بالمادّة الحارقة، لكنّ التسلّق لم يكن في الحسبان. قبل أن تُبدي اعتراضها أو تذمّرها، كان آدم يلقي حبلًا في اتّجاه نايت ثمّ يسحبه إلى أعلى دون مشقّة تُذكر.

على الفور أدركت الحكمة من الفرق المختلطة: مُسخّر للقيام بالمهام الصّعبة، وشخص عاديّ لمراقبة الوقت وتقديم زوج عيون إضافيّ يرصد ما يحدث في الدّاخل. لم تحسب أنّها ستلعب دورًا محوريًا في عمليّة «إنقاذ العالم»، لكنّها ستفعل ما بوسعها.

مشى آدم على حافّة الجدار ملصقًا ظهره بطبقة الـ«مادرا» التي تغطي الحجارة الكلسيّة، شعر بالرّذاذ المتطاير يصيب ثيابه وقناعه ودرعه، لكنّه لم يشعر بالتّهديد بعد، تلك الكميّة الضئيلة لا تضرّ، استدار ليلقي نظرة على نايت الذي يتقدّم بخطوات حذرة وقد جعلت البدلة حركته عسيرة ومتعثّرة. مضت بضع دقائق قبل أن يصبحا عند التّجويف الذي طار عبره البوم منذ أيّام.

سحب آدم نفسًا عميقًا قبل أن يمدّ ساقه المحميّة بجلد السحليّة ليعبر إلى الدّاخل متجاوزًا تيّار الـ«مادرا» ليقف على الضفة الجانبيّة، وراءه مباشرة عبر نايت دون أن يرفّ له جفن. يقرّ للرّجل برباطة جأشه وثباته الانفعاليّ، ربّما تأتي ثقته من وعيه بمتانة البدلة المصنوعة من ألياف كيميائيّة سميكة. إذا كان مايك راسل قد فعل شيئًا صحيحًا فهو اختياره لرجال شجعان واقتناؤه لمعدّات ذات جودة. قال دون أن يلتفت:

- لم أتوقّع مجيئك اليوم.. ألا يُفترض بك أن تكون في شهر العسل؟

ابتسم نايت لمداعبته وقال ساخرًا:

- حين تحصل على واحد، سأفعل بدوري.

أطلق آدم ضحكة قصيرة. ملاحظة وجيهة، يجب أن يخرجا سالمين من تلك الأنفاق ثمّ ستأتي «أشهر العسل» للجميع.

شعر آدم باللّسعات على مناطق جلده المكشوفة، عند عنقه وفوق عينيه، ذلك الإحساس المألوف بالألم حاضر أبدًا مثل دبيب النّمل، لكنّه داخل النّفق أشدّ حدّة وحضورًا مثل وخزات إبرٍ مستمرّة. تنفّس آدم من خلال القناع النّباتي الذي يحجب وجهه كاملًا وهو يرفع بصره باتّجاه السّقف الواطئ، يتسرّب البخار بكثافة ويطفو إلى الأعلى مثل السّحب، ذلك البخار ذاته سيشكّل الظلة حين يستكمل مساره نحو الفوّهة.

كانت الأنفاق الخارجيّة وتلك التي عبرها برفقة روان نحو الأعماق أكثر اتّساعًا وارتفاعًا، فيما بدا ذلك النّفق بطول قامته تقريبًا يكاد رأسه يلامس السّقف، تخيّل أنّ رجلًا فارع الطول مثل أوران سيمشي محنيّ الظهر، ولا تكاد الضفّة الجانبيّة تكفي للمشي المتوازن، على مسافة نصف خطوة منه تسيل الـ«مادرا» مثل نهر جارٍ في اتّجاهها نحو الحوض بالأسفل، تخيّل صورة ذهنيّة للشلال الباهر الذي رآه أوّل مرّة وتساءل إن كان تدفّق الـ«مادرا» بكامل قوّتها يعني ارتفاع المنسوب ليغمر التّجويف كاملًا؟

تسلّل إليه إحساس مقيت بالاختناق، وشعر بعشرات الإبر الوهميّة تخز جلده فجأة، وبالهواء الذي يبلغ رئتيه ثقيلًا وحارًا. سرى التّنميل في أطرافه وارتجفت قدماه على حافّة الجرف كأنّها قد تزلّ في أيّ لحظة. حاول أن يتنفّس في دفقات قصيرة متتابعة وهو يطرد عن ذهنه الأفكار السّوداء، لم يكن ذلك الأوان المناسب لنوبة هلع. لم تُصبه واحدة منذ زمن حتّى كاد ينسى كيف تكون، الإحساس الممضّ بالعجز والسّواد الحالك الذي يلفّ الدّماغ، قاوم اليد الخفيّة التي تشدّه نحو القاع وتابع التقدّم خطوة فخطوة.

سمع صوت نايت من خلفه:

- انظر هنا!

استدار ببطء ليوازن قدميه وينظر في الاتّجاه الذي أشار إليه نايت، لم يكن ذهنه حاضرًا الحضور المطلوب، حتّى إنّه لم يعاين محيطه ولم يتنبه إلى التّفاصيل. على الجانب الآخر من الممرّ ظهر تجويف جديد يقود نحو طريق فرعيّ، كانا يقفان على الجانب الخاطئ من الجدول. ألقى بصره إلى البعيد فميّز على الفور تجاويف أخرى، تبدو مثل متاهة من الممرّات التي تنحدر فيها تتدفّق الـ«مادرا» بقوّة ضغط ما نحو الأعلى. لم يكن عرض الجدول يتجاوز المترين، ربّما بوسعه القفز بخفّة للانتقال إلى الجانب الآخر، لكنّ المساحة المتاحة لاستعادة التوازن ضئيلة، إذا لم تثبت قدماه سيصطدم بالجدار أمامه ويرتدّ إلى جدول الـ«مادرا».. حتّى لو تمكّن من القفز ببراعة وثبات فإنّه يشكّ في قدرة نايت على القيام بالمثل بسبب بدلته.

همس آدم بأنفاس متقطّعة:

- علينا العودة!

لم يناقش نايت الأمر، بل استدار على الفور ليعود أدراجه.

حين برزا من التّجويف ثانية، هرعت إليهما روان في قلق.

- ما الذي حدث؟ لماذا عدتما بسرعة؟

استلقى آدم على الأرض وبدا منهكًا، مررت روان كفّها على وجهه ورأس في جزع متزايد.

- ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

حرّك رأسه يمنة ويسرة، لكنّه لم يتكلّم، استدارت روان نحو نايت مستفسرة فهزّ كتفيه في حيرة. لم يحدث شيء في الدّاخل، قال محاولًا تفسير الموقف:

- نسينا تشغيل المؤقّت، والتّجاويف كثيرة.. أعتقد أنّنا نحتاج إلى وسيلة لترك علامات على الجدران.

عادت روان نحو آدم الذي صار قادرًا على الكلام أخيرًا:

- نايت محقّ، يلزمنا أداة كتابة أو رسم.

قالت مانويلا مقترحة:

- رأيت تماثيل من الجصّ قرب المدخل، ربّما نجد جصًا أبيض في موقع قريب.

عبست روان وقالت في اقتضاب:

- تلك شياطين ممسوخة.. لا وجود لشيء كهذا على الجزيرة.

لم يبد على مانويلا الاقتناع، لكنّ إشارة من آدم جعلتها تلزم الصّمت. قالت روان مجدّدا:

- سأحضر أدوات الكتابة الخاصّة بي.. سأعود قريبًا.

تحرّكت روان على الفور بعد أن ألقت نظرة شاملة على آدم الذي أخذ يستردّ أنفاسه وثباته. جثت مانويلا بالقرب منه وسألت في شكّ:

- أنت لا تبدو بخير.. هل شعرت بتأثير غريب في الدّاخل؟

ابتسم آدم وقال بلهجة ساخرة:

- أظنني أعاني رهاب الأماكن الضيّقة، لكنّني سأتعامل مع الأمر.. لا تقلقي.

حدجته مانويلا بنظرة تنمّ عن عدم الاقتناع، لكنّها لم تصرّ. على مسافة خطوات، كان أوران يرفع رأسه متأمّلًا التّجويف مستعدًا للجولة الثانية. تحرّكت في اتّجاهه ببطء وهي تزن خطواتها، عليها أن تلتزم الحذر بالدّاخل حتى لا تتسبّب في المشكلات. قريبًا سيدخلان النّفق بدورهما، وسيضطرّ إلى سحبها لأعلى وربّما تحمّل عبئها لثقل مشيها، كرهت أن تكون مصدر إزعاج رغم أنّ كلّ ما رغبت فيه هو المساعدة.

لم يتحدّث إليها منذ أيّام -منذ تبرّم من اضطراره لحمايتها- يؤلمها تجاهله وإعراضه وهي التي حسبت أنّ البقاء على الجزيرة سيمنحهما فرص تواصل وفيرة، لكنّها لا تودّ أن تكون صاحبة المبادرة، إذا كان يفضّل الحفاظ على مسافة بينهما فلن تفرض نفسها عليه، كبرياؤها تمنعها. لذلك لم تقاطع صمته، بل وقفت في منتصف الطريق مثل البلهاء.

أنقذها وصول روان وهي تحمل دواتها وحبرها المصنوع من رماد الخشب. حين حصلا على وسيلة الرشم انطلقا نحو التّجويف. سارا نحو الجانب الآخر من الحوض -المعاكس لآدم ونايت بناء على المعطيات التي تلقياها- ثمّ سحبها أوران دون صعوبة إلى أعلى الجدار ليبدآ رحلتهما داخل النّفق.

سلكا المسار الرئيسيّ لعشرة أمتار وأوران يحني رأسه بقدر حتّى لا يحتكّ بالسّقف، قبل أن يرتفع السّقف قليلًا ويصبح المشي أكثر راحة. حمل أوران الدّواة والحبر المحفوظ داخل جراب جلديّ فيما احتفظت هي بساعة الجيب. ساعة واحدة، ذلك الوقت الذي يملكانه، لكنّها لا تستشعر الخطر بعد، يمكنهما قطع مسافة جيّدة خلال ساعة إذا حافظا على وتيرة خطواتهما ثابتة، لكنّ أوران سيعاني تصلّب عنقه بعد طول انحناء.

لحسن الحظّ، ازداد النّفق اتّساعًا وارتفاعًا مع تقدّمهما، شعرت مانويلا أنّها تتنفّس بشكل أفضل مع أنّها تستمرّ في سحب الهواء من أسطوانتها، فكّرت أنّها قد لا تقلّ عن آدم رهبة للأماكن الضيّقة، فقد ضغطت المساحة الضئيلة على رئتيها دون أن تدري.

حين بلغا الفتحة الجانبية، توقّف أوران ليضع إشارة على جانب الجدار، رسم دائرة مكتملة بضربة فرشاة واحدة، حتّى تلك الحركة البسيطة تبدو مثالية جدًا بأصابعه الماهرة.

تحرّكا نحو النّفق الفرعيّ يهبطان أكثر نحو باطن الأرض، وكان أوران يتوقّف كلّ خطوتين ليلتفت نحوها. ارتفعت الحرارة إلى وجهها وهي تحاول الحفاظ على المسافة بينهما، لا تودّ أن تكون عبئًا. تسيطر تلك الفكرة على ذهنها، وينتقل التوتّر إلى أطرافها، لكنّها تبقى على المسار. تتعلّق نظراتها بموضع خطواتها غالب الوقت حذر التّعثر والسقوط في تيار الـ«مادرا» الذي يتحرّك نحو الأسفل ببطء، الخوذة وبدلة الحماية تبقيانها آمنة لكنّهما تمنعانها الإحساس بالتغيّرات في الهواء من حولها، لا تلتقط رائحة أو حرارة، مع ذلك لاحظت أنّ البخار أقلّ كثافة منذ انحرافهما في المسار الجانبيّ، بدا ذلك مؤشّرًا سيّئًا، لكنّها لم تقل شيئًا واستمرّت تتبع خطوات أوران.

بعد عشر دقائق إضافيّة على المسار المتعرّج، توقّف أوران فجأة. حين رفعت مانويلا عينيها مستطلعة تبيّنت أنّهما يقفان على مسافة أمتار من تجويف حجريّ متّسع نوعًا.. ولا منفذ يتراءى لهما. طريق مسدود. تبيّنت مانويلا أنّها كانت محقّة في تقييمها، لو أنّها أعربت عن مخاوفها في وقت سابق لكانا اختصرا الوقت والتّعب، لكنّه ليس وقت النّدم. ألقت نظرة على المؤقّت ثمّ قالت معلنة:

- يجب أن نرجع.

أومأ أوران موافقًا ثمّ شرعا يتسلّقان المنحدر. خلافًا لتوقّعاتها، وجدت مانويلا التنقّل على طريق الصّعود أيسر بكثير، رغم المشقّة البدنيّة كانت خطواتها أثبت على الأرض دون أن تخشى الانزلاق نحو الأسفل أو الاصطدام بأوران الذي يسبقها. دفعت نفسها بخطوات واسعة حتّى وصلت إلى مدخل التفرّع وهي تلهث.

توقّف أوران ثانية ليرسم خطين متعامدين داخل الدّائرة. لم تتّفق الفرق على ترميز معيّن للإشارات، لكنّ أوران يرتجل بكفاءة: الدّائرة لوسم النفق الذي يدخلونه للمرّة الأولى، وعلامة القاطع والمقطوع للطّريق المسدود، ربّما يستنبط إشارات أخرى لاحقًا حسب تطوّر الاكتشافات.

هبطا نحو الغرفة الرئيسيّة حيث ينتظرهما آدم ونايت وروان، ما إن وطئت قدماها الأرض حتى أعلنت مانويلا:

- اثنان وأربعون دقيقة.

لم تعتقد أنّ رحلة العودة ستكون أسرع من الهبوط، لذلك استعجلت الخروج. باعتماد ساعة كاملة ربّما كانت عشرين دقيقة إضافية تسمح باستكشاف نفق آخر، لكنّهما اكتفيا بالطريق المسدود. لا يمكنها القول إنّ اليوم كان مثمرًا.

أعلنت روان:

- يكفي هذا لليوم!

عبست مانويلا ولم تعترض، لكنّها كانت تشعر بالحماس والإثارة، وبالثقة أيضًا بعد أن أتمّت مهمّتها الأولى دون أن تشكّل عائقًا، في الحقيقة رغم صعوبة الحركة داخل البدلة وثقل أسطوانة الهواء وراء ظهرها، فقد شعرت بالخفّة معظم الوقت، على الأقلّ لم تكن تتنفّس بخار الـ«مادرا». ألقت نظرة على أوران فلاحظت على الفور احتقان عينيه، ربّما تحمي الدّرع جلده والقناع أنفه وفمه، لكنّ عينيه مكشوفتان.

بدا آدم أفضل حالًا عنه منذ ساعة واحدة وقد استعاد نشاطه، لكن تبيّن أنّ الرّحلة داخل النّفق أشدّ وطأة على المُسخّرين منها على الغرباء. تذكّرت مانويلا ملاحظة ذكرتها روان من قبل: إنّهما يتألّمان. الـ«مادرا» مصدر ألم لذوي الهبات، والاقتراب إلى تلك الدّرجة من المصدر لا شكّ له تبعات.

قال آدم بثقة:

- ربّما يمكننا تمديد الوقت في الجولة المقبلة.

هزّ أوران رأسه موافقًا رغم علامات الإجهاد التي ظهرت على وجهه، لم يصبه إلا انزعاج طفيف، سيكون قادرًا على قضاء ضعف الوقت داخل الأنفاق قبل أن يشعر بضيق ما.

فكّر آدم في ارتياح: لم يفقدوا أحدًا خلال اليوم الأوّل، وسيحرص على ألا يفعلوا.

تحرّكت المجموعة نحو مخرج الكهف، تخلّص كلّ منهم من رداء الحماية وجلسوا داخل غرفة المشفى للتّداول بشأن جولتي اليوم. قالت روان:

- من الأفضل أن نكتفي بزيارة واحدة لكلّ منكم في اليوم.. لا ندري بعد ما الذي قد يترتّب على الوجود داخل الأنفاق، لذلك سنراقب الأعراض حتّى صباح الغد قبل أن نحاول مرّة أخرى.

وافقها الجميع بإشارات من رؤوسهم، ثمّ التقطت مانويلا حجرًا وأخذت ترسم خطوطًا متعرّجة على الأرضيّة الرّملية الرّطبة:

- ربّما يمكننا أن نرسم خارطة للأنفاق، قد ييسّر ذلك تبادل الأفكار بين الفريقين.

هتفت روان على الفور:

- سأحضر ورقًا إذًا.

حين جاءت روان بورق الأرز الأبيض، خطّت مانويلا بالحبر المسار الرئيسي ثم الطريق الفرعيّ الذي تبيّن أنّه طريق مسدود، قبل أن تقول:

- علينا التّركيز على المسارات المنحدرة.. كلّما غصنا أكثر في عمق الأرض اقتربنا أكثر من مصدر الـ«مادرا».

عقّب أوران:

- كثافة البخار أيضًا عامل مهمّ، كان أشدّ حضورًا في المسار الرئيسي عنه في المسار الفرعيّ.

بالنظر إلى قصر جولتهما داخل الأنفاق، لم يبد آدم ونايت ملاحظات تُذكر. سألت مانويلا في قلق وهي تطالع آدم:

- أنت واثق من قدرتك على التّعامل مع رهاب المساحات الضيّقة؟

امتقع وجه آدم لكنّه هتف مطمئنًا:

- إنّها مجرّد صدمة أوّلية، سأتعامل مع الأمر.. لا تقلقي!

بالنّظر إلى منزلته كمُخلِّص ومُسخِّر و«بطل خارق» لم يكن يفترض به أن يعاني بعد الآن نوبات الهلع، كان كلّ شيء يسير على ما يرام وحالته الذهنية في اتّزان مدهش، لكنّ ذلك التردّي المفاجئ يهزّ ثقته بنفسه وبكلّ ما أحرزه من تقدّم خلال الشهرين الماضيين. إلا أنّه لا يعترف بذلك علنًا. تلك أزمته وسيجد لها حلًا.

***

تردّد نايت قبل أن يتّخذ طريق الغابة، بالأمس تسلّل خلسة دون أن يتحدّث إلى أحد، لكنّه ليس وقت الخلود إلى النّوم بعد. سيكون رفاقه مجتمعين للمسامرة داخل المخيّم أو يعملون في مناوبة مسائية على بناء أكواخهم الجديدة. لم تمطر منذ أيّام وقد بدأت الأرض تمتصّ الماء وقريبًا ستجفّ الطرقات وتختفي المستنقعات، ويصبح التنقّل متيسّرًا.

اقترب بهدوء من موضع المخيّم، تصل إليه أصداء الأحاديث الصّاخبة وسط الغابة، لكنّ موقع أرجوحته في منأى عن الآخرين، استلقى على الشّبكة الصّلبة وأغمض عينيه لينال قسطًا من الرّاحة.

بعد دقائق، سمع حفيفًا قريبًا، فأصغى دون أن يفتح عينيه. تساءل إن كان أحدهم قد انتبه إلى حضوره وجاء لتفقّده، لذلك تظاهر بالنّوم ليتجنّب الحديث. مضت دقائق إضافيّة ثمّ تسلّلت إليه رائحة الطعام.. سمك مشويّ. كان قد حصل على وجبة سمك وجذور مطهوّة من تحضير المعالجة مارتا، لكن مضى على ذلك ساعتان الآن وهو لن يمانع في الحصول على حصّة إضافيّة. يأكل السّكان المحلّيون مرّتين في اليوم فقط، وبالنظر إلى فترة الحرمان السّابقة فإنّ جسده يتوق إلى البروتين المغذي. تساءل إن كان الرّجال في الغابة يشوون السمك في تلك السّاعة، لكنّه لم ير دخانًا، ثمّ إنّ الرّائحة قريبة جدًّا.

قرّر أخيرًا أن يترك مرقده ويستطلع أمر الرّائحة التي تلحّ عليه. استقام جالسًا على الأرجوحة وتلفّت متتبّعًا مصدرها، لم يبد أنّ مأتاها المخيّم. خطا على الأرض بحذر، ثمّ توقّف فجأة، تعرّف على الوعاء الخشبيّ على الأرض قبل أن يميّز السّمكة التي تغطيها أوراق الشجر لحمايتها، فتذكّر على الفور وعاء العسل الذي كانت تاليا تتركه على مقربة.

ابتسم وهو ينحني ليلتقط الوعاء، عاد أدراجه نحو الأرجوحة وجلس يأكل في صمت، كان من الغريب أن يحصل على وجبة جهّزتها «زوجته»، لكنّ إحساسًا دافئًا يُداخله. إنّها تأخذ الارتباط بينهما على محمل الجدّ، حتّى لو تعمّد ترك مسافة وحلّها من أيّ واجبات تجاهه. تذكّر كلمات براندن منذ أيّام، سرير دافئ ووجبة شهيّة، أيّ رجل سيرفض تلك الصّفقة الرّابحة؟

(22)

اليوم الثاني والعشرون بعد السّتين

تقدّم آدم داخل النّفق وهو يتنفّس ببطء، يحاول أن يُبقي اضطرابه تحت السّيطرة. سيفعل أيّ شيء ليطرد نوبة الهلع. ركّز على أنفاسه وهو يسير خطوة إثر أخرى ومن ورائه نايت، مرّا بالممرّ الذي ترك أوران علامة على مدخله: دائرة بداخلها علامة قاطع ومقطوع -طريق مسدود- سيكون عليهما الاستمرار إلى الأمام.

خلافًا للمسار الرّئيسيّ الذي يؤدّي إلى مصبّ الشلال، كان المسار الفرعيّ أقلّ عرضًا، قفز آدم دون تردّد ليعبر إلى الضفة الأخرى دون أن يخشى فقدان توازنه، فالمساحة أمامه كافية والأرضيّة خشنة، ثمّ استدار ليمسك بيد نايت المختبئة داخل القفازات السميكة ويساعده في الحفاظ على ثبات قدميه.

استمرا يتقدّمان فيما يزداد النّفق انحدارًا وتتدفّق الـ«مادرا» عند أقدامهما بهدير أصمّ يرنّ في أذنيه ويتردّد في رأسه مثل ذبذبات منخفضة يكاد يستشعر صداها في عظامه، ويغمر رأسه بخارها الكثيف الذي قد صار يعرف الآن كيف يكون الانغماس فيه بعد أن تطلّع إليه كثيرًا في فضول وهو يرفع عينيه نحو الظلّة. لا يشتمّ رائحة واضحة بسبب القناع النّباتيّ، لكنّه يشعر بالرّطوبة على وجهه وبحرقة في مقلتيه، غير أنّه لا يفقد وضوح بصره، لعلّ ذلك يعود إلى هِبات المُسخِّرين التي ترفع من كفاءة حواسّه عن العادة.

استدار ليلقي نظرة على نايت، يبدو مرافقه هادئًا وثابت الخطوات مثل المرّة السّابقة. لعلّ الحماية التي توفّرها البدلة عالية الجودة هي السرّ، لكنّ آدم لا يعتقد أنّ بإمكانه استخدام واحدة، ربّما لا يشعر نايت بالـ«مادرا» ببشرته المجرّدة حتّى يفوت الأوان، لكنّه في حاجة إلى الشعور بمحيطه، يُقدّر أنّ تفاعل جسده مع المادّة سينبّئه بما يريد معرفته عن كثافتها واتّجاه تدفّقها وسيدلّه حتمًا على الطّريق التي ينبغي عليه أن يسلكها، لذلك فإنّ ارتداء البدلة سيعني إطفاء كلّ حواسّه الخارقة. بالإضافة إلى أنّه سيحتاج إلى هبات التّسخير لاختراق الانسداد -إذا كان هناك انسداد ما- لكنّه يأمل أنّه لن يمتصّ أكثر ممّا يجب من الـ«مادرا» قبل ذلك.

يحاول أن يشغل نفسه عن التفكير بالـ«مادرا» وتأثيرها، عن الحقل الذي يعتقد أنّه يزداد تركيزًا كلما غاصا أكثر في باطن الأرض، ينبغي له أن يحافظ على يقظته وحدّة ذهنه لا الاستسلام للمخاوف. يُفترض بهما إيجاد انسداد ما، تلك غاية المهمّة، لكنّه يعود إلى حدسه الأوّل: ماذا لو كان تغييرًا كيميائيًا؟ ماذا لو كان الـ«مصدر» أشبه بعين ماء تنضب أو حمم فائرة تنطفئ؟

يمكنه التّعامل مع انجراف الصّخور أو تحوّل وجهة تيّار الـ«مادرا» ليصبّ في البحر، لكنّه سيكون عاجزًا أمام أيّ شيء آخر. تسارعت النّبضات في صدره مع ارتفاع توتّره، ليس هذا ما نواه حين فكّر بتشتيت انتباهه عن خطر المادّة المتوهّجة. لا إراديًا، تطفو كلمات مايك في ذهنه *«الـ«مادرا» ستأخذ قربانها»*، فيزداد توتّره.

توقّفا أمام ممرّ فرعي ثانٍ بعد ربع ساعة من المشي الحذر، ألقى آدم نظرة شاملة يقيّم الانحدار وارتفاع السّقف وكثافة البخار في الهواء. لا يمكنه أن يستشرف نهاية النّفق من ذلك الموقع بسبب البخار، لكنّ استكشاف كلّ نفق سيكون إهدارًا للوقت وللأكسجين في أسطوانة نايت. تحدّث

أوران عن تناقص كميّة البخار في الهواء في الممرّ الفرعيّ الأوّل، وهذا عامل عليه أن يأخذه بعين الاعتبار لتسريع عمليّة الفحص، لكنّه لا يملك أن يتّخذ قرارًا حاسمًا وهو يقف هناك، لعلّ البخار يكون كثيفًا في البداية ثمّ يتناقص، وهو لا يستطيع تجاهل أيّ نفق ممكن خشية أن يفوّت مسار الـ«مصدر».

كان عليه أن يقطع تردّده، فكلّ ثانية إضافيّة في الأنفاق تعرّضهما لخطر أكبر. تناول الفرشاة والحبر ورسم دائرة على الجدار الخارجيّ للممرّ ثمّ خطا إلى الدّاخل. مرّت دقائق من المشي الهادئ دون أن يتغيّر المشهد من حولهما، كان آدم يفكّر بأنّه سيتعرّف على الدّلالات الحاسمة حين تظهر، وسيقيّم إن كان النّفق يؤدّي إلى طريق مسدود أم لا سريعًا.. لكنّه عاجز عن اتّخاذ قرار واضح، ربّما عليه أن يستمرّ في المشي دون أن يفكّر بأيّ شيء آخر.

انتبه بغتة إلى توقّف خطوات نايت وراءه، استدار ليطالع صاحبه مستفسرًا:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

كان نايت قد نزع أسطوانة الهواء عن ظهره وبدا مشغولًا بشأنها. حين رفع رأسه لاحظ آدم تنفّسه المضطرب وعلامات الجزع في عينيه رغم ثبات صوته:

- أعتقد أنّ الهواء يتسرّب.

قرأ آدم مؤشّرات الأسطوانة، الضغط ينخفض بسرعة غير اعتياديّة. لديهما مشكلة هنا.

حرّك رأسه محاولًا استطلاع نهاية النّفق، لكنّه لا يستطيع تمييز شيء أبعد من أمتار قليلة أمامه، ربّما يصلان إلى طريق مسدود بعد دقيقة أو اثنتين، إذا رجعا الآن فستكون الجولة كلّها بلا فائدة، لم يحسما أمر النّفق بعد، لكنّ البقاء يعني تعريض نايت للخطر. فكّر في إرسال نايت نحو المخرج وإكمال

المسافة منفردًا، إلا أنّه تذكّر بسرعة قواعد السّلامة: لا ينبغي على أحدهما البقاء وحيدًا في أيّ لحظة. الوحدة داخل أنفاق الـ«مادرا» قد تكلّف أحدهما حياته. هزّ آدم رأسه وقال بلهجة حازمة:

- فلنرجع!

***

جاء دورها لدخول النّفق ثانية.

بعد جولة الأمس، أخذت مانويلا تضع نظريّات علميّة في ذهنها بشأن خصائص الهواء داخل الأنفاق وطبيعة الجدران ومجرى الـ«مادرا».. لم تكن عالمة جيولوجيا، لكنّ الفضول العلميّ سمة من سماتها. في وقت سابق أخذت أوران إلى العالم المتحضّر لتكتشف الإعجاز في تركيبة دمه، والآن أمامها فرصة ذهبيّة للاطلاع على أهمّ أسرار الجزيرة، وهي واثقة من قدرتها على الوقوف على مفتاح الأزمة.

تفقّدت صمّام أسطوانتها وتأكّدت من مستوى ضغط الهواء والمخزون المتبقّي قبل أن تضعها خلف ظهرها، لا تودّ أن تتكرّر حادثة نايت معها. لم تكن المعدّات مضمونة بعد أن بقيت تحت الماء لأسابيع، وليس ضمن رجال والدها من يعرف كيفيّة إصلاحها إذا فسدت. كلّ أسطوانة بها عطب ستُلقى جانبًا، لكنّها تأمل أنّها ستجد أسطوانات إضافيّة صالحة.

نظرت في الخارطة التي رسمتها للأنفاق بعد أن أضاف آدم تفرّعًا ثانيًا على مسافة من الأوّل، لم ينهيا استكشاف النّفق في الجولة الماضية لذا سيكون عليها وأوران الإكمال من حيث انتهى الفريق الأوّل. ذلك التحسّس التّدريجيّ للتفرّعات واحدًا إثر الآخر لا شكّ ينمّ عن عقليّة علميّة لا تدع مجالًا للحظّ، لكنّها تستهلك وقتًا طويلًا وقد يمضي زمن قبل إحراز نتيجة فعليّة، لو أنّها تجد وسيلة لتمييز الأنفاق الواعدة وتلك التي لا طائل وراءها خلال الأمتار الأولى فإنّ ذلك سيوفّر عليهم كثيرًا من الجهد.

تبعت أوران نحو التّجويف الحجري ومالت إلى الأمام لتجد توازنها على الجانب الأيمن من الممرّ، لا يزال ذلك الجانب المفضّل لديهم منذ الأمس وهو الذي يحظى بعدد أكبر من التفرّعات فيما يبقى الجانب الأيسر جدارًا ممتدًّا أصمّ. وجدت توازنها سريعًا ومضت بخطوات واسعة وهي تشعر بخفّة مقارنة بجولة الأمس، لعلّها تعوّدت البدلة، تجدها أكثر راحة خاصّة بعد أن شدّتها حول الكاحلين والمعصمين بأشرطة قماشية لتبقيها ثابتة. ستتأكّد من أنّ كلّ الظروف في صالحها، لأنّها عازمة على إحراز تقدّم حقيقيّ اليوم.

حدّقت في ظهر الرّجل الذي يمشي أمامها محنيّ القامة، ابتسمت وهي تتأمّل درع الجلد التي يرتديها والهيئة الغريبة التي أكسبته إيّاها حتّى بدا كأنّه محارب من عصور غابرة. إنّها ممتنّة لتلك الفرصة التي جمعتهما.. إن كان ذلك المسير الصّامت يعدّ اجتماعًا. باتت تقنع بالفُتات ولا تُطالب بمزيد مثل «عروس بحر» صامتة، لكنّها تعرف كم من العسير أن تجد لها موطنًا في أرضه وفؤاده وقد بدأ كلّ شيء بينهما بالطريقة الخاطئة. ما لم يكن مصابًا بمتلازمة ستوكهولم، فلا شيء يدعوه إلى مبادلتها العاطفة، إلا أنّها ستكفّر عن ذنوبها السّابقة وتمحو آثار الماضي في وجدانه، وستجعله يلين بصدقها.

حامت نظراتها عبر الجدران اللامعة، يملأ أذنيها هسيس المادّة المتوهّجة التي تتدفّق نحو المنحدر عند أقدامهما، لم يكن هديرًا صاخبًا يصمّ الآذان لكنّه يغطي على وقع خطواتهما بل على كلّ صوت عداه داخل الأنفاق. توقّفت عيناها على مسار السّائل الزّئبقيّ وهي تشعر بشيء غريب لا تدري كنهه، يراودها إحساس مزعج بأنّ شيئًا ما خطأ إلا أنّها لا تميّزه. توقّفت فجأة عن المشي وأطلقت هتافًا عاليًا:

- عرفتُ!

توقّف أوران بدوره واستدار نحوها، يمتدّ النّفق أمامهما في انحدار مستمرّ ويحجب البخار الكثيف الرؤية إلى الأمام، لا توجد أنفاق أو تفرّعات أخرى يجدر بهما معاينتها، لكنّ ملامح مانويلا من وراء قناعها الزّجاجيّ تبدو واثقة وحازمة:

- انظر إلى الـ«مادرا»، هل ترى كيف تتدفّق؟

طالع أوران التيّار عند قدميه بحاجبين معقودين، لكنّه لم يتوصّل إلى شيء.

- إنّها تتدفّق إلى أسفل!

- نعم، تتدفّق إلى أسفل لأنّ الطريق منحدرة.

أخذت مانويلا نفسًا ثمّ قالت:

- نعم، المياه الجارية تتدفّق إلى الأسفل بمفعول الجاذبيّة الأرضيّة، فتهبط في جداول وشلالات.. لكنّ الماء في العيون الجوفيّة الحارّة يتدفّق إلى أعلى في تحدّ صارخ للجاذبيّة، وهكذا يصل إلى السّطح!

سواء كانت الـ«مادرا» تتحرّك مثل ماء العيون الجوفيّة أو الحمم البركانيّة الحارقة فإنّها تتسلّق دائمًا إلى أعلى.. إن لم تفعل فلن تصل إلى السّطح أبدًا ولن تتدفّق داخل الكهف وتشكّل غمامة كثيفة فوق الجزيرة!

أضاءت عينا أوران أخيرًا بنظرة الفهم وهو يستوعب الملاحظة، فأضافت مانويلا:

- الأنفاق المتّصلة بالـ«مصدر» يُفترض بالـ«مادرا» أن تتحرّك خلالها بانتظام نحو الأعلى...

- إذًا كلّ الأنفاق التي تهبط عبرها الـ«مادرا» هي تفرّعات جانبيّة بلا فائدة!

أومأت مانويلا بابتسامة جذلة، كان يتحدّث إليها، وهي حتمًا تُسهم في حلّ اللغز الآن لتكون ذات فائدة لا مجرّد عبء. لعلّ نشوتها باكتشافها

جعلتها تفقد توازنها، ففي اللحظة التي دارت فيها على عقبيها لتشرع في صعود المنحدر تعثّرت ووجدت قدميها تغوصان داخل تيّار الـ«مادرا».

غمرتها الـ«مادرا» حتّى خصرها ورغم بدلة الحماية المتينة والسّميكة سرت في جسدها رجفة حادّة وتعاقبت موجات حرارة وبرودة لاذعتين لم تكد تميّزها، مثل الإحساس الأوّل بالماء المغليّ يخدّر الحواسّ فيكاد يكون قارس البرودة قبل أن يصبح غير ذلك، لكنّ المادّة طوّقتها وكادت تشعر بها تتغلغل في جلدها نحو العظم بسرعة جارفة، لم تنتبه على الفور، لكنّها توقّفت عن التّنفس وارتفعت الدّماء إلى وجهها حتّى غامت رؤيتها، وأخذت تغيب عن الوعي.

حدث كلّ ذلك في لحظة خاطفة، قبل أن ينتشلها أوران ويحملها فوق ظهره ويشرع في ركض محموم عبر الأنفاق.

***

لم تشعر مانويلا بقدميها على الفور، حين عادت إلى وعيها أحسّت بموجات الخدر التي تغلّف نهاياتها العصبيّة، كأنّها تفيق بعد عمليّة جراحيّة بتخدير كامل. رفعت يدها إلى رأسها بحركة مترنّحة، فأيقنت أنّها تحت تأثير عقار ما.

أطلت روان عند رأسها بابتسامة مطمئنة:

- لقد استيقظتِ.. حمدًا لله على سلامتك.

همهمت مانويلا بلسان ثقيل:

- ما الذي حدث؟

- لقد وقعتِ في تيّار الـ«مادرا»، لكنّ أوران أخرجك بسرعة لحسن الحظّ.

تذكّرت اللّحظات الأخيرة داخل النّفق قبل أن تفقد وعيها، لقد شعرت كأنّ البدلة أخذت في الذّوبان فوق جلدها، ارتجفت وهي تتخيّل حممًا بركانيّة تلتهمها. حاولت أن تحرّك قدميها لكنّهما لم تستجيبا على الفور، ارتفعت الغصّة إلى حلقها فقالت بصوت مختنق:

- قدماي.. هل...

قاطعتها روان بسرعة:

- ستكونين بخير.. لا يزال جسدك تحت تأثير الصّدمة، النّصف السفليّ منه غمر داخل التيّار لذلك يحتاج إلى وقت أطول للتّعافي.. لكنّني أشعر بالحياة في ساقيك، إنّها مسألة وقت وحسب.

هزّت مانويلا رأسها شاكرة وعيناها تمتلآن بالدّموع، مرّة أخرة تنقذ المعالجة حياتها. سألت في لهفة:

- كيف حال البدلة؟ هل ما زالت صالحة؟

- لا أعتقد ذلك.

غادرت روان حجرة الفحص، توقّفت عند الغرفة الخارجيّة حيث سمعتها مانويلا تتكلّم بلغتها ثمّ ردّ عليها صوت ذكوريّ مألوف.. أوران. ارتبكت نبضاتها، لم يأتِ لرؤيتها.. أم لعلّه اكتفى بسؤال المعالجة عنها. تودّ أن تشكره على إنقاذ حياتها، توقن أنّ سرعة بديهته وردّ فعله السّريع كانا حاسمين. إلا أنّه يتوارى ولا يأتي إليها.

وضعت كفّها على صدرها تتحسّس موضع إصابة قديمة حسبتها قد التأمت، انتشر الألم في عظامها فجأة واستقرّ بين أحشائها، فانثنى جذعها في مقاومة بائسة. هل تستيقظ الآلام القديمة في كلّ مرّة يصاب الجسد فيها بحالة ضعف وهوان! أم تُراه يستعيد ذكرى الخذلان القديم مع إعراض مُنقذها عنها؟ تلك الطّعنة التي تلقّتها من خنجر طائر ستظلّ تذكّرها دائمًا بأنّها ليست مُهمة كفاية.

مسّدت صدرها برفق وسحبت أنفاسًا عميقة متكرّرة حتّى بهت الوجع وتلاشى. حين عادت روان بعد دقائق، كان الألم قد ذهب، فلم تجد سببًا لإثارة أمره أمامها، لا تريد أن تكون مريضة كثيرة الشّكوى، وستفعل أيّ شيء لتغادر السّرير في أقرب وقت ممكن.

حملت روان بين ذراعيها ما كان في وقت ما ذلك النّهار بدلة حماية بيضاء من الألياف الخشنة. كان لون الجزء السّفليّ الذي يشمل السّاقين والخصر قد استحال رماديًا داكنًا، وحين شدّته أصابع روان بقوّة معتدلة أخذ يتفتّت ويتساقط مثل الرّماد. شهقت مانويلا في جزع وأدركت أنّها قد نجت بالفعل من موت محقّق. لقد تلاشت البدلة التي تحميها من تأثير الـ«مادرا» كأنّها لم تكن، لو أنّها ألقيت في نار ملتهبة لكانت قد قاومت بضع دقائق قبل أن تشرع في الاحتراق.. لكنّ تأثير الـ«مادرا» كان لحظيًا.

أكّدت روان ظنونها حين قالت:

- قال أوران إنّه أخرجك من السّيل على الفور، ثوانٍ إضافيّة ربّما تكون قاتلة.

ارتجفت مانويلا، وتوجّه انتباهها ثانية إلى قدميها السّاكنتين، قاومت الإحساس المتنامي داخلها بالجزع، المعالجة قالت إنّ ساقيها ستكونان بخير، لذلك يجب أن تتفاءل، لكنّ مشهد البدلة المحترقة يجعل صدرها يضيق وألم النّدبة ينبض. لو تأخّر أوران بضع ثوانٍ لما تمكّنت روان من عمل شيء من أجلها.

لكنّها مختلفة، لديها مناعة عالية، أليست كذلك؟ انتابها الشكّ بشأن مناعتها الموهومة. إذا سقطت وسط اللّهيب الرّماديّ الذي لا شرار له فإنّها ستحترق قبل أن تعي أنها تفعل.

تساءلت بصوت ضعيف:

- ما الذي يفعله الآخرون؟ هل عادوا إلى الكهف؟

- لا تشغلي نفسك بالكهف الآن، ركّزي في التّعافي.
- أريد أن أرى آدم والآخرين.. هناك ما عليّ إخبارهم به!

ابتسمت أوران في امتنان:

- أخبرنا أوران بشأن ملاحظتك الذكيّة، ستكون ذات فائدة جمّة في الجولات المقبلة.

رسمت مانويلا ابتسامة واهنة على شفتيها، لقد فعلت شيئًا ذا نفع على الأقلّ.. قبل أن تُصبح بلا فائدة، لكنّها لن تتوقّف عند ذلك الحدّ، هي واثقة من قدرتها على فكّ مزيد من الرّموز إذا أتيحت لها فرصة العودة إلى الكهف.. لكنّها عاجزة عن الحركة الآن، ولا بدلة لديها.

- هل يمكن لأحدهم إحضار البدلات الأخرى؟ أعتقد أنّني قد أجد واحدة أخرى تصلح لي..

ضمن المعدّات التي تمكّن آدم من استخراجها، عدد قليل من البدلات نجا من محاولة التّخريب. لقد تخيّر نايت أفضلها جودة وسلامة، لكن بما أنّها قد أفسدت الأولى، فربّما تتنازل عن معايير الجودة العالية وترضى بمعدّات من الدّرجة الثانية، إلا أنّ ذلك يعني المخاطرة بقدر أكبر.. قد تتفسّخ الأنسجة الرّقيقة أو تتمزّق المناطق المتآكلة.

أومأت روان وقالت بخفّة:

- سأفعل..

إذا كانت معاينة البدلات ستبقيها مشغولة وتأخذ تركيزها بعيدًا عن وضع قدميها، فلن يضرّ ذلك.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

جاء كريس لزيارتها مساءً. يشغل الطّبيب الشابّ نفسه بتعلّم مهارات جديدة، يتبادل هو والمعالجة مارتا الأدوار خلال النّهار، فتارة يعلّمها وتارّة يتعلّم منها، وقد منحه الأمر تسلية عظيمة.

حين دخل الحجرة التي تشغلها مانويلا وجدها منهمكة في معاينة البدلات الواقية، إلا أنّها لم تستطع إخفاء الخوف التي تنبض به مقلتاها. تلك الصّغيرة بدت متماسكة تماسكًا مدهشًا في السّابق وهي تستقبل قدر الموت الذي حسبه حتميًا، والآن تخشى أن تبقى مقعدة وتفقد قدميها.

- دعيني أفحصك.

انحنى ليجسّ ساقيها وقدميها السّاكنة بأطراف أصابعه، ثمّ تناول عدّة الإبر الصّينية. راح يغرس رؤوس الإبر في مواضع بعينها ويسألها من حين إلى آخر إن كانت تشعر بشيء، إلا أنّ إجابتها لم تتغيّر حتّى فراغه. لا شيء على الإطلاق.

تنهّد وهو يجلس على طرف السّرير، في وقت سابق حثّها على الذّهاب إلى العالم المتحضّر لتحصل على العناية اللازمة، بيد أنّه يعرف الآن أنّ ما تتسبّب به الـ«مادرا» لا تشفيه إلا معالجات الجزيرة. تتناوب مارتا وروان على عيادتها وتتشاوران في ما بينهما بلغتهما المبهمة، وطالما لم تعلنا عجزهما فالأمل باقٍ.

لقد رآها تقترب من الموت حتّى استحال لونها رمادًا، وحين لقيها بعد أيّام كان ماء الحياة قد عاد يتدفّق في وجنتيها، لذلك صار الدّكتور كريس يؤمن بالمعجزات.

- ستكونين بخير.. أنا واثق.

ربّما إذا سمحت له الفرصة، قد يؤلّف كريس مصنّفًا يتناول تلك الـ«مادرا»؛ تاريخها وتأثيرها. يفكّر في دراسة ميدانيّة، ربّما يشرع في تدوين ملاحظاته بشكل دوريّ حتّى لا تغيب عنه التّفاصيل ويجعل رفاق رحلته

موضوع الدّراسة.، حصل بعض الرّجال على الحقنة، وآخرون يحتاجون إلى حبّة دواء يوميًا.. لكنّ الأجساد تختلف، وتعاطيها مع المادّة المتوهّجة يتغيّر. مايك ومانويلا موضوعا دراسة من صنف مختلف. لا يعرف بعد إن كان سينشرها في موطنه أم يُودِعُها أرشيف مدرسة الجزيرة مع بقيّة الكتب التي تحتفظ بها المعلّمة، إذا كان الأمر يهمّها طبعًا.

غادر الحجرة ومشى نحو السّاحة الخارجيّة، على مسافة أمتار قليلة انتبه إلى الرّجل الأشقر ذي الضفائر الطويلة الذي يقف متململًا، كأنّ النمل يلسع رجليه. راقبه برهة وقد بدا له مألوفًا، كلّ سكّان الجزيرة يتشابهون في عينيه ببياضهم الشّاحب والشّقرة البلاتينيّة في خصلاتهم وقاماتهم المديدة وصدورهم العريضة.. إلا أنّ هذا الشّاب بالذّات يذكّره بشيء يتفلّت منه.

تذكّر.. سجين مايك على متن الـ«أسطورة»! قايضت مانويلا بحياتها لتمنحه حرّيته. ظهر بصحّة أوفر عنه حين كان محبوسًا وفي بشرته نضارة وألق. غريزة الطّبيب تجعله يلتقط تلك الإشارات قبل أيّ تفاصيل أخرى، إلا أنّ الرّجل قلق، لا تتوقّف قدماه عن التململ في مكانهما. ابتسم كريس في لؤم، وتساءل عما قد يقايض به الشابّ لتستعيد مانويلا حركة قدميها؟

- مرحبًا.

قاطعت تأمّلاته كلمات إنجليزيّة على لسان أنثويّ متغنّج، فاستدار دهشًا ليحدّق في الفتاة التي لا تكاد تبلغ العشرين وتقف إزاءه متراقصة هي الأخرى، فيما تعبث أناملها بطرف غطاء شعرها. انحسرت القماشة قليلا لتُظهر مقدّمة شعرها، فتبيّن أنّها تلوّنه ببعض الأعشاب ليبدو أقرب إلى الحمرة. خمّن أنّها أصغر سنًا ممّا تظهر عليه، لكنّها تحاول أن تبدو ناضجة. لم تكن واحدة من متدرّبات المعالجة مارتا، يعرف تينك الشّابات اللّواتي يُحرجهنّ حضوره ويختفين عن الأنظار حين يكون في الجوار، يراقبن خلسة

ويتهامسن.. غير أنّ أيًا منهنّ لم تجرؤ على مخاطبته بلسان قومها، فكيف بلسان قومه!

- اسمي خلود! ما اسمك؟

تابعت الفتاة بكلمات متكسّرة يعوزها الإتقان، لكنّها تحاول وتلك شجاعة منها.

- كريس.. اسمي كريس.

- كريس.. هل أنت متزوّج؟

فاجأه السّؤال المباشر والفجّ، فارتبك قليلًا وأوشك على الضّحك، بيد أنّ الفتاة استمرّت تطالعه بنظرات جريئة لا لبس فيها. فكّر أنّ الفتاة قاصر لا محالة، وإن كانت في عرف قومها في سنّ الزّواج، إلا أنّه لا يستطيع أن يصرف ذهنه عن كونها لا تزال طفلة يجدر بها أن تتعلّم وتفتح عينيها على الحياة بدل الهوس بشأن الزّواج. قال بلهجة متعالية:

- أيّتها الصّغيرة، ألا توجد عندك دروس اليوم؟

حملقت فيه خلود بنظرات متردّدة، فكّر أنّ مخزونها الضئيل من كلمات لغته لا يسمح بمحادثة معقّدة، بعد برهة صمت عادت تقول في إلحاح:

- هل أنت متزوّج؟!

تنهّد، لعلّها لن تنصرف قبل أن يجيب بوضوح بـ«نعم» أو «لا». «نعم» ستخرجه من المأزق، لكنّها كذبة، و«لا» ستمنحها عذرًا للطواف حوله في المستقبل. بعد زواج واحد من رجال مايك بالمعلّمة، يتطلّع آخرون إلى تكرار العمليّة. لكنّها قاصر، وهو لا ينوي أن يكون جزءًا من التّجربة الاجتماعيّة.

تساءل إن كان الفارس الذي يرابط على باب المشفى مستعدًا لخوض التّجربة بدوره، تطلّع إلى حيث وقف الشابّ في فضول إلا أنّ خلود

سارعت تسدّ مجال رؤيته وهي تنتقل لتقف قبالته، لم تكن لتتزحزح حتّى تحصل على جواب سؤالها.

هرش كريس شعره الكستنائيّ الأشعث وقال معترفًا:

- لا.. لستُ متزوّجًا.

اتّسعت ابتسامة البنت حتّى كادت تلتهم كامل وجهها ولمعت في عينيها نظرة ظفر، وهمست:

- جيّد.

لوّح كريس بكفّيه بشدّة وهتف:

- لا، ليس جيّدًا!

عبست وهي تحدّق ثانية بنظرات متشكّكة. أشار كريس بيده ذهابًا وإيابًا في الفراغ الذي يفصل بينهما وقال ببطء:

- أنا.. أنت، ليس جيّدًا. حسنًا؟ أنا.. مشغول.

- مشغول؟

كرّرت الكلمة دون أن يبدو عليها الفهم، مفرداتها محدودة حتمًا.

لكنّها عادت لتقول بنبرة المعرفة:

- آه، مشغول!

هزّت رأسها مرارًا ثمّ انحنت تحيّة قبل أن تبتعد خطواتها. عبس كريس للحظات وأعاد شريط الحوار القصير في رأسه، تساءل إن كان كونه «مشغولًا» عذرًا مقنعًا في نهاية الأمر، أم أنّ البنت قد وجدت للكلمة معنى آخر غير ما قصده.

(23)

اليوم الثالث والعشرون بعد السّتين

استعدّ آدم لدخول النّفق للمرّة الثالثة برفقة نايت، فقدوا بالأمس بدلة حماية وعنصرًا من الفريق لذلك ستقتصر محاولة اليوم على جولة واحدة. لا يريد أن يفكّر في لعنة الجنّ التي يؤمن بها الـ«آم»، ولا بنبوءة مايك عن قربان ما، روان قالت إنّ حالة مانويلا مؤقّتة، لذلك يحافظ على تفاؤله.

قبل وقوعها في تيّار الـ«مادرا»، أسدتهم مانويلا معروفًا كبيرًا. بفضل ملاحظتها اللّماحة سيتمكّنان من التقدّم بفاعلية أكبر.

عدّل آدم المؤقّت ثمّ أحنى رأسه ودلف إلى النّفق يتعقّبه نايت على قيد خطوات يسيرة، اختارا الجانب الأيسر، بالنظر إلى تحديث الخارطة حتّى تلك اللّحظة، لا شيء يحدث على الجانب الأيمن لذلك يرجّح آدم أنّ الأنفاق على الضّفة الأخرى تتدفّق إلى الأسفل. تحرّكا بخفّة وحذر، يذكّر كلاهما نفسه أنّ أيّ تعثّر قد تكون عواقبه وخيمة، لكنّهما بحاجة إلى الابتعاد أكبر مسافة ممكنة.

كانا يتوقّفان أمام الممرّات التي لم تُستكشف بعد، يعاينان مسار التدفّق ثمّ يرسم آدم علامة الدّائرة وفي داخلها سهم يتّجه إلى أسفل إشارة إلى انحدار الـ«مادرا» الموافق لتأثير الجاذبيّة. أحيانًا يلتبس الأمر عليهما على مستوى التفرّعات، يضطرّان إلى التقدّم بضعة أمتار داخل النّفق الجانبيّ للقطع بشأن اتّجاه التيّار، ثمّ يعودان أدراجهما سريعًا نحو المسار الرئيسيّ.

كانا يتقدّمان بسرعة وهمّة ولا يضيّعان كثيرًا من الوقت في المعاينة.. حتّى اقترب المؤقّت من نهاية الفترة المتاحة.. ساعتان.

كان آدم منتبهًا لكلّ التغيّرات التي يشعر بها عبر الزّمن، خلال الدّقائق الأولى تداهمه حرقة خفيفة في مقلة العين، بعد ثلاثين دقيقة يبدأ الصّفير خافتًا في أذنيه ثمّ يعلو تدريجيًّا حتّى يصبح إشارة ثابتة تحاكي صوت صرصور الحقل، بعد ساعة أو نحوها ترتفع الحرارة تحت جلده تذكّره بإحساسه داخل حمّام الساونا وما يصاحبه من ثقل في الرأس، أمّا وقد اقتربا من إنهاء ساعتين داخل الأنفاق فقد أخذ يشعر بطعم معدنيّ في حلقه وتنميل بسيط في أطرافه.. لكنّ الأسوأ هي رؤيته الضبابيّة، فيرمش بسرعة ويعتصر جفنيه من حين إلى آخر ليحافظ على تركيزه.

كان عليهما أن يرجعا أدراجهما على الفور، إلا أنّ آدم يشعر بالإحباط.. إنّهما يتقدّمان، لكنّ الوقت لا يسمح لهما بكثير من الإنجاز.

هتف نايت:

- علينا العودة.

غير أنّ خطوات آدم لم تتوقّف، قال وهو يستمرّ إلى الأمام:

- قليلًا بعد..

حذا نايت حذوه رغم انزعاجه، ربّما لا يشعر بالقلق في ما يخصّه، فهو محميّ داخل بدلته، يتنفّس هواءً نقيًا.. لكنّ آدم يخاطر بالاستمرار وهو أشدّ عُرضة للأذى. ربّما يودّ أن يعوّض عن الجولة الثانية التي لن تحدث فأوران لن يدخل النّفق بمفرده وفقًا للقواعد التي وضعوها في وقت سابق، لن يدخل أحدهم النّفق دون مرافق. غير أنّه يخرق قاعدة ثانية وهي الالتزام بالوقت المحدّد وعدم المخاطرة، وإن كان يشعر بالأمان الآن فهو لا يثق ثقة تامّة في المعدّات التي قد تخونه في أيّ لحظة، قد يتعطّل الصّمام مثل المرّة

السّابقة وقد تُصاب البدلة برذاذ الـ«مادرا» المتناثر وتحدث بها ثقوب أو يتهتّك نسيجها مثل بدلة مانويلا.

فجأة أخذت الأرض ترتجّ تحت قدميهما وسرت في الجوّ دمدمة خفيضة أخذت تعلو وتعلو في صخب متصاعد قبل أن تلفحهما هبّة دافئة من البخار الكثيف، اندفعت دفقة الهواء نحوهما بقوّة من أسفل المنحدر كأنّ أعماق النّفق تتنفّس في وجهيهما، فتشبّث كلاهما بالجدار القريب ليتماسك. أغمض آدم عينيه وهو يشعر بالحرقة تغمرهما أكثر من ذي قبل وقد اجتاحهما بخار ثقيل ومركّز. مضت لحظات من الذّهول قبل أن تعود الضّوضاء داخل الممرّ إلى مستواها الطّبيعيّ وتمضي سحابة البخار في مسارها صعودًا نحو التّجويف الصخريّ.

رفع نايت صوته ليعلو فوق هدير الجدول المتدفّق عند قدميهما بلهجة أكثر حزمًا:

- علينا الرّجوع.. الآن!

لا يعرف أحدهما مدى خطورة اللّفحة التي تعرّضا لها منذ حين، ربّما لا يشعران بعد بالأذى لكنّ تلك الرّيح المفاجأة قد تضعف من قدرة تحمّل آدم.

تباطأت خطواته ثمّ توقّف في إذعان وأومأ موافقًا. أمامهما لا تزال الأنفاق ممتدّة يحجب مداها البخار الكثيف، يعرف أنّه يسير في الاتّجاه الصّحيح وأنّ الـ«مصدر» على مسافة ما أسفل المنحدر، لكن عليه التسليم بأن شيئًا ذا بال لن يحدث اليوم.. ليس بعد.

قبل أن يلتفّ على عقبيه، أرسل آدم بصره بعيدًا إلى أسفل المنحدر، من خلال الغاز الضبابيّ الذي يحجب رؤيتهما تبيّن له أنّ المسار يتفرّع إلى نفقين اثنين، لم تكن طريقًا فرعيّة تتشعّب عن المسار الرئيسيّ، بل بدا أنّ المجرى ينشقّ بوضوح. حتّى تلك اللّحظة كانا يواصلان النّزول في نفق واحد

يتلوّى ويزداد ضيقًا أو اتّساعًا لكنّهما يتبعان طيلة الوقت خطًا واحدًا، وكلّ الأنفاق الفرعيّة تتدفّق خلالها الـ«مادرا» إلى الأسفل.. لكن هذه المرّة راوده إحساس مختلف حيال المسارين أمامه، كلاهما يبدو «رئيسيًا» بالقدر نفسه.

قال وهو يخطو إلى الأمام:

- لحظة واحدة.. أحتاج إلى أن أرى هذا..

تبعه نايت على مضض، وقف ساكنًا فيما يعاين آدم المسارين، وسرعان ما تأكد حدسه.. تتدفّق الـ«مادرا» في كليهما نحو الأعلى! لا يمكنه الآن أن يرسم علامة على الجدار ليعلن عن طريق مسدود آخر، بل يجد نفسه أمام نفقين متساويي الأهمّيّة. حاول أن يقيّم كثافة البخار داخل كلّ منهما ودرجة الانحدار، لعلّها تمثّل أمارات تدلّه على الخيار المثاليّ، استمرّ يتنقّل من جانب إلى آخر ليدقّق النظر لكنّه لم يتوصّل إلى الفصل.

جاءه صوت نايت بنبرة متوتّرة:

- آدم.. يجب أن نرجع!

أرسل آدم زفرة استسلام، لا يمكنه البتّ بشأن المسار الأفضل الآن. استدار الاثنان على عقبيهما وأخذا يتسلّقان المنحدر.

حين خرجا من الفجوة كان روان وأوران في انتظارهما، هرولت المعالجة باتّجاههما بنظرة متجهّمة، قالت في ضيق مخاطبة زوجها:

- لقد تجاوزتَ الوقت المحدّد!

كانت تستخدم آلة يدويّة لاحتساب الوقت، تتكوّن من وعاءين خشبيين يرتفع أحدهما عن الآخر مقدار ذراع ويقطر الأوّل داخل الثاني بنسق بطيء مثل ساعة رمليّة ملأى بالماء، خلال الزّمن الذي قضاه آدم بالدّاخل أعادت روان ملأ الوعاء العلويّ ثلاث مرّات.. وهي فترة طويلة في عُرفها.

تهالك آدم على الأرض وهو يقول متذمّرًا:

- الأنفاق طويلة جدًّا.. متشعّبة جدًّا. بهذا النّسق لن نصل إلى أيّ مكان!

استبدّ به الإحباط، رغم كلّ التّقدّم الذي أحرزه اليوم لا يشعر بأنّه يقترب من الهدف، لا يعلم حتّى كم يلزمه من الوقت للوصول إلى الـ«مصدر» الأصليّ ولا شيء يدلّ على وجود انسداد قريب، بل لا يعلم إن كان هناك انسداد في مكان ما! لا يرى من أين يمكن للماء أن يتسرّب نحو الأنفاق العميقة، لقد لاحظ في رحلته إلى الأعماق الرّطوبة في الجدران الكلسيّة.. لكنّ ذلك لم يحدث إلا على مسيرة يوم كامل أو أكثر، وهو لا يملك هذا الوقت داخل أنفاق الـ«مادرا».

- يجب أن نُخاطر.. لنذهب أعمق.. وأسرع!

هتفت روان بلهجة حازمة:

- لا.. ولا! سوف تلتزم بالوقت المتاح، ولن تستخدم قدرات المُسخِّرين داخل النفق.

تدرك ما يعنيه، التنقّل أسرع يعني القفز، والقفز يوقظ الهِبات، لا أحد يعلم كيف ستكون العواقب إذا امتصّ جسده الـ«مادرا» أكثر ممّا يجب، أو إذا حدث انهيار ثانٍ مثل ذلك الذي حجزهم في الأعماق منذ أسابيع. تلك مخاطرة كبيرة.

- لكنّنا عالقون.. لا شيء يحدث منذ ثلاثة أيّام!

قالت روان بأناة:

- لا تكن عجولًا، سوف يحدث شيء ما.. في الوقت المناسب.

قال أوران مقاطعًا:

- سنحاول مرّة أخرى.

التفتت إليه روان وقالت بحزم:

- لن تذهب إلى الدّاخل بمفردك!
- لكنّ هذا الانتظار بلا جدوى.. يجب أن نستمرّ في المحاولة.
- هذه قاعدة أساسيّة. من الخطر على أيّ منكم الوجود بمفرده داخل الأنفاق.

تقدّم نايت وقد توقّع الكلمات دون أن يستوعبها، فقال بالإنجليزية مقترحًا:

- يمكنني مرافقته في جولة ثانية..

قاطعته روان دون أن تُدرك معنى كلماته بدورها:

- والإجابة هي لا لك أيضًا! هذه قاعدة أخرى لا مجال لخرقها: جولة واحدة في اليوم!

ترجم آدم الكلمات لنايت الذي تمكّن من استشفاف المراد من خلال نبرة المعالجة وحدها، قال مازحًا:

- أعتقد أنّ بإمكاننا التّواصل رغم حاجز اللّغة!

لم يترجم آدم ولم يضحك أحد على المزحة، فأضاف نايت:

- ما حدث منذ حين يشعرني بأنّنا نقترب من موقع الانسداد.

أولاه آدم انتباهه، فأردف:

- دفقة البخار المفاجئة، تبدو مثل انفراج بعد كبت.. كأنّ مسار الـ«مادرا» محدود بحاجز ما، فيضغط البخار بالدّاخل لزمن ثمّ يندفع بقوّة للتّنفيس مثل.. قِدر ضغط!

ترجم آدم الكلمات لأوران وروان، فقالت روان بحماس:

- لقد اقتربنا من الموقع إذًا.

لكنّ آدم لم يشارك نايت وروان تفاؤلهما، لقد فكّر بذلك وهو يتّخذ طريقه نحو التّجويف الصخريّ، نَفَسُ البخار الذي هبّ في وجهه أوحى

إليه بأنّ الـ«مادرا» لا تتدفّق باستمرار بل على جُرعات، مثل خفقان نبض بعيد تحت الأرض، إلا أنّ امتداد المسافة بين الـ«مصدر» والحوض تُخفي أثره.. تمامًا كما لا تظهر نبضات القلب عند مراقبة جرح يسيل دمًا، لكنّ نايت قد يكون محقًا، ربّما تكون تلك علامة على الانسداد.

عادت إليه مخاوف اليوم الأوّل بغتة.. ما الذي سيحدث حين يعثرون على موضع الانسداد؟ إذا فجّروا الحاجز وتركوا الـ«مادرا» تتدفّق بحرّية داخل الأنفاق صعودًا، فإنّها ستجرفهم في طريقها وتغمرهم بكلّ قوّة وعنفوان.. وسيكون مصيرهم مثل مانويلا التي لم تستعد إحساسها بقدميها بعد، ولكن بدرجة أسوأ.

الآن يتمنّى ألا يكون هناك انسداد.. لأنّه إن وُجد، فسيعني التّضحية بأحدهم.

«*أحدكم لن يرجع أبدًا*».. رغم مقاومته، تُصبح تلك النّبوءة المقيتة أقرب للحقيقة في ذهنه مع مرور الوقت.

انحنت روان إلى جواره، وضعت كفّها على رأسه ومسحت بحنوّ، فأسبل آدم جفنيه وشعر بالنّعاس يتسلّل إليه برفق.

***

مرّت روان على المشفى حيث صارت تمضي قسمًا من النّهار بعد انتهاء مهمّة الكهف «السرّية». في غيابها، عادت السّيدة مارتا تحتلّ موقع الصّدارة كالمعالجة الأولى في الجزيرة، وقد حرّر ذلك روان من واجب الحضور المستمرّ ومنحها مساحة من الحريّة في الأيّام الماضية لتعمل على تجهيز الدّروع والأقنعة.

لم تتحدّث إلى والدها منذ أيّام، يتحاشى كلّ واحد منهما الآخر وإذا صادف وجمعهما فضاء واحد ألقت التّحيّة بفتور وسارعت تغضّ بصرها وتُفلت من حصار نظراته. لم يُحاسبها على وقوفها ضدّه وهي التي تعوّدت

أن تكون ابنة أبيها وحليفته الدّائمة، إلا أنّها قرأت الخيبة في ملامحه. يُثقل الخلاف صدرها، لكنّها تأمل أن تُحلّ الأزمة حين ينجح آدم في العثور على الانسداد وإزالته.

حال مانويلا في تحسّن بعد يوم كامل من الاسترخاء في السّرير، لم تستعد تحكّمها بساقيها بعد لكنّها أخذت تشعر بالدّفء الآن وتحرّك أطراف أصابع قدميها ممّا أبعد عنها شبح الشلل.

انشغلت الشّابة الصّهباء بتفقّد بدلات الحماية التي انتشلها آدم من السّفن الغارقة في وقت سابق وتعرّضت للإتلاف المتعمّد، تحاول إيجاد الصّالحة منها. استبعدت عمليّة الفرز الأولى تلك التي تُظهر علامات تلف أو تهتّك للأنسجة، مبالغة في الاحتياط، لكن في الوضع الحاليّ ومع فقدان بدلتها السّليمة والمثالية سيكون عليها الاكتفاء بجودة من الدّرجة الثانية.

جاءت المعالجة مارتا لزيارتها في أثناء النّهار وحين حدّثتها عمّا تنويه بخصوص إصلاح البدلات، أحضرت العجوز حُقّا خشبيًا يحوي مادّة صمغيّة نفّاذة الرّائحة، تلك المادّة العازلة واللاصقة التي تستخدمها المعالجات لصنع أكياس جلديّة حافظة للعقارات والمستحضرات.

حين وصلت روان كانت مانويلا قد أنهت ترقيع واحدة من البدلات وشرعت في معاينة الثانية، مرّرت أصابعها على كلّ إنش من النّسيج الصّناعيّ السّميك وأضافت طبقة من الصمغ كلّما شعرت بضعف مقاومة أو ترقّق الأنسجة ثمّ تركتها لتجفّ. بيد أنّ المادّة شديدة اللّزوجة، ورغم استخدامها لأعواد خشبيّة لفرد الصمغ الطبيعيّ على النسيج المتهتّك فقد التصقت بأصابعها حتّى جفّت وكوّنت طبقة خشنة على الأطراف دون أن تقدر على الخلاص منها.

جلست روان إلى جوارها وأخذت أناملها بين كفّيها، بصبر أخذت تنزع الصّمغ الجافّ باستخدام عجينة ليّنة من الطّين والشّمع. قالت وهي تشير إلى البدلة البيضاء المرقّعة:

- هل تعتقدين أنّها ستصمد داخل النّفق؟

أطلقت مانويلا زفرة طويلة. تأمل كلاهما ذلك حقًّا، لكن ما إن تسترجع روان شكل البدلة التي تحوّل لونها للرّماديّ الدّاكن قبل أن يتفتّت حتّى تسري الرّجفة في جسدها، ما من سبيل لاختبار مدى متانة البدلة المرمّمة إلا التّجربة.

- سنعرف حين أرتديها.. هل تعتقدين أنّني سأكون قادرة على المشي غدًا؟

انحنت روان لتمسّد ساقيها وقدميها بأناملها المتمرّسة ثمّ قالت بابتسامة:

- أنت تُشفين بسرعة، لكنّني أقترح أن تمهلي نفسك بعض الوقت. حتّى لو مشيت ثانية، فإنّ خطواتك لن تكون ثابتة تمامًا.. وهذا سيعرّضك للخطر حتمًا.

عبست مانويلا فيما ربتت روان كتفها مواسية، لا تعرف سرّ حماس الفتاة الأجنبيّة الصّهباء للمهام المستعصية. إنّها تشبه آدم في شغفها، لكنّ آدم واحد من الـ«آم» الآن، يملك صفة ومنصبًا.. أمّا مانويلا فتندفع لخوض المخاطر طواعية رغم أنّ أحدًا لا ينتظر منها شيئًا، وهي تمتنّ لها لذلك.

داخل كوخهما، كان آدم لا يزال نائمًا مثل طفل كبير، لم يقلق دخولها سباته العميق. تلك الجولة الصّباحيّة داخل نفق الـ«مادرا» استنزفته أشدّ من سابقتها، لقد بقي بالدّاخل أطول ممّا يجب، ولا أحد يعرف بعد كيف يكون تأثير تلك المغامرة عليه.

جلست روان على الأرض وأخذت تعاين الدّرع المصنوعة من جلد العظايا، تتحقّق من تماسك النّسيج وترمّم عجينة المعدن التي تساقطت في بضع مواضع. كانت تُنهي نقع القناع النّباتيّ في الماء العذب حين استيقظ آدم أخيرًا.

قال بصوت يشوبه النّعاس:

- المجلس صامت حتّى الآن.. هل تراهم يدبّرون أمرًا؟

حتّى في أثناء النّوم يستمرّ عقله في العمل، يجترّ المخاوف التي لا يدري أيّها سيتحقّق أوّلًا. بعد محاولة عابثة لتخريب فرن الحدادة وإفساد بدلات الحماية، لم يُقدم الـ«كوتانا» على عمل شيء لعرقلتهم. منذ دخول فريق المستكشفين إلى الأنفاق بدا أنّهم قرّروا تركهم وشأنهم.

قالت روان:

- لعلّ أبي لا يريد لإشكال الـ«مادرا» أن يُحلّ سريعًا، ليس قبل أن ينفذ مخططه.. لكنّ الآخرين قد يرغبون في الحلّ الذي نقدّمه لهم، وإن كانوا غير مستعدّين لمساندته علانية ولا تحمّل تبعاته. لذلك ينتظرون ويترقّبون.. وحين نُهدي إليهم سلامتهم وأمن جزيرتهم، سيعترفون بالجميل، أنا واثقة.

كانت قد فكّرت في ذلك بدورها، لا شكّ أنّ عيون المجلس تتابع تحرّكاتهم. دائمًا ما كانت العيون مبثوثة في كلّ مكان، والآن أكثر من أيّ وقت مضى. لعلّ نشاط مايك داخل الغابة يشتّت انتباههم عنهم كذلك، فالرّجل ذو شعبيّة متنامية ومجلسه يجذب أعدادًا كبيرة من الـ«آم» يومًا بعد يوم.

أردفت تقاطع شرود زوجها:

- هل تعتقد أنّ علينا القلق بشأن مايك؟

تمطّى آدم ثمّ قال ساخرًا:

- الرّجل يُحتضر.. لا يستحقّ أن نبدّد جهدًا عليه.

لعلّه كذلك. ابتسمت وهي تعلّق القناع ليجفّ من أجل جولة أخرى داخل الأنفاق في الغد. المجلس ومايك وتدفّق الـ«مادرا» وحالة مانويلا، أشياء كثيرة لتشغل نفسها بها دفعة واحدة. ستختار واحدًا لليّلة، إلى جانب تحضير العشاء لزوجها.

ستفكّر في ما يمكنها عمله لمساعدة مانويلا على التّعافي السّريع، وستكتفي بذلك.

***

تحلّقت الفتيات حول تاليا من أجل جلسة اللّغة الخاصّة التي صارت تنعقد مساءً على الشاطئ، تتخلّل الدّرس أسئلة شخصيّة تتناثر من هنا وهناك، عن زواج تاليا وكيف تجد حياتها مع واحد من رجال الـ«أيتورا»، فتبتسم المعلّمة برصانة وتتجاهل نغمة الرّجاء وإلحاح الفضول. تقول بغموض ودون تفصيل:

- إنّه رجل صالح.

اختار لها مجلس النّساء والـ«كوتانا» رجلًا رأوا فيه الصّلاح، وليس لها أن تقيّم كلّ واحد منهم، إلا أنّها راضية عمّا حظيت به.

لا أحد غيره سألها رأيها في الزّواج. حتّى السّيدة أرابيلا حين جاءت تطلب موافقتها، غلّفت كلماتها بعبارات الاعتذار والتملّق تذكّرها كم أنّ تضحيتها مهمة للـ«آم» وكيف أنّ تنازلها سيشعرهم جميعًا بالامتنان والعرفان، رغم تظاهر السيّدة الجليلة بالاهتمام لم تشعر تاليا أنّ رغباتها محلّ تقدير. حاصرتها نظرات الرّجاء وابتسامات التزلّف فلم تجد بدًّا من أن تحني رأسها وتُذعِن. لم يكن القرار قطّ بيدها، وإن قيل إنّه كذلك.

لكنّ نايت وحده اهتمّ وسأل، وهي ستمتنّ له لذلك إلى الأبد.

حين لقيت مانويلا ذات مرّة في المشفى، تجرّأت على سؤالها وهي تنازع إحراجها عن معنى اسمه. الأسماء ذات معانٍ، وقد نشأت وهي تعتقد أنّ لكلّ من اسمه نصيبًا.. وحين عرفت أنّ نايت هو الفارس، امتلأ صدرها نشوة وجذلًا. إنّه فارس لا شكّ.. في عينيها على الأقلّ.

لقد قبِلت الزّواج من ألكسندر، لأنّ المجلس أراد ولأنّ الجزيرة تحتاج إلى تضحيتها.. لكنّ القدر كافأها بنايت، وهي في غاية الامتنان لأنّ شيئًا من النّور يتسلّل إلى حياتها الكئيبة. هل كانت مصادفة أن رأت في ملامحه شبهًا ما بوجه لا تكاد تستحضر تفاصيله بعد مضيّ كلّ تلك السّنوات؟

سألتها خلود هامسة:

- معلّمة، ما معنى أن يكون الرّجل مشغولًا؟

حدّقت فيها تاليا برهة، كثيرًا ما تسأل خلود أسئلة غريبة وتطلب تعلّم كلمات بعينها، عبارات تتعلّق بالزواج والارتباط. لئن أشفقت على الصبيّة التي أكل همّ الزّواج عقلها فهي لا تملك إلا أن تجاريها، تقرّبها وتنصحها. قالت بلطف:

- الرّجال مشغولون عادة.. في هذه الأوقات العصيبة، ينشغلون بجمع المؤونة وترميم البيوت قبل أن تعود العواصف والأمطار.

لم يبد على البنت الاكتفاء بذلك الرّدّ، لعلّ الرّجل الذي ادّعى الانشغال يروقها، وهي تفتّش في المعاني عمّا يرضي غرورها. قالت خلود وهي تمطّ شفتيها:

- لكنّه لا يفعل أيًّا من هذا!

رفعت تاليا حاجبيها، لا تعرف كثيرًا من الرّجال الذين ليسوا منهمكين في التّحضير لموسم الأمطار، سألت في شكّ:

- من تقصدين؟

- هل للكلمة معانٍ أخرى؟

أومأت تاليا وأردفت:

- أن يكون مشغول الذّهن بالتفكير..

شهقت خلود وهتفت:

- بشخص ما!

- أو أن يمارس نشاطًا مهمًا..

- مثل جمع مهر مثلًا!

ضحكت تاليا، تلك الفتاة لا تستسلم.

(24)

اليوم الرّابع والعشرون بعد الستين

مع محدوديّة الوقت المتاح داخل الكهف كان على آدم أن يستنبط سُبلًا جديدة لاستكشاف الأنفاق بفاعلية وسرعة. بالأمس، بعد أن نام ساعات تفتّق ذهنه عن فكرة أخرى، كان قد جرَّب في وقت سابق إرسال البوم داخل التّجويف، لكنّ الطائر تخبّط وفقد توازنه ربّما بتأثير الـ«مادرا» وربّما لأنّ الطيران يكون في الجزء الأعلى من النّفق حيث البخار أشدّ كثافة ممّا يربك الطيور التي لا تخاطر بتجاوز سقف الظلة. لذلك فقد أرسل المُسخِّرين الشبان لاصطياد الأرانب البريّة من أجل تجربته.

الأرانب حيوانات خفيفة الوزن وشديدة الحذر كما أنّ قوائمها مرنة وحركتها سلسة، لذلك ربّما تكون أنسب للمهمّة من البوم أو من البشر، إلا أنّها كائنات بكماء لن تنقل إليه كثيرًا من المعطيات، إنّما عليه التأمّل والتأويل.

مرّة أخرى، تقتصر مهمّة اليوم على جولة واحدة، رغم تعافي مانويلا الظاهريّ وترميمها عددًا من البدلات، لم تسمح لها المعالجة بترك السّرير بعد. أعدَّت روان رقعًا من جلد العظايا المتبقي لحماية قوائم الأرانب الصّغيرة وأقنعة نباتيّة ثمّ همست لها قبل أن يستلم كلّ من آدم ونايت حيوانه الأليف الجديد.

كان عليهما التقدّم عبر الأنفاق بأسرع ما يملكان من الخطوات الثابتة حتّى يصلا إلى حيث توقّفا بالأمس، لم يستخدما الأرانب بعد، بل حمل كلّ

منهما رفيقه الأبيض النّاعم بين ذراعيه ليوفّر عليه الجهد والتفاعل المباشر مع الـ«مادرا»، وحين بلغا مفترق الطرق الذي تصعد المادّة المتوهّجة خلال مساريه أرسل كلّ منهما أرنبه في مسار مختلف.

استغرقهما الوصول إلى المفترق في سعي مستمرّ دون معطّلات أكثر من ساعة واحدة بقدر طفيف ممّا أتاح لهما مزيدًا من الوقت لاستكشاف الأنفاق التي أمامهما. احتفظ كلّ منهما بطرف حبل رُبط طرفه الثاني بقائمة الأرنب الخلفيّة. حين لامست أقدامه الأرضيّة انكمش أرنب آدم وبدا عليه التشوّش، كان ساكنًا حتّى اللّحظة بفضل همسات روان لكنّ مفعولها آخذ في التلاشي، أو أنّ مجال الـ«مادرا» يُربك أدمغة الكائنات الحيّة ويعطّل غرائزها. التقط آدم الأرنب ثانية ومسّد فروه بحنوّ يحاول ترويضه، غير أنّ الحيوان الصّغير مذعور. قبل أن يدرك آدم سبيل السّيطرة عليه، كان الأرنب يُفلت من قبضته ويقفز نحو النّفق برعونة فائقة.

لحسن الحظ، لم يكن أرنب نايت في مثل قلقه، بل بدا هادئًا ومطيعًا. فيما يصارع آدم أرنبه كان نايت قد أطلق حيوانه بالفعل واستمرّ يمدّد الحبل تدريجيًّا ليمنحه مزيدًا من الحريّة. رغم تباين سلوكهما انتهى الأمر بالأرنبين في رحلة داخل الأنفاق، أخذا يبتعدان عبر المنحدر حتّى غابا عن النظر وغمرهما البخار من كلّ جانب. استمرّ الحبل مشدودًا، وكلا الرّجلين يُرخيه برفق كلّ حين، يلفّ كلّ منهما عشرات الأمتار من الحبال المجدولة من سعف النّخل الجافّ والمعقود على ذراعه. كان بوسع آدم الحصول على حبال حديثة من سفن مايك راسل -وإن كان يشكّ في متانتها- لكنّ نايت بدا فخورًا بخبرته المستجدّة في فتل السّعف وجدله وتبجّح بشأن أرجوحته الشبكيّة يدويّة الصّنع، فركنا إلى الحلول المحليّة.

وقف الرّجلان على مسافة مترين أحدهما من الآخر، يشعر نايت بالاسترخاء وهو يتابع تقدّم أرنبه البطيء بنسق ثابت، فيما يُحكم آدم قبضته

على حبله -والأرنب على الطرف الآخر ينطّ بعشوائيّة وعصبيّة- ويتساءل في حيرة عن سرّ بقائه على قيد الحياة وعدم سقوطه في مجرى الـ«مادرا» رغم سلوكه الأرعن!

لكنّ حيرته لم تستمرّ طويلًا، بعد دقائق قليلة اختفت المقاومة على الجانب الآخر وارتخى الحبل على الأرض. بأعصاب مشدودة، أخذ آدم يسحب الحبل نحوه وسرعان ما ظهر الأرنب -أو جثّته- يصعد المنحدر مع دفقات الـ«مادرا» السّائلة وقد غدا لونه أسود داكنًا. تسارعت نبضات آدم وهو يحملق بعينين هلعتين في الحيوان النّافق وقد استحال بياضه رمادًا.

ألقى نايت نظرة جانبيّة على الأرنب الميّت، ثمّ قال مقترحًا:

- تخلّص من الحبل، لقد انغمس كلّه تقريبًا في الجدول.. سيتفتّت بعد حين.

نظر آدم عند قدميه ليعاين أكوام الحبال التي استعادها فلاحظ على الفور التغيير في لونها. كان نايت محقًا، لا فائدة بعد الآن من الحبال أو الأرنب. أفلت الطّرف المشدود إلى ذراعه ودفع الكومة بقدمه إلى داخل الجدول لتحملها الـ«مادرا» في مجراها نحو الحوض.

- إذًا، طالما فشلت مهمّة الأرنب سيكون عليّ الذّهاب بنفسي!

استدار نايت عند إعلان آدم المفاجئ وقال بحاجبين معقودين:

- هذا منافٍ للقواعد.. لا يمكنك الذّهاب منفردًا.

- هل يُفترض بي الوقوف هنا إذًا والانتظار بلا فائدة؟

قبل أن يردّ نايت شعر بالحبل يُشدّ أكثر في يده بعد أن أرخاه كاملًا وما عاد بوسعه منح أرنبه مزيدًا من المساحة، تردّد للحظات ثمّ قال:

- ربّما يمكننا أن نتبع هذا الأرنب، طالما يستمرّ في التقدّم!

تنهّد آدم، سيكون ذلك أفضل من المكوث مكانها. تفقّد المؤقّت وإن كان يعرف الآن كيف يقدّر الزّمن الذي أمضياه داخل الأنفاق من خلال

حواسّه المجرّدة وحدها، لقد داهمه التّنميل منذ بعض الوقت وجسده أشدّ ضعفًا من الأمس، ربّما يُكابر ويُنكر أنّه يتأثّر بمجال الـ«مادرا»، لكنّه لا يزال قادرًا على المواصلة لا شكّ.

تقدّم وراء نايت تاركًا إيّاه يقود المهمّة متتبّعًا حبله المشدود إلى الأمام، لا زال الأرنب يبتعد عبر المنحدر وذلك مؤشّر حَسن.. غالبًا. لم يعد يدري كيف يكون المؤشّر الحَسن، لقد اعتقد حتّى وقت قريب أنّ الانسداد علامة طيّبة، فهو سيكون قادرًا على التّعامل معه فيما سيكون التغيير الكيميائيّ في تركيبة الـ«مصدر» أمرًا مستعصيًا، إلا أنّ الحاجز الصخريّ أو التّرابيّ لن يكون سهل الاختراق.. دون خسائر بشريّة.

«قربان الـ«مادرا»»...

جاءه صوت نايت:

- كنتُ أفكّر.. حين نجد الانسداد، كيف نتعامل معه؟

لم يكن يتوقّع أن يكون ذلك الخاطر هاجسه وحده، جميعهم الآن يُدركون مدى خطورة الأنفاق بعد ما حدث مع مانويلا، وسيفكّرون لا محالة بما يشغله وسيصلون إلى الاستنتاج ذاته. شعر فجأة بالأرض تهتزّ تحت قدميه وسرت دمدمة قريبة في الهواء، هتف آدم بلهجة حازمة:

- انخفض!

أحنى نايت قامته فيما هبط آدم على الأرض مستندًا بيده إلى الجدار، رغم ذلك عبرت شحنة البخار المضغوط مثل نفس حارّ غمره بإحساس مقيت بالاختناق رغم القناع، لبعض الوقت لم يستطع أن يباعد بين جفنيه. استدار نايت نحوه بعد أن عبرت الموجة الدّافئة وسأل في قلق:

- هل أنت بخير؟

لم يستعد آدم تماسكه بعد، لكنّه سأل بدوره وهو لا يزال مقرفصًا قرب الأرض:

- هل الأرنب بخير؟

انتبه نايت حينها إلى ارتخاء الحبل في يده، كان قد شعر بتخبّط الحيوان منذ حين على الجانب الآخر إلا أنّه فقد تركيزه للحظات مع هبوب البخار الحارّ. رغم ارتدائه بدلة عازلة سميكة النّسيج فقد تسرّبت إليه الحرارة كأنّه يغطس في حمّام دافئ، تساءل كيف يشعر آدم الذي لا يحظى بحماية مماثلة، ثمّ عاد إلى الحبل في يده.. دون كلمة، أخذ يسحب بهدوء والتوتّر يتصاعد بداخله.

لم يُبد الأرنب مقاومة تُذكر وهو يجرّه في اتّجاهه، ثمّ شعر بثقل ما كأنّ الحيوان يوقف الحبل، لكنّه لا يتحرّك. تباطأ وترقّب ليقدّر إن كان الأرنب سيبدي علامة حياة، لكنّ الحبل استمرّ ثقيلًا ومرتخيًا. فكّر بأنّ حاجزًا ما يوقفه فشدّ بقوة أكبر ليتجاوزه ثمّ واصل الجذب لثوانٍ إضافيّة حتّى ظهر الأرنب أخيرًا خلال المشهد الضّبابيّ على بعد أمتار قليلة. ترك نايت الحبل وهرول ليلقي نظرة على الحيوان الذي فارقته الحياة. تمتم في أسف:

- لم تكن الحماية كافية للأرنب المسكين.

اقترب آدم ليعاينه بدوره رغم عينيه الدّامعتين.

- لقد اختنق بالبخار.

لم يسقط الأرنب الثاني في الجدول ولم يتغيّر لونه بقدر كبير، لكنّه جثّة هامدة رغم ذلك. قال نايت بصوت يرشح قلقًا:

- يجب أن نرجع.

يُدرك آدم أنّ مرافقه يهتمّ لسلامته، وقد كان يذكّره دائمًا بضرورة العودة ضمن المهلة الزمنيّة المحدّدة، وهو ممتنّ لذلك، لكنّه يحتاج إلى طرق باب الخطر إذا أراد أن يُنجز شيئًا ما. مضت أكثر من ساعة على وجودهما في النّفق، إلا أنّ البخار لم يهبّ نحوهما إلا مرّة واحدة، وهو يشكّ في أنّ أيّ شيء سيحدث ثانية قبل مرور ساعة إضافيّة على الأقلّ وربّما أكثر. حسب

تحليله للوضع فإنّ الفترة التي تلي تنفيس بخار الـ«مادرا» هي الآمَن حتمًا للاقتراب من الـ«مصدر» دون الخشية على حياته، لذلك لم يكن الرّجوع واردًا الآن.

عاد نايت يقول:

- لقد فقدنا الأرنبين، ونحن نقترب من منطقة خطرة، لا يمكننا تحسّس الطّريق أمامنا وسط كلّ هذا البخار الذي يحجب الرؤية.

أومأ آدم، إنّهما معميّان تقريبًا داخل النّفق المظلم، يحسبان الخطوات ويتحسّسان الطريق ولذلك يزداد يقينًا بأنّهما على مشارف العثور على شيء ما.

- لا يزال أمامنا متّسع من الوقت. لقد اتّفقنا على تمديد الفترة تدريجيًّا، وأنا مؤمن بقدرتي على الاستمرار.. لذلك لا تحاول إقناعي بالعودة بعد.

تنهّد نايت مستسلمًا ثمّ استقام واقفًا واستعدّ للمضيّ إلى الأمام.

لم يكادا يقطعان بضعة أمتار حتّى تبدّى لعيونهما المشهد المرتقب: انهيار حجريّ يسدّ مجرى الـ«مادرا»!

شهق نايت فيما سيطر السّكون على آدم.. ها هو ذا قد بلغ الموقع المنشود، وها هو الانسداد يظهر أمام عينيه لتتأكد أكبر مخاوفه. يتسرّب السّائل الفضيّ اللامع من تجويف جانبيّ بمقدار ضئيل قبل أن يصبّ في النّفق ويواصل التدفق، فيما تضغط الحجارة المكوّمة على الجانب الآخر لتخنق السّيل وتحبسه في الخلف، تمتم نايت:

- ما الذي سنفعله الآن؟

لبث آدم صامتًا غير قادر على الإتيان بأيّ حركة، فخطا نايت إلى الأمام بحذر.

- لقد شعرتُ منذ حين وأنا أشدّ الحبل بأنّ الأرنب عالق عبر حاجز ما.. هل يمكن أن يكون قد وصل إلى الجانب الآخر؟

تقدّم خلال البخار الكثيف وتحسّس الجدار الحجريّ برفق. حذّره آدم بنبرة حادّة:

- انتبه لخطواتك!

يتصاعد الاضطراب في صدره وهو يقف أخيرًا عند الانهيار الصخريّ الذي يعرقل مجرى الـ«مادرا»، لا يعرف إن كان الانزلاق قديمًا وله صلة بما لاحظه معلّمه نوح من قبل من تباطؤ لتيّار الشلال في الحوض، أم أنّه مستجدّ خلال فترة العاصفة الأخيرة، لذلك لا يثق في حلّ المشكلات كلّها إذا ما تمكّن من تفتيت الصّخر وإزالة الحاجز.. لكنّ عقله منشغل بتخيّل الـ«مادرا» السّائلة المحتجزة خلف الصّخور وهي تحفر وتدفع تدريجيًا مثل سيل ماء يواجه سدًّا، وحين تعجز الحجارة عن مقاومة الماء -الـ«مادرا»- ينهار الجدار المانع دفعة واحدة ويتقوّض السّد.. فتغمرهما المادّة المتوهّجة.

- وجدته!

أشار نايت نحو ثغرة علويّة في الجدار، تظهر على جوانبها آثار سحب وتداعٍ حديث.

- أعتقد أنّ الأرنب قد تسلّق الجدار وعبر من خلال الثغرة!

خطا آدم إلى الأمام متجاهلًا فكرة الهلع الملحّة، بدأت رؤيته تغدو ضبابيّة أكثر وذلك دليل على نفاد الوقت المسموح به داخل النّفق. كانت الفجوة ضيّقة وملتوية ومتّجهة نحو الأعلى، لعلّها تسمح بولوج أرنب صغير ليلقي نظرة على الجانب الآخر لكنّها غير كافية لرجل بالغ في مثل حجمه. فكّر، لو أنّ بوسعه الاختباء داخل التّجويف المائل ثمّ تفجير الحاجز فسيكون في مستوى أعلى من تيّار الـ«مادرا» حين تندفع داخل النّفق.. ربّما سيكون آمنًا، لكنّه يجهل كيف سيخرج من الأنفاق بعد ذلك.

أنزل نايت أسطوانة الهواء عن ظهره وأخذ يضرب الجدار بطرفها المعدنيّ كأنّها يحاول توسعة المدخل.. نهره آدم:

- توقّف! إذا انهار الجدار فستكون نهايتنا!

ترك نايت الأسطوانة وقد بدا عليه الارتباك.

- ربّما يمكننا العبور إلى الجانب الآخر من الجدار.. لكنّ المساحة ضيّقة.

يُدرك آدم ذلك جيّدًا، لكنّه لا يملك خطّة ملائمة. هذه المرّة، كان آدم من قال بلهجة حاسمة:

- يجب أن نرجع الآن!

***

لم تُسعد مروان فكرة اصطياد مزيد من الأرانب من أجل المهمّات الغامضة داخل الكهف، خاصّة أنّه يُمنع من المشاركة الفاعلة ويضطرّ إلى تجنّب آدم حتّى لا يغضب والده. قال متذمّرًا:

- أفضّل صيد الأرانب لأكلها، لا لتركها تنفق بلا طائل! أنتم لستم بحاجة إلى أرانب جديدة بل إلى عقليّة جديدة.. لو أنّني أستطيع دخول الكهف، فربّما كنتُ لأصل إلى نتيجة ما!

كان المجلس قد لجأ إلى تجميد دخول المُسخّرين الشّبان إلى الكهف تلك الأيّام حتّى لا يؤدّي احتكاكهم بآدم وجماعته إلى تأثّرهم بموقفه، أمّا الرّواية الرّسميّة فهي أنّ الجنّ طليق داخل الكهف بسبب الاعتداء على مجاله المقدّس في باطن الأنفاق المظلمة.

ابتسمت روان في إشفاق، لا يزال شقيقها يحلم بالمشاركة في جولات الاستكشاف.. هتفت ريحان بدورها:

- أنا أيضًا أريد الذّهاب!

رمقتها روان بنظرة صارمة، فأردفت البنت في إلحاح:

- ما الذي سيُخبركم به الأرنب بعد وصوله إلى الجانب الآخر من الجدار؟ لن يقول شيئًا حتى لو عرف.. لكنّني بحجم الأرنب وخفّته وأستطيع الكلام!

لا يحبّ أحدهم تلك الفكرة، الأرنب سُحب ميّتًا من الفجوة، قالت مانويلا برفق:

- أكره أن أقول هذا.. لكنّ ريحان محقّة. مهما أرسلنا من أرانب داخل الثقب فلن تخبرنا بشيء أبدًا.

تظهر علامات التعافي على مانويلا التي تتحرّك عبر الغرفة جيئة وذهابًا لتمرّن ساقيها بعد أن منعتها المعالجة من مغادرة المشفى.

ردّ آدم بجفاف:

- بالتّأكيد لن تخبرنا شيئًا إذا عادت ميّتة!

- لا أقصد التّهوين من شأن ما حدث هناك، لكنّك قلتَ إنّ هبّة البخار جاءت أوّلًا.. ولذلك سُحب الأرنب ميّتًا!

تبادلت أزواج العيون نظرات متجهّمة قبل أن تقول روان:

- لا أودّ مناقشة هذا.. ريحان لن تدخل الكهف!

هتفت ريحان معترضة:

- لكنّني دخلتُ الكهف، مرّات عدّة!

حملقت فيها شقيقتها بغيظ لتبجّحها بخرق القواعد.

- وهذا لن يتكرّر.. وأفضّل أن تكوني خارج هذه الغرفة لأنّ الحديث لا يخصّك.

وقفت ريحان وهي تضرب الأرض بقدميها في احتجاج وسارت في اتّجاه المخرج. التفت آدم إلى مروان وقال مترفّقًا:

- أنت أيضًا، من الأفضل ألا تكون هنا الآن.

مطّ مروان شفتيه ثمّ ضرب بكفّيه على ركبتيه قبل أن ينسحب بدوره دون تذمّر.

تنهّد آدم ثمّ قال مستأنفًا الحديث:

- إذًا دعونا نرجع إلى تحليل الوضع الحاليّ..

وضع الخريطة على الأرض ورسم موقع مفترق الطرق والمسار الذي يؤدّي إلى الانسداد. سأل أوران في اهتمام:

- كم يبعد الموقع عن المدخل الرئيسي؟

لم يكن من المجدي أن يتحدّث عن السّاعات والدّقائق إلى السّكان المحليين، لكنّه يملك لغة مشتركة مع أوران، قال:

- هل شعرتَ بتنميل أطرافك داخل الأنفاق؟ أعتقد أنّ بإمكاننا الوصول إلى الموقع بعد أن يبدأ التّنميل وقبل أن تُصبح الرؤية ضبابيّة.

هزّ أوران رأسه إشارة إلى استيعابه فيما بدت علامات الدّهشة على ملامح الآخرين، لم يشعر أيّ من نايت ومانويلا بتلك الأعراض بفضل البدلات المتطوّرة، وحتّى لو ذهبا إلى الأنفاق من دونها فلن يشعر أحدهما بشيء على الإطلاق قبل أن تبدأ أعضاؤه الحيوية في التّداعي، فالـ«مادرا» لا تقدّم التّحذير ذاته إلى الغرباء.

قالت مانويلا:

- لكنّ البخار يخرج مركّزًا من الفتحة الجانبيّة كلّ فترة..

أجابها آدم:

- إذا أردنا التّعامل مع الانسداد بأمان، فربّما يجدر بنا الاختباء داخل المسار الثاني وانتظار تنفيس البخار قبل أن نحاول الاقتراب.

أومأ أوران ونايت موافقين، إذا أرادوا تمديد فترة حضورهم في الأنفاق ومحاولة معالجة الوضع فعليهم تجنّب نفس البخار المركّز. عادت مانويلا لتقول:

– لقد وصلنا إلى الانسداد الذي نبحث عنه، لكنّني أودّ اكتشاف الممرّ الثاني.. ربّما نضيّع فرصًا أخرى بتجاهلنا إيّاه.

لم تكن روان قد شاركت في تقييم الوضع فهي لم تكن داخل الأنفاق مثلهم، لكنّها تشعر بالارتياح لصرف الانتباه عن موقع الانسداد والثغرة التي تودّ ريحان عبورها، أمّا آدم ففكّر بأنّ تحويل الانتباه عن الانهيار الصّخريّ سيمنحه بعض الوقت لإيجاد حلّ لكيفيّة التعامل معه، فمحاولة هدم الجدار تنطوي عن مخاطرة جسيمة، قال مؤيّدًا:

– إذًا نسعى إلى اكتشاف المسار الثاني في الغد.

***

استلقى آدم على ظهره وسرحت عيناه عبر سحاب الظلّة الكثيف، تبدو الطبقات فوق رأسه سميكة ومتماسكة، يشكّ بأنّ أشعّة الشّمس قد تخترقها في القريب. رغم تناقص التدفّق وانسداد مسار الـ«مادرا»، سيمضي بعض الوقت قبل أن تتأثّر الظلة أو يتبدّد الضباب. ذلك البُخار الذي يتسرّب من أعماق الأنفاق لا يزال يغذّي السّقف الممتدّ فوق الجزيرة ومحيطها ولن يختلّ التّوازن بين عشيّة وضحاها.. إنّه يأمل في ذلك.

جاءت روان لتتمدّد إلى جواره على الرّمال الفضيّة، انزلقت أناملها بلطف لتحتضن راحته ثمّ سألت هامسة:

– ما الذي تفكّر به؟

استمرّ السّكون للحظات قبل أن يدفع آدم الهواء الحبيس في صدره ويقول:

- إذا أردنا هدم الجدار داخل الأنفاق، فعلينا استخدام هِبات التّسخير.. أحدنا سيفعل ذلك، إلا أنّنا لا نعرف إذا كانت الـ«مادرا» مستقرّة على تلك المسافة القريبة من الـ«مصدر».. سنكون مئات الأمتار تحت الأرض، قرب مجال مغناطيسيّ مركّز..

لم يكن يعرف طبيعة الـ«مادرا» السّائلة بعد، لكنّه انتهى إلى الاعتقاد بصفتها المغناطيسيّة، وإلا فما الذي قد يشوّش على أجهزة الاتّصال والمحرّكات الكهرومغناطيسيّة ويعطّل البوصلة؟ لقد تحدّث عمّار من قبل عن مجال مغناطيسيّ تبثّه الـ«مادرا» وعن علاقة جذب بينها وبين عناصر خفيّة في جينات الهجناء.. كلّ هذا يدعوه إلى تأكيد الفرضيّة، لكنّ روان تجهل كلّ شيء عن المغناطيس ومجاله ولا يرجو من نقاشها بشأنه فائدة تُذكر.

- دع أوران يتولّى المهمّة.

فاجأه اقتراحها وهي تضغط برفق على أصابعه، فسأل في حيرة:

- لماذا؟

- أوران مُسخِّر متمرّس، يمكنه أن يُنجز الأمر بقدر وافر من الدّقة..

حزّ في نفسه أن تجد أوران أنسب للمهمّة، وهو لا يجهل أسبقيّة أوران وتمكّنه في حين تبقى حداثة عهده بالتّسخير نقيصة بحقّه، لقد عانى في وقت سابق الإحساس بالغيرة ناحيته، ليس أنّ الشابّ قد تجرّأ على منازعته أيّا من مستحقّاته -فتاته ومنصبه ومكانته- لكنّه لا يحبّ أن يوضع في مقام مقارنة معه، فهو سيخسر لا محالة، أمّا الهبات الاستثنائيّة التي يمتلكها والتي تجعل أوران نفسه يتطلّع إليه باحترام جمّ، فتلك نتيجة تحوير جينيّ لا أكثر.

توقّف عند ذلك الحدّ من رثاء الذّات حين أدرك أنّ كلّ صفات البشر ومهاراتهم وقدراتهم ما هي إلا نتيجة استعداد جينيّ ما! إنّ ما يجعله أفضل

من أوران -في نواحٍ ما- هي الصّفات التي يمتلكها. لقد خُلق بتلك الجينات المميّزة، لكنّه يحتاج إلى وقت لتهذيب المنحة الرّبانيّة وصقلها، هذا كلّ ما في الأمر. إنّها تقول إنّ أوران يفوقه تجربة، وهذا ممّا لا مجال للشكّ فيه، لذلك لا داعي للتحسّس الزّائد.

شعر بأصابعها الدّافئة تدغدغ ذراعه ثمّ تستقرّ على صدره قبل أن تقول مواجهة صمته:

- أنا أثق بك، وأعلم أنّك تحرز تقدّمًا كبيرًا في وقت قصير.. لكنّك لست مضطرًا إلى القيام بكلّ شيء بمفردك، هذه مسؤوليّة جماعيّة.. أنت تضع الخطط وتوزّع المهام وتشرف عليها.. وحين يتعلّق الأمر بوضع الشّخص المناسب في المكان المناسب فإنّك ستتخيّر أفضل المُسخّرين، أسرعهم وأتقنهم.. أليس كذلك؟

هدأ خاطره مع تدفّق كلماتها، لكنّه شعر بشيء من الضيق بعد ذلك. لقد أراد الخلاص من أوران في وقت سابق لأسباب أنانيّة صرفة، وإرساله في تلك المهمّة الانتحاريّة يشبه حكم الإعدام! لا يعرف إن كانت روان تعرف هذا بعد، وإن كان أوران يُدرك خطورة الأمر.. لعلّها تتوقّع -ولو على سبيل الحدس- وتخشى أن تفقده في مهمّة قاتلة، لذلك تفضّل أن يُرسل أوران مكانه. وإن كان ذلك يغمره أُنسًا، فهو لا يقبل بتضحية أوران دون خطّة تضمن سلامته.. وهو ما لم يتوصّل إليه بعد.

عانق كفّها الصّغيرة بين راحتيه وقال يطمئنها:

- إن أراد أوران الذهاب فله ذلك، أعرف أنّه أفضل الخيارات المتاحة. لكنّنا سنضع خطّة أوّلًا.. وسنحرص على عودة الجميع سالمين.

اشتدّ ضغط أصابعها على راحته، فمسّدها بحنوّ فاستكانت.

سيرجع كلّ واحد منهم، وستُكذّب نبوءة مايك.

(25)

اليوم الخامس والعشرون بعد السّتين

تشعر مانويلا بالإثارة لعودتها إلى الكهف مرّة أخرى، الأيام التي أمضتها في المشفى جعلتها تتفكّر في كلّ المرّات التي طرقت فيها أبواب الموت ثمّ أعادتها المعالجة إلى الحياة. تعتبر في صميم فؤادها مساهمتها تلك في اكتشاف الأنفاق وسيلة لردّ الجميل.

بعد أن استعادت حركة قدميها لازمها إحساس بعدم الاتّزان لساعات، إلا أنّها نفت أيّ خلل حين استجوبتها روان في محاولة أخيرة لثنيها عن عزمها، وها هي تمضي عبر الأنفاق بساقين مرتجفتين وبدلة مرمّمة لا تثق في متانتها، لكنّها تتظاهر بالثّبات وهي تسير خلف أوران، تهمس لنفسها بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

ثمّ ما تلبث أن تداهمها الهواجس وتتساءل إن كانت تخاطر أكثر ممّا يجب، إلا أنّها تسترجع رباطة جأشها سريعًا وتُحكم استقرار خطواتها على الشريط الحجريّ الضيّق الذي يحفّ جدول الـ«مادرا» السّائلة، تنظر إلى التيّار المتدفّق عند قدميها وتذكّر نفسها بثمن السّقوط فيه، فيرتفع مستوى الأدرينالين في دمها.

استدار أوران نحوها مرّات عدّة منذ بدأ مشوارهما الطويل، يطمئنّ إلى بقائها مترين إلى الوراء لا أكثر، ويمدّ إليها ذراعه ليساعدها على القفز كلّما عبرا طريقًا فرعيّة يتدفّق السّائل عبرها إلى الأسفل، وقد حافظت على

توازنها غالبًا دون أن تفقد تركيزها على الطّريق. لا تريد أن تضطره إلى إنقاذها مرّة أخرى.

باستثناء الأوقات التي يتوقّف خلالها أوران ليسحبها فوق جداول الـ«مادرا» التي يقطعانها لم يوجّه إليها كلمة واحدة. باتت تعرف كم هو مقتصد في الكلام شحيح الثرثرة، وإن كانت تجهل إن كانت تلك المعاملة تخصّها وحدها أم أنّ ذلك طبعه الأصيل. كان يتحدّث على متن السّفينة إلى المعالجة، وإن كان الوضع يتطلّب تخطيطًا للنّجاة فربّما لا تُحتسب تلك الأحاديث ثرثرة طبيعيّة.

رغم انشغال ذهنها بخواطر ساذجة عمّا يدور في رأس أوران فقد أبقت تركيزها على خطواتها حتّى نهاية المنحدر، حتّى لا تكون سببًا في كارثة أخرى.

حين وصلا إلى مفترق الطّرق الذي أشار إليه آدم على الخريطة، كان قد مضى على وجودهما داخل الأنفاق وساعة وربع السّاعة، تركا الجانب الأيسر الذي وضع آدم إشارة جديدة على جداره: دائرة وفي منتصفها قرص آخر أسود. كان عليها أن تقطع الجدول إلى الجانب الآخر وهو أكثر اتّساعًا من كلّ التفرّعات التي قطعاها حتّى اللّحظة فقد كان في نفس عرض النّفق الرئيسيّ الأوّل، إلا أنّ ذهنها بقي عالقًا في رمزيّة الإشارة على الجدار. ما الذي يعنيه القرص الأسود وسط الدّائرة؟ كان أوران أكثر برجماتيّة وهو يضع الإشارات السّابقة: القاطع والمقطوع علامة الطّريق المسدود، السهم إلى أسفل أو إلى أعلى علامة اتّجاه التدفّق، أمّا القرص؟ هل يشير إلى الجحر وسط الحاجز؟ أم إلى الانهيار الحجريّ الذي يسدّ المسار؟

تعثّرت قدمها وهي تهبط على الجانب الآخر إلا أنّ أوران كان مستعدًا لاستقبالها فقبضت أصابعه بقوّة على ذراعيها الاثنتين ليثبّتها مكانها.

- أنت بخير؟

سألها وهي تلهث وتوازن قدميها على الأرض، فأومأت شاكرة ثمّ نسيت أمر إشارة آدم السّخيفة على الجدار وهي تحدّق في عيني أوران القريبتين. لم تنسحب الحمرة عن وجنتيها وهما يستأنفان المسير عبر التفرّع الأيمن. أبقت عينيها على المجرى وتيقّنت وهما يتقدّمان أنّ التيّار لم يغيّر الاتّجاه بل يستمرّ في صعود المنحدر كما ينبغي له.

لذلك فاجأها أن يبلغا بعد دقائق طريقًا مسدودة. حملقت في الجدار المرتفع أمامهما ثمّ في تيّار الـ«مادرا» الذي لا يزال يرتفع في تحدّ صارخ للجاذبيّة والمنطق والعلوم جميعها، تمتمت في ذهول:

- هذا غير ممكن!

لم يصلا إلى الـ«مصدر»، ولا يبدو أنّ الجدار أمامهما ضرب من الانهيارات الحجريّة، بل هو ذلك النّوع من الحيطان الطبيعيّة التي صقلها الزّمن العتيد. أشار أوران إلى الأسفل.

- هناك..

اقتربت مانويلا خطوة فثانية ودقّقت النظر إلى حيث يشير أسفل الجدار، كانت الـ«مادرا» تنفذ من فتحة عميقة في منتصف الحائط -ربّما هي أشدّ منطقة هشاشة- كأنّها فتحت لنفسها مسارًا بالقوّة عند القاعدة، ثمّ واصلت مسارها لتصعد المنحدر، لذلك يبدو ذلك النّفق واعدًا للوهلة الأولى قبل أن يتحوّل إلى مسار مغلق.

قالت مانويلا وهي تتنهّد:

- يبدو ألا مناص لنا من العودة إلى المسار الأوّل.

أومأ أوران موافقًا، لكنّه خطا بعد ذلك في اتّجاه الجدار يحفّه البخار، تحسّس الحجارة اللامعة براحتيه ثمّ وضع أذنه على السّطح الأملس متسمّعًا. راقبته مانويلا في صمت وترقّب حتّى أعلن وهو يعود أدراجه:

- هذا جدار أصمّ، لا يمكن هدمه بسهولة.. الـ«مادرا» تختنق على الجانب الآخر لذلك تتسرّب من ثقب أسفل الجدار، لكنّ الوصول إليها من هذا المسار سيكون أمرًا عسيرًا.

تحرّكت مانويلا على أثره وهما يتسلّقان المنحدر من جديد، توقّفت حين وصلا إلى مفترق الطّرق، استدار أوران ليمدّ ذراعه نحوها، إلا أنّها تجاهلتها وهي تقول:

- ربّما ينبغي علينا أن نلقي نظرة على المسار الأوّل، لنعاين الموقع..

أومأ أوران موافقًا دون تردّد، لكنّها شعرت بالنّدم على الفور.

- ألن يكون البقاء مطوّلًا داخل النّفق خطرًا عليك؟

يشير المؤقّت إلى انقضاء ما يناهز السّاعتين منذ دخولهما النّفق، لقد رأت آدم يتجاوز الفترة المحدّدة مرّة بعد مرّة ويرجع سالمًا لكنّها لا تريد أن تكون سببًا في أي أذى يلحق بأوران. سألت مجدّدًا في إلحاح:

- هل تشعر بضيق ما؟

هزّ أوران رأسه نافيًا، لكنّها أدركت بحدسها أنّه لن يخبرها حتّى لو كان يعاني ألمًا. زفرت ثمّ استدارت لتشرع في هبوط المنحدر الثاني، لحسن الحظّ لم يكن موقع الانهيار بعيدًا، خلال دقائق قليلة كانا عند الحاجز الصّخري. تقدّمت مانويلا واشرأبت على أطراف أصابعها لتحشر رأسها داخل الجحر الضيّق، لا يظهر شيء في نطاق رؤيتها من تلك الزّاوية، إلا أنّ المسرب يتّجه صعودًا ثمّ يغوص أكثر في الجدار. بسبب خوذتها وجدت صعوبة في الحركة، تخيّلت نفسها تزحف على أربع ثمّ تعلق معدّاتها داخل التّجويف وتشلّ حركتها، لم تكن في الحجم المناسب للولوج داخل الجحر.

قالت مقرّرة:

- لا يمكن أن يعبر شخص بالغ من هذه الفتحة.

أمّن أوران على استنتاجها، ثمّ تحرّك كلاهما باتّجاه المخرج.

***

أصغى آدم بحاجبين معقودين إلى تقرير أوران ومانويلا، بدا ألا مناص من هدم الجدار لتحرير سيل الـ«مادرا» المحتجز وراءه، وهذا يعيده إلى هاجسه الأوّل: كيف ينجو المُسخِّر الذي سيهدم الجدار؟ أعلن أوران ببساطة:

- سأذهب أنا.

كان ذلك اقتراح روان منذ البداية، لكنّها لم تُفْضِ برأيها لأحد إلاه، غير أنّ أوران مستعدّ رغم ذلك لتحمّل المسؤوليّة عنهم جميعًا في اندفاع بطوليّ لم يعد يجده آدم مفاجئًا، لقد فعل المُسخِّر الشّاب الشيء ذاته حين كانوا على متن اليخت، دفع بمروان لينقذ حياته وقَبِل بأن يكون فأر تجارب تحت يد مانويلا ووالدها، وبقدر ما يمتنّ آدم لشجاعته وتضحيته فهو يرفض بعد أن يستسلم للحتميّة التي تتجلّى في صوته.

تحدّثت مانويلا بمخاوفه حين قالت:

- ما الذي سيحدث حين ينهار الحاجز؟

ساد الوجوم بينهم، يعرف كلّ واحد منهم في داخله ما سيحدث، لكنّ أحدًا لم يتجرّأ على النطق بالكلمات المرعبة. قال آدم بلهجة حازمة:

- نحتاج إلى خطّة!

لم يكن من الوارد إرسال أحدهم في عمليّة انتحاريّة، ليس قبل أن يمحّص الفرص كلّها. قالت روان بصوت هادئ لا انفعال فيه:

- حين ينهار الجدار، ستتدفّق الـ«مادرا» الحبيسة بقوّة نحو الأعلى.. لن يمتلك المُسخِّر الذي يقف قبالة الجدار الوقت الكافي للتّراجع

بأمان، حتّى باستخدام قدرته الخارقة على القفز فإنّ قواه ستكون في أدنى مستوياتها بعد استهلاك طاقة جبّارة لهدم الحاجز الحجريّ.

ارتجف صوت مانويلا وهي تسأل:

- هل تعنين.. أنّ الـ«مادرا» ستغمره؟

استحضرت مانويلا حادثة سقوطها في جدول الـ«مادرا»، لم تكن إلا لحظات هيّنة قبل أن ينتشلها أوران لكنّها شعرت بالنّار تشتعل داخلها لتنهش عظامها مباشرة. إذا انفجرت الـ«مادرا» المحتجزة خلف الصّخور بعد سقوط السّدّ الذي يخنقها فإنّها ستصعد مثل موجة تسونامي حارقة وتقضي على كلّ أشكال الحياة في طريقها. مهما كان المُسخِّر سريعًا فإنّ مسافة ساعتين من السّعي داخل الأنفاق لا يمكن أن تُقطع في لمح البصر. إذا كان أسرع بعشر مرّات من البشر الطّبيعيين أو حتّى بعشرين مرّة، فسيمضي نحو عشر دقائق كاملة داخل الأنفاق، تلاحقه الحمم الفضيّة حتّى النهاية. لا أحد يدري كيف ستكون سرعة تدفّقها.. وأيّهما سيكون أسرع، الحمم أم المُسخِّر.

اقترح آدم:

- ماذا لو ذهب مُسخِّران بدل واحد.. يكون الثاني جاهزًا ما إن ينهار الجدار حتّى يأخذ بيد صاحبه ويخرجه من الأنفاق بسرعة خارقة. سيكون في كامل قوّته لأنّه لم يستنفد طاقته في عمليّة الهدم.

هزّت روان رأسها رافضة:

- هذه مخاطرة مضاعفة. حتّى لو كان المُسخِّر الثاني في كامل طاقته، فهو سيتحمّل وزنًا إضافيًا، ورغم قوّته وسرعته كلّها فسيكون أقلّ فاعلية داخل الأنفاق الضيّقة على مسافة ممتدّة بحمل ثقيل وموجة «مادرا» تلاحقه! لا، لن يكون ذلك آمنًا على الإطلاق.

تردّدت مانويلا قبل أن تقول:

- ماذا عن الجحر الذي يعلو الجدار؟ ربّما يؤدّي إلى غرفة آمنة؟

استدارت إليها النظرات كلّها، فأردفت:

- لقد ألقيت نظرة داخله، إنّه لا يبدو متّسعًا بالقدر الكافي لمرور شخص بالغ، لكن إذا كان يؤدّي إلى موقع آمن يمكن الاختباء داخله وانتظار عبور موجة الـ«مادرا» فربّما يمكننا العمل على توسعته والحفر داخله..

التقطت روان الخيط فسارعت تقول:

- يمكن توجيه الضربة إلى الجانب الآخر من الجدار، حيث الثقب الذي تتدفّق من خلاله الـ«مادرا»، فالأرجح أنّه الموقع الأضعف والذي يجدر بنا استهدافه.. في هذه الأثناء، يتسلّق المُسخِّر الجحر ويختبئ حتّى يمرّ تيّار الـ«مادرا» إلى الأمام ويعود الجدول إلى مستواه الطّبيعي، فيتمكّن بعدها من الخروج..

هتف آدم ساخرًا:

- الخروج؟ إلى أين؟ سيكون النّفق قد امتلأ بالـ«مادرا» عن آخره!

عاد الوجوم ليسيطر عليهم ثانية قبل أن يقول أوران الذي التزم الصّمت حتّى تلك اللّحظة:

- إذا كان الجحر يؤدّي إلى حجرة جانبيّة أو مسار آخر، فربّما يمثّل مسلكًا آمنًا.

بدت تلك الفكرة مطمئنة أكثر، إيجاد طريق خروج غير اتّباع مسار الـ«مادرا». التمعت عينا مانويلا وهي تقول:

- ماذا عن المسار الجانبيّ الثاني؟ إذا كان لا بدّ من العبور إلى مسار آخر، فنحن نعرف بوجود طريق قريب..

قاطعها آدم بحزم:

- حين تتدفّق الـ«مادرا» عبر الحاجز المنهار فإنّها ستملأ المسارات القريبة كلّها في وقت قياسيّ.. إنّ الأمل الوحيد سيكون في إيجاد نفق جانبيّ بعيد من ناحية تغذيته بالـ«مادرا» أو لا تصل إليه الـ«مادرا» على الإطلاق ليكون آمنًا بالقدر الكافي..

- إذًا لا بدّ لنا من استكشاف الجحر لنعرف إلى أين يؤدّي.

لم يرد أن يصل إلى تلك النّتيجة، لكنّ لا مفرّ من العودة إلى مسألة الجحر. هناك طريقتان لمعرفة إذا كان يمثّل شبكة أمان صالحة، وهو يفضّل الطريقة الثانية، قال مقرّرًا:

- سنعمل على توسعة الجحر حتّى يكون صالحًا لمرور رجل بالغ.

قاطعته مانويلا:

- أنت تدرك أنّ الجحر ناتج عن انهيار صخري؟ سيكون من الخطر أن نحاول الحفر داخله دون رؤية واضحة؛ عمقه ومساره والمنافذ الممكنة! ماذا لو انهارت التّربة في أثناء الحفر ولم نصل إلى حجرة داخليّة تحصل على تهوية ما؟

جاء صوت ريحان من ركن الغرفة وهي تهتف في رجاء:

- أرسلوني! يمكنني أن أستكشف الجحر!

عبس آدم ولم يعلّق، لم يشعر أحدهم بتسلّل الفتاة إلى اجتماعهم مرّة أخرى كما صارت تفعل باستمرار، ثمّ تجرّأت مانويلا على الكلام:

- أعرف أنّ هذا ليس خيارًا مثاليًا.. لكنّ الطفلة هي الشخص المناسب للمهمّة.

- مانويلا.. أنت تدركين خطورة الأنفاق، هذا ليس مكانًا لطفلة!

- يمكنني أن أصنع بدلة من أجلها.

استدارت العيون نحو مانويلا، فأردفت:

- لقد عدّلت البدلة لتكون في مقاس مناسب لي، يمكنني أن أعدّل بدلة أخرى لتناسب ريحان! الصّمغ الذي تستخدمه السّيدة مارتا ثابت وقويّ، وقد اختبرته اليوم.. لم يحدث أي تسريب.

اهتزّت ريحان مكانها في إثارة، ثمّ مالت نحو روان لتقول بحماس:

- سأكون بخير.. ثقي بي!

تكلّم أوران للمرّة الثانية:

- ريحان طفلة ذكيّة.. سوف تعاين الجحر وتخبرنا بما تراه.

اتّسعت ابتسامة ريحان وهي تطالعه بعينين متألّقتين، تحرّكت عينا آدم نحو روان، هي شقيقتها قبل كلّ شيء، وهي المخوّلة باتّخاذ القرار عنها.. بالإضافة إلى والديها. ندّت عن روان زفرة طويلة ثمّ قالت في وجوم:

- لن يسمح لك والدنا بالذّهاب.

قاطعتها ريحان وهي تهتف في إثارة:

- لن يرفضا، أنا أعرف! إذا وافق المُخلِّص فلن يعترض أحد!

امتقعت ملامح آدم وقد فوجئ بالقرار يرجع إليه، صفة المُخلِّص تلك تجعله مسؤولًا عن كلّ شيء، حتّى الأطفال. إلا أنّ خلافه مع عمّار يجعل الوضع أكثر حساسيّة من السّابق، والطفلة لا تُدرك ذلك. استرق نظرة إلى روان يطلب تأييدها، لكنّها تحاشت نظراته كأنّها تتنصّل من القرار. ترجّته ريحان:

- أنا قويّة وأعرف ما يجب عليّ عمله! أيّها المعلّم، أرجوك!

تجاهل استعطافها واستدار نحو مانويلا وسألها:

- بالنّسبة إلى البدلة..

- ستكون جاهزة غدًا صباحًا، سأعمل على ذلك!

تنهّد وهو يُطرق إلى الأرض متفكّرًا، فأنّت ريحان من جديد:

- أرجوك!

فكّر أنّها ستكون بخير داخل البدلة، نايت ومانويلا دخلا الأنفاق مرّات ولم تظهر على أحدهما أعراض تُذكر -باستثناء المرّة الوحيدة التي زلّت فيها قدم مانويلا، وهي قد تعافت من تلك الإصابة أيضًا- والصّغيرة ستشغل مساحة أقلّ على الضّفة وتحافظ على توازنها بقدر أكبر، سيربطها بحبل يبقيها متّصلة به على الدّوام فلا تتعرّض لخطر السّقوط.

مثل قرارات كثيرة أخرى اتّخذها تحت الضغط، يكاد يجزم بأنّه سيندم في وقت لاحق، لكنّه لم يجد مفرًا من الإعلان بصوت جهوريّ:

- أيّتها المغامرة ريحان، كوني جاهزة غدًا صباحًا لدخول النّفق!

صفّقت الطفلة وقفزت في الهواء، لكنّ أيًا منهم لم يشاركها حماستها.

يعرف أنّه سيتعامل مع غضب عمّار قريبًا.

(26)

اليوم السّادس والعشرون بعد السّتين

انحنت مانويلّا لتتفقّد شرائط الجلد الطري التي تلفّ معصمي ريحان، لتجعل أبعاد البدلة أكثر ملاءمة لأطرافها القصيرة، وقالت بصوت تحاول أن تبقيه هادئًا:

- حافظي على يديكِ.. الحجارة حادّة، قد تجرحين نفسك.

عملت تلك اللّيلة على تعديل بدلة ريحان مثل مصمّمة أزياء محترفة، إلا أنّها لم تستطيع تعديل الحذاء ليناسب قدميها الصّغيرتين. قصّت قفّازين من بدلة معطوبة وبطّنتهما بالفراء النّاعم ثمّ أوصلتهما بسيقان البدلة لتكون عازلة قدر الإمكان.

ربتت ذراعها بحنوّ ثمّ تراجعت لتسمح للفريق بدخول الكهف، لن تكون مانويلا ضمن مجموعة اليوم، ولا نايت. بسبب حضور ريحان، فضّل آدم أن يرافقها هو وأوران، مُسخّران قادران على التصرّف في حالات الخطر القصوى، فلم يكن من الحكمة أن يدخل أكثر من فرد واحد طبيعيّ في المرّة الواحدة.

توقف آدم عند أسفل المنحدر، وجهه متعب ويداه تقبضان على لفافة الحبل ثم ترخيانها. وضع أوران أسطوانة الهواء الخاصّة بريحان على الأرض بعد أن حملها طيلة الوقت منذ دخولهم إلى الكهف ليُجنّب الصغيرة عناءً إضافيًا، فيما أبقاها آدم على مسافة قريبة منه مشدودة بحبل في وسطها إلى وسطه.

وقف أوران قرب الفتحة، وحاول الإصغاء إلى الأصوات الصّادرة عن التّجويف، يوحي الصّدى الخافت بوجود منفذ على الجانب الآخر، قد يؤدّي الجحر إلى فتحة تهوية أو ممرّ جانبي.

جاء صوت آدم مشدودًا رغم ثباته:

- سنُرسل الأرنب أولًا.

لم تُجب ريحان، كانت عيناها معلَّقتين على الفتحة.. تجويف مظلم في جدار النفق المسدود، لا يتّسع لأكثر من كتفيها، هبَّت نسمة دافئة متقطّعة من الداخل.

لم تكن فكرة مرافقة ريحان لهم تُشعر آدم بالارتياح، وسيكون أفضل حالًا طالما بقيت أمام ناظريه. ربط أوران حبلًا رقيقًا بقائمة الأرنب، فحص العقدة ثم دفع الحيوان ذا الفراء الأبيض برفق داخل الفتحة. انزلق الحبل ببطء ثم تراخى، اختفى صوت خدش الأرنب للأرضيّة الصخريّة تدريجيًا مع تسلّق القوائم الصّغيرة في الظلمة.

استمرّ الصمت دقائق، لم يُسمع سوى صوت سيل الـ«مادرا» عبر الفجوة الجانبيّة الذي يغطّي على الأنفاس الثقيلة المتقطّعة. ثم شدّ أوران الحبل قليلًا فاستجاب الأرنب على الجانب الآخر بشدّة خفيفة. همس وفي صوته ارتياح عابر:

- لا يزال على قيد الحياة.. هناك شيء يتحرّك في الداخل.. تيار هواء، ربما.

أخذ قلب ريحان يخفق بسرعة، لبثت صامتة طيلة السّاعة ونصف السّاعة الماضيتين، تتحرّك ساقاها الصّغيرتان على وتيرة منتظمة لتواكب النّسق الجماعيّ، وتصغي في خضوع إلى التّوجيهات، لكنها تتقدّم الآن دون أن تنتظر أمرًا.

- دعوني أذهب.. إنّه دوري الآن.

لم يتحمّس أحدهما لكلماتها لكنّهما لم يعترضا، من أجل هذا جِيء بها. التقت عيناها بعيني آدم. لم يتكلّم فورًا، بل تأمّل وجهها الصّغير الذي ينطق إصرارًا. لطالما أدهشته تلك الفتاة منذ عرفها، بوعيها وغزارة معرفتها، خفّة حركتها وشجاعة مواقفها، والآن ترافق الكبار في مهمّة أقلّ ما يقال عنها إنّها مصيريّة. أومأت تجاهه بحركة حازمة كأنّها تجيب سؤالًا لم ينطق به.. *أنا مستعدّة.*

نزع آدم عن رأسها الخوذة التي كانت تتنفّس عبرها حتّى اللّحظة وتقلّل تفاعلها مع الـ«مادرا»، لكنّها ستعوق حركتها بالدّاخل، ولن يمكنها أن تحمل الأسطوانة الثقيلة على ظهرها، لذلك فهي مضطرّة إلى التخلّي عنها. وضع على فمها وأنفها قناعًا نباتيًا من صنع روان، ثمّ ضغط على كتفيها.

أعاد أوران ربط الحبل حول ساق ريحان عند مستوى الكاحل حتّى لا يحتكّ الحبل بالأرض في أثناء تسلّقها ولتحافظ على حريّة أطرافها العلويّة وتوازنها. أرخى الحبل بما يكفي حتّى لا يشكّل عائقًا لمهمّتها داخل الجحر، ولتُرسل ريحان إشارة إن شدّته مرّة حين وصولها إلى الجانب الآخر، أو مرّتين إن كانت في حاجة إلى مساعدة أو سحب عاجل.

انحنى آدم قربها، صوته منخفض ومتزن:

– إذا بدأ رأسكِ الدّوران، أو أصبحتْ رؤيتك مهتزّة عودي فورًا. لا تنتظري. لا تنظري حولكِ. فهمتِ؟

أومأت برأسها.

ما إن زحفت داخل الفتحة حتى استقبلها هواء دافئ ثقيل. كانت الجدران زلقة وضيّقة، يتفتّت السّطح الترابيّ مع مرورها، تحتّك ركبتاها بالصّخر ويلامس مرفقاها بقعًا رطبة، التقط أنفها الرّائحة الحمضيّة التي لم تكن تصلها منذ حين بسبب الخوذة وشعرت بطعم غريب على لسانها؛ طعم مرّ يشبه الدّم. ذات مرّة سقطت على الأرض وفقدت سنًا لبنية فامتلأ

فمها دمًا.. استعادت ذكرى الطعم وهي تتقدّم على أربع داخل الجحر وتكتم رغبة في البكاء.

ارتفع النفق أولًا، ثم انعطف يسارًا، ثمّ يمينًا قبل أن يصعد مجددًا في إيقاع غير متناسق أفقدها الإحساس بالاتجاه. بدأت تعدّ أنفاسها لتحافظ على إحساسها بالوقت. *واحد.. اثنان.. ثلاثة*... وصلت إلى تجويف أوسع، فوجدت الأرنب هناك.. حيًّا ويرتجف، لكن شيئًا ما لم يكن طبيعيًا. كان فراؤه مغطّى بطبقة رماديّة دقيقة، تتلألأ رغم الظلمة. لامست أصابعها الأرض لتجدها دافئة، ليست حارّة، لكنها تنبض في هدير مكتوم. تجاوزت الأرنب العالق في الجحر بعد أن حرّرت الخيط الذي التفّ حول قدميه وشلّ حركته ومضت إلى الأمام، تحرّك رأسها يمنة ويسرة وعيناها تسبران الجدران من حولها.

ثم رأته.. شقّ بين صخرتين، يتسرّب منه وميض كأنّه إنارة طبيعيّة، عرفت أنّه مبتغاها. شعرت بالتّربة تنهار فوق رأسها فتسارعت أنفاس قلقة في صدرها، ذلك الجحر المتعرّج لم يكن أكثر من أثر للانهيار الحجري داخل الأنفاق، وهو مهدّد بالتّهاوي في أي لحظة وردمها داخله، كان عليها أن تعود حسب تعليمات آدم، لكنّها قرّرت أن تمضي نحو الشقّ، تحتاج إلى أن تُلقي نظرة على الجانب الآخر من الجدار وإلا فإنّ تلك المغامرة كلّها ستكون بلا طائل.

اقتربت من الفرجة زاحفة على أربع وقد ازداد الجحر ضيقًا، من خلال الفتحة رأت بئرًا عمودية يتصاعد منها البخار في شرائط ملتوية نحو العتمة وسمعت صوت تدفق سائلٍ قويّ يرتفع من الأسفل، يشبه صوت الشلال الذي يهبط في الحوض على السّطح إلا أنّه ينزّ نحو الأعلى.. مثل قِدر تغلي على النّار. شهقت واضطربت أنفاسها. هل كانت تقف فوق الـ«مصدر» تمامًا؟

تلفّتت من جديد، باستثناء ذلك الشقّ لا يوجد أيّ منفذ آخر، عقدت حاجبيها في استياء، لم يكن هذا ما يريدونه، حزّ في نفسها أن تعلن فشل المهمّة، لكنّها لا تملك خيارًا. شدّت الحبل مرّة واحدة، في إشارة إلى وصولها واستعدّت للعودة أدراجها. أخذت تزحف إلى الوراء متتبّعة المسار ذاته، ظنّت للحظة أنها تسمع أصواتًا. أو ربما كان همسًا داخل رأسها.. طنينًا يتردّد في جمجمتها. «لا تبقي هنا» قال الصّوت، أو لعلها كانت تذكّر نفسها، لكنّ كلمات آدم أخذت ترنّ في ذهنها، هل هذا هو التشوّش الذي تحدّث عنه؟

بعد ذلك أخذت رئتاها تحترقان، هل استنشقت البخار حين اقتربت من الشقّ؟ هل كانت أقرب ممّا ينبغي؟ رأسها خفيف، وأطرافها تكاد تكون مخدّرة، تنميل ورؤية ضبابيّة، تلك العلامات كلّها تهاجمها، هل تشعر بها أم أنّ الهلع يفعل بها أفاعيله؟ لكنّها تفعل شيئًا واحدًا رغم ذلك، تزحف إلى الوراء خطوة إثر خطوة. امتدّت يد من خارج الجحر أخيرًا -يد أوران- وانتشلتها إلى أرض النفق.

كانت تسعل وتلهث محاولة الكلام، إلا أنّ يد آدم امتدّت نحوها لتعيد الخوذة فوق رأسها وأسطوانة الهواء إلى ظهرها، شعرت بالثقل على كاهلها لكنّها استنشقت نفسًا عميقًا وشعرت بتحسّن على الفور.. هواء نظيف. أمسك آدم بكتفيها.

- ريحان! ماذا رأيتِ؟

همست بصعوبة:

- الـ«مصدر».. قريب جدًّا. رأيت البئر من الأعلى.. الـ«مادرا» محبوسة بين الصخور..

- ماذا عن المنفذ؟ هل يؤدّي الجحر إلى حجرة أخرى؟ مسار آخر؟

هزّت رأسها نافية في أسف. كانت تلك الإجابة التي يحتاجون إليها.
أعلن آدم:
- فلنرجع إذًا.

***

وضعت روان شقيقتها في السّرير بعد أن جعلتها تحتسي مشروب أعشاب دافئًا ومرّرت أناملها الشافية على رأسها وصدرها مرَّات عدّة.
سألها آدم وهي تغادر غرفة المشفى أخيرًا:
- كيف حالها؟
أطلقت روان زفرة ثمّ قالت بإجهاد:
- آمل أنّها ستكون بخير.
كان يعرف. لم يكن إرسال الصّغيرة فكرة جيّدة على الإطلاق. لقد حمتها البدلة معظم الوقت لكنّها اضطرّت إلى نزع الخوذة للزّحف داخل الجحر، خلال تلك الدّقائق القليلة لم تكن مُعرّضة إلى الـ«مادرا» بقدر مكثّف، ربّما تكون التّجاويف الصخريّة أنقى من النّفق نفسه.. إلا أنّها اقتربت كثيرًا من الـ«مصدر» وربّما استنشقت بخار الـ«مادرا» رغم قِناعها.
بدت مشوّشة وهي تغادر الكهف، تكافح لتلتقط أنفاسها ويتداولها إحساس الحرارة والبرودة معًا كأنّها محمومة.
خارج المشفى، وجد نايت في انتظاره.
- آدم، أعتقد أنّ لديّ فكرة ما.
لم يكن اليوم مثمرًا جدًّا بعد أن تأكدوا من عدم جدوى الجحر للاختباء، لذلك فقد وجدوا أنفسهم يعودون إلى المربّع صفر: ما الذي يفعلونه في مواجهة سيل الـ«مادرا» الحارقة؟
- لقد فكّرت في طبيعة الـ«مادرا».. إنّها تشبه الحمم من ناحية مفعولها، لكنّها شبيهة بالماء أيضًا، من ناحية تدفّقها في جداول.. لذلك فكّرت،

لماذا لا نركب الـ«مادرا» كما تُركب الأمواج؟ حين ينفجر السدّ وتندفع الـ«مادرا»، سوف تنطلق نحو السّطح وتأخذنا في طريقها.. فقط لو كنّا نركب ألواح تزلّج أو ركمجة مناسبة..

اتّسعت عينا آدم وهو يهتف في ظفر:

- نايت، أنت عبقريّ!

ضحك نايت في حرج وهو يهمهم:

- شكرًا لك، لكنّها مجرّد فكرة.. لا أعرف بعد أيّ المواد يمكنها أن تتحمّل الـ«مادرا».. أخشى أنّ أجسامًا صلبة مثل الحجارة أو المعدن لن تطفو على الإطلاق، لكنّني لا أعرف كثير عن خصائص المادّة وإن كان بوسعنا افتراض تشابهها مع الماء..

قاطعه آدم بحماس:

- أنا أعرف!

توقّف نايت في ذهول.

- حقّا؟ هذا رائع!

- يجب أن نعتقد اجتماعًا عاجلًا.. لديّ خطّة!

***

خلال دقائق، اجتمع شملهم من جديد. لم تكن المعنويّات في أفضل حالاتها بعد تقرير ريحان عن زيارتها الصّباحيّة، لذلك تطلّعوا في لهفة إلى آدم الذي أعلن خطّته:

- نايت جاء بملاحظة ذكيّة.. نحن نفكّر بالتّعامل مع الـ«مادرا» بأقدام ثابتة على الأرض، وفي كيفيّة النّجاة دون أن نجرؤ على الاقتراب كثيرًا.. في حين أنّ الحلّ يكمن في ركوب الـ«مادرا» والاستفادة من قوّة دفعها!

سألت مانويلا في حيرة:

- ماذا تعني بركوب الـ«مادرا»؟ هل تقصد أن نصنع طوفًا مثلًا؟

أومأ آدم بحرارة، فأضافت في اعتراض:

- لكنّ الـ«مادرا» تختلف عن الماء، إذا سقط أحدنا أو إذا تطايرت قطرات حولنا.. أو إذا غمرتنا الموجة بعد انفجار السدّ.. سيكون ذلك موتًا محقّقًا! لا أعرف حتّى إن كان الخشب سيطفو أم سيذوب ويحترق..

قال آدم في ثقة:

- أعرف على الأقل الإجابة عن الإشكال الثاني.. ويمكننا أن نناقش تصميم الطوف حتّى نحصل على أفضل حماية ممكنة ونحلّ الإشكال الأوّل.

- ماذا تعني؟

- أعني أنّني أعرف مادّة مناسبة -على ما أعتقد- لصنع الطّوف.

ثمّ استدار نحو روان وقال:

- خشب الـ«سانترا»!

التمعت عينا روان ثمّ ضيّقتهما قبل أن تهمس:

- تبدو فكرة جيّدة.. الـ«سانترا» شجرة مميّزة نستخدم جذوعها في توجيه الـ«مادرا» السّائلة، هذا تدبير توصّل إليه المُسخِّرون منذ زمن واستمرّ توليد الطاقة في القرية بهذه الطريقة لعقود.. أعني أنّ الـ«سانترا» تقاوم الـ«مادرا» لا شكّ، لن تتفتّت أو تفسد مثل أيّ خشب آخر، لكنّني لا أعرف إن كانت ستطفو..

- ستطفو!

كان أوران من أعلن بنبرة واثقة.

- أذكر أنّنا كنّا نرمّم نظام الإنارة منذ سنوات، وقد سقطت قطع خشب في حوض الـ«مادرا».. لقد طفت.

تنهّد آدم، يبدو ذلك مريحًا ومطمئنًا، لقد تجاوز العقبة الأولى، والآن يبقى التّصميم.

- في الحقيقة، أتوقّع أن يرتفع منسوب الـ«مادرا» داخل النّفق.. عاليًا. ربّما يقترب من السّقف، وفي النهاية قد يمتلئ النّفق عن آخره مثل أنابيب الصّرف.. حسنًا لا أعرف إن كانت أنابيب الصّرف تمتلئ عن آخرها.. لكنّ النّفق قد يفعل..

كان ذلك أسوأ هواجسه في كلّ مرّة دخل فيها الأنفاق، لكنّه سيكون أقرب ما يكون من الكابوس في اللّحظة التي ينفجر خلالها السدّ.

سألت مانويلا:

- إذًا، هل تقترح شيئًا؟

أومأ آدم ثانية، أو لم يقل إنّ لديه خطّة؟

- لا يمكن لشخص واحد أن يفجّر السدّ ثمّ ينجو عن طريق الطّوف.. سنحتاج إلى فريق كامل.

جالت نظراته عبر الغرفة لتصافح عيون أوران ومانويلا ونايت.

- نحن الأربعة؟

- سيكون الطّوف كبيرًا جدًّا! أعني إن كان مستوى الـ«مادرا» سيرتفع فالأرجح أنّنا سننبطح على سطح الطّوف ولن نجلس متجاورين.. وسطح كافٍ لانبطاح أربعة أشخاص جنبًا إلى جنب لن يكون صغير الحجم.. لقد كنّا جميعًا دخل الأنفاق، وهي تضيق في المنعطفات.. وحتّى في أفضل حالاتها لا يزيد اتّساع النّفق على المترين. أنت واثق أنّ الممرّ قد يسمح بإدخال مسطّح بالحجم المطلوب؟

ابتسم آدم وهو يطالع نايت بنظرة رضا:

- ملاحظة صائبة.. سنحتاج إلى طوفين أصغر حجمًا!

قالت مانويلا:

- حسنًا، باستثناء ركوب الطّوف ما الذي سيفعله بقيّتنا فيما يهدم المُسخِّر الجدار؟

- إليكم الخطّة...

***

لم يرجع نايت إلى الكوخ في اللّيالي السّابقة، لكنّ تاليا لم تتخلّف عن إحضار طبق السّمك والخضار كلّ مساء، غير أنّه في تلك اللّيلة بالّذات يريد التّحدّث إليها، فاتّجه رأسًا نحو مسكنه المفترض. لمس المفاجأة في عينيها حين ظهر عند الباب كأنّها لم تعد تنتظر مجيئه، أو لعلّها انتظرت حتّى أصابها اليأس.

كان ابن شقيقها رائد نائمًا بالدّاخل، تربّع نايت على الأرض ومسح على رأس الولد اليتيم برفق في حين استمرّت تاليا تطالعه بنظرات مترقّبة.

- هل تعرفين أين تقع شجرة الـ«سانترا» الخاصّة بشقيقك؟

حين تحدّث آدم عن شجرة الـ«سانترا» شرح بأنّ لكلّ مولود على الجزيرة شجرة تخصّه، وترتبط حياتها بحياته، وحين يموت تصبح الشّجرة متاحة للقطع. من أجل صناعة الطّوف سيتوجّب عليهم قطع شجرة ما.. شجرة فُقِد صاحبها. ولمّا لم يكن من اليسير تمييز الأشجار المتاحة للقطع عن غيرها، فقد كان عليهم طلب الإذن من عائلات القتلى، وتلك مهمّة ثقيلة لما يُصاحبها من نَكْء للجروح التي تكاد تلتئم وإيقاظ للأحزان التي تُوارَى عن العيون.

تطوّع نايت لسؤال تاليا عن الشّجرة التي تخصّ شقيقها وزوجته، فكّر أنّها مجرّد شجرة، لكنّ نظرة الفزع التي تطلّ من عينيها في تلك اللّحظة تنبئه بأنّها أكثر من ذلك.

حين كان يرافق السّكان المحليين للاحتطاب من أجل أعمال الترميم في القرية، كانوا يحذّرونه من الاقتراب من أشجار بعينها. لم يكن خبيرًا بشأن النّباتات الغابيّة وكلّ الأشجار تتشابه في عينيه، لكنّ الأمر ليس كذلك لديهم.

حين طال صمتها، أخذ نايت يشرح في تلجلج خطّة آدم.. صناعة طوف يتحمّل الـ«مادرا» من أجل هدم الحاجز الذي يوقف تدفّقها من الـ«مصدر». التمعت عيناها وهي تصغي إليه ثمّ قالت بصوت منكسر:

- هذه غاية جليلة.. عسى أن يكفّر ذلك عنه شيئًا من ذنوبه.

أومأ نايت شاكرًا، وإن لم يعرف أيّ ذنوب تقصد.

- تعال، سأريك موقعها.

تسلّلا بهدوء حتّى لا يوقظا الطّفل واتّجها نحو الغابة.

سار خلفها ببطء، انتبه فجأة إلى اختفاء الضفائر الثخينة والطويلة التي تتدلّى عادة على ظهرها، صارت تلفّ شعرها الآن فوق رأسها كما تفعل السيّدات المتزوّجات في عُرف قومها. وقد شعر بألم في صدره لذلك الخاطر، إنّها تُعدّ سيّدة الآن وتحرص على أن تظهر في الشّكل المناسب تجنّبًا للقيل والقال.. ودّ لو أنّها أسدلته على طبيعته في احتجاج صامت على الارتباط الصّوريّ الذي اضطرّت إليه دون رغبة أو إرادة، لقد شعر في وقت ما أنّها قد تكون ذلك النّوع من النّساء.. بشخصيّة مستقلّة وكلمة مسموعة، لكن ها هي ذي تستسلم لسلطة المجتمع وتنحني أمام قدرها بلا مقاومة.

انتبه حين توقّفت أمام شجرة بعينها وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- ها هي ذي.

كانت شجرة مثل باقي الأشجار في محيطها لا تميّزها أيّ علامة، إلا أنّها فريدة في نظر تاليا. دقّق النظر في اهتمام فلمح بضع خطوط منقوشة على

اللّحاء، ربّما تكون كتابة بلغتهم المحليّة، بدت حديثة الحفر. سألها وهو يحاول أن يجاذبها أطراف الحديث:

- هل هذه كتابة ما؟

أومأت بهدوء ثمّ قالت:

- إنّها.. صلاة.

هزّ رأسه متفهّمًا، لا تزال أمامه طريق طويلة قبل أن يعرف كلّ شيء عن عادات أهل الجزيرة وعقيدتهم، إلا أنّه بُوغت حين أضافت:

- مايك يعلّمنا صلاة جديدة.

- مايك؟ مايك راسل؟

أومأت تاليا ثانية فيما تصاعد الذّهول داخله، لا يعرف كثيرًا عمّا يجري في الغابة منذ أيّام، لكنّ هذا تطوّر جدير بالتوقّف عنده، سأل في ريبة:

- ولماذا قد يعلّمكم مايك أيّ شيء على الإطلاق؟

لقد حوكم مايك بتهمة القتل العمد والفساد في الأرض وأرسل للموت داخل الكهف، لكنّ نجاته من تأثير الـ«مادرا» القاتلة جعلته يحظى بقدر من الاهتمام. لقد انشغل نايت في الأيّام الأخيرة وأولى الانسداد داخل الأنفاق كلّ تركيزه حتّى إنّه غفل عمّا يحدث من حوله من تطوّرات.

ظهر الارتباك على تاليا وهي تقول بنبرة مهتزّة:

- يقولون إنّه يتواصل مع الـ«نافيا».. يتحدّث باسمه وينقل رؤى غريبة عنه.

- وهل يصدّق النّاس ما يقول؟

هزّت كتفيها ومطّت شفتيها:

- إنّه يوزّع البذور، لم تعد هناك محاصيل.. والآن سنزرع من جديد.

ربّما لا تصدّق تاليا نفسها كلّ شيء يُقال لكنّها تنجذب إلى الخوارق المدهشة مثل الجميع، وعودة مايك من عالم الأموات معجزة في نظرهم

لا شكّ. إلا أنّ نايت يعرف أكثر من أيّ شخص آخر كم أنّ مايك مخادع ومدّعٍ لا يؤتمن جانبه.

- هل يشتري المغفرة بحفنة من البذور؟

- يقول إنّ الضّحايا الذين سقطوا.. كانوا تضحية ضروريّة، لتنقية الجزيرة من الشّرور، وأنّه مُرسل لتحقيق العدل والتّوازن وإعادة الإيمان والخير.

أطلق نايت ضحكة مغتصبة ثمّ سأل بلهجة ساخرة:

- وهل يعني هذا شيئًا؟ مايك نفسه هو الذي تسبّب في قتل كلّ أولئك النّاس.. والآن يبرّر المجزرة التي ارتكبها؟

حاولت تاليا أن تُدافع عن موقفها دون ثقة كبيرة:

- لقد أخبرنا.. أنّه وريث الـ«نافيا» لكنّنا رفضنا تصديقه في ذلك الوقت.. أمّا الآن، فهو يملك دليلًا قاطعًا. كان يجب أن نصغي إليه، لم يكن شيء من هذا ليحدث.. لو أنّنا فعلنا.. لقد استحوذت الأرواح المظلمة على الجزيرة، لذلك كان يجب أن تُطهَّر..

فغر نايت فاه في ذهول، لم يدرك سابقًا قدرة مايك المدهشة على التّلاعب بالحقائق وكسب النّاس في صفّه. لقد فعل طيلة حياته، نعم، وهو كان واحدًا من أتباعه سنوات، لكن من أجل المال وحده.. أمّا غسيل الدّماغ هذا فعلى مستوى آخر تمامًا من الإعجاز.

قال بلهجة صارمة:

- أنا أعرف مايك راسل أكثر من أيّ منكم، هل تفهمين؟ إنّه يكذب ويخادع، ليست هناك معجزة أو أيّ شيء من هذا القبيل. لقد قتل شقيقك، ألا تذكرين؟ كنتِ تريدين الثّأر منذ أيّام، لم تكن المغفرة واردة، أليس كذلك؟

- لكنّني لا أريد أن أفكّر بالثأر بعد الآن.. الثأر حمل ثقيل. أريد الرّاحة فقط.

في أيّ وقت آخر كان ذلك الإعلان ليسعده، سيكون آمنًا على نفسه في ظلّ تلاشي العدوانيّة وسيادة التّناغم بين الغرباء والسّكان المحليّين، لكنّه لا يستوعب كيف يمكن لهؤلاء النّاس أن يتقبّلوا كلمات مايك بتلك البساطة.

- من الأفضل ألا تذهبي إلى الغابة بعد الآن.. لستِ مضطرّة لإحضار الوجبات لي. أحصل على طعام كافٍ عند السيّدة مارتا.

- لكنّني أحتاج إلى الذهاب لسبب آخر...

- أيّ سبب؟

ازدردت لعابها وقد شعرت بالغيظ في صوته.

- أقوم بالتّرجمة.. مايك يحتاج إلي للتّواصل مع الـ«آم».

- التّرجمة؟ فليذهب مايك وأكاذيبه إلى الجحيم! لماذا تحتاجين إلى ترجمتها؟

- لأنّني أريد الحقيقة أيضًا!

بدت لهجتها حازمة عندما نطقت بتلك الكلمات، تغيّرت النظرة في عينيها إلى وهج قاتم.

- الحقيقة؟

- هل تذكر، أخبرتك ذات مرّة.. أنّك تشبه شخصًا عرفته؟

أومأ نايت في صمت، فأردفت:

- أمضيتُ سنوات أنتظر رجلًا لن يعود، هل تعرف لماذا؟ لأنّ قومي يقتلون الغرباء! لقد ذبحوه على الشاطئ، وأنا لبثت أنتظر عودته.. لكنّه لم يكن ليعود أبدًا.. لأنّه قُتل!

أطلقت ضحكة مكتومة ساخرة، تسخر من آلامها القديمة ومأساة حياتها التي قادتها إلى تلك اللّحظة المريرة. والآن، جاء مايك راسل بالحقيقة، فتح عيون الـ«آم» على حقيقة أسلافهم وجرائمهم القديمة والحديثة، وأنّهم استحقّوا العقاب الدّامي الذي طالهم، حرق قريتهم وإزهاق عشرات الأرواح. عادت تاليا تقول:

- لذلك نعم، أعرف أنّ الأرواح المظلمة قد عاثت فسادًا في «آرا».. ونحن بحاجة إلى «بار نوهرا».. «ابن النّور» الذي سيطهّر أرواحنا ويعيد إليها النّقاء.

لم يستطع نايت أن ينطق بكلمة واحدة.

***

وقف آدم أمام هيكل المروحيّة المهملة الرّابضة على الشاطئ الفضيّ، لم يهتمّ لأمرها منذ أسابيع، وقد بدا من الواضح أنّ العاصفة قد مرّت بها وتركت أثرها. تعرّضت أجزاء من المعدن للأكسدة وغاصت زلاجات الهبوط في الرّمال حتّى اختفتْ تمامًا، ولعلّ ذلك ما منعها من الانجراف نحو المحيط فلم تتزحزح عن موقعها لأكثر من بضعة أمتار.

يستحضر مشاهد من الذّاكرة، حين كان يغرق داخلها منذ شّهور ثلاثة. تبدو تلك الحادثة بعيدة جدّا كأنّها تنتمي إلى زمن سحيق. لم تكن المروحيّة ملائمة للغوص، يتسرّب الماء من فجوات عدّة في هيكلها وأرضيّتها حتّى كادت تمتلئ حين سقطت به في المحيط.. إلا أنّه يفكّر في شكلها الذي يشبه نوعًا ما غوّاصة صغيرة. ربّما لو أمكنه أن يقطع الأجزاء الزّائدة ويسدّ المنافذ بالصّمغ العازل فإنّها ستكون صالحة للاختباء داخلها حين يهجم سيل الـ«مادرا».

تبدو تلك الفكرة مثل حبكة في فيلم خيال علميّ، يتخيّل نفسه داخل الكبسولة المغلقة تدفعها الأمواج الحارقة فتتأرجح وتحتكّ بالجدران وتلفّ

حول نفسها. إنّ زلاجات الهبوط تبقيها ثابتة لكنّها تحتلّ مساحة بلا طائل، إذا أراد أن يأخذ المروحيّة في مهمّة نهاية الخدمة داخل الأنفاق فعليه أن يقلّص حجمها قدر المستطاع، فيتخلّص من الذيل والزّلاجات، أمّا المروحة فقد اقتلعت منذ زمن.

اقتربت روان وفي عينيها نظرة فضول، تعرف حين يكون عقله مشغولًا بمخطّط ما.

- ما الذي تفكّر به؟

- أن آخذ المركبة في مهمّة أخيرة!

ربّما تكون المروحيّة المغلقة أكثر أمانًا من الطوف الخشبيّ حتّى وهي مفتوحة السّقف، لكنّه لا يعرف بعد إن كانت ستصمد. بحركة حادّة اقتطع جزءًا من هيكل الألومينيوم وقال:

- ما رأيك في إجراء تجربة؟

إن كان ينوي الإفادة من المروحيّة، فعليه أن يتأكّد أوّلا أنّها لن تنصهر وتذوب في تيّار الـ«مادرا».

رافقته روان إلى داخل الكهف، وأمام عينيها انحنى ليُسقط قطعة الألومينيوم في مجرى المادّة المتوهّجة السّائلة غير بعيد من الحوض. شاهدا بعيون متّسعة الـ«مادرا» وهي تلتهم المعدن خلال ثوانٍ معدودة، ما إن التحم الألومينيوم بالسّائل الفضيّ حتّى أخذ في الذّوبان كأنّها يتعرّض لحرارة شديدة تضاهي لهيب الفرن.

نفض آدم كفّيه وقد استولت عليه الخيبة.

لن يحصل على غوّاصة إذًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(27)

اليوم السّابع والعشرون بعد السّتين

لم ينم نايت جيّدًا تلك اللّيلة على أرجوحته الشبكيّة المريحة، لم يتحدّث إلى مايك بعد اعترافات تاليا، وقد أراد أن يفعل، إلا أنّه لم يشأ أن ينفعل ويثير بلبلة داخل المخيّم. ربّما يكون الخيار الأفضل أمامه أن يوصل الخبر إلى آدم ويترك للمجلس التّصرّف في تلك المسألة التي تخصّهم.

جاء آدم وأوران للقائه عند أطراف الغابة ليدلّهم على موقع شجرة الـ«سانترا» الخاصّة بشقيق زوجته، كانت المهمّة الأولى هي قطع الشّجرة وتجهيز الأخشاب لصناعة الطّوف. راقب بكثير من الإعجاب والاستمتاع حتّى فرغ آدم وأوران من مهمّة التّقطيع باستخدام تقنية المُسخّرين المذهلة، قبل أن يتحدّث إلى آدم جانبًا.

- مايك.. إنّه يحشو رؤوس السكان المحليّين بالأكاذيب.. وهم يصدّقونه!

استمع إليه آدم بانتباه، لم يبد أيّ من ذلك مفاجئًا جدًّا. لقد عرف أنّ مايك سيستغلّ الفرصة ويفعل ما أمكنه لكسب مكانة ومجد مؤقّتين، ولقد أدرك أيضًا أنّ عليه التّعامل مع الوضع في مرحلة ما، لكنّه يمهله حتّى الآن لأنّه منشغل بأمور أكثر أهميّة، أمّا إذا تمادى بها يتجاوز المعقول فسيضطرّ إلى اتّخاذ إجراء رادع.

- لا تقلق، سوف نكشف ألاعيبه في الوقت المناسب.

شعر نايت ببعض الارتياح، لم يظهر على آدم ارتباك أو اضطراب، كأنّما يحيط علمًا بما يجري داخل الغابة، وربّما يملك خطّة ما لإيقاف مايك عند حدّه. يدهشه أنّ ذلك الشّاب يمتلك خطّة دائمًا، لا يزال يذكر كيف حطّم الـ«أسطورة» في مناورة غير متوقّعة البتّة، وكيف خرج من أعماق الكهف يركب عظاية عملاقة وينتهي بإغراق الأسطول كاملًا في إعصار منقطع النّظير.. وها هو الآن يجهّز لإنقاذ الجزيرة بتحرير الـ«مادرا» المحتجزة داخل الأنفاق. حين يكون الوقت مناسبًا، سيتعامل مع مايك، لا ريب.

انتقل آدم برفقة المجموعة إلى مكبّ النّفايات المعدنيّة الواقع بين التّلال الكلسيّة، كان قد استدعى بالأمس اثنين من البحّارة للمساعدة على تصميم الطوف الذي سيركبونه داخل الأنفاق. يكمن التحدّي الأساسيّ في ضمان الطفو فوق الـ«مادرا» وعدم التّعرض للغمر في أيّ لحظة من المغامرة وتجنّب تسرّب المادّة المتوهّجة من أيّ اتّجاه!

كانت غوّاصة لتكون التّصميم الأمثل بالتأكيد، لكنّهم لا يملكون الوقت ولا المعدّات اللازمة لصناعة واحدة. لو أنّه يقدر على تحويل المروحيّة إلى كبسولة ما، لكنّ التّجربة التي أجراها مساء الأمس مُنيت بالفشل.. إلا أنّه لم ييأس بعد، كان عليه أن يستوفي المحاولات كلّها.

ترك للبحّارة العمل على بناء الطّوف تحت إشراف نايت وأوران وانصرف لتجاربه. انتقى كميّات من المعادن المتنوّعة من النّفايات –فولاذ ونحاس وقصدير ومعادن أخرى لم يتعرّف عليها– ومضى بمفرده إلى الكهف. أخذ يُسقطها واحدًا تلو الآخر في الأقسام الضّحلة من جدول الـ«مادرا» التي تسيل في أخاديد جانبيّة خارج الحوض قبل أن تتجمّد وتتحوّل إلى حجارة الشّمس.

كاد يفقد الأمل وهو يراقبها تذوب وتتآكل كأنّها قوالب من الزّبدة فوق النّار.. تمهّل بداية وعاين كلّ تجربة على حدة، ثمّ أفرغ قطع المعدن

المتبقّية التي في حوزته دفعة واحدة داخل الأخدود وقد استبدّ به الغيظ. ما لبث أن لاحظ قطعة صغيرة من المعدن الرّماديّ المنطفئ، تغيّر لونها إلى السّواد تدريجيًا.. لكنّها لم تنصهر! حملق بعينين متّسعتين لخمس دقائق ثمّ عشر، فعشرين.. وفيما سالت المعادن الأخرى وتلاشت حتّى صارت جزءًا من الـ«مادرا» ذاتها ولم يبق لها أثر، فإنّ تلك القطعة الفريدة حافظت على تماسكها.

استخدم عودًا من شجرة الـ«سانترا» لانتشال القطعة المسودّة ثمّ تركها جانبًا حتّى تتجمّد الـ«مادرا» العالقة على سطحها، بعد ذلك مسحها بطرف ثوبه ليزيل الغبار الفضيّ ويعيد إليها لونها الطبيعي قبل أن يغادر الكهف وفي عينيه نظرة ظفر.

شقّ طريقه عبر الغابة يبحث عن هاورد، عثر عليه برفقة ساندي وستيفن وقد انهمك ثلاثتهم في أعمال البناء بالموقع الجديد الذي انتقاه المرتزقة لإنشاء الأكواخ الخاصّة بهم. رفع القطعة المعدنيّة أمام صبيّ الحدّاد السّابق وسأل:

- أيّ معدن هذا؟

ترك هاورد ما بين يديه والتقط القطعة ليتأمّلها باهتمام قبل أن يقول بلهجة قاطعة:

- تيتانيوم.

لا يعرف آدم التيتانيوم معرفة خاصّة، ولم يكن الاسم يعني كثيرًا، لذلك سأل على الفور:

- هل تعتقد أنّنا قد نجد كثيرًا منه في حطام السّفن؟

هرش هاورد مؤخرة رأسه ثمّ قال بلهجة متشكّكة:

- لا أعتقد.. إنّه معدن نادر لا يُستخدم في بناء السّفن التّجاريّة أو السّياحيّة، بل في المعدّات العسكريّة والعلميّة. إن لم تكن النّفايات التي

وصلت إلى الجزيرة من هذا الصّنف تحديدًا، فلن تجد إلا كميّات بسيطة جدّا..

لم يرض آدم بالاستسلام على الفور، إن كان قد عثر على قطعة فقد يعثر على غيرها.

- كيف يمكنني التعرّف عليه بسهولة؟ هل من خصائص محدّدة؟

في الحقيقة، لم يسبق لهاورد التّعامل المباشر مع التيتانيوم، فهو لا يتوافر في ورش الحدادة التّقليديّة.. لكنّه يميّز معدنًا فائق الجودة مثل التيتانيوم حين يراه بفضل معرفة نظريّة لا أكثر، حتّى أكثر الحدّادين خبرة لن يدّعي تجربة أفضل ممّا لديه. شحذ ذهنه ليستحضر كلّ ما يعرفه عن المعادن ثمّ قال:

- حسنًا.. التيتانيوم يتطلّب درجة حرارة عالية جدّا للذّوبان، إذا سلّطت مصدرًا حراريًا قويًا فإنّ كلّ المعادن الأخرى ستتحوّل إلى مادّة سائلة، باستثناء التيتانيوم.. والتنجستن أيضًا، لكنّني لا أعتقد أنّ أيّ كميّة منه قد تتوافر هنا..

لوى آدم شفتيه دون حماس ظاهر، ما لم يكن ينوي رمي النفايات المعدنيّة كلّها داخل حوض الـ«مادرا» فليس تلك طريقة يسيرة لتمييز التيتانيوم عن غيره من المعادن الرّماديّة غير اللامعة. ولعلّ تلك الخاصيّة بالذات هي ما يجعله معدنًا قويّا يتحمّل الـ«مادرا»، فهي تشبه في طبيعتها النّار الحارقة وإن لم يتصاعد منها الشّرار.

- آه، والتيتانيوم غير مغناطيسيّ.. إذا جذب المغناطيس أيًّا من القطع المعدنيّة فهي حتمًا تحتوي على الفولاذ أو الحديد، لكنّ التيتانيوم لن ينجذب إليه.

أومأ آدم في اهتمام، هذا قد يكون مفيدًا أكثر. اكتفى بذلك القدر واستدار مغادرًا، لكنّ صوت هاورد استوقفه فجأة:

- لقد رأيت مروحيّة خفيفة على الشّاطئ.. زلاجات الهبوط في المروحيّات غالبًا تكون من التيتانيوم!

***

عاد آدم ليقف أمام المروحيّة، إن لم تصلح ككبسولة غوص فإنّ أجزاء التّيتانيوم منها ستكون نافعة على الأقلّ. حفر بيديه ليزيح أكوام الرّمال التي تجمعّت عند قاعدتها وردمت زلاجات الهبوط تمامًا حتّى أخفتها عن الأنظار، أزاح الرّمل على الجانبين وحافظ على الكومة التي تسند الهيكل من الأسفل. شعر ببعض الحسرة وهو يسحب الخيط الذّهبيّ ليستحضر هِبة القطع ثمّ يسلّط طاقة الـ«مادرا» على الجزء السفليّ، لتنفصل زلّاجات الهبوط عن جسم الطّائرة الخفيفة. مال الهيكل على جانبه قليلًا حين خلّص آدم الزلاجات اليمنى ثمّ تأرجح حين فقد اليسرى بعدها، لكنّه ثبت في موقعه مثل جذع مقطوع بلا أقدام يستقرّ فوق قلعة من الرّمال.

تفحّص أنابيب التّيتانيوم المجوّفة باهتمام، ثمّ اختبرها باستخدام المغناطيس إمعانًا في التأكّد قبل أن يُلقي نظرة وداع آسفة على كومة الخردة التي صارت عليها الحوّامة ويمضي في اتّجاه التّلال حيث يعمل فريقه على صنع الطّوف.

ربط الرّجال ألواح الـ«سانترا» معًا في شكل مستطيل عرضه متر واحد وطوله متران ونصف، ثمّ أضافوا حواجز جانبيّة من الجهات الأربع لمنع الـ«مادرا» من الوصول إلى داخل الطّوف، وسكبوا المادّة الصّمغيّة العازلة في الشّقوق كلّها لمنع التّسرّبات، تجنّبوا استخدام أيّ مادّة أخرى باستثناء الخشب المنيع حتّى لا تتآكل أجزاء المركب، فاعتمدوا أليافًا نباتيّة من الشّجرة ذاتها لجدل الأربطة التي تُبقي الألواح متماسكة والصّمغ المستخرج من نسغها كمادّة لاصقة.

قطع آدم كلًا من الزلاجتين التي يتجاوز طولها الأمتار الثلاثة إلى نصفين بطول متساوٍ وأغلق الأطراف بنشارة الخشب المخلوطة بالصمغ ليحبس الهواء بالدّاخل، ثمّ ثبّت أوتاد التّيتانيوم إلى قاعدة الطوف من الجانبين بطريقة متعامدة مع الألواح الخشبيّة.

قال مفسّرًا:

- التّيتانيوم سيُبقي الألواح متلاصقة، وسيمنحها طفوًا إضافيًا مثل أكياس الهواء.

لم يكن الطّوف مثاليًا، لا يزال مفتوحًا من كلّ اتّجاه، والـ«مادرا» قد تتناثر نحوهم دون رادع إذا ما فاجأهم السّيل، سيكون عليهم الانبطاح على بطونهم والالتصاق بالألواح حين يرتفع المنسوب.. ويأملوا النّجاة!

عاد إلى المروحيّة ثانية ذلك المساء، كان شكلها المنهار مثيرًا للشّفقة ولعلّها لم تعد حتّى تصلح للهو الأطفال داخلها، لذلك لم يجد غضاضة من اقتلاع الواجهات الزّجاجيّة التي تغطيّ جوانبها. رغم التحطّم، حافظ الزّجاج المقوّى على صلابته ولم تطله الشقوق والتّصدّعات. لا يعرف إن كان سيصمد أمام هجوم المادّة المتوهّجة، إلا أنّه سيستخدمه رغم ذلك.

في مقدّمة كلّ من الطّوفين، ثبّت الألواح الزجاجيّة لتكون الدّرع الأولى التي تفصلهم عن الـ«مادرا»، حاجز شفّاف يسمح بمتابعة المشهد ويتلقّى عنهم الألسنة الحارقة عند الفيضان. جولة أخرى من التّجارب كانت لتثبت مناعة الزّجاج أمام المادّة المتوهّجة من عدمها، إلا أنّه لم يرد التّضحية باللوحين المتاحين، ربّما لا يثبتان إلى النّهاية ويتآكلان تدريجيًا لكنّهما سيكونان أفضل من لا شيء.

ابتسم وهو يتأمّل شكل الطّوف النهائيّ، نموذج هجين -مثله تمامًا- يحمل بصمة العالم المتحضّر وجذورًا راسخة في أرض الجزيرة.

فكّر في اسم طريف للطوف -لطالما كانت السّفن تحمل أسماء خاصّة بها- فخطر بباله معلّمه نوح، الذي كان أوّل من اكتشف تباطؤ سيل الـ«مادرا»، فقرّر أن يحمل الطوف اسمه.

«نوح»، طوف نجاة. حين يأتي الطّوفان سيحمله إلى برّ الأمان، كما فعلت سفينة النّبي نوح.

***

حين وصل آدم إلى المخيّم، فاجأته أعداد الـ«آم» الذين توغّلوا بين الأشجار وتجمّعوا حول مايك، يجلسون على ركبهم ويضمّون قبضاتهم في حجورهم ويصغون في خشوع. ارتفع صوت مايك قليلًا عن ضوضاء الغابة، صوت مطمئنّ بين الهمس والصّدح بنبرة تغمرها السّكينة حتّى إنّ آدم لم يكد يعرفه، لولا أنّه كان يتكلّم الإنجليزيّة، ثمّ جاء من ورائه صوت تاليا تترجم عنه كلمة بكلمة إلى لغة قومها.

راقب آدم المشهد السّرياليّ في عجب متزايد، لقد أخبره نايت عمّا يحدث في عمق الغابة، إلا أنّه لم يتوقّع شيئًا كهذا حتّى في أسوأ كوابيسه. لم يُصغ له السّكان المحليّون بمثل ذلك التّقديس قطّ، ليس أنّهم لا يبجّلونه بل لأنّه لا يتحدّث كثيرًا. لعلّ أفضل حكاياته كانت عن العالم الخارجيّ إبّان أسابيعه الأولى على الجزيرة، وحتّى في ذلك الوقت التفوا حوله كما يلتفّون حول «صاحب الحكاية» من أجل تسلية ليليّة. حين كان يعلّم الأولاد القرآن، رأى في عيونهم تلك النّظرات المسحورة.. لكنّهم مجرّد أطفال، وشغفهم يفتر سريعًا حالما يتحوّل الدّرس في عيونهم إلى واجب ثقيل!

فاجأ نفسه وهو يصارع غيرته من مايك راسل!

كلاهما دجّال على طريقته، يوهمهم مايك بأنّه يتحدّث باسم الـ«نافيا»، كما أوهمهم هو من قبل بأنّه المبعوث الذي على يده خلاصهم! كيف يمكنه أن يكشف كذب مايك وهو الذي جارى عمّار سابقًا في لعبه على وتر

العاطفة الدينيّة لديهم؟ لئن كان التّسخير معجزته وركوب الحوت برهانه، فالنّجاة من اختبار الـ«مادرا» معجزة مايك ورؤيا المعلّم الرّوحيّ برهانه!

انتظر جانبًا في سكون وحاول أن يلتقط كلمات مايك الإنجليزيّة لأنّ ترجمة تاليا إلى الآراميّة غير مفهومة لديه، تلخّص حديثه عن الغفران والتّعايش والرّحمة، فوجد آدم أنّ كلماته لا تُدينه. يهدم مايك إرث الـ«نافيا» العدوانيّ تجاه الغرباء متقمّصًا شخصيّة الـ«نافيا» ذاته، يُحدّث خطابه ويضع كلمات النّدم على لسانه، وتلك مناورة ذكيّة لا يعترض عليها آدم. لم يسمح تافي ورجاله للغرباء بالخروج من الجزيرة أحياء قط، والآن يعرّي مايك ماضيه القبيح أمام أبناء قومه، يُخبرهم عن الجرائم التي أقدم عليها أبناء المعلّم الرّوحيّ لأنّهم فهموا رسالته فهمًا مغلوطًا.. وكان عليه هو -مايك- أن يقتصّ للأرواح التي أزهقت على الشاطئ الفضيّ ورُفعت رؤوسها على الحراب!

شعر آدم بالدّهشة وهو يصغي طيلة ساعة أو تزيد، فيما تحدّث مايك بثبات واسترسال دون أن يرتجّ أو يتلعثم، كأنّما يقرأ صفحات كتاب تمثل أمام عينيه، وقد وجد ذلك مثيرًا للإعجاب.

حين أعلن مايك نهاية جلسة الاستماع، أحنى الـ«آم» رؤوسهم واحدًا إثر الآخر حتّى أوشكت أن تلامس الأرض في وضعيّة سجود عميق، قبل أن يقفوا على أرجلهم ويشرعوا في الانسحاب. انتبه بعضهم إلى حضوره فوجّهوا إليه التحيّة بانحناءات سريعة قبل أن يتبخّروا من حوله، أثارت حنق آدم لافتقارها إلى الصّدق والإخلاص.

ترقّب حتّى اختفى آخر الزوّار ونفضت تاليا كفّيها وهي تأخذ بيد ابن أخيها وتهمّ بالانصراف، حيّته بدورها بقدر أوفر من الاحترام فردّ الانحناءة بمثلها وتابعها بعينيه حتّى غابت وسط الدّغل. استدار مايك

نحوه ووجّه له ابتسامة خفيفة كمن يلتقي صديقًا قديمًا، فصفّق آدم بكفيه في حركة بطيئة وهو يقول بلهجة متهكّمة:

- مدهش! مدهش حقًّا! إن لم يكن هذا إبداعًا فلا أدري ماذا يكون!

احتفظ مايك بابتسامته دون أن تعكّر سخرية آدم مزاجه الرّائق، قال بفتور:

- إذا كنت مهتمًا، يمكنك المجيء صباحًا من أجل جلسة أخرى.

- باسم كلّ الغرباء الذين سيأتون إلى الجزيرة في المستقبل، أنا أقدّر الخدمة الجليلة التي تصنعها لهم! صدقًا. رغم أنّك تخدع السّذج المساكين الذين يصدّقون خرافاتك، فإنّني أثمّن النّوايا الحسنة.

تراقصت نظرة كدر مبهمة في مقلتي مايك قبل أن يقول بصوت صارم:

- أنا لا أكذب!

هزّ آدم كتفيه.

- أعلم، أنت تُخبرهم بالحقيقة عن المعلّم الرّوحي وخلفائه حتّى وقت قريب، وتفتح أعينهم على تاريخ الجزيرة.. دعني أعترف، لديك ملكة تأليف تنافس صاحب الحكاية!

أصرّ مايك وقد التمع في عينيه الغضب:

- قلتُ إنّني لا أكذب!

بُهت آدم لانفعاله، وكأنّ الرّجل قد تقمّص الشخصيّة حتّى توحّد معها فما عاد يميّز بين الخرافة التي يدّعيها والواقع الذي ينتمي إليه.

- لقدُ رأيت المعلّم الرّوحي.. جاءني في رؤيا واضحة! كنتُ على شفير الموت وغبتُ عن الوعي طويلًا، وفي تلك الأوقات كان يحدّثني ويخبرني بأنّني سأخرج من الكهف حيًّا.. وأنّ عليَّ تبليغ كلماته ووصاياه إلى الـ«آم»!

زوى آدم ما بين حاجبيه متشكّكًا، لقد اعترف مايك أمامه في وقت سابق بقراءته للألواح، ولم يكن آدم ليتوقّع غير ذلك، لكنّ تغيّر روايته وتلبّس الشخصيّة لحركاته وكلماته يثير ذهوله. تساءل إن كان ذلك تأثير الـ«مادرا» عليه؟ هل تختفي في ذهنه الحدود بين الحقيقة والتّهيّؤات؟

راقب برهة ملامحه العابسة المتغضّنة وعينيه القاتمتين في تهجّم وترفّع، الانحناءة الواضحة التي تجعل ظهره مقوّسًا كأنّما يقترب من الأرض أكثر كلّ يوم، والارتجافة الخفيفة التي تنمّ عن ضعف أصابعه القابضة على طرف العصا. مايك ينجرف في مسار شيخوخة سريعة كأنّه يكبر شهورًا وأعوامًا في اليوم الواحد، تمتصّ الـ«مادرا» منه ماء الحياة من الدّاخل، ولعلّها تأكل عقله كذلك!

فكّر آدم ألا فائدة تُرجى من نقاشه، لم يكن مايك راسل ليصغي إلى أحد، باستثناء الأصوات الخافتة التي توسوس في رأسه.

(28)

اليوم الثامن والعشرون بعد السّتين

تقدَّم أربعتهم داخل الأنفاق يحمل كلّ اثنان منهم طوفًا من خشب الـ«سانترا» المعزّز بالزّجاج والتيتانيوم، للمرّة الأولى يدخلون معًا دفعة واحدة من أجل المهمّة النهائيّة. كلّ الجولات السّابقة لاكتشاف الأنفاق قادتهم إلى هذه اللّحظة الحاسمة.

لم يكن المشي باليسر الاعتياديّ مع الثقل الإضافيّ، لكنّهم استخدموا الطوفين جسورًا لعبور الجداول عند التفرّعات، ممّا جعل مانويلا تشعر بالأمان معظم الوقت وهي تلتصق بالجدار وتبقي الطوف بينها وبين تيّار الـ«مادرا». إذا حدث وتعثّرت أو زلّت قدمها فسترمي الطوف أوّلًا وتسقط فوقه فتتجنَّب الأذى.

بعد نحو ساعتين بلغوا موقع الانهيار الصّخريّ، وهو وقت أطول من أيّ جولة سابقة قادتهم نحو الانسداد. ألقوا الطوفين بطريقة متعامدة مع الجدول ليصنعا جسرين متحاذيين على مسافة أمتار خمسة من الجدار، ثمّ اتّخذ كلّ منهم موقعه حسب تعليمات آدم. ترك لأوران المهمّة الأساسيّة -هدم السّدّ- فيما وقف على الطوف الأبعد، أمّا نايت ومانويلا فتتلخّص مهمّتهما في الحفاظ على توازن الطّوفين. لم يكن من الحكمة البقاء قريبين للغاية من الحاجز الحجريّ، من أجل سلامتهم.. لكنّ الأمتار الخمسة لن تمثّل عائقًا أمام أوران لتنفيذ المناورة بفاعلية، ليست أبعد من خصم يقف قبالته في ميدان القتال، إلا أنّ غريمه هذه المرّة صلب وقاسٍ.

تنفّس آدم بعمق ثمّ أعطى إشارة البداية.

حين شرع أوران في سحب الخيط الرّمادي، تراقص غبار الـ«مادرا» في الهواء، سمع كلّ منهم الهدير المكتوم للذّرات العائمة التي أخذت تستجيب لإرادته، ثمّ تفجّر وميض الصّاعقة فجأة، فأغمضوا أعينهم غريزيًا لّما أعماهم البريق القادح، وزمجرت الصّخور المرتجفة في مواضعها واهتزّت الجدران قبل أن يتسرّب غبار كثيف غطّى على بخار الـ«مادرا» العالق فوق رؤوسهم. هتف آدم بنبرة حازمة:

- انبطحا!

ألقى الأمر بالإنجليزيّة، فاستجاب نايت ومانويلا دون تفكير، قبل أن تأخذ الصّخور في التّدحرج نحو الجدول، وكلّما سقطت واحدة أحدثت طرطشة عنيفة وتطاير رذاذ الـ«مادرا» في الهواء. سحب آدم الخيط التّرابي وسلّط تركيزه على ذرّات الـ«مادرا»، يحاول دفعها في الاتّجاه المعاكس لتبقى تحت السّيطرة فلا يصيبهم شيء منها.

كانت خطّته تعتمد على الشدّ والدّفع، مُسخّران يحرّكان الـ«مادرا» في اتّجاهين متعاكسين للسيّطرة على تدفّقها، فيما يُطلق أوران سراح السّيل المحتجز يصدّه آدم كما يدفع الأمواج ويتحكّم بها ليبطئ التيّار. صرخ آدم مرّة أخرى ليعلو صوته فوق ضوضاء الانهيار:

- يجب أن نتحرّك!

إلا أنّ أوران بقي منتصبًا مكانه يرقب بعينين عابستين انهيار الحاجز، لم يبد عليه الرّضا بنتيجة عمله، لا تزال الـ«مادرا» تتدفّق عبر الثقب الجانبيّ بالكثافة ذاتها. لم تُحدث الضّربة الأولى إلا صَدْعًا يسيرًا، قد يكون كافيًا لتحرير السّيل وراء السدّ مع الوقت، وقد يبقى الوضع على ما هو عليه بلا تأثير يُذكر، في المجمل لم تكن ضربة قويّة كما أراد.

- سأوجّه ضربة أخرى.

لم يحبّ آدم الفكرة، كان يُفترض به توجيه ضربة واحدة ثمّ التّراجع مع تيّار الـ«مادرا» قبل أن يغمر السّيل النّفق، كلّ لحظة إضافيّة يمضونها داخل الأنفاق تزيد من خطورة المهمّة وهو ينوي الرّجوع بالعدد مكتملًا، إلا أنّه لم يعترض، فأوران -غالبًا- يعرف ما يفعله.

كانت رؤية آدم قد غدت مهتزّة منذ بعض الوقت، تتراقص الصّور على أطراف مقلتيه وتغطي غلالة ضبابيّة حدقتيه وهو يشكّ بأنّ أوران يعاني الأعراض ذاتها لكنّه لن يعترف بالتّأكيد، طالما يُنهي كلاهما عمله على الوجه المطلوب فلا تهمّ المعاناة التي يتكبّدانها.

حين ضرب أوران الجدار بصاعقة ثانية، غدا كلّ شيء أبيض حول آدم، ولثوانٍ طويلة لم يسمع شيئًا على الإطلاق باستثناء الصّفير الحادّ الذي يكاد يُدمي أذنيه، أغمض عينيه بقوّة ثمّ رمش، لكنّ شيئًا لم يتغيّر، استمرّ النّور الأبيض يغمر كلّ شيء، تساءل في ذعر عمّا يحدث له، ثمّ شعر بالطوف يتحرّك تحت قدميه يميل ويلتفّ ويرتفع في الآونة ذاتها، ففقد توازنه وسقط إلى الوراء حتّى كاد يتعثّر في نايت الممدّد على بطنه قريبًا منه.

تملّكه الارتباك وهو يتحسّس المكان من حوله كالأعمى ووجيب فؤاده يتزايد منذرًا بنوبة هلع قريبة، لم يكن يرى شيئًا أو يتحكّم في شيء فيما يُفترض به أن يحدّ من شدّة الفيضان ليضمن انسيابًا سلسًا للطّوف حتّى المخرج، لكنّه عاجز عن رؤية الخيوط فضلًا عن سحبها والبياض هو كلّ ما يراه.

دار الطّوف حول نفسه بحدّة وشعر برأسه ترتطم بجسم صلب يعلوه، انتبه في فزع إلى ارتفاع مستوى الـ«مادرا» السّريع ووصولهم إلى السّقف، ثمّ شقّ صوت الزّجاج صمم أذنيه وهو يحتكّ بدوره بطبقة الصّخور التي تعلوهم، أنّ في ألم شديد حين سقطت قطرات من السّائل الحارق على

الأجزاء المكشوفة أعلى عنقه، ولعلّ الألم وحده هو ما أبقاه واعيًا وسحبه من قعر نوبة الهلع الوشيكة.

- آدم.. آدم.. أنت بخير؟

عبر الصّفير المستمرّ، تسلّل صوت نايت إليه كأنّما يصل من وادٍ سحيق، ثمّ اجتاح سمعه صوت صراخ بعيد متّصل يزداد وضوحًا وإصرارًا في كلّ لحظة.. صُراخ مانويلا.

ارتطم الطّوْفان أحدهما بالآخر وواصلا الاحتكاك بالجدران الصّخريّة في كلّ منعطف والارتفاع مع موجة الـ«مادرا» العاتية وهما يتابعان طريقهما نحو المصبّ، لم يجد آدم بدًّا من الانبطاح ووجهه إلى الأسفل ليتجنّب الصّدمات، لكنّ السّائل الحارق استمرّ يتطاير في الهواء لتهبط دفقات منه بالقرب منه على سطح الطّوف، ليغمره ألم رهيب. وسط الفوضى العارمة، سمع أنّات نايت قريبة جدًّا، وصراخ مانويلا الذي لم ينقطع.

لقد فشل.

كان عليه أن يُسيطر على الموجة، يقمع اندفاعها لتهبط بسلاسة فيصعد الطّوْفان المنحدر بهدوء حتّى يسقطا سالمين في الحوض الخارجيّ، لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث، لقد تأذّى ثلاثتهم، فيما يغيب صوت أوران عنه تمامًا ولا يدري بعد كيف تلقّى السّيل المندفع. كان طوف أوران ومانويلا بالصفّ الأوّل في مواجهة السّيل، والمُسخِّر الشابّ لم يكن ليقدر على التحكّم في الفيضان بعد أن أجهد نفسه بصاعقتين متتاليتين.

كان أوران يعتمد عليه ليضمن سلامتهم، لكنّه كان عاجزًا حين احتاجوا إليه.

استسلم للهواجس السّوداء تلتهم فؤاده فيما يجري الطوف إلى حتفه، فقد إحساسه بالزّمن وقد تاه وسط البياض، لا يدري إن كان ما مضى ثوانٍ أم دقائق، لكنّهم قريبًا سيكونون على شفير الهاوية حين يصل الطّوف إلى

قمّة المنحدر ليسقط في حوض الـ«مادرا»، إن كان قد فشل في التحكّم بالموجة فعليه أن يفعل شيئًا حتّى لا ينقلب بهم الطوف في الحوض وينتهي أمرهم جميعًا.

رفع رأسه بهدوء واعتصر عينيه بقوّة، أخذت الظلال تظهر من حوله وإن لم يسترجع بصره كليًّا، ميَّز الأصوات المتنافسة على إفقاده صوابه وحاول فصلها عن بعضها، زمجرة الـ«مادرا» المتدفّقة في سيل عظيم يشقّ طريقه عبر الأنفاق فيملأها عن آخرها، وهدير الشلال الذي يهبط في الحوض بصخب يزداد حدّة مع الوقت، إنّهم يقتربون من قمّة المنحدر وسيُشرفون على الشلال قريبًا. رغم رؤيته الضبابيّة يكاد يميّز مدخل النّفق.. ربّما خلال عشر ثوانٍ سيكون الطوف قد بلغ القمّة.

عشرة، تسعة، ثمانية...

تحت جفنيه نبضت الخيوط من جديد، وقد استعاد وعيه كاملًا وسيطر على حوّاسه.

سبعة، ستة، خمسة...

سحب الخيط التّرابيّ مستجمعًا حضوره الذهنيّ بما أمكنه من ثبات.

أربعة، ثلاثة...

جعل تركيزه على ذرّات الهواء، حرّكها في لوالب متداخلة.

اثنان، واحد...

حين بلغ الطّوف الحافّة، كانت الـ«مادرا» السّائلة قد ارتفعت لتملأ الدّوامات التي صنعها في ذهنه، فاستقبلت الطّوف مثل وسادة مائيّة مرنة وأبقته معلّقًا في الهواء، حوَّل تركيزه نحو الطّوف الثاني الذي وصل وراءهم مباشرة وقد توقّفت مانويلا أخيرًا عن الصّراخ، ببطء جعل الدّوامات تهبط برفق نحو الحوض دون أن يميل أحد الطّوفين أو ينقلب حتّى استقرّا بهدوء بعيدًا عن مصبّ الشلال.

لهث آدم وهو يفلتُ الخيط التّرابيّ وينهض على ركبتيه، هرولت روان نحوهم وهي تهتف في اضطراب:

- هل الجميع بخير؟

باستثناء لسعات قليلة هنا وهناك لم يشكُ آدم من أذى شديد، استقام نايت بدوره وهزّ رأسه علامة النّفي، لكنّ آدم لاحظ التهتّكات التي ظهرت على البدلة في أكثر من موضع حيث هبط رذاذ الـ«مادرا»، لعلّ نايت يتنفّس هواء الكهف دون أن يدري، هتف آدم محذّرًا:

- من الأفضل أن نغادر الكهف على الفور!

ارتفع نحيب مانويلا بوضوح وهي تشير إلى جسد أوران المُسجَّى إلى جوارها.

- إنّه لا يستجيب!

قفز آدم إلى الضفة وسحب الطّوفين وراءه، اقتربت روان في جزع فيما كانت مانويلا تضع رأس أوران السّاكن على ركبتيها وتبكي بلا توقّف. سألت روان:

- ما الذي حدث؟

ارتجف صوت مانويلا وهي تحاول أن تشرح:

-يحين انهار الجدار، سقط أوران فجأة بلا حراك! كان واقفًا ثمّ تهاوى على ركبتيه.. لقد كان الفيضان عظيمًا، كاد الطّوف ينقلب بنا.. جاء البخار الكثيف أوّلًا ثمّ أصبحت الـ«مادرا» في كلّ مكان.. في كلّ مكان!

نظرت روان إلى الطّوف الذي تغطيه طبقة من الـ«مادرا» المتيبّسة وإلى أوران الذي يغمر وجهه وصدره رذاذ فضيّ جليّ، فيما تعرّضت بدلة مانويلا إلى حروق متناثرة تجعلها عرضة للتّسرّبات. همهم آدم بصوت مختنق:

- أنا آسف، إنّه خطئي!

تحرّكت روان على عجل وهي تشير إليه:

- بسرعة، ساعدني على حمله! يجب أن نُخرجكم جميعًا من هنا!

اندفعوا نحو المخرج في فوضى، فيما لازمت آدم فكرة واحدة.

الـ«مادرا» ستحصل على قربانها.

***

في ظلمة الليل، لم يكن يُسمع داخل مبنى المشفى إلا نشيج مانويلا المتقطع.

مسحت روان عن بشرة أوران غبار الـ«مادرا» العالق، وساعدتها السيدة مارتا على بثّ ما أمكنهما من طاقة العلاج داخله، إلا أنّ ملامحهما لم تعكس قدرًا عاليًا من التّفاؤل. لم يكن انهياره لمجرّد نفاد الطاقة داخله بعد عمليّة تسخير مضنية، ولا إرهاقًا طبيعيًّا من جهد مبذول.. تلك حالات مألوفة ومقدور عليها. كان قد تعرّض لمستوى عالٍ من الـ«مادرا» المركّزة بقدر يفوق ما تعوّدتا التّعاطي معه.

رجَّت مانويلا مارتا بصوت متقطّع:

- لقد أنقذتِني.. حين كنتُ على وشك الموت عرفتِ أنت ما عليك عمله!

هزّت مارتا رأسها في أسى.

- فلندعه يحظى ببعض الرّاحة الآن، ثمّ نجرّب أشياء أخرى في الغد.

لم تكن تعرف إن كانت العيون السّاخنة أو مشروبات الأعشاب أو الإبر قد تفلح في جعله يستيقظ، لكن عليهم أن يجرّبوا كلّ شيء حتمًا قبل إعلان الاستسلام، لقد نفعت تلك الأساليب معها بعد أن نفض الدكتور كريس كفّيه منها.

حصل آدم ونايت على نصيبهما من العناية، وكذلك عالجت روان حروق مانويلا، ظهرت على ثلاثتهم علامات التّسمّم، تشوّش الرؤية والصّداع الذي يشقّ الرّأس نصفين وآلام المفاصل الحادّة، تجاوزت الـ«مادرا» وسائل الحماية التي تدرّعوا بها، أكلت الأنسجة وتسلّلت عبر الشّقوق والثقوب، رغم ذلك لم يتأذّ أحدهم بقدر كبير، وإن كان آدم يبدو مكدودًا كمن يغادر معركة.

بكت مانويلا عند رأس أوران بعد أن عمَّ السّكون المكان، لقد أرادت في وقت سابق أن يُؤثرها. حين كانوا في عرض المحيط يترصّدهم القراصنة حزّ في نفسها أن يكون ولاؤه لروان التي حماها بجسده، لكنّها لم تتخيّل أنّ حمايته لها هي بجسده سيكون عملًا فظيعًا إلى تلك الدّرجة.

نعم، تُدرك ذلك الآن.

حين أخذت الحجارة تتساقط وتنفّست الـ«مادرا» بخارها القاتل في اتّجاههم، كانت مانويلا منبطحة ووجهها إلى الأرض، لكنّها لمحت بطرف عينها كيف تحرّك أوران، حين ارتفع الطّوف الرّابض مع تدفّق الـ«مادرا» السّائلة، جعله يستدير على الفور ليكون الزّجاج العازل حاجزًا بينها وبين الموجة القادمة ثمّ مال بجسده ليسدّ الثغرة الجانبيّة التي تشكّل مصدر خطر.. لقد وقف بينها وبين الفيضان، كان ذلك حين ارتفعت الموجة ولفحته مباشرة! تلقّى عنها الطوفان بجسده فلم يطلها إلا رذاذ تطاير بعد أن ارتطم به أولًا.

تندم على لحظة تمنّت فيها أن تكون ذات أهمّية لديه، وأن يُقدِّم سلامتها على سلامته. لو أنّها تلقّت الموجة بنفسها لكانت بدلتها قد تفتّتت لحظيًا ولم يكن أوران ليقدر على إنقاذها كما فعل المرّة الأولى مع امتلاء الأنفاق بالـ«مادرا»، وربّما كانت لتموت.

لكنّه الآن مسجّى حيث يجب أن تكون.

***

ظهر مروان عند مدخل المشفى وأعلن بصوت عالٍ:

- الـ«كوتانا» في انتظاركم.

تبادل آدم وروان نظرة صامتة، لقد انتظر الحكماء حتّى تلك اللّحظة لمواجهتهم. العيون أبلغتهم بما آلت إليه المهمّة، والآن سيكون أوان الحساب. التفتت روان إلى مارتا وقالت:

- سأترك أوران في رعايتك.

أومأت المعالجة العجوز بحركة مطمئنة. قال آدم مخاطبًا مانويلا ونايت بالإنجليزية:

- ابقيا هنا حتّى تتعافيا، لا أظنّ أنّ المجلس يهتمّ برؤيتكما.

إن كان الحكماء ليحمّلوا أحدهم المسؤوليّة فسيكون هو المرشّح المناسب، كلّ التّخطيط والتنفيذ كان من تدبيره ولم يكن الآخرون إلا عناصر مساعدة.

داخل دار العبادة، وجد الـ«كوتانا» مجتمعين في جلسة صامتة، تعوّد في المناسبات السّابقة الانضمام إليهم على المنصّة المرتفعة، بيد أنّه يمثل أمامهم اليوم كمتّهم يُفترض به التّبرير والدّفاع عن نفسه. تقدّم خطوتين فتبعته روان تلازمه مثل ظلّه، تقرّ بلا كلمات مشاركتها في أيّ ما كان الذّنب الذي سيوصم به.

تكلّم «كوتانا» ماليك أوّلًا:

- أيّها المُخلِّص، لقد دخلت أنفاق الـ«مادرا» رغم رفض المجلس لذلك.

رفع آدم صوته بلهجة واثقة:

- نعم، لقد عثرتُ على الانهيار الحجريّ داخل الأنفاق وحرّرتُ الـ«مادرا» الحبيسة وراءه.. الآن يتدفّق الشلال بقوّته المعهودة. لم يعد شبح تبدّد الظلة يهدّد الجزيرة، ستبقى الحياة كما هي عليه وسيستمرّ الأمن محفوظًا لحقب أخرى بعد!

لم ينسب الفضل لنفسه إنكارًا لمساهمة أوران وروان والآخرين، بل ليجنّبهم تبعات تورّطهم معه في عمل يخالف إرادة المجلس، ولعلّ الحكماء لا يجهلون مقصده لكنّهم لا يدقّقون.

همهم «كوتانا» توماس في فتور:

- الـ«آم» يمتنّون لهذا العمل الجليل لا ريب، لكنّ دخول الأنفاق يبقى تطاولًا على مقدّساتنا.. وهذا تجاوز لا يمكن التّسامح بشأنه.

ابتسم آدم مستحضرًا كلمات روان، المجلس انتظر حتّى حُلّت الأزمة، لكنّه سيتعلّق بالمحاسبة الشكليّة حفظًا لماء الوجه، قال آدم:

- إن كان المجلس يرى أنّني أستحقّ العقاب لهذا، فلا بأس.

لقد أنجز ما توجّب عليه إنجازه، وإن لم يكن في رضا تامّ عن المردود بالنّظر إلى النّتائج الكارثيّة على فريقه، لكنّ الهدف الأساسيّ قد تحقّق، وأثبت لعمّار أنّ الأزمة قابلة للحلّ داخليًا دون الاضطرار إلى النّزوح.

تشاور الحكماء برهة في ما بينهم، في هذه الأثناء استمرّ عمّار يرمقه بنظرات متجهّمة، لم يشترك في التّداول القائم بشأن عقاب آدم كأنّ الأمر لا يستحقّ العناء من ناحيته، لقد أفشل آدم مساعيه كلّها للدّفع بالـ«آم» نحو العالم الخارجيّ والآن لن يتغيّر شيء إذا عوقب آدم أم لا.

شدّت روان على ذراع زوجها في تعاطف، لو لم يكن آدم قد منعها من الحديث لما تردّدت لحظة واحدة في مشاركته المسؤوليّة ومقاسمته العقوبة، لكنّه حذّر من أن تفعل. أن يعاقب واحد منهما أفضل من أن يتعرّض

الاثنان في الوقت ذاته للاحتجاز.. لا يعتقد أنّ المجلس سيجازف بنفي المُخلّص ذاته من أجل تجاوز بسيط.

قال «كوتانا» ماليك أخيرًا:

- ينبغي للمخلّص الانعزال في غرفة الحجز حتّى يتبدّد غضب الجنّ وتذهب اللّعنة!

استرخى آدم، هو الاحتجاز إذًا. يعرف غرفة الحجز التي حُبس فيها والده منذ شهور قبل محاكمته، حجرة ضئيلة ومعتمة بلا نوافذ، لكنّه لن يُجادل، سيسمح للحكماء بانتصارهم الصّغير وسيحني رأسه أمام قوانين الجزيرة. إذا أراد أن يكون واحدًا من الـ«آم» فلا يكفي أن يضع مصالحهم في أعلى هرم أولويّاته، بل عليه أيضًا أن يخضع للأعراف ويجلّ التّقاليد.

أحنى رأسه علامة الاحترام، وسار وراء الحرّاس في استسلام نحو زنزانته الانفراديّة.

(29)

اليوم التاسع والعشرون بعد السّتين

لم يستيقظ أوران.

حمله اثنان من المُسخِّرين على محفّة ونقلوه إلى الأحواض الحارّة، حيث أمضى ساعات يُنقع في الماء السّاخن ذي التّركيبة المجهولة، وحين أُخرج أخيرًا لم يكن قد تغيّر في يقظته وتماسكه شيء، ظلّت أطرافه مرتخية مستسلمة كما هي. بعد ذلك حاولت المعالجة مارتا أن تطبّق ما جاء في دفتر هاجر عن الإبر الصّينيّة كما فعلت من قبل مع مانويلا، غرست الإبر في رأسه وصدره وذراعيه وحتّى أطراف أصابع قدميه، إلا أنّ أيًا من ذلك لم يُجدِ نفعًا.

يغرق المُسخِّرون المبتدئون في غيبوبة تدوم ساعات طويلة أو يومًا أو بعض يوم في الحالات الشّديدة، إلا أنّ أوران «بندار» متمرّس والأفضل بين شباب جيله، لم تكن الغيبوبة منطقيّة ولا متوقّعة بحقّه.

انضمّ الدّكتور كريس إلى فريق العلاج. أمام نظرات مانويلا المتوسّلة، عاين الشابّ مستخدمًا أدوات العالم المتحضّر. يعرف كلاهما أنّها محاولة يائسة، إن كانت معالجات الجزيرة القادرات على اجتراح المعجزات قد فشلن في عمل أيّ شيء من أجله فما الذي يملكه طبيب من العالم الخارجي؟

دسّ كريس يده في أعماق حقيبة معدّاته الثمينة التي نجت من غرق اليخت واحتجاز القراصنة ووجدت طريقها إلى اليابسة أخيرًا، جسّ نبض المريض وقاس مستوى الضغط ونظر داخل بؤبؤيه النّاعسين قبل أن

يعاين العقارات بداخل الحقيبة يتخيّر أيّها أنسب. لا يطمع في أيّ نوع من النتائج السّحريّة، لكنّه سيجرّب أيّ شيء إكرامًا لمانويلا. وقع بصره على حقنة الأدرينالين، يعرف يقينًا أنّ أوران لا يحتاج إليها، من وجهة نظره الطبيّة ستكون بلا فائدة. لم يتوقّف قلبه ولم يخفت تنفّسه، لكنّه مثل أميرة أسطوريّة نائمة لا يستجيب للمحفّزات الخارجيّة.

غير أنّ الأشياء لا تحدث وفقًا للمنطق على الجزيرة، كلّ الاحتمالات جديرة بالمحاولة.

أخرج الإبرة ورفع كمّ أوران ثمّ أفرغ الحقنة في عروقه. راقبت مانويلا عن كثب، شهقت وغطّت فمها بيدها حين اختلجت عضلاته في حركة متشنّجة كأنّ صاعقة كهربائيّة أصابتها، حبست أنفاسها وهي تنتظر الآتي، فيما رفع كريس جفني المريض وسلّط ضوء مصباحه اليدويّ الصّغير على عينيه، للحظة بدا كأنّ الحياة تعود إلى وجهه، ارتفع صدره في شهيق مفاجئ منعشًا الأمل في الأفئدة المترقّبة وانفرج جفناه في اتّساع مرعب.

ثمّ خمد كلّ شيء.

استرخى الجسد مجدّدًا وظلّت المقلتان زجاجتيّن تحدّقان في الفراغ ببلادة، كأنّ التيّار الذي عبر خلالها منذ حين قد تلاشى وانتهى.

تراجع كريس في أسف وقال معتذرًا:

- لا فائدة.

خبّأت مانويلا وجهها بين كفّيها وأجهشت بالبكاء، فكّر كريس بمواساتها ثمّ اكتفى بالوقوف الصّامت إلى جوارها. لقد آمن في الأسابيع الماضية بأنّ المعجزات ممكنة، لقد رأى عددًا منها بعيني رأسه منذ تورّط في تلك الرّحلة، همهم بنبرة متفائلة مفاجئة:

- إنّه يتنفّس، وقلبه ينبض.. ربّما يحتاج إلى هذه النّومة الطويلة فحسب.

رفعت مانويلا عينيها إليه، تطلّعت في وجهه بنظرة متشكّكة، ثمّ ما لبثت أن مسحت آثار الدّموع بظاهر كفّها وقد سرى إليها تفاؤله. نعم، أوران لم يرحل بعد. إنّه نائم.. نائم أطول من المعتاد، لكنّه رجل قويّ وسيفيق حتمًا.

أعلنت بلهجة حاسمة:

- سأبقى إلى جواره حتّى يستيقظ.

لا تعلم كم سيطول غيابه في عالم الأحلام، ولا إن كان سيفتح عينيه يومًا ما. لكنّها ستحرص أنّه إذا فعل ذات يوم، فسيكون وجهها أوّل ما يطالعه.

***

لم تعد ريحان تشعر بآلام الرّأس التي ألمّت بها منذ يومين، إنّها في حال أفضل بالتّأكيد، لكنّها لا تجد رغبة في مشاركة الأطفال لعبهم. جاء ياسر ورائد والآخرون لدعوتها إلى مرافقتهم في جولتهم الاعتياديّة إلى الشاطئ لاستقبال مراكب الصّيد، ثمّ إلى الصّخرة حيث مخبأهم السّريّ، إلا أنّها جعلتهم ينصرفون وشيّعتهم بابتسامة واهنة.

تغيّر شيء في الطفلة ذات السّنوات العشر بعد مغامرتها داخل الأنفاق.

لم تكن لتعترف بذلك صراحة، فهي قد تحدّت شقيقتها وترجّت آدم حتّى يسمحا لها بالدّخول، وغضب والدها غضبة هادرة حين عرف بالأمر لاحقًا، لكنّها لم تعرف أنّها لن تخرج كما كانت من تلك التّجربة.

تساءلت في سرّها إن كان الآخرون يشعرون بالتّأثير ذاته، لذلك ظلّت تحوم حول المشفى تترقّب فرصة للحديث إلى مانويلا. لم تكن تربطها صداقة وثيقة بأوران -وهو لم يستيقظ بعد على أيّ حال- ولا يمكنها أن تشارك روان هواجسها حتّى لا تقول بلهجتها الحازمة: ألم أقل لك؟ أمّا آدم فهو حبيس غرفة العزل الانفراديّة.

لذلك لم يبق أمامها إلا مانويلا، غير أنّ مانويلا لا تكاد تغادر غرفة الفحص حيث يرقد أوران منذ الأمس.

حين عبرت طرقات القرية، تناهت إليها همسات -لا ليست تلك الهمسات التي تناديها حين تنعزل عن النّاس، بل همسات حقيقيّة- سمعتهم يتحدّثون عن مايك راسل، والد مانويلا، الرّجل الذي نجا من اختبار الـ«مادرا»، ثمّ أخبر بشأن الرّؤى التي يراها عن المعلّم الرّوحيّ. خفق قلبها في صدرها بقوّة، إنّها ترى أشياء أيضًا، ظلالًا تظهر في زاوية مقلتيها وتزحف ببطء مثل عرائس راقصة حتّى تغمر رؤيتها، وبعد ذلك تبدأ الهمسات الخافتة كالفحيح في أذنيها.

مايك كان داخل الكهف، وهو وإن لم يدخل النّفق مثلها فقد تعرّض للـ«مادرا» لوقت طويل، كان يُفترض به أن يموت لكنه خرج حيًا. حيًا ومسكونًا برؤى غريبة مدهشة، مثل معلّم آخر، يبشّرهم بالرّحمة والغفران.

قادتها قدماها نحو مخيّم الغابة، وهناك فاجأها المشهد.. العشرات من الـ«آم» منتشرون بين الجذوع، يجلسون على الأرض ويخفضون رؤوسهم ويُنصتون. تقدّمت بهدوء حتّى لا تقاطع سيل الكلمات المتواترة التي تأتي على لسان الرّجل الغريب ذي الشعر الأبيض بصوت حالم كأنّما هي تراتيل السّماء، ثمّ تترجمها المعلّمة تاليا بنبرتها الرّقيقة التي تتدفّق إلى الآذان مثل همسات آسرة.

وجدت ريحان نفسها تهوي على ركبتيها، تتردّد أنفاس مضطربة في صدرها وهي تُصغي.. وتُصغي، فتتلاشى الأصوات الهامسة من رأسها وتحلّ عليها السّكينة.

***

استلقى آدم على ظهره، تحدّق عيناه المشرعتان في السّقف الطينيّ تميّزان التّفاصيل الدّقيقة لنسيج السّعف والخيزران، وترتع بين ثنايا ذهنه أفكار

قاتمة. بطريقة ما، تحقّقت نبوءة مايك؛ أوران يستلقي بلا حراك منذ الأمس والمعالجات عاجزات عن عمل أيّ شيء من أجله، وهو المسؤول الأوّل عمّا حلّ به!

لقد كان المُسخِّر الشّاب مستعدًّا للتضحية، أراد بشدّة أن يكون في مواجهة سيل الـ«مادرا» وحيدًا، إلا أنّ آدم فعل كلّ شيء ممكن ليمنع النّبوءة من التحقّق، ليوقف العمليّة الانتحاريّة ويضمن نجاة الكلّ. هل خال نفسه ساحرًا؟ بطلًا خارقًا؟ له أن يخطّط ويبتكر ويحلم.. لكنّ القدر سيتحقّق رغم ذلك.

في تلك الوحدة الرّهيبة، تساءل إن كان مايك يرى رؤى حقيقيّة.

لم يعد يثق في صحّة حكمه على الرّجل، لعلّه رأى أشياء داخل الكهف، ولعلّ كلماته صادقة فعلًا، إلا أنّ أيًا من ذلك لن ينفي عنه ذنبه في ما حدث لأوران.

تناهت إليه همسات قادمة من الخارج وحركة أمام الباب الموصد، ثمّ انفرجت الدّفة وظهرت روان مثل دفقة نور أشرق لها مزاجه القاتم. لم يكن حضورها طبيعيًا داخل الزنزانة، لكنّها المعالِجة، وبوسعها التصرّف مع الحرّاس والحصول على الإذن إذا شاءت. اقتربت حتّى جلست إلى جواره وتحاذت كتفاهما ثم وضعت أمامه طبق الطّعام.

همست في مواساة رقيقة:

- يجب أن تأكل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألها دون تفكير:

- هل استيقظ أوران؟

هزّت رأسها في صمت. لم يفعل. زفر آدم ولم تتجاسر يداه على لمس الطّبق.

- سوف يفعل، أنا واثقة.

لا يعرف من أين تستقي ثقتها تلك، يكاد يجزم أنّها تهوّن عليه وحسب، أم لعلّها تأمل وترجو كما يفعل، لكنّ أحدًا لا يعلم يقينًا كيف سيكون مصير أوران. سأل آدم بوهن:

- هل يحتفل النّاس؟

ابتسمت روان وقالت برفق:

- كيف لهم الاحتفال بزوال خطر يجهلون وجوده تمامًا؟

حرص عمّار على نشر خبر تعدّيهم على حمى الأنفاق الممنوع، لكنّه بالتأكيد لم يشرح الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك. بقيت أزمة الـ«مادرا» سريّة حتّى بعد انتهائها ولم يعرف العامّة شيئًا عمّا تكبدّوه لأجل استقرار حيواتهم ورخائها.

ستظلّ تضحية أوران مجهولة، ولن يحصل نايت ومانويلا على العرفان الذي يستحقّانه وهما لا يدينان للـ«آم» بأيّ ولاء أو مسؤوليّة. تلك الأعمال البطوليّة الجسور لن تحفظها ذاكرة السّكان المحليين ولن تضمّها إلى ملفّاتها الأسطوريّة التي يتردّد ذكرها في الحكايات الشّعبيّة الأثيرة. لن تزيّن صدروهم نياشين ولن يحظوا باحتفاء أو تكريم، في المقابل، ينتظرهم مصير من نوع آخر تمامًا.

- ما الذي سيحلّ بنا؟

رنت إليه روان في حيرة:

- خلال أيّام قليلة سينتهي الحجز، لا تقلق.

هزّ رأسه نافيًا، لم يكن هذا ما يؤرقه، يمكن للحجز أن يستمرّ لأيّام وأسابيع، لا يُبالي. غير أنّه يخشى من الثّمن الذي سيدفعه كلّ واحد منهم بسبب تلك الرّحلة داخل الأنفاق.

قربان الـ«مادرا»، قد تكون نبوءة وهميّة ابتدعها مايك، لكنّه لم يتكلّم جزافًا، بل عن وعي وتجربة، مايك يدفع ثمن دخوله الكهف الآن

وسيستمرّ يفعل في كلّ لحظة من حياته القصيرة المتبقية. فماذا عنه هو؟ وأوران؟ وريحان ومانويلا ونايت...

لعلّ الحكماء ليسوا مخطئين، هناك لعنة ما تصيب كلّ من يدخل الأنفاق ويواجه نَفَس الـ«مادرا» الذي يتسرّب من أعماق الأرض، ليست لعنة الجنّ كما يدعونها، لكنّها لعنة رغم ذلك.

والآن، بدأت خيالات شبحيّة داكنة تتراقص في مقلتيه.

(30)

اليوم التّسعون

سار آشور في حذر محاذيًا أطراف الغابة، يتجنّب أن يلمحه أحد وهو يمضي للقائه السِّريّ. ذلك الحمل الذي ورثه عن والده بصفته حفيدًا يتّصل نسبه بالـ«نافيا» يدفعه للحفاظ على العهود القديمة وإبقاء الطّقوس المقدّسة قائمة، في كنف السّرية والكتمان الشّديدين.

تلقّى التّعاليم منذ نعومة أظفاره ونشأ وهو يُدرك مَن يكون وما مسؤوليّاته تجاه قومه وإرثه وسلفه، إلا أنّه لم يعلم أنّه سيستلم زمام الأمور سريعًا بعد أن قضى والده غيلة وغدرًا وهو يصدع بكلمة الحقّ أمام غريب تتلبّسه شياطين «مهافيا دياما».

ظهر رجلان في الظلال، ميّز هويّتيهما من المشية والهيئة، اثنان من أتباع والده الأمناء، يُوَرَّثُ الواحد منهم مهمّة التّابع كما يَرِثُ أحفاد المعلّم الرّوحيّ المكانة والعبء. حيّاه الاثنان بانحناءة عريضة تنمّ عن احترام وتبجيل، ليس بصفته الآن «كوتانا» وعضوًا في المجلس، بل لأنّه الرّجل الذي يطيعانه بلا تردّد بسبب عهد قديم لم يشهده أحدهم.

كان عليه اتّخاذ قرار في ما يخصّ مايك راسل. لم يفعل المجلس شيئًا، بل إنّ محاولتهم إصلاح الأمر لم تسبّب إلا المشكلات، لقد أرسلوا الرّجل إلى الكهف فخرج منه معجزة تمشي على قدمين، لو عاد الأمر إليه لقطع رأسه على الطّريقة القديمة ورفعها على حربة ليعتبر الآخرون!

الـ«كوتانا»، لطالما اعتبرهم والده مجموعة من العجائز العاجزين، كلّ ما يفعلونه هو الاجتماع المطوّل واللّت والعجن دون نتيجة تُذكَر! وقد كان عليه أن يُصوِّب أخطاءهم -كما فعل والده وأسلافه لعقود وقرون- لتستمرّ الحياة آمنةً على الجزيرة، رغم ترك القيادة لزُمرة من الأيادي المرتعشة. لعلّهم مفيدون حين يتعلّق الأمر بفضّ النّزاعات البسيطة وحلّ المشكلات السّطحيّة، لكن حين يتعلّق الأمر بالغرباء، فإنّهم يتردّدون، يعتزلون لأيام ويتقارعون بالكلمات لساعات ولا يتّفقون على كلمة رجل واحد!

تكلّم الرّجل الشابّ بهمس محترز:

- لقد أصغيت إلى حديث «ابن النّور» هذا.. والحقّ أنّه يقول كلامًا نعرفه.

عبس آشور وسأل متشككًا:

- أيّ حديث هو؟

تردّد الكهل قبل أن يقول:

- إنّه يعرف كلّ شيء عنّا، عن تعاليم الـ«نافيا» التي نحفظ سرّها، عمّا نفعله بالغرباء الذين يحاولون مغادرة «آرا»، عن تاريخ المعلّم كلّه...

قاطعه آشور محتدًا:

- هل هي خيانة إذًا؟ من الذي خان العهد وباح بالسّرّ؟

تدخّل الكهل الثاني:

- لم يحدث أيّ من هذا، قطعًا! جماعتنا أوفياء، أضمن كلّ واحد منهم بحياتي!

تنفّس آشور باضطراب وتنقّلت نظراته بين العيون الواجفة المحدقة به، إنّه يقرأ فيها علامات صريحة لا يمكنه إنكارها.. رجاله يصدّقون «ابن النّور»! ازدرد لعابه مُخفيًا التوتر الذي يرتع في صدره، يترقّب كلاهما كلماته التالية، يُفترض به أن يتّخذ قرارًا، إلا أنّه يرتجف ويتلبّسه العجز.

إذا أمر بقتل مايك، ربّما يطيعه الرّجال، لكنّ ثقتهم به ستهتزّ، لم يأت بمعجزة مثل معجزات النّاجي من محاكمة الـ«مادرا»، وسُلطته لا تتعلّق بشخصه بل بإرثه ونسبه.. وسيكون الأسوأ أن يعترضوا ويرفضوا الأمر، أن يناقشوا صوابه ويدافعوا عن «ابن النّور» الذي جاء يُجدّد طريقتهم ويصحّح مسارهم! إنّه يرى بوادر التمرّد في سحنات تمثّل الخضوع.

أمّا إذا أعلن إذعانه، فسيفقد كلّ شيء؛ سيكون قد سلّم سلطته المعنويّة واستسلم، ليتحوّل أتباعه مباشرة لاتّباع قائد جديد، ستنتهي تقاليد سلالة الـ«نافيا» عنده، وسيذكر التّاريخ أنّه قد فشل في حفظ الأمانة.

لكن ماذا لو كان مايك راسل «ابن النّور» حقًّا؟

لعلّه يكابر معتبرًا مصلحته الشخصيّة، يجعل كلّ شيء يلفّ في محور مركزه ذاته وإرثه وسلطته!

رمش في ارتباك واضح، ثمّ قال حاسمًا أمره:

- سأذهب إليه!

سيكون عليه أن يُصغي إلى حديث الرّجل، يُنحّي الأحكام المسبقة وينظر في الأمر عن كثب. لمح أمارات الارتياح على مُحيَّا الرّجلين وقد نال ردّه رضاهما.

لعلّ عهدًا جديدًا سيبدأ الآن، فتتحوّل موازين القوى وتتحوّر.

***

ترقّب آدم تلك الزّيارة وتوقّعها، لذلك لم تبد عليه الدّهشة حين انفرجت الدّفة عن وجه عمّار. لم يتحدّثا على انفراد منذ زمن، وقد علم أنّ الرّجل لن يفوّت فرصة لإثبات وجهة نظره. حدّق فيه آدم بنظرة تحدّ سافرة، في حين بقي عمّار واقفًا يطالعه من علٍ.

- أنت لا تعرف ما الذي يجري في الجزيرة اليوم.

لم يكن ذلك الإعلان ما توقّعه، ظهر الارتباك في مقلتيه، فتابع عمّار ببرود:

- أنت اضطررتني إلى هذا.. لقد جعلتَ ابنتي تنقلب عليّ! بل أبنائي كلّهم وقفوا في صفّك وتحدّوني، ضاربين عرض الحائط بالأعراف والمقدّسات!

يعرف آدم مقدار غضب عمّار ويتفّهمه، إلا أنّه لا يدري ما الذي قد يُقدم عليه الرّجل اليائس من تهوّر، انتظر أن يُفصح أكثر لكنّ عمّار عاد يقول:

- أنت لا تفهم بعد، لأنّك لم تعش ربع قرن محتجزًا في جزيرة منعزلة عن العالم! نعم، قد يبدو كلّ شيء مثاليًا في السّنة الأولى، وربّما لن تشعر بالسّوء لخمس سنوات كاملة.. لكن بعد عشر سنوات، ستأخذ في تأمل الأفق وتتمنّى امتلاك القدرة على الرّحيل إلى البعيد، ومع كلّ يوم يمرّ ستبدأ الفكرة تستحوذ على تفكيرك حتّى لا يبقى شيء آخر يهمّ إلاها...

تأمّل آدم قسماته المهتاجة وهو يعترف لأوّل مرّة بتوقه إلى عالمه الذي خلّفه طواعية ليعيش غربة متّصلة لا برء منها. ذلك الهوس إذا وصل إلى مرحلة لا تقبل التّراجع أو المساومة، ما الذي يمكن أن يكون قد اقترفه في سبيله؟

- كان عليَّ أن أجد حليفًا آخر غيرك.. حليفًا يشاركني الطموحات ويملك سلطة ما تفوق ما منحتني إيّاه.

هتف آدم غير مصدّق:

- هل تحالفت مع مايك راسل؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي عمّار الذي قال:

- ليس حلفًا بالمعنى التّقليدي، فلنقل إنّني اعتمدت على معرفتي السّابقة بالرّجل وتوقّعت ما يسعى إليه.. لم أفعل شيئًا باستثناء تيسير

مهمّته قليلًا. حين جاء يطلب استخراج معدّاته من المحيط، كنتُ أدرك أنّه لن يسحب البذور وحدها، بل الأسلحة أيضًا.. لكنّني تظاهرت بالجهل وأقنعت الحكماء ألا ضرر من منحه الإذن.

توقّف آدم عن التّنفّس، وتمتم بصوت خفيض مرتجف:

- ما الذي فعله مايك؟

- إنّه يُغيّر معالم الجزيرة، ويهيّئ للمستقبل الذي أريده!

تراجع عمّار خطوتين ثمّ قال:

- سأمنحك ساعة من الحريّة لترى المشهد بعينيك.. فالحقّ أنّه لا يُفوَّت.

ثمّ استدار مبتعدًا تاركًا الباب مشرعًا، يدعو آدم إلى اقتفاء أثره.

***

انحنى مايك راسل إلى جوار الشّجرة التي تظلّل بقعة نومه ومرّر كفّيه في حركة رتيبة فوق جذعها الصّلب، شجرة «سانترا» كما صار يعرف الآن، أشجار مباركة ومميّزة يخصّها السّكان المحليّون بالعناية الرّعاية. إذا ماتت شجرة منها فذلك نذير شؤم لصاحبها الذي يرتبط بها مدى الحياة.. وتلك الشجرة صارت له.

قالت المعلّمة تاليا إنّ صاحبها قد مات. مات كثيرون في الأسابيع الماضية، وقد كانت له يد في ذلك، إلا أنّه لم يعد يهتمّ بالماضي، إنّه رجل جديد كليًّا الآن، رجل نظيف روحه طاهرة، وُلد مباركًا بعدما غسلته الـ«مادرا» وهمس في أذنه الـ«نافيا».

حين كان داخل الكهف على وشك الموت، حسب برهة أنّ روحه قد بلغت البرزخ وفارقت الجسد، وفي لحظاته الفاصلة تلك ظهرت له الرّؤيا

المباركة، وعرف أنّ حياته لم تنته بعد. لقد وهبه الـ«نافيا» قوّته وحكمته وعلّمه أشياء كثيرة أوكله بإيصالها إلى النّاس، لذلك فهو رجل في مهمّة.

إنّه يشعر بالضّعف، تنتشر الآلام بداخله كلّ مساء فتنبض كلّ بوصة من جسده بوجع مختلف، وهو يدرك أيضًا أنّ أيّامه معدودة، إلا أنّه حريص على استغلالها بالطريقة الصّحيحة وتبليغ الرّسالة كاملة. قدره أن يصل إلى تلك الجزيرة ويجتاز اختبار الـ«مادرا»، فيختاره المعلّم الرّوحيّ خليفة له.. وهو لن يتراجع قبل أن يحقّق إرادة المعلّم.

انتصب على قدميه فارتجفت ركبتاه الواهنتان، تلك الآلام هي قَدَرُه أيضًا، وسيتحمّلها كما يتحمّل «المسيح» آلامه. أشار إلى براندن بيده فاقترب، همس له بصوته المبحوح المتعب:

- هل الجميع هنا؟

أومأ براندن موافقًا، فأردف مايك:

- وزّع عليهم العتاد.

تحرّك براندن دون تردّد وارتفع صوته صادحًا بالأوامر، فالتفّ حوله جمع من الرّجال والنّساء الذين استجابوا لدعوة «ابن النّور» وحضروا في الموعد الذي ضربه لهم.. أعداد من البحّارة والمرتزقة والسّكان المحليّين الذين باتوا يتردّدون على المخيّم غالب الوقت لـ«تلقي الحكمة». فتح الصّناديق وأخذ يوزّع البنادق والمديات الحادّة على كلّ من اهتمّ بحمل واحدة. تلك الصّناديق العازلة التي استخرجها المُسخِّرون في وقت سابق من قعر المحيط لم تحو بذورًا وحسب، بل جملة من المعدّات الأساسيّة التي حرص مايك على سلامتها، بما في ذلك السّلاح والذخيرة.

ردَّد براندن وهو يضع الأسلحة بين أيديهم، فيما ترجمت تاليا لمن لا يفهم لغته:

- سندافع عن أنفسنا وحسب، فقوى الظلام ما زالت في الجوار..

في الخلف، انزوى ساندي وهاورد وستيفن وراقبوا من مسافة بحذر دون أن يجرؤ أحدهم على مقاطعة ما يجري أو مساءلته. تغيّرت الأوضاع داخل المخيّم منذ عودة مايك وادّعائه الغريب، وقد بات ثلاثتهم يستشعرون غربة داخل ملجأهم وهم محاصرون بأعداد من الـ«آم» يقتحمون مساحتهم بدعوة من «ابن النّور» الدّعيّ.

اقترب الدّكتور كريس بنظرة ريبة وسأل:

- ما الذي يجري هنا؟

عبس براندن ونهره:

- ابتعد عن الطّريق أيّها الطبيب، لا أريد أن أوذيك!

جاء صوت مايك من ورائه:

- لن تؤذي أحدًا يا براندن.. ولا نملة على الأرض!

طأطأ براندن رأسه ثمّ قال بلهجة احترام:

- لم أقصد شيئًا أيّها الرئيس، نحن جاهزون للانطلاق.

تراجع كريس متجنّبًا نظرات براندن العدائية واكتفى بالمشاهدة بذراعين معقودتين أمام صدره. لا يبدو مايك بخير، لم يبد بخير قطّ منذ مغادرته الكهف، يقترب الرّجل من قبره مع كلّ نفس يأخذه ومع كلّ حركة يأتي بها، يكاد يتوقّع سقوطه في أيّ لحظة. وهو كطبيبه المعالج مُلزم بتنبيهه لتجنّب الإجهاد، لكن لن يفيد حديثه الآن والرّجل يعتقد في مهمّته العظيمة ومنزلته الفريدة!

توكّأ مايك على عصاه الطويلة التي لم يعد يستغني عنها في تنقّلاته لمسافات وجيزة داخل المخيّم، وتقدّم بخطى وئيدة وهو يغرس العصا في الأرض مع كلّ خطوة، أفسح له الرّجال المجال ليتقدّم جمعهم ثمّ مشوا على أثره يذهبون حيث يقودهم. تلفّت مايك مرّات وهو يمسح محيطه بنظرات متفحّصة، ثم يستأنف المسير البطيء ومن خلفه الرّجال صامتون

ومنتبهون لكلّ نأمة. استمرّ سعيهم عبر الغابة السّوداء ومايك يعدّل الاتّجاه كلّ فترة كأنّما يقصد موقعًا بعينه، حتّى برز جمعهم من بين الأشجار الباسقة وأشرفوا على مساحة مفتوحة من الحقول الممتدّة.

أشرقت قسمات مايك وهو يغرس العصا مجدّدًا في الأرض بقوّة زائدة، ثمّ مزّق بأصابع مرتعشة قطعة قماش من قميصه المهترئ ربطها إلى العصا مثل راية ما، وقال معلنًا:

- هنا، سنقيم مستعمرتنا!

مرّت لحظات من السّكون الذاهل، فيما تناقل الرّجال في ما بينهم الكلمات التي بدرت عنه همسًا، بعد ذلك ارتفعت صرخة حرب واحدة، تبعتها صرخات متتالية ترافقها الأذرع ملوّحة بالأسلحة في الهواء.

وسط الصّخب، اقترب براندن من مايك وسأل بحذر:

- لكنّ مجلس الحكماء رفض طلبنا في وقت سابق..

غامت عينا مايك وهو يقول بلهجة صارمة:

- المجلس ليس مهمّا.

- لقد حسبتُ أنّنا.. سنقيم السلام.

- نعم، سنقيم السلام إذا لم يعترضوا سبيلنا.. وسندافع عن حقّنا في الأرض إذا أصرّوا على العناد. الآن، اقطعوا الأشجار على جانب الغابة واصنعوا سورًا واسعًا يحمي المستعمرة.. وغدًا سنبدأ بناء القرية الخاصّة بنا.

قبل أن ينطق براندن، سقطت قطرات المطر الأولى على وجهه. ابتسم مايك وهو يرفع عينيه إلى السّماء يستقبل ماءها الفاتر بترحاب، قال مستبشرًا:

- مطر.. هذا فأل حسن.

زوى براندن ما بين حاجبيه ولم يعلّق، منذ توقّفت العاصفة قبل عشرين يومًا سمع السّكان المحليين يحذّرون من المطر القريب مرارًا وتكرارًا.. كانوا يجمعون المؤن ويرمّمون البيوت ويتجهّزون لموسم الأمطار الذي جاء مبكّرًا هذا العام وسيستمرّ شهورًا بعد، وكلّما تساقط الرّذاذ مساءً تمكّن منهم الجزع خشية أن تكون العاصفة قد عادت.. لذلك لم يكن المطر قطّ فألًا حسنًا منذ غرق السّفن، لكنّه لا يعترض على كلمات «ابن النّور».

انتشر الرّجال على رقعة الأرض التي تحفّها الغابة من جهة والهضاب من جهة ثانية، فيما يقود المسار الذي يهبط التلّة إلى الشاطئ القريب، يُنفِّذون الأوامر بهمّة دون أن يؤرقهم أمر الماء الذي استمرّ ينهمر فوق رؤوسهم بسخاء. هوت الفؤوس المعدنيّة على جذوع الأشجار متجنّبة تلك التي وسمها الكشّافة بعلامات مميّزة، أشجار الـ«سانترا» الخاصّة بمواطنيهم، مهما سرى بينهم من خلاف أو اختلاف فلا مجال إلى تجاوز الحدود الصّارمة.

أطلق مايك بصره إلى البعيد، وراء التلال وعلى مسافة لا بأس بها قبالة الطرف الآخر من الغابة تقع القرية.. الأخرى. حين ينتهي رجاله من تشييد المستعمرة ستكون هناك قريتان على الجزيرة. «قريته» و«قريتهم». هذا الموقع يروق له، المرج منبسط وشاسع، مناسب للزّراعة والاستقرار، ولا شكّ أنّ مجرى الماء قريب. سيتمكّن أتباعه من بدء حياة جديدة وهانئة بعيدًا عن أدران الرّوح وأسقام النّفس، سيحصلون على الغفران والطمأنينة وستباركهم كلمات المعلّم الرّوحي التي أرسلها مع «ابن النّور».

سيسمّيها «تيرا ساغرادا».. «الأرض المقدّسة».

هبّت ريح خفيفة فاضطربت الراية في مهبّها، راية بيضاء دون علامة مميّزة هي كلّ ما يحتاج إليه ليرمز للنّور.. هو ابن النّور، مؤسّس الأرض

المقدّسة. سيخلّد التّاريخ ذكره وسيبقى إرثه حاضرًا حتّى بعد أن يواريه الثّرى.

***

وقف آدم يراقب المشهد من بعيد إلى جواره نايت وروان، ومن ورائهم آخرون جاؤوا لمراقبة ما يحدث على الجانب الآخر من الجزيرة.

ارتفعت الغصّة في حلق آدم، لقد ارتكب الجريمة ذاتها منذ شهور حين أعلن نفسه «مُخلِّصًا» مُسبغًا على ذاته شرعيّة وهميّة تستقي جوهرها من الأساطير القديمة.. والآن يأتي نبيّ جديد، «بار نوهرا»، فيلتفّ حوله النّاس من أجل خلاص آخر.

همست روان في قلق:

- هل سنسمح لهم ببناء السّور؟

زفر آدم بحرقة، لم يكن السّور الخشبيّ هو الإشكال، بل سور الإيمان المشوّه الذي يحيط بالأفئدة. أشار إلى الأسلحة التي تتدلّى على أكتافهم ومن الأحزمة التي يربطونها في خصورهم:

- سنفعل.. ليتجنّب الـ«آم» مذبحة جديدة!

- هل نسكت؟ نرضى؟ نستسلم؟

- إلى أمد...

ذلك الصّباح، أوقفت روان محاولة شقيقتها التسلّل خلسة للانضمام إلى أتباع مايك داخل الغابة، لم ترها روان قطّ أكثر حرصًا على أيّ عمل منها على الخروج في تلك «المهمّة المقدّسة» كما أطلقت عليها، تخبّطت على الأرض وخدشت وجهها حتّى أدمته وضربت الجدران برأسها، ثمّ سيطر عليها مروان بالقوّة، فصرخت وولولت مثل طائر ذبيح.

اقترب نايت خطوة وقال بلهجة ذات معنى:

- أعرف الطريقة المناسبة لإنهاء المهزلة.

يعرف آدم ما يقصده نايت تمامًا، حين يختفي مايك -أو يموت- ستعود الحياة على الجزيرة إلى سالف عهدها. لكنّه يأمل أن يغيب الوغد بطريقة طبيعيّة، لا يودّ أن يمنحه لقب شهيد أو يشيّد أتباعه مقامًا لتقديسه بعد رحيله.

راقب بطرف عينه حركة نايت الذي يهرش باستمرار ذراعيه. منذ الأمس، ظهرت بقع رماديّة على جلده، عاينتها روان وقدّمت إليه العلاج اللازم، إلا أنّ الوضع لا يتحسّن كثيرًا، لا تزال البقع تتمدّد وتلتهم مساحات الجلد وتسبّب التهيّج والحكّة. نايت أيضًا فقد السّيطرة على زوجته التي أصبحت ملازمة لمايك تترجم عنه لأتباعه وتنقل «كلمة النور» على حدّ قولها.

قال آدم بلهجة حازمة:

- لن نفعل شيئًا بعد.. سوف ننتظر اللحظة المواتية.

وهي لا شكّ آتية، لحظة يُكشف فيها الكاذب وتقع الأقنعة أو يظهر جنونه للعيان ويُعرف عنه فقدان عقله. طرف آدم بعينه حين شعر برؤيته تغيم فجأة كأنّ أشباحًا لا مرئية تتسلّل إلى مجال بصره وتتمايل يمينًا وشمالًا، اضطرب تنفّسه وازدرد لعابه ليبتلع التّوتّر الذي يزحف داخل حلقه.

منذ رحلته الأخيرة داخل الأنفاق تراوده هلاوس سمعيّة وبصريّة في أوقات مختلفة من النّهار، وتأتي كوابيس قاتمة لترافق لياليه. تابع بنظراته حركات مايك وهو يرفع ذراعيه مبتهجًا للمطر، ثمّ خطر بباله الـ«نافيا».. سليمان بن إبراهيم. في أيّامه الأخيرة أصيب المعلّم الرّوحيّ بالجنون، الألواح الأخيرة المعلّقة داخل الكهف تكشف فداحة الحال التي تمكّنت من عقله.

سحب نفسًا بطيئًا وأغمض عينيه بقوّة، يطرد الخيالات التي تتراقص أمام عينيه.

الـ«مادرا» لا ترحم.

لقد تمكّنت من عقل مايك.

والتهمت روح أوران.

وسيتوجّب عليه دفع الثمن بدوره، لاقتحامه الأعماق الممنوعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرحلة

اليوم الأوّل بعد الستّين	5
اليوم الثاني بعد الستّين	15
اليوم الثالث بعد السّتين	23
اليوم الرّابع بعد السّتين	31
اليوم الخامس بعد السّتين	47
اليوم السّادس بعد السّتين	63
اليوم السّابع بعد الستّين	79
اليوم الثامن بعد الستين	97
اليوم التّاسع بعد الستين	127
اليوم العاشر بعد السّتين	149
اليوم الحادي عشر بعد الستين	163
اليوم الثاني عشر بعد الستين	175
اليوم الثالث عشر بعد السّتين	201
اليوم الرّابع عشر بعد السّتين	227

اليوم الخامس عشر بعد السّتين	251
اليوم السّادس عشر بعد السّتين	265
اليوم السابع عشر بعد السّتين	273
اليوم الثامن عشر بعد السّتين	281
اليوم التاسع عشر بعد الستين	299
اليوم العشرون بعد الستين	307
اليوم الواحد والعشرون بعد الستين	321
اليوم الثاني والعشرون بعد السّتين	335
اليوم الثالث والعشرون بعد السّتين	349
اليوم الرّابع والعشرون بعد الستين	363
اليوم الخامس والعشرون بعد السّتين	377
اليوم السّادس والعشرون بعد السّتين	387
اليوم السّابع والعشرون بعد السّتين	403
اليوم الثامن والعشرون بعد السّتين	413
اليوم التاسع والعشرون بعد السّتين	425
اليوم التّسعون	433

نار بلا شرار

حجر الشمس

III

قد يكون في نظرهم رومانسيًا ميؤوسًا منه، لكنه يرفض أن يستسلم للعجز. لن يكون مخلصًا لأحد، فقد قبل المهمة من أجلها. لن يتحمل مسؤولية قوم رضي بالانتماء إليهم فقط إكرامًا لها! وما الذي يبقيه على الجزيرة ويحجزه في تلك البقعة من الأرض إن لم يكن معها؟ أي معنى لكل ما أقدم عليه خلال الشهر المنصرم إن كان سيفقدها في نهاية الأمر؟

إن اللحظة التي يعلن فيها استسلامه وتوقفه عن المحاولة ستكون أوان فك ارتباطه بـ"آرا" وسكانها لا محالة. وما الذي سيبقيه مع هؤلاء القوم بعد الآن، إن لم يكن أمله في عودتها؟ سيكون عليه الانطلاق نحو آفاق بعيدة ثانية، فربما تلتقي سبلهما في أرض أخرى وزمن آخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

9 789778 203288

MAKAN PRODUCTIONS

تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف